حائزة
أهم الجوائز العالمية
ومنها جائزة أفضل
رواية نسائية

آن باتشيت

بيل كانتو

Bel Canto

الرهينة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيل كانتو

الرهينة

بيل كانتو

الرهينة

آن باتشيت

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN: 978-9953-88-083-9

Originally Published as: **Bel Canto**

ترجمة: حنان كسروان

مراقبة وتحرير: فؤاد زعيتر

تصميم الغلاف: ريتشي نزال

الإخراج الفني: بسمة تقي

الفصل الأول

انقطع النور فجأة، فقام العازف المصاحِب لها بتقبيلها. لعله كان يعمد إلى الاقتراب منها قبل حلول الظلمة بشكل كامل. لعله كان يرفع يديه. لا بد من أن حركة أو إيماءة ما قد حصلت، لأن جميع مَن في غرفة الجلوس ما زالوا يتذكرون القبلة. لكنهم لم يضبطوه يقبلها، فقد استحال عليهم ذلك. فالعتمة التي حلت عليهم كانت حالكة، أثارت ذهولهم. لم يكن جميع من في المكان على ثقة بحصول القبلة فحسب، بل ادعوا أن في وسعهم تحديد نوعها أيضاً: كانت قبلة قوية ومفعمة بالشغف، وقد فاجأتها تماماً. كان الجميع يشخصون بأبصارهم ناحيتها لحظة انقطاع النور. كانوا جميعاً في حالة وقوف، ويواصلون التصفيق بحرارة وأيديهم مرفوعة، إلى حد أن أحداً منهم لم يشعر بأي تعب على الإطلاق. كان الإيطاليون والفرنسيون يصرخون «برافو برافو»، وقد ابتعد اليابانيون عنهم. أكان ليقبلها بهذه الطريقة، لو أن الغرفة كانت مضاءة؟ هل كانت تشغل باله إلى درجة أنه لحظة حلول الظلمة لم يتمالك نفسه،

واقترب منها وقبلها. هل فكّر بهذه السرعة الشديدة؟ أم هل السبب أن جميع من في الغرفة، من رجال ونساء، يرغبون فيها، وتخيلوا جميعاً حصول ذلك. كانوا مأخوذين إلى حدود الولَه بجمال صوتها، إلى حد أنهم تمنوا لو أن في مقدورهم أن يطبقوا أفواههم على فمها، ويتشربوا غناءها. لعله يمكن الموسيقى أن تُنتقل أو تُبتلع أو تُمتلك. وأيّ معنى حينها لتقبيل الشفتين اللتين يخرج منهما مثل هذا الصوت؟

كان البعض منهم قد وقع في حبها منذ سنين، فجمعوا إصداراتها الغنائية كلها، واحتفظوا بدفتر ملاحظات دونوا عليه جميع الأماكن التي رأوها فيها، وضمّنوه جميع أنواع الموسيقى التي أطربتهم بها على وقع أنغامها، وأسماء العازفين، و«مايسترو» الفرقة الموسيقية. كان يوجد في ذاك المكان تلك الليلة، أشخاص لم يسمعوا باسمها قط، وكانوا ليجيبوا في حال سُئلوا عن الأوبرا، بأنها بالنسبة إليهم أشبه بمواء مزعج لمجموعة هررة، ولفضّلوا تمضية الساعات الثلاث بالجلوس على كرسي طبيب الأسنان. هؤلاء تحديداً هم الذين باتوا ينحبون على الملأ الآن. فسرعان ما أيقنوا أنهم كانوا مخطئين ومخطئين. . . ما إن سمعوا صوتها.

إن أحداً لم يخشَ العتمة، فبالكاد لاحظوها وواصلوا التصفيق. افترض الأشخاص الوافدون من بلدان مختلفة، أن مثل هذه الأمور، كثيرة الحدوث هنا. طبيعي أن يحصل أن ينفصل التيار الكهربائي ثم يوصل، ويظل هكذا يتلاعب بأعصاب

الساهرين طوال الوقت. وقد أدرك الأشخاص من الدولة المضيفة صحة ذلك. بدا كأن توقيت الانقطاع الكهربائي كان مفاجئاً وصائباً. كأن النور أنبأ الحاضرين أنهم ليسوا في حاجة إلى الرؤية البتة، وليكتفوا بالإصغاء. لكن، ما لم يخطر في بال الجميع، هو سبب انطفاء الشموع الموجودة فوق جميع الطاولات أيضاً، ربما في اللحظة نفسها، أو في اللحظة التي سبقتها. فعبقت في الغرفة رائحة الشموع الزكية التي انطفأت لتوها، فتصاعد منها دخان عذب ولطيف. لقد دلّت الرائحة على أن الوقت قد تأخر، وآن الأوان للخلود للنوم.

واصلوا التصفيق، وافترضوا أنها واصلت قبلتها.

كانت روكسان كوكس، المغنية صاحبة الصوت الشجي، السببَ الوحيد الذي دفع بالسيد هوسوكاوا إلى المجيء إلى هذا البلد. وقد كان السيد هوسوكاوا نفسه، السببَ الذي دفع بالجميع إلى حضور تلك الحفلة. لم يكن بالمكان الذي قد يود أي أحد زيارته. إن سبب قيام الدولة المضيفة، التي تعتبر دولة فقيرة، بتنظيم حفلة عيد ميلاد بتكاليف باهظة لرجل أجنبي، لم يكن حضوره إلا نتيجة إغرائهم له بالحضور، يعود إلى أن هذا الغريب هو مؤسس أكبر شركة الكترونيات في اليابان (شركة نانساي)، ورئيس مجلس إدارتها. وقد تمنت الدولة المضيفة كسبَ رضاه كي يمد إليها يد المساعدة. كانت بحاجة إلى أي أنواع المساعدة. ويمكن هذه المساعدة أن تتم، إما عبر التدريب وإما عبر التجارة. من الممكن بناء مصنع هنا (وقد كان هذا حلماً عزيزاً جداً، إلى درجة أنه بالكاد يمكن لفظ الكلمة)،

حيث تنسحب المنفعة على الجميع نتيجة رخص اليد العاملة. في وسع الصناعة أن تنأى بالاقتصاد عن زراعة الكوكا والخشخاش المقيتة، ويمكنها أن تساعد على إعطاء انطباع بأن البلد يبتعد عن توفير المواد الأولية للكوكايين والهيروين، من أجل تعزيز المساعدات الأجنبية، وصرف الأنظار بعض الشيء عن الإتجار بهذه المواد المخدرة بالذات. لكن هذه الخطة لم تدخل حيز التنفيذ من قبل. إن اليابانيين يميلون بطباعهم دوماً إلى اتخاذ الحيطة والحذر. إنهم يوقنون خطورة الشائعات التي تدور حول الخطر الذي تمثله مثل هذه البلدان. لذا، أن يأتي السيد هوسوكاوا بنفسه، وهو ليس نائب رئيس تنفيذي، ولا يشغل منصباً سياسياً، ويجلس إلى الطاولة، هو خير دليل على مد يد العون. ربما يجدر التوسل إلى اليد والتذلل إليها. وربما يجدر سحبها من الجيب العميق الذي تقبع فيه. لكن هذه الزيارة، التي أُقيم على شرفها عشاء مهيب احتفاءً بعيد مولده، وزيّنته نجمة أوبرا بحضورها، والتحضير لعدة لقاءات ورحلات إلى مواقع محتملة لمصانع في الغد، كلها أمور تُعتبر أقرب ما توصلوا إليه في حياتهم لتحقيق هدفهم، وقد سادت هواءَ الغرفة نفحاتٌ من الأمل. حضر الحفلة ممثلون من أكثر من اثنتي عشرة دولة وشركة، كان قد تم تضليلهم بما يخص طبيعة نيات السيد هوسوكاوا. بدا لافتاً أن المستثمرين والسفراء الذين لا يقدمون على تشجيع بلدانهم على إنفاق درهم واحد في هذا البلد المضيف، ها هم يقدمون على دعم جميع مساعي نانساي، وها هم يجوبون قاعة الاحتفال الآن ببذلات رسمية وربطات عنق، ويتبادلون الأنخاب ويتسامرون.

أما السيد هوسوكاوا، فلمْ تكن رحلته بهدف العمل أو الدبلوماسية، أو عقد صداقة مع الرئيس، كما سيُشاع لاحقاً. كان هوسوكاوا يمقت السفر، ولا يعرف الرئيس. وقد أوضح جيداً ما نوى عمله، وما لم ينوِ القيام به. لم يكن يريد بناء مصنع. ما كان أبداً ليوافق على القيام بزيارة إلى بلد غريب للاحتفال بعيد مولده مع أناس لا يعرفهم. ولم يكن يميل أيضاً إلى الاحتفال بعيد مولده إلى جانب أشخاص يعرفهم، وقطعاً عندما يكون عيد مولده الثالث والخمسين، الذي اعتبره رقماً لا دلالة له على الإطلاق. كان قد سبق له ورفض ست دعوات ملحّة من هؤلاء الأشخاص إلى حضور هذه الحفلة بالتحديد، إلى أن وعدوه بأن الهدية ستكون حضور روكسان كوكس.

إن كانت هي الهدية، فمن عساه يتوانى عن الحضور؟ مهما يكن المكان بعيداً، ومهما يكن الجو غير مناسب، ومثيراً لتوقعات غير واردة الحدوث، فمن عساه يرفض؟

لكن، لنتذكر أولاً حفلة عيد مولد أخرى؛ عيد مولده الحادي عشر، وهو اليوم الذي سمع فيه كاتسومي هوسوكاوا الأوبرا لأول مرة: ريغوليتو لفيردي. كان والده قد اصطحبه يومها إلى طوكيو بواسطة القطار، وترافقا معاً سيراً على الأقدام إلى دار الأوبرا تحت المطر الذي كان ينهمر بغزارة. كان ذلك في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر. كان مطر الخريف بارداً، والأرض مغطاة بطبقة رقيقة من أوراق الشجر الخريفية الحمراء والصفراء الرطبة. وعندما وصلا إلى قاعة طوكيو للاحتفالات، كانت القميصان الداخليتان اللتان كانا

يرتديانهما تحت الكنزتين الصوفيتين والمعطفين، قد تبللتا. وقد أصاب البلل أيضاً البطاقتين الموجودتين في محفظة والد كاتسومي هوسوكاوا، وبهت لونهما. لم يحظيا بمقعدين بإطلالة مميزة، لكن لم يكن أمامهما ما يعيق النظر. كان المال عزيزاً جداً، في العام ١٩٤٥، وكان الحصول على بطاقات القطار والأوبرا شيئاً بعيداً عن الخيال حتى. في زمن مختلف، كانت الأوبرا لتبدو أمراً غاية في الترف بالنسبة إلى فتى مثله، لكن كان ذلك بعد بضع سنين من الحرب، وقد بدا حينها أن الأطفال قابلون على تعلم مجموعة كبيرة من الأمور التي قد تبدو مستحيلة على أطفال اليوم. صعدا على الدرج الطويل المؤدي إلى مقعديهما. كانا متنبهين كثيراً إلى وجوب عدم النظر إلى الأسفل الذي يثير الدوار. انحنيا واعتذرا لكل من مرا بمحاذاته ليسمح لهما بالوصول إلى مقعديهما، ثم فتحا المقعدين وجلسا. لقد أبكرا في الحضور، لكن هناك أشخاصاً آخرين حضروا في وقت أبكر منهما. يستحق الأمر أكثر من ذلك. فبعد دفع ثمن البطاقة الغالي كان يحق لهما إتراف نفسيهما بالجلوس بهدوء في هذا المكان الجميل والانتظار. انتظر الأب والابن صامتين من دون كلام، إلى أن غشي الظلام أخيراً المكان، وسُمع أول نَفَس موسيقي من مكان بعيد أسفلهما. ظهر من خلف الستار شخصان، غاية في الصغر، أشبه بالحشرات حجماً، وفتحا فميهما، فملآ أرجاء المكان بصوتيهما المفعمين بمشاعرهما وحزنهما وحبهما غير المحدود والمتهور، الذي قد يودي بكل منهما إلى الهلاك.

ظلت حفلات الأوبرا تلازمه، ولا تبرح خياله. فبعد حضور كاتسومي هوسوكاوا عرض ريغوليتو، حَفرت الأوبرا نفسَها داخله، وباتت رسالة مكتوبة في جفنيه الورديين يقرأها لنفسه كلما خلد إلى النوم. وبعد عدة سنين، عندما كبر وامتلأت حياته بالعمل، وبات يكدّ في العمل أكثر من أي شخص آخر في بلد تحث قيمه على العمل بجهد، آمن بأن الحياة، الحياة الحقيقية، عبارة عن شيء مخزّن في الموسيقى. الحياة الحقيقية محفوظة بين طيات أسطر يوجين أونيجين لتشايكوفسكي، عند انطلاق المرء إلى العالم وتحقيق المتطلبات المفروضة عليه. كان يعلم بأن الأوبرا ليست للجميع (لكن، لم يفهم جيداً سبب ذلك)، لكنه أمِل أن يكون لدى كل امرئ ما يستهويه. كانت الأسطوانات التي يعشقها، والفرص النادرة لحضور حفل مباشر، بمثابة المعايير التي يقيس بواسطتها قدرته على الحب، وليس زوجته، أو بناته، أو عمله. لم يفكر أبداً في كونه استعاض بطريقة ما بالأوبرا عما وجب أن يملأ حياته اليومية. وأدرك، عوضاً عن ذلك، أنه من دون الأوبرا، كان هذا الجزء من نفسه ليختفي من أصله. غنى ريغوليتو وجيلدا معاً، في بداية المشهد الثاني، وتشابك صوتاهما وارتفعت وتيرتهما، فمد يده ناحية والده وتمسك بقوة به. لم تكن لديه أدنى فكرة عما يقولانه، ولم يعرف أنهما كانا يلعبان دوري الأب والابنة. جل ما أدركه أنه بحاجة إلى التمسك بشيء ما. فقد أحدثا تأثيراً قوياً فيه، إلى حد أنه شعر كأنه سيهوي إلى الأمام ويسقط مغشياً عليه عن مقعده العالي والبعيد.

يولّد مثل هذا الحب الوفاء، وقد كان السيد هوسوكاوا

يتحلى بالوفاء. لم تغب عن باله قطُّ أهمية فيردي في حياته. لقد بات مرتبطاً بمغنين محددين، كحال الجميع، فعمد إلى جمع أسطوانات مميزة لشوارزكوف وساثيرلاند. وكان يؤمن بعبقرية كالاس. كان يعشقه أكثر من الجميع في أيامه. لم يكن لديه الكثير من أوقات الفراغ؛ ليس المدة الكافية التي يستحقها مثل هذا الاهتمام. وقد درجت العادة أن يقوم بعد تناول العشاء مع الزبائن وإتمام أعماله المكتبية، بتمضية ثلاثين دقيقة يستمع في خلالها إلى الموسيقى، ويسترسل في قراءة كلمات الأوبرا قبل أن يخلد إلى النوم. كان من النادر جداً، ربما فقط خمسة أيام آحاد في جميع أيام السنة، أن يجد ثلاث ساعات متواصلة للاستماع إلى معزوفة أوبرا من بدايتها حتى نهايتها. لا يزال يتذكر، عندما كان في الأربعينات من عمره، كيف تناول طبق محار فاسد، فأصيب بتسمم، واضطر رغماً عنه إلى المكوث في المنزل ثلاثة أيام، أمضاها بشغف برغم حالات التقيؤ التي لازمته كظله. كانت أقصر من برهة. لا يزال يتذكر تلك الأيام بسعادة غامرة كأنها عطلة استجمّ فيها، لأنه ظل يستمع إلى ألسينا لهاندل بشكل متواصل، حتى عند نومه.

كانت ابنته البكر كيومي، هي التي اشترت له أول تسجيل لروكسان كوس بمناسبة عيد مولده. كان والدها متأنفاً إلى حدود الهوس في ما يخص الهدايا، وكانت ابنته أكثر من يعرف ذلك، لذا عندما وقع نظرها على القرص المدمج الموسيقي، ووجدت أنها لا تعرف اسم المغنية، خطر لها أن تجرب حظها. لكن ما لفت انتباهها، ليس الاسم المجهول، بل وجه المرأة. كانت كيومي تجد وجوه مغنيات الأوبرا مثيرة للإزعاج. إذ لطالما

تجدهن يشخصن بأبصارهن من فوق المعجبين، أو يحدقن من خلف خمار شفاف. أما روكسان كوس فوجدتها تنظر مباشرة إليها، حتى أن ذقنها كانت مستقيمة، وحدقتيها متسعتان. مدت كيومي يدها وأخذت القرص قبل أن تدرك حتى أنه يحوي تسجيلاً للوسيدا دي لامرمور. كم بات والدها يمتلك من تسجيلات للوسيدا دي لامرمور؟ لم تبالِ للأمر، وتوجهت نحو الفتاة المسؤولة عن المتجر، وأعطتها المال.

وضع السيد هوسوكاوا القرص المدمج داخل محرك الأقراص. بدا شديد الحماسة له، إلى حدّ أنه جلس في كرسيه للاستماع إليه، ولم يعد تلك الليلة إلى عمله. شعر كأنه عاد من جديد ذاك الفتى الحاكم الجالس على المقاعد العالية في طوكيو، وراحة يد والده الكبيرة والدافئة تحيط براحة يده. أعاد سماع التسجيل مراراً وتكراراً متناسياً كل شيء، ما عدا صوتها الذي كان قوياً ودافئاً ومحيّراً لرقته، ولعدم تهيبه. كيف يمكن هذا الصوت أن يكون متهوراً ومضبوطاً في آن معاً؟ نادى على ابنته كيومي، فأتت ووقفت في باب مكتبه. بدت كأنها تقول شيئاً: «نعم؟ أو، ماذا؟ أو، سيدي؟». لكن، قبل أن تتمكن من نطق الكلام، سمعت ذاك الصوت، تلك المرأة التي رأتها تنظر بتحدٍّ في الصورة. أشار والدها بيد مفتوحة إلى أحد مكبري الصوت، من دون النطق بكلمة واحدة حتى. فشعرت بسرور بالغ كونها أقدمت على فعل صائب إلى هذه الدرجة. لقد أثنت عليها الموسيقى. أغمض السيد هوسوكاوا عينيه، واستغرق في الأحلام.

حضر طوال السنين الخمس التي تلت ذلك، ١٨ عرضاً

لروكسان كوس. شاهد العرض الأول بمحض الصدفة، أما العروض الأخرى فقد توجه إلى حضورها في المدن التي غنت فيها، مختلقاً أعمالاً وأعذاراً شتى للذهاب إلى هناك. شاهد عرض لا سونامبولا ثلاث ليال متتالية. لم يعمد بتاتاً إلى السعي وراءها، أو إبراز نفسه كمن هو أكثر من مجرد مشاهد عادي. لم يفترض أن تقديره موهبتها يفوق تقدير من هم سواه. كان يميل إلى الاعتقاد أن الغبي وحده لا يشعر ناحيته بمثل ما يشعر هو به. لم يكن المرء ليريد أكثر من أن يحظى بشرف الجلوس والاستماع إليها.

من يقرأ سيرة كاتسومي هوسوكاوا الذاتية في أي مجلة تجارية، يجده لا يتكلم بشغف. كان يَعتبر الشغف مسألة خاصة، لكن الأوبرا كانت دائماً حاضرة في وجدانه وعقله وتصرفاته. باتت جزءاً منه، وأضحت تمثل زاوية الاهتمام الإنساني التي تجعله أكثر قابلية على الفَهم. ثمة مدراء تنفيذيون آخرون يظهرون وهم يصطادون في الأنهر الاسكتلندية، أو يقودون طائراتهم الخاصة ناحية هلسنكي. أما السيد هوسوكاوا فقد تم تصويره وهو جالس في منزله على الكرسي المصنوع من الجلد، يستمع إلى الموسيقى التي تصدح عن جهاز صوتي من طراز أكس ١٢، صنع نانساي. ثمة أسئلة لا مفرَّ منها حول ما يفضله المرء. وثمة جواب محتوم أيضاً.

إن السعر الذي دُفع لروكسان كوس ويفوق جميع تكاليف بقية تحضيرات الحفلة (طعام، خدمة، نقل، أزهار، أمن)، حثها على المجيء إلى هذه الحفلة. كانت هذه الحفلة تتزامن مع نهاية

موسمها في لا سكالا وبداية ظهورها على مسرح كولون في الأرجنتين. لن تحضر العشاء (فهي لا تأكل قبل الغناء). بدا أنها قررت منذ البداية، أنها ستصل في نهاية العشاء لتؤدي ست أغاني أوبرا برفقة عازفها المصاحِب لها. قيل للسيد هوسوكاوا من خلال رسالة بُعثت إليه، إن بوسعه أن يطلب أغنية في حال وافق على الدعوة، لكن لا يمكن المستضيفين إعطاؤه أي وعود حاسمة، وسيُنقل طلبه إلى الآنسة كوس لتفكر فيه، وليس أكثر. عندما انطفأت الأضواء، كانت الآنسة كوس قد أنهت لتوها أغنية من روسالكا، وهي الخيار الذي انتقاه السيد هوسوكاوا. من المفترض أن تكون هذه الأغنية خاتمة البرنامج، لكن من يدري إذا كانت ستغني أغنية أخرى، أو ربما اثنتين لو ظل النور مضاءً؟

اختار السيد هوسوكاوا أغنية روسالكا احتراماً للآنسة كوس. كانت الأغنية الأساسية في مجموعة أعمالها الموسيقية، لذا لن تتطلب تحضيراً من قِبلها. إنها قطعة موسيقية كانت بالتأكيد لتُضاف إلى البرنامج، حتى لو أنه لم يطلبها بنفسه. لم يعمد إلى اختيار معزوفة غامضة ومتعبة، ولم يطلب سماع قطعة من بارتنوب على سبيل المثال، كي يُظهر نفسه على قدر من الإلمام في عالم الموسيقى. أراد فحسب أن يسمعها تغني الروسالكا، وكان يكفيه أن يسمعها تغنيها وهو واقف بالقرب منها في الصالة. «إن قُدِّر أن حلم بي إنسان، آمل أن أظل في باله عندما يصحو». كان مترجمه قد ترجم له هذه الجملة من اللغة التشيكية منذ سنين.

ظلت العتمة تسود المكان، ثم بدأت حدة التصفيق تخفت، وبات الحضور يتحرق شوقاً إلى رؤيتها من جديد. مرت دقيقة ثم دقيقتان، وما لبث الحضور في راحة من أمرهم. ثم لاحظ تيبولت، السفير الفرنسي الذي وُعد قبل مجيئه إلى هذا البلد بمنصب أفضل كسفير إلى إسبانيا (الذي مُنح من دون وجه حق لرجل آخر غيره كرشوة مقابل خدمة سياسية كبيرة في الوقت الذي كان تيبولت وأفراد عائلته يحزمون أمتعتهم)، أن النور الذي تراءى له من خلال شق باب المطبخ، لا يزال مضاءً. كان أول من فهم. لقد شعر كأنه أفاق مذهولاً من نوم عميق بعد أن أسكرته الخمرة وشرحات لحم الخنزير وألحان دفوراك. مد يده وسط حلكة الظلام ناحية يد زوجته التي لا تزال تصفق، وجذبها ناحية الحشود: أجسام معتمة لم يقو على رؤيتها، لكنه دخل وسطها. توجه ناحية الباب الزجاجي الذي تذكر أنه يقع في آخر الغرفة، وعنقه مشرئب في محاولة للاستدلال على طريقه، فرأى شعاعاً صغيراً صادراً عن مصباح كهربائي، ثم رأى شعاعاً آخر، فشعر كأن قلبه يغور عميقاً في صدره، وهو شعور لا يمكن وصفه إلا بالحزن.

همست له زوجته: «سيمون؟».

ومن دون أن يرى شيئاً، كانت الشبكة قد حيكت ونُشرت حول المنزل، فخطر له كاندفاع أولي، وكاندفاع طبيعي، أن يمضي قدماً في أي حال من الأحوال، ليرى إن كان سيتغلب على الأخطار، إلا أن المنطق ردعه عن ذلك. وحجة المنطق

التي لا تُردّ، أنه من الأفضل عدم لفت النظر. حري بالمرء في هذه الحالة ألا يكون مثالاً يحتذي بك الآخرون. في مكان ما في مقدمة الغرفة، كان العازف يقبّل مغنية الأوبرا. وفي مقعد وثير قبالتهما كان السفير تيبولت بجذب زوجته إديث ويحتضنها بين ذراعيه.

نادت روكسان كوس بأعلى صوتها: «سوف أغني وسط العتمة، إن جلب لي أحدكم شمعة».

كانت هذه الكلمات كافية وحدها لتجمد الحركة في الغرفة، وتتحول لحظة التصفيق الأخيرة إلى صمت مطبق. وازداد جلال الصمت قدسية، عندما انطفأت الشموع. كان ذلك إشهاراً بنهاية الأمسية. كان الحراس الشخصيون غافين في سيارات الليموزين مثل الكلاب الكبيرة المتخمة، التي تم الإفراط في إطعامها. وعلى امتداد الغرفة، دس الرجال أيديهم داخل الجيوب، ولم يجدوا سوى مناديل مطوية بترتيب وأوراق مالية مبعثرة. ارتفعت بعض الأصوات، وسُمعت أصداء جر الأقدام... ثم بسحر ساحر عاد النور من جديد.

كانت حفلة جميلة على الرغم من أن أحداً لن يتذكر ذلك: هليون بالصلصة الغنية بالزبدة؛ طبق من سمك التُّربوت مع البصل الحلو المقرمش؛ شرحات صغيرة من اللحم بحيث تحوي كل قطعة ثلاث قضمات أو أربعاً، نصف مغمسة بصلصة التوت البري. في العادة، تُقدِم البلدان المكافِحة التي تتوق إلى لفت انتباه رؤساء الشركات الأجنبية المهمة، على اختيار الكافيار

الروسي والشامبانيا الفرنسية. الروسي والفرنسية، الروسي والفرنسية. . . كأنها الطريقة الوحيدة لتبيان الترف. وُضعت على كل طاولة، باقة من زهور السحلبية الصفراء، كل زهرة فيها تماثل في حجمها ظفر إبهام اليد، وقد زُرعت محلياً. ظلت هذه الزهور تتمايل ذات اليمين وذات اليسار مع كل زفرة يطلقها الضيف. إن الجهد الذي بُذل لإتمام هذه الأمسية، في ترتيب لكل زهرة، والخط الجميل الذي ازدانت به بطاقات التعريف في أماكن الجلوس، ضاعا هباءً من دون أي تقدير. لقد تمت استعارة لوحات من المتحف الوطني: لوحة للعذراء بعينين داكنتين حاملة مسيحاً صغيراً على أطراف أصابعها، له وجهُ بالغ وفَطِنٍ، تم تعليقها فوق المدفأة. أما الحديقة، التي لم يرها الضيوف سوى للحظة وهم يقطعون المسافة القصيرة من سياراتهم ناحية الباب الرئيسي، وكان في مقدورهم أن يتمعنوا فيها أكثر لو حدث ونظروا من خلال النافذة عندما تكون الغرفة مضاءة، فقد كانت مرتبة وساكنة: عصافير الجنة وعشب القنا المزهر الملتف، وصفوف من النباتات الصوفية الأوراق، ونبات الخنشار الزمردي اللون. لم يكن المكان قصياً عن الغابة. وحتى وسط هذه الحديقة التي تتلقى عناية وتشذيباً مستمرين، بدا أن الزهور تمتد لتنبسط على العشب الأخضر. ظل الشبان منذ ساعات الصباح الأولى يعملون على إزالة الغبار عن الأوراق الجلدية الشكل، بقطعة قماش رطبة، ويلتقطون براعم البوغنفيلية المعترِشة التي سقطت وتعفنت تحت الشجيرات. وقبل ثلاثة أيام، دهنوا بطلاء أبيض الحائط المزخرف بالجص الذي يحيط

بمنزل نائب الرئيس، ولم ينسوا أن يظلوا دائمي الحذر، كما لو أن الطير على رؤوسهم، كي لا تسقط أي قطرة من الدهان على العشب. لقد أولوا عناية شديدة بجميع التفاصيل: مملحات من الكريستال، موسية الليمون، بوربون أميركي. لم يكن ثمة رقص ولا فرقة موسيقية. والموسيقى الوحيدة التي سيستمعون إليها ستكون بعد العشاء، عندما تغني روكسان كوس على أنغام عازفها، رجل في الثلاثينات من عمره، سويدي أو نرويجي، يتمتع بشعر أشقر وأنامل نقرية جميلة.

قبل ساعتين من بداية حفلة عيد مولد السيد هوسوكاوا، أرسل الرئيس ماسودا، المواطن المحلي الذي وُلد من والدين يابانيين، رسالةَ اعتذار. طرأت عليه مسائل مهمة تفوق قدرته على التحكم فيها، ومنعته من حضور حفلة هذا المساء.

صدر كثير من الترجيحات بشأن قراره هذا، بعد أن ساءت الأمسية، وخرجت عن المألوف. هل كان ذلك من حسن حظ الرئيس؟ هل كان مشيئة إلهية؟ أم معلومات سرية، أم مؤامرة، أم خطة؟ لسوء الحظ، لم يكن السبب أياً من هذه الذرائع. لقد تم الترتيب لبدء الحفلة عند الساعة الثامنة، وانتهائها بعد منتصف الليل. وعند الساعة التاسعة، يبدأ المسلسل الذي يتابعه الرئيس. كان من الشائع وسط أعضاء مجلس الرئيس الاستشاري وناصحيه، أن شؤون الدولة لا يمكن بحثها من نهار الاثنين حتى الجمعة، مهما حدث، في خلال ساعة واحدة بدءاً من الساعة الثانية عصراً، أو مساء الثلاثاء لمدة ساعة بدءاً من الساعة التاسعة. وقد وقع عيد مولد السيد هوسوكاوا يوم الثلاثاء

هذه السنة. لذا، ليس ثمة ما يمكن فعله في هذا الصدد. ولا يمكن أحداً أن يتصور حفلة تبدأ الساعة العاشرة ليلاً أو تنتهي الساعة الثامنة والنصف، ما يسمح للرئيس بالعودة إلى منزله. لقد تم الاقتراح أن يتم تسجيل الحلقة، لكن الرئيس كان يمقت التسجيل. كان لديه ما يكفيه من التسجيلات ليتحملها عندما يكون خارج البلاد. إن جل ما يطلبه أن يحظى بوقت فراغ في ساعات معينة من الأسبوع. لقد دام الجدال حول التوقيت غير الملائم لعيد مولد السيد هوسوكاوا لأيام. وبعد كثير من المفاوضات، لان الرئيس، وقال إنه سيحضر الحفلة. لكنه غيّر رأيه على نحو حاسم وقاطع قبيل ساعات من بدء الحفلة، لسبب غير معلن لم يشأ أحد الإفصاح عنه.

كان التزام الرئيس ماسودا بمتابعة برامجه أمراً معروفاً وشائعاً ضمن دائرته السياسية المقربة، إلا أن هذا الالتزام ظل بطريقة ما خفياً على الصحافة والناس. كانت الدولة المضيفة مولعة بالمسلسلات، ونظراً إلى أن إخلاص الرئيس الشديد لجهاز تلفازه يسبب له الكثير من الإحراجات، كان مجلسه الاستشاري ليرحب بشدة باستبدال هذا التلفاز بعشيقة طائشة. حتى أعضاء حكومته الذين يُعرف عنهم أنهم يتابعون برامج معينة، لم يطيقوا رؤية هذا الهوس الشديد الذي أصاب رئيس دولتهم. لقد شكّل غياب الرئيس بالنسبة إلى الأشخاص الموجودين في الحفلة من الذين عملوا معه، خيبة أمل، لكنها لم تكن مفاجأة حقيقية. وتساءل الباقون جميعاً: هل حصل أي طارئ؟ هل يشعر الرئيس ماسودا بتوعك؟

قيل لهم بسرية: «شغلته بعض الشؤون في إسرائيل».

فتهامسوا: «إسرائيل؟». بدا أنهم تفاجأوا بهذا الخبر. لم يتخيلوا أبداً أنه يمكن استشارة الرئيس ماسودا في مسائل تتعلق بإسرائيل.

كان ثمة انقسام واضح بين الضيوف الذين بلغ عددهم المئتين تلك الليلة: الذين كانوا على علم بمكان الرئيس؛ والذين كانوا يجهلون مكانه. وظلت الأمور على هذه الحال إلى أن نسي الطرفان أمره كلياً. أما السيد هوسوكاوا، فبالكاد لاحظ غيابه. لم يكن يكترث جداً بلقاء الرئيس. فما عسى الرئيس يمثل في ليلة يلتقي فيها المرء بروكسان كوس؟

تقدم في ظل غياب الرئيس، نائبه روبن إيغليسياس لاستضافة المدعوين. لم يكن تَصَوُّر ذلك بالأمر الصعب. فالعشاء يقام في منزله. منذ تقديم المشروبات، وبعدها المقبلات، ثم العشاء، ثم وصلة الغناء العذب، لم يفارق الرئيس تفكيره قط. كم كان يسهل عليه تصور زميله الرئيس، كما سبق لإيغليسياس أن رآه مئات المرات من قبل، يجلس في العتمة على حافة سريره في الغرفة الرئيسية في القصر الرئاسي، وسترته مطوية على ذراع كرسي، وقد أطبق يديه على بعضهما البعض ودسهما بين ركبتيه، وعيناه لا تفارقان تلفازاً صغيراً موضوعاً على المِزينة، في حين تشاهد زوجته البرنامج نفسه على شاشة عملاقة في غرفة الجلوس في الأسفل. وتنعكس على زجاجتي نظارته صورة فتاة موثوقة إلى كرسي، فتلت معصميها رواحاً وجيئة، ومراراً وتكراراً، إلى أن حُلَّ إحكام الرباط، وأفلتت يد واحدة. لقد

باتت ماريا حرة! رجع الجنرال ماسودا بظهره إلى الوراء وصفق بكل صمت. هل كان يعقل أن يفوّت عليه مثل هذه الحلقة بعد انتظار لأسابيع؟ جالت الفتاة بنظرها بشكل سريع في أرجاء غرفة المخزن، ثم انحنت إلى الأمام لتفك الحبل الذي يقيد رجليها.

اختفت في غضون ثانية، صورة ماريا من ذهن روبن إيغليسياس، ثم رفع رأسه في اتجاه النور الذي عاد فجأة إلى الغرفة. ولحظة بدأ يعتقد أن مصباحاً على طاولة جانبية قد احترق، هجم بعض الرجال إلى الحفلة من كل حدب وصوب. وفي كل اتجاه وقع عليه نظر نائب الرئيس، وجد الناس يصرخون ويتدافعون. سمعوا وقع الأحذية الثقيل وأكعاب البنادق تتابع أصداؤها من فوق فتحات التهوئة، ثم دخل الرجال عبر الأبواب. كان الناس قد تجمعوا إلى جانب بعضهم البعض، ثم تفرقوا بالسرعة نفسها وسط حالة من الرعب الشديد. بدا المنزل كأنه يموج مثل قارب عالق وسط أمواج عاتية، وانقلب على جنبه. بدأت الأواني الفضية تتطاير في الهواء، وأطراف الشوك المستدقة تصطك على شفرات السكاكين، والزهريات تُضرب بعرض الحائط. كان الناس ينزلقون ويسقطون ويتراكضون، لكن كل ذلك لوهلة فقط، إلى أن عادت أعينهم وتكيفت مع الضوء، ورأوا مدى عدم جدوى مساعيهم.

كانت تسهل رؤية الأشخاص المسؤولين: الرجال الأكبر سناً الذين يصرخون مطلقين الأوامر. لم يعرّفوا عن أنفسهم، لذا ظل الناس لفترة من الوقت يفكرون فيهم، ليس بحكم أسمائهم، أو هوياتهم، بل بواسطة علاماتهم الفارقة: بينجامين: القوباء

المنطقية الحادة؛ ألفريدو: الشارب، الإصبعان الأولى والثانية مفقودتان في يده اليسرى؛ هكتور: نظارة ذهبية، إحدى ذراعيه مبتورة. أتى مع الجنرالات ١٥ جندياً تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والعشرين عاماً. بات يتواجد ١٨ شخصاً إضافياً في المحفلة. لم يقوَ أحد على إحصائهم في ذاك الوقت. كانوا يسرعون في التحرك والانتشار. وقد تضاعف عددهم مرتين ثم ثلاث مرات، وهم يجولون في أرجاء الغرفة، ويظهرون من خلف الستائر، وينزلون من الطابق العلوي، ويختفون إلى المطبخ. كان يستحيل عدهم نظراً إلى التشابه الشديد بينهم، ولأنهم كانوا موجودين في كل مكان، فبدا الأمر أشبه بإحصاء المرء أعداداً من النحل تحوم حول رأسه. كانوا يرتدون ملابس بالية بألوان داكنة. يرتدي الكثير منهم ملابس زيتية اللون بلون البحيرات الضحلة الوسخة، وقلة منهم ترتدي الجينز أو ملابس سوداء اللون. فوق ملابسهم طبقة ثانية من الأسلحة، وأحزمة من الرصاص، وسكاكين مميزة في جيوبهم الخلفية، وجميع أنواع المسدسات: مسدسات صغيرة مثبتة على الأفخاذ، أو مثبتة على الأحزمة، ومسدسات كبيرة يحملونها بين أيديهم كالرَّضع، ويلوحون بها كالعصي. كانوا يعتمرون قبعات وقد أرخوها إلى الأمام، لكن لم يكن أحد يُعنى بالنظر إلى عيونهم. كانت الأنظار مشدوهة بمكان واحد: أسلحتهم وسكاكينهم الحادة. يوجد شخص بينهم اعتبره الضيوف بشكل لاواع ثلاثة أشخاص، نظراً إلى كونه يحمل ثلاثة مسدسات. كانت تجمع بين الرجال أوجهُ شبه أخرى: إنهم يتسمون بالنحافة، إما بسبب نقص في التغذية، وإما لمجرد نموهم، وقد نتأت أكتافهم وركبهم، وبرزت

عبر ملابسهم. وكانوا وسخين، بشكل ملحوظ، حتى وسط ارتباك الضيوف في تلك الوهلة، إلا أنهم لاحظوا أنهم ملطخون بالقذارة، ومضطربو الشكل. كانت أذرعتهم ووجوههم وأكفّهم ملوثة بالقذارة، كأنهم وصلوا إلى الحفلة إثر حفرهم نفقاً في أرض الحديقة.

ما كان هذا الدخول ليأخذ أكثر من دقيقة. وبرغم ذلك، بدا كأنه طال مدة أطول من فقرات العشاء الأربع. تسنى لكل ضيف الوقت ليفكر في خطة، ويراجعها جيداً، ومن ثم يتنكّر لها. وجد الأزواج زوجاتهم اللواتي انتقلن إلى الجانب المقابل من الغرفة، وفتش الأشخاص المحليون عن زوجاتهم ووقفوا إلى جانبهن يتبادلون الحديث بشكل سريع. كان هناك إجماع في الحفلة على أنه تم اختطافهم، لكن ليس من قِبل عصابة «لا فاميليا دو مارتن سواريز» (سُميت تيمناً باسم فتى في العاشرة من عمره، رماه جيش الحكومة بالرصاص وقتله لدى توزيعه منشورات خلال انتخابات سياسية)، بل من قِبل إرهابيين أكثر شهرة بكثير: «لا ديركسيون أوتينتيكا»، مجموعة ثورية من المجرمين بنت صيتها طوال خمس سنين من الأعمال الإجرامية والوحشية الممتدة في كل مكان. كل من كان على علم بهذه المنظمة وبالدولة المضيفة، يدرك أن الضيوف هالكون لا محالة، في حين أن الإرهابيين هم الذين لن ينفدوا بجلدهم. ثم قام الإرهابي الذي يرتدي بنطالاً زيتي اللون ومجعداً، وسترة غير متناسقة البتة مع البنطال، برفع رشاش أوتوماتيكي من العيار الثقيل، وأطلق زختين في اتجاه السقف، فسقطت قطع من الجص على مجموعة

من الضيوف. صدم الحدث من كان موجوداً، وصرخت عدة نساء إما فزعاً بسبب إطلاق النار، وإما بسبب سقوط شيء غير متوقع على أكتافهن العارية.

قال الرجل الذي يحمل الرشاش بالإسبانية: «انتباه. هذا اعتقال. إننا نطلب منكم تعاوناً وانتباهاً كاملين».

بدا حوالى ثلثي الضيوف في حالة رعب، لكن الثلث الباقي بدا مرعوباً ومذهولاً في الوقت عينه. هؤلاء هم الذين كانوا ينحنون باتجاه الرجل الذي يحمل الرشاش، بدلاً من أن يبعدوا عنه. إنهم الذين لا يجيدون الإسبانية. همسوا بسرعة لجيرانهم. تُستخدم كلمة «انتباه» في عدة لغات، وترجمتها شائعة، لذلك تُعتبر واضحة بما فيه الكفاية لتزيد من رعبهم وذهولهم.

توقع الجنرال ألفريدو أن يدفعهم بكلامه إلى الصمت انتظاراً لما قد يحدث، لكنهم لم يصمتوا. دفعه التهامس في ما بينهم إلى إطلاق النار من جديد ناحية السقف، وهذه المرة بشكل عبثي، فأصاب مصباح النور، فانفجر. باتت الغرفة مظلمة أكثر، وتناثرت شظايا الزجاج واستقرت على رؤوس الحاضرين وياقات قمصانهم. فكرر كلامه قائلاً: «هذا اعتقال».

قد يبدو أمراً مفاجئاً في البداية عدم قدرة هذا الكم من الأشخاص على النطق بلغة البلد المضيف. من ثم يتذكر المرء أن الحفل عبارة عن تجمّع لاستقطاب الاهتمام الأجنبي، وضيفا الشرف لا يجيدان حتى عشر كلمات إسبانية. على الرغم من أن كلمة «اعتقال» بدت ذات معنى بالنسبة إلى روكسان كوس، لكن

السيد هوسوكاوا لم يفقه منها شيئاً. انحنوا إلى الأمام كأن ذلك سيسهل عليهم الفهم. لم تنحن الآنسة كوس كثيراً لأن العازف المصاحِب لها أحاطها بجسمه كأنه حائط عازل. بدا جسده جاهزاً ومتلهفاً للذود عنها في وجه أي رصاصة قد تنطلق صوبها.

انحنى جين واتاناب، المترجم الذي يعمل مع السيد هوسوكاوا، وترجم الكلام إلى اليابانية لموظّفه.

كان واضحاً أنه لا جدوى في هذا الأمر، في ظل هذه الظروف الراهنة، لكن السيد هوسوكوا كان قد قام بمحاولة لتعلم اللغة الإيطالية في إحدى المرات بواسطة مجموعة من شرائط التسجيل التي استمع إليها على متن الطائرة. وجب عليه تعلم اللغة الإنكليزية من أجل تسهيل عمله، لكنه كان أكثر اهتماماً بتحسين فهمه للأوبرا. فعمد إلى تكرار الجمل التي سمعها عبر شريط التسجيل بصوت منخفض، حتى لا يزعج الركاب إلى جانبه. لكنه لم يبذل الكثير من الجهد، لذا لم يحرز أي تقدم في النهاية. أشعرته أصوات اللغة التي كان يسمعها بتوق إلى سماع هذه الأصوات تُغنى، فعوضاً عن تعلمها عمد سريعاً إلى وضع القرص المدمج، مادام باترفلاي، في محرك الأقراص.

عندما كان السيد هوسوكاوا أصغر سناً، لاحظ مدى أهمية اللغات. وعندما كبر في السن، تمنى لو أنه بذل مجهوداً لتعلمها. المترجمون! إنهم على ألف شاكلة ولون، البعض منهم جيد، والبعض مفعم بصرامة تلامذة المدارس، والبعض الآخر غبي

تماماً ولا رجاء منه. كما هناك البعض من الذين بالكاد يتكلمون لغتهم اليابانية، ويعمدون باستمرار إلى تعليق الحديث للبحث عن كلمة في القاموس. وهناك الذين بوسعهم تأدية عملهم بمهارة، لكنهم ليسوا من النوع الذي يحبذ المرء السفر إلى جانبه. وثمة بعض ممن يعمدون إلى تركه لحظة تُنطق الجملة الأخيرة، تاركين إياه في حالة ضياع وعجز عن إجراء مزيد من المفاوضات إن لزم الأمر. وهناك آخرون من النوع الاتكالي، الذي يريد البقاء معه في كل وجبة، ومرافقته في نزهاته، وعدم ترك أي مناسبة ليسردوا عليه كل لحظة عاشوها في طفولتهم المعذبة. هذا ما مر به لمجرد فهم بضع كلمات باللغة الفرنسية، وبضع جمل واضحة في اللغة الإنكليزية. هذا ما مر به قبل جين.

كان قد تم تكليف جين بالترجمة له في المؤتمر العالمي لتوزيع البضائع في اليونان. في العادة، كان السيد هوسوكاوا يحاول تجنب عنصر المفاجأة الذي غالباً ما يُمنى به مع المترجمين المحليين، لكن سكرتيره عجز عن إيجاد مترجم يوناني مستعد للسفر بعد إشعار قصير المدة. لم يتبادل السيد هوسوكاوا، في الطائرة في خلال الرحلة إلى اليونان، الكلام مع نائبَي الرئيس ومدراء المبيعات الثلاثة الذين رافقوه في الرحلة. كان يستمع بدلاً من ذلك إلى ماريا كالاس، تغني مجموعة من الأغاني اليونانية عبر جهاز سماعتي الرأس، طراز نانساي. كان قد حسم قراره، بعد تفكير طويل، ونظريات فلسفية، بأنه في حال لم يكن الاجتماع واضحاً ومجدياً بالنسبة إليه، فعلى الأقل سيكون قد رأى البلد الذي لطالما اعتبره وطنه. كان لا يزال

السيد هوسوكاوا ينتظر دوره في الصف ريثما يُختم جواز سفره وتُفتش أمتعته، حينما رأى شاباً يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمه بخط جميل. كان الشاب يابانياً، فشعر هوسوكاوا براحة كبيرة تسري في قلبه. كان يسهل عليه التعامل مع مواطن من بلده يجيد بعض اليونانية، أكثر من التعامل مع يوناني يجيد بعض اليابانية. كان هذا المترجم يفوق في طوله معدل الطول الياباني العادي. شعره كثيف وطويل فوق جبينه، ويتدلى على طرفي نظارته المدورة الصغيرة على الرغم من محاولته تسريحه إلى جهة واحدة. بدا صغيراً جداً في السن بسبب شعره. وقد أوحى شعره إلى السيد هوسوكاوا بأنه يفتقر إلى الجدية، أو ربما يعود ذلك إلى واقع أن الشاب في أثينا وليس في طوكيو، الأمر الذي جعله يبدو أقل جدية. اقترب هوسوكاوا منه وانحنى انحناءة عابرة، بحيث حنى رقبته وكتفيه فحسب احتراماً لجين، وكإشارة تقول له: لقد وجدتَني.

مد الشاب يده وأخذ حقيبة السيد هوسوكاوا، حانياً أمامه حتى حدود خصره. لقد حنى رأسه بجدية، لكنه لم ينحنِ بالقدر نفسه لمدراء المبيعات الثلاثة ونائبي الرئيس. عرّف عن نفسه كونه المترجم، وسأله إذا كانت الرحلة مريحة. أعطاه الوقت التقريبي للوصول إلى الفندق، وأخبره عن موعد الاجتماع الأول. في مطار أثينا المزدحم بالسياح ورجال الأعمال، حيث يبدو أن كل رجل يربي شاربين، ووسط تصادم الحقائب والضجيج الناجم عن الصراخ والإعلانات عن الرحلات، سمع السيد هوسوكاوا شيئاً ما في صوت هذا الشاب؛ شيئاً مألوفاً ومطمئناً. لم يكن

صوتاً موسيقياً، وبرغم ذلك أثّر فيه تأثير الموسيقى نفسها، فأمل منه لو يتكلم ثانية.

سأله السيد هوسوكاوا: «من أين أنت؟».

«من مدينة ناغانو، يا سيدي».

«إنها مدينة جميلة جداً. . . مدينة الألعاب الأولمبية».

هز جين برأسه، من دون تقديم أي معلومات حول الألعاب الأولمبية.

كافح السيد هوسوكاوا ليجد موضوعاً آخر يحدثه فيه. لقد كانت رحلة طويلة، وبدا أنه خلال الوقت الطويل الذي أمضاه على متن الطائرة، نسي كيفية إجراء حديث مع الآخرين. شعر بأنه يجب على جين الحث على إطالة الحديث: «وهل عائلتك لا تزال هناك؟».

صمت جين واتاناب لوهلة، كأنه يتذكر. مرت بمحاذاتهما مجموعة من المراهقات الأستراليات، على ظهر كل منهن حقيبة. ملأن أرجاء المكان بأصوات ضحكاتهن وصراخهن. صرخت إحدى الفتيات قائلة: «وُمبت»، فكررت وراءها الأخريات: «ومبت؟، ومبت، ومبت». كن يُكثرن الضحك، وتمسك كل واحدة منهن بذراع الأخرى. أجاب جين وهو ينظر إلى ظهور المراهقات بتشكيك حذر: «إنهم جميعاً هناك: أمي وأبي وأختيّ».

«وهل أختاك متزوجتان؟». لم يكن السيد هوسوكاوا يكترث

لأمر أختيه، لكنه أراد أن يستدرجه إلى حديث ليتذكر أين سمع صوته، الذي بدا كأنه نوتات موسيقية في بداية الفقرة الأولى لمعزوفة معينة. لكن أي معزوفة؟

نظر إليه جين مباشرة: «إنهما متزوجتان يا سيدي».

أودى هذا السؤال الغريب فجأة، بالحديث إلى حدود عدم اللباقة. أشاح السيد هوسوكاوا بنظره بعيداً، في حين أخذ جين أمتعته، واصطحب مجموعة الرجال ناحية الباب الزجاجي المتأرجح، وخرجوا ليصبحوا تحت سطوة حرارة اليونان الشديدة في فترة الظهر. كانت بانتظارهم سيارة الليموزين، ذات الجو البارد واللطيف، فركب الرجال في السيارة.

أبلى جين حسناً على مدى اليومين التاليين، في كل ما عمل عليه. قام بطباعة ملاحظات السيد هوسوكاوا المكتوبة يدوياً؛ رتب المواعيد؛ وجد بطاقات لعرض «أورفيو إيد أوريديس» بعد أن نفدت البطاقات من السوق منذ ستة أسابيع. وفي المؤتمر، نطق نيابة عن السيد هوسوكاوا ومساعديه باللغة اليونانية، وترجم لهم الكلام إلى اليابانية، واتسم في كل ما قام به بالذكاء والسرعة والاحتراف. لكنه لم يلفت السيد هوسوكاوا بحضوره، بل بعدم حضوره. كان جين مساعداً له، شخصاً غير مرئي يتوقع احتياجاته على الدوام. فشعر بأنه يمكن جين تذكر كل ما يسقط من الذهن ويُنسى. عصر ذات يوم، وفي خلال اجتماع خاص بشؤون الشحن، وعند قيام جين بترجمة الكلام الذي قاله السيد هوسوكاوا لتوه إلى اليونانية، تعرف السيد هوسوكاوا أخيراً إلى

أول مرة سمع فيها صوته. لطالما اعتقد أن صوته مألوف كثيراً. لقد كان صوته هو.

قال السيد هوسوكاوا لجين وهما يحتسيان مشروباً في بار فندق هيلتون في أثينا: «أنا لا أقوم بالكثير من الأعمال في أثينا». كان البار موجوداً على سطح الفندق، ويطل على الأكروبوليس. وقد بدا كأن الأكروبوليس، الذي يبدو صغيراً وطباشيرياً بفعل المسافة البعيدة، قد شُيد لسبب واحد، هو توفير إطلالة جميلة للضيوف الذين يحتسون المشروب. «كنتُ أتساءل عن اللغات الأخرى التي تجيدها». كان السيد هوسوكاوا قد سمعه يتكلم باللغة الإنكليزية على الهاتف.

دوّن جين قائمة باللغات، متوقفاً بين الحين والآخر ليرى إذا ما نسي لغة ما. قسّم إلى خانات عديدة، اللغاتِ التي يثق بأنه يجيدها بطلاقة بالغة، وطلاقة جيدة، وطلاقة على نحو مقبول، وبشكل مقروء.

تفوق اللغات التي يجيدها من ناحية العدد، أنواع المشروبات المميزة المدرَجة على القائمة البلاستيكية الموجودة على الطاولة. طلب كل منهما مشروباً يدعى إريوباغوس، وتبادلا الأنخاب.

كان جين يجيد الإسبانية بطلاقة بالغة.

في بلد غريب كثيراً يبعد مسافات شاسعة، دفعه الرجل الذي يحمل الرشاش الآن إلى تذكر مطار أثينا الذي يضج بالرجال ذوي الشوارب. لقد التقى بجين ذاك اليوم، أي قبل أربع سنين

أو ربما منذ خمسة أعوام؟ عاد معه جين بعد ذلك إلى طوكيو ليعمل لحسابه بدوام كامل. عندما لم يكن لدى جين ما يترجمه، كان يعمد بكل بساطة إلى تولي العناية بأمور لم تكن ذات بال لأي من المحيطين بالسيد هوسوكاَوا، وقبل أن يلحظ أي أحد أنها بحاجة إلى أي عناية. بات وجود جين مهماً إلى درجة أن السيد هوسوكاوا نفسه ينسى أحياناً أنه لا يجيد اللغات، وأن الصوت الذي يسمعه الناس ليس صوته. لم يفهم ما الذي يتفوه به الرجل الحامل الرشاش، وبرغم ذلك كان الأمر واضحاً بالنسبة إليه. في أسوأ الأحوال سيتم قتلهم. وفي أفضل الأحوال، ينظرون إلى بداية معضلة طويلة المدى. لقد توجه السيد هوسوكاوا إلى مكان لم يجدر به أبداً التوجه إليه، وسمح للغرباء بالتفكير في أشياء عارية عن الصحة، وجلّ ذلك من أجل سماع امرأة تغني. نظر إلى الجهة المقابلة من الغرفة، إلى حيث روكسان كوس. بالكاد تمكن من رؤيتها، فقد ضاق المكان عليها، وعازفها الملهم حشرها بينه وبين البيانو.

قال الرجل ذو الشاربين والمسلَّح بالرشاش: «الرئيس ماسودا»!

حصل ارتباك وسط الضيوف المتأنقين. لم يرغب أحد منهم في نقل الخبر إليه.

«فليتقدم الرئيس ماسودا».

ظل الناس يحدقون في اللاشيء. عاشوا لحظات كمن يربض على الجمر. لحظات عصيبة أمضوها كدهر في حالة

انتظار، إلى أن أنزل الرجل رشاشه وصوّبه ناحيتهم، بالرغم من أنه بدا بالتحديد مصوباً ناحية امرأة شقراء في الخمسينات من عمرها، تدعى إليس، كانت تبدو كما لو أنها موظفة مصرف سويسرية. رمشت بعينيها بضع مرات، ثم وضعت كفيها المفتوحين فوق بعضهما البعض، ووضعتهما فوق صدرها، حتى خُيِّل أنها لامست بهما قلبها، كأن هذا هو المكان الذي يُرجح أن الرصاصة ستتوجه إليه. إنها جاهزة للتنازل عن كفيها إن كان في ذلك احتمال، ولو ضئيل جداً، لحماية قلبها. لم يرجع هذا التصرف بأي نفع ما عدا التسبب للناس في إطلاق العنان للهاثهم. كان الجميع يعيشون لحظات انتظار، «تقتلهم» بدم بارد، وتنزع منهم جميع أفكار البطولة والشجاعة، وتكاد تجعلهم مجرد هياكل خشبية. ثم تقدّم أخيراً نائب رئيس البلد المضيف خطوة إلى الأمام، وعرّف عن نفسه.

قال للرجل المسلَّح: «أنا نائب الرئيس روبن إيغليسياس». بدا نائب الرئيس متعباً إلى درجة كبيرة. كان رجلاً ضئيل البنية، نحيفاً وقصيراً. وقد اختير ليشغل منصب نائب الرئيس بسبب حجمه الضئيل هذا، وبسبب معتقداته السياسية بالقدر نفسه. لطالما ساد الاعتقاد بين أوساط الحكومة أن وجود نائب رئيس أطول قامة من الرئيس نفسه، يجعل الرئيس يبدو ضعيفاً، ومثيراً للسخرية، وفكرة قابلة للتغيير. «لم يستطع الرئيس ماسودا حضور هذه الحفلة. إنه ليس هنا». كان صوت نائب الرئيس ثقيلاً. بدا أنه يحمل على كتفيه الكثير من عبء ما يحصل.

قال الرجل الذي يحمل الرشاش: «هذا كذب».

هز روبن إيغليسياس رأسه بحزن. ليس هناك من يتمنى مثله لو أن الرئيس ماسودا كان موجوداً هنا الآن، وليس في فراشه حيث يستلقي مشغول البال بأحداث مسلسل الليلة. فتل الجنرال ألفريدو بسرعة الرشاش في يده، فبات يمسك بفوهته وليس مقبضه. رفع الرشاش في الهواء وضرب به نائب الرئيس فأصاب عظم وجنته إلى جانب عينه اليمنى. أحدثت الضربة صدىً مكتوماً، بدا أقل عنفاً ووقعاً بكثير من الضربة نفسها. لم يحتمل الرجل الضئيل البنية هول مثل هذه الكدمة، وخر ساقطاً على الأرض. سال الدم من الجرح الذي بدأ ينزف قرب منبت شعره. الجرح بليغ، بعمق ثلاثة سنتيمترات. سالت الدماء فوصلت إلى أذنه، ثم عادت «سيرتها الأولى» إلى رأسه من حيث أتت. وبرغم ذلك، شعر الجميع، ومن ضمنهم نائب الرئيس (الذي يقبع الآن نصف واع على سجادة غرفة الجلوس التي تقلّب وتمرَّغ لاهياً عليها قبل أقل من ١٠ ساعات عندما كان يلعب هو وابنه البالغ من العمر ثلاث سنين مباراة ملاكمة) بالسرور والمفاجأة لكونه لم يُرمَ بالرصاص.

نظر الرجل المسلح إلى نائب الرئيس القابع على الأرض، ثم أمر الباقين بالاستلقاء مثله أرضاً. كأنه أحب منظر نائب الرئيس خانعاً كما لو أنه سجادة، أو بساط مرمي على الأرض. بالنسبة إلى الذين لا يتكلمون لغته، كان الأمر واضحاً بما فيه الكفاية: جثم كل ضيف تلو الآخر على ركبتيه، ثم تمدد الجميع على الأرض، وبدوا كأنهم لوحة واحدة.

وسرعان ما عزز أوامره: «وجوهكم إلى الأعلى».

فعاود القلة من الذين استلقوا على بطونهم الاستلقاء على ظهورهم. رفض رجلان من الألمان وأرجنتيني الاستلقاء أرضاً، فتوجه الجنود إليهم وضربوهم على مؤخراتهم بقسوة بواسطة بنادقهم. المكان يكاد يختنق بمن فيه، فكيف إذا انبطح الجميع أرضاً. ثمة مفارقة مثيرة للانتباه، وربما للضحك: لدى استلقاء الضيوف، احتلوا مساحة من الغرفة أكبر بكثير من تلك التي كانوا يشغلونها لدى وقوفهم. وبسبب الحاجة إلى مزيد من فضاء المكان، استلقى البعض في ردهة الاستقبال، والبعض الآخر في غرفة الطعام. تمدَّد ١٩١ ضيفاً على الأرض، و٢٠ نادلاً، و٧ طهاة ومساعدوهم. وجيء بأولاد نائب الرئيس الثلاثة ومربيتهم من غرفة النوم الموجودة في الطابق العلوي. كانوا لا يزالون صاحين بالرغم من تأخر الوقت. كانوا يشاهدون من أعلى الدرج روكسان كوس تغني، وهم أيضاً استلقوا أرضاً. بات ينتشر على الأرض، كما لو أنهم قطعٌ من السجاد مبعثرة هنا وهناك، بعضُ الرجال والنساء الذين هم على قدر من الأهمية، وعدد غير قليل من النساء والرجال من أصحاب المقامات الرفيعة، وممن هم على قدر بالغ من الأهمية. لا يتخيل أحد في أقصى حالات الهزل، أن يرى سفراء ودبلوماسيين، وأعضاء من المجلس الاستشاري، ومدراء مصارف، ورؤساء شركات، ومونسنيور، ومغنية أوبرا. في مثل هذه الوضعية المهينة، الجميع يفترش الأرض. بدت مغنية الأوبرا وهي مستلقية أرضاً أصغر حجماً بكثير. كان العازف المرافِق لها يقترب منها شيئاً فشيئاً

ليقبع فوقها، محاولاً دفنها تحت ظهره العريض، فتضايقت بعض الشيء. إن النساء اللواتي اعتقدن أن الحفلة ستنتهي برمتها في غضون وقت قصير، ومن ثم سيعدن ليخلدن إلى أسرّتهن مع حلول الساعة الثانية فجراً، حرصن على ترتيب تنانيرهن وفساتيهن حتى يقللن من تجعدها. أما النسوة اللواتي أيقنَّ أنه سيتم رميهن بالرصاص على الفور، فتركنَ أقمشة الحرير تتجعد. ما همهنَّ ذلك. فهنَّ يتصورنَّ أنهنَّ يعشن ساعاتهن الأخيرة. ها قد استلقى الجميع على الأرض، ولم يعد في المكان ما يشي بأن حفلاً موسيقياً كانت تشهده هذه الجدران. ها قد ساد الغرفة صمت قاتل. يا لهذه الأمسية البائسة!

بات الناس الآن مقسَّمين بشكل علني إلى مجموعتين: أولئك الواقفين، وآخرين يستلقون أرضاً. لقد أُعطيت الأوامر صريحة: على الممددين أرضاً الالتزام بالصمت وعدم التحرك؛ وعلى الواقفين تفتيش من هم على الأرض بحثاً عن أسلحة، وعن احتمال أن يكون الرئيس متخفياً بينهم.

قد يعتقد المرء أنه بالاستلقاء أرضاً يصبح أكثر عرضة للمخاطر، وأكثر شعوراً بالخوف. يمكن أن يدوس أحدهم ما عليه، أو يركله برجله. وقد يُردى بالرصاص من دون أن تتسنى له فرصة الهرب حتى. وبرغم ذلك، شعر كل من استلقى أرضاً بحال أفضل. نزعوا من مخيلاتهم، بالاضطرار، أي فكرة قد تراود أحدهم للتخطيط لمهاجمة إرهابي منهم وهزيمته، أو التفكير في الهروب من الباب للنفاذ بحياته. كان مستغرباً أنهم في ظل الوضعية التي هم عليها الآن، باتوا أقل عرضة للتعرض

للاتهام بفعل شيء لم يُقْدِموا عليه. كانوا أشبه بجراء صغيرة تحاول تجنب شجار، وها قد أداروا بكامل طوعهم رقابهم وبطونهم ناحية الأسنان الحادة. حتى الروس الذين كانوا يتهامسون في ما بينهم قبل بضع دقائق فقط، حول الهروب، انتابهم شعور بالارتياح لقيامهم بالاستسلام. أغمض كثير من الضيوف أعينهم، فها إن الوقت قد تأخر. كانوا قد احتسوا خلال الحفل الكثير من النبيذ، وتناولوا سمك التُّربوت، وشرحات اللحم الصغيرة والشهية. كانوا متعبين بقدر ما هم مرعوبون. كانت الأحذية العالية الساق التي تدوس الأرض من حولهم، وعليهم، عتيقة وملوثة بالوحل، فخلفت وراءها بقعاً على السجادة النفيسة المزدانة بالنقوش (التي لحسن الحظ وُضعت على لبادة جيدة). كانت الأحذية مليئة بالثقوب، ولم تكن أمراً صعباً رؤية أطراف أصابع القدم. لوهلة بدا كأن هذه الأصابع تكاد تلامس وجوه المستلقين أرضاً. كان بعض الأحذية قد تمزق كلياً، فأعيد جمعها بواسطة شريط كهرباء فضي، وقد كان نفسه وسخاً ومفتولاً عند الأطراف. جلس الشبان القرفصاء بالقرب من الضيوف. لم يبتسموا لهم، لكن لم يلمح الضيوف في وجوههم أي أمارات تهديد. كان ليسهل تخيل مجريات الأمور لو أن الجميع ظلوا واقفين، حيث سيعمد الفتى الأصغر سناً، الذي يحمل عدة سكاكين، إلى إظهار سلطته على رجل أطول قامة، وأكبر سناً، ويرتدي بذلة رسمية. لكن في هذه الأثناء، تتحرك أيدي الفتيان بشكل سريع. يدسونها، في حركة مفضوحة، داخل الجيوب وخارجها، ويتلمسون أرجل السراويل

بأكف مفتوحة الأصابع. بلغوا حداً، أنهم لم يوفروا حتى النساء، فكانوا يتلمسون التنانير باستخفاف. أحياناً يقدم الفتى على الانحناء على إحداهن، ثم يتردد ويبتعد عنها. لم يجدوا أي شيء مثير للاهتمام. فما قرروا «غزوه» لم يكن سوى حفل عشاء!

قام الجنرال هكتور، الهادئ كثيراً، بتدوين بعض الأدوات على دفتر ملاحظات: ستة سكاكين فضية على شكل قلم في جيوب السراويل، أربع قاطعات سجائر معلقة في سلاسل ساعات، مسدس صغير مرصع باللآلئ بالكاد يفوق المشط حجماً في حقيبة يد. حسبوه في البداية ولاعة سجائر، وضغطوا على الزناد عَرَضاً محاولين إشعال النار، فخلفوا فجوة صغيرة في طاولة الطعام. وأضاف إلى لائحة الأغراض: فتاحة رسائل ذات قبضة مزخرفة على طراز طاولة المكتب، وجميع أنواع السكاكين والشوك من المطبخ، والرفش والمِسعر من جانب الموقد، ومسدساً من طراز «سميث أند ويسون» مفتول الفوهة من الطاولة المحاذية لسرير نائب الرئيس، وهو مسدس كان نائب الرئيس ليعترف بكل حرية بامتلاكه في حال سُئل عنه. جمعوا هذه الأغراض كلها، وقاموا بتخزينها داخل خزانة ملابس في الطابق العلوي. تركوا الساعات والمحفظات والمجوهرات. أخذ فتى من امرأة قطعة حلوى منكهة بنعناع فلفلي كانت تضعها داخل حقيبتها الساتان المسائية، لكنه رفعها أولاً إلى الأعلى طلباً للإذن بأخذها، فحركت المرأة رأسها إلى الأمام ثم إلى الوراء ربع إنش فقط، فابتسم الفتى ونزع عنها الغطاء البلاستيكي.

نظر فتى آخر إلى جين والسيد هوسوكاوا بإمعان. حدق لأول مرة في وجهيهما، ثم أعاد الكرّة. رمق السيد هوسوكاوا، ثم تراجع فداس على يد أحد النوادل الذي تأوه وسحب يده سريعاً. نادى الفتى بصوت مرتفع وسط سكون الغرفة وهتف: «أيها الجنرال». اقترب جين أكثر إلى رب عمله كأنه يوحي بحركات جسده، بأن هذا سلة اتفاق، وأنهما معاً متورطان في هذا المأزق.

داس الجنرال بنجامين فوق الضيوف الأحياء والدافئي الأجساد. قد يخطر للمرء من النظرة الأولى، أن وجهه مغطى بـ «وحمة» حمراء كبيرة، لكن عند الإمعان في النظر، يتضح أن ما يغطي وجهه شيء حي وخطير. إن «النهر الأحمر» الفاتح من القوباء المنطقية يبدأ في مكان ما تحت شعره الأسود، ثم يمتد ليغطي نصف وجهه الأيسر، واقفاً عند حدود عينه. مجرد النظر إليه يدفع بالمرء إلى التألم تعاطفاً مع حالته. توجه الجنرال بنجامين إلى حيث يشير إليه الفتى بإصبعه، فقام هو الآخر بالتحديق في السيد هوسوكاوا لوقت طويل. قال للفتى: «لا»، ثم بدأ يستدير، لكنه توقف وتكلم مع السيد هوسوكاوا بنبرة مهذبة: «لقد حسبكَ الرئيس».

ترجم له جين بهدوء: «لقد حسبكَ الرئيس»، فهز هوسوكاوا برأسه. رجل ياباني في الخمسينات من عمره، يضع على عينيه نظارة. كان هناك ٦ أشخاص بمواصفاته، مستلقين في الأرجاء.

أنزل الجنرال بنجامين بندقيته وأسند فوهتها على صدر جين

كأنها عصا يتعكز عليها. بالكاد كانت الفتحة المدورة تفوق حجم أحد الأزرار الموجودة على مقدمة قميصه، وقد خلفت البندقية ضغطاً بسيطاً وغريباً: «ممنوع الكلام».

تمتم له جين بالإسبانية قائلاً: «مترجم». فكر الجنرال في الأمر لوهلة، كأنه قيل له للتو إن الرجل الذي تحدث إليه أصم أو أعمى، فحمل بندقيته وابتعد. خطر في بال جين أنه لا بدَّ من وجود نوع ما من العقاقير في وسع هذا الرجل التداوي بها كي يُشفى. وعندما تنفس، شعر بألم طفيف وخزه في المكان الذي تعرض فيه لضغط البندقية.

في مكان ليس ببعيد، بالقرب من البيانو، أخذ اثنان من الفتيان مسدسيهما ولكزا العازف إلى أن استلقى بالقرب من روكسان كوس، وليس فوقها. لقد شعرت روكسان بالضيق الشديد لدى الاستلقاء أرضاً بسبب شعرها وقد رفعته بشكل أنيق نحو مؤخرة رأسها. عمدت إلى نزع الدبابيس الموجودة في خصلات هذا الشعر الذي طالما أغوى كثيرين، وتكديسها بترتيب في حجرها. يمكنهم الآن أن يأخذوها على اعتبار أنها من عداد «الأسلحة الرابحة» في حال شاؤوا ذلك. بات شعرها الطويل والمجعد منثوراً بانتشاء فوق كتفيها. بدت مثيرة أكثر من أي لحظة مرت في حياتها. تدافَعَ جميع الجنود الفتيان إلى الاقتراب منها لإلقاء نظرة إلى شعرها، وقد تحلى البعض منهم بجرأة كافية للمسه، لكنهم لم يمنّوا النفس بتمسيده بقوة، بعنف، بل اكتفوا بمجرد تمرير أصابعهم بلطف على أطرافه المفتولة.

أمكنهم عند انحنائهم فوقها، شم رائحة عطرها الذي وجدوه مختلفاً عن عطور النساء الأخريات. إن رائحة عطر مغنية الأوبرا تشبه عبق الأزهار الصغيرة البيضاء التي مروا بمحاذاتها في الحديقة لدى تسللهم عبر فتحات التهوئة. حتى في هذه الليلة، ومع احتمال مقتلهم، واحتمالات التحرير التي تُثقل كاهلهم، أمكنهم ملاحظة رائحة هذه الأزهار الصغيرة الجرسية الشكل التي نمت بالقرب من الحائط العالي المزخرف بالجص. بدت الآن، معاودة الانتشاء بهذه الرائحة الزكية من جديد، وبهذه السرعة، في شعر هذه المرأة الجميلة، أشبه بالنذير، أو الحظ الحسن. كانوا قد سمعوا غناءها وهم جالسون القرفصاء داخل فتحات التهوئة. كانت لكل منهم مهمته، وتعليمات محددة بدقة. وجب قطع التيار الكهربائي بعد الأغنية، السادسة مباشرة. لم يخطر لأي منهم في حياته مفهوم إعادة غناء أغنية ما. ولم يفقه أي منهم الأوبرا، أو أي نوع من الغناء، ما عدا ذاك الذي يُردده المرء في سرّه على نحو تلقائي وعفوي في خلال جلب الخشب إلى داخل المنزل، أو حين إخراج الماء من البئر. لم يفسر لهم أحد أي شيء. حتى الجنرالات الذين سبق لهم أن زاروا العاصمة، وتسنى لهم الحصول على التعليم، حبسوا أنفاسهم حتى يتعمدوا سماعها بشكل أفضل. إن الإرهابيين الفتيان الذين يتعمدوا في فتحات التهوئة، ليسوا إلا من عداد الأشخاص البسطاء والفقراء، ولا يؤمنون إلا بالأمور البسيطة. عندما تتحلى الفتاة القروية بصوت جميل، تقول إحدى النساء إنها ابتلعت عصفوراً، وهذا ما حاولوا قوله في سرّهم لأنفسهم عندما كانوا

ينظرون إلى كومة دبابيس الشعر الموجودة على فستان الشيفون الفستقي اللون: لقد ابتلعت عصفوراً. لكنهم كانوا يدركون أن هذا عارٍ عن الصحة، وأقرب إلى الخيال. ففي خضم جهلهم كله، وانعدام خبرتهم الحياتية، كانوا يدركون أنه ليس لمثل هذا العصفور من وجود.

من بين العديد من الفتيان الذين اقتربوا منها، جلس واحد منهم القرفصاء، وأمسك بيدها. يا لحظه! لقد حملها بلطف شديد. بالكاد أسند راحة يدها على راحة يده، حتى يسعها سحبها في أي لحظة. لكنها لم تفعل. أدركت روكسان كوس أنه كلما أطال الإمساك بيدها، ازداد شغفاً وهياماً بها. وإن أحبها، فمن الأرجح أنه سيحاول حمايتها من الآخرين، وحتى من نفسه. بدا هذا الفتى بالتحديد صغيراً جداً في السن، وجميل الملامح تحت القبعة التي يعتمرها، وجفناه مثقلان بآلاف الرموش الحريرية السوداء. على صدره المنمنم حزام عريض من الرصاص، وقد تقوّس جسده نتيجة لثقله. ونتأ من أعلى حذائه العالي الساق مقبض خشبي لسكين مطبخ بدائي، كما كان يحمل مسدساً يبدو على وشك الوقوع من جيبه. خطرت في بال روكسان كوس، فجأة مدينة شيكاغو وليالي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر الباردة. لو كان هذا الفتى يعيش في بلد آخر، ويحيا حياة مختلفة، لكان خرج في الأسبوع المقبل في ليلة عيد جميع القديسين ليطلب من الجيران الحلوى. لكان ارتدى زي الإرهابي، وانتعل حذاءً عتيقاً من مخزن البستنة، وتزين بحزام عريض مصنوع من الكرتون، وملأ كل جيوبه بأصابع أحمر

الشفاه الخاصة بوالدته. لم ينظر الفتى إليها، بل إلى يدها فحسب، وظل يتفحصها بنظره كأنها منفصلة كلياً عن جسدها. كأنها تمّت إلى شخص آخر. في ظل أي ظروف مغايرة، كانت لتسحب يدها من يده، لكنها كانت لا تزال تعيش ذكريات أحداث الليلة الغريبة، وتسكنها هواجسها، فتركت يدها في يده، وسمحت له بتفحصها بإمعان.

رفع العازف المصاحِب لها رأسه، وحدق في الفتى. لمح هذا الشاب الصغير في عينيه شرراً غريباً، فأعاد حينها يد روكسان مجدداً إلى فوق فستانها، ومشى في سبيله.

ثمة حقيقتان لا ثالثة لهما: إن أحداً من الضيوف غير مسلح، والرئيس ماسودا لم يكن من عدادهم. تم توزيع مجموعات من الفتيان الذين يشهرون بنادقهم، في مختلف زوايا المنزل، نزولاً إلى القبو، وصعوداً إلى العلية، وإلى الخارج عند أطراف الحائط الجصي العالي، ليروا إن كان الرئيس قد عمد إلى الاختباء وسط المعمعة. لكنهم أيقنوا أنه ليس موجوداً. كان يصدر عبر النوافذ المفتوحة ضجيج الحشرات المزعج. لقد عم السكون جميع أرجاء غرفة الجلوس الموجودة في منزل نائب الرئيس. جلس الجنرال بنجامين على عقبي قدميه بالقرب من نائب الرئيس، يتأمله. كان ينزف بغزارة على منديل العشاء الذي ضغطت به زوجته على الجرح، وقد تعمّدت أن تبقى مستلقية بالقرب منه. تشكلت حول عينه حلقة أرجوانية اللون. لم تبدُ على الإطلاق مؤلمة بقدر الالتهاب الذي أصاب وجهه هو. سأله

الجنرال كأنها اللحظة الأولى التي يلحظ فيها غياب الرئيس: «أين الرئيس ماسودا؟».

«في المنزل». أخذ المنديل المبلل بالدم من يد زوجته، وأشار إليها بالابتعاد.

«لمَ توانى عن المجيء إلى هذه الحفلة؟».

إن ما كان يسأل عنه الجنرال، هو: هل تم دس جاسوس في منظمته؟ وهل تلقى الرئيس تحذيراً بحصول هجوم؟ لكن نائب الرئيس كان مشدوهاً نتيجة الضربة، وكان يشعر بالمرارة؛ المرارة التي تُعتبر أقرب ما يكون إلى الحقيقة. قال روبن إيغليسياس: «أراد مشاهدة مسلسله التلفزيوني». انتقل صدى كلماته إلى كل أذن في هذه الغرفة الهادئة والمطيعة. «أراد أن يرى إن كانت ماريا ستُحرَّر الليلة».

«لمَ تم إخبارنا أنه سيكون هنا؟».

أفصح نائب الرئيس عن الحقيقة من دون أي تردد أو ندم. لقد وافق بداية على الحضور، ثم غيّر رأيه. عندها لوحظ تحرك الضيوف على الأرض امتعاضاً. فقد صُدم الأشخاص الذين لم يعرفوا بهذا الأمر بقدر الذين كانوا يعرفون. لقد وضع روبن إيغليسياس في تلك اللحظة، حداً لحياته السياسية. في الأصل، لم يكن ثمة ود كبير بين الرئيس ماسودا وبينه، والآن بعد ما حصل، سوف يدمره ماسودا. إن نائب الرئيس يعمل بكد لأنه يعتقد أنه يوماً ما سيتسلم زمام السلطة. كأن الأمر أشبه بالإرث الذي ينتقل من الأب إلى ابنه. وحتى يحين حصول ذلك، فقد

عض على شفته، وتسلّم المهام القذرة، والجنائز الاحتفالية، وزيارة مواقع الزلازل. كان يعمد إلى هز رأسه كإشارة تقدير لكلام الرئيس في خلال كل خطبة من خطاباته التي كانت تبدو كأنها ستطول أبد الدهر. لكن هذا الليلة، لم يعد يعتقد أبداً أنه سيصبح الرئيس يوماً ما. اعتقد هذه الليلة أنه سيُرمى بالرصاص إلى جانب بعض ضيوفه، وربما جميع ضيوفه، وربما أولاده أيضاً. وفي حال حصول ذلك، أراد للعالم كله أن يعلم بأن الرئيس ماسودا، وهو رجل بالكاد يفوقه سنتيمتراً واحداً طولاً، يقبع في المنزل لمشاهدة التلفاز.

إن الكهنة الكاثوليكيين، أبناء الذين يقتلون المبشرين الإسبان، كانوا يحبون إخبار الناس بأن الحقيقة تحررهم. وفي هذه الحالة، كانوا على حق تماماً. كان الجنرال المدعو بنجامين قد أصلى ديكَ البندقية، واستعد لنقل نائب الرئيس إلى العالم الآخر ليعلّم به الآخرين درساً، لكن المسلسل التلفزيوني ردعه عن فعل ذلك. وبقدر ما كان ممتعضاً لواقع أن شهوراً خمسة من التخطيط لخطف الرئيس من هذه الحفلة بالذات، وربما الإطاحة بالحكومة، قد ذهبت هباءً، وأنه بات الآن يحمل عبء ٢٢٢ رهينة يفترشون الأرض أمام ناظريه، إلا أنه صدق رواية نائب الرئيس إلى أبعد الحدود. لا يعقل أن يكون أحد قد اختلقها. فقد كانت رواية جميلة جداً، وضيقة الأفق. لم يكن الجنرال بنجامين يميل كثيراً إلى القتل، معتقداً من خلال تجربته الخاصة أن الحياة ليست سوى فترة من العذاب المضني. لو أن نائب الرئيس قال إن الرئيس يعاني الإنفلونزا، لكان أرداه قتيلاً. ولو

قال إنه تم استدعاء الرئيس في مسألة طارئة تخص الأمن الوطني، لكان قتله. ولو قال إن الأمر مجرد خداع، والرئيس لم ينو أبداً حضور الحفلة، لكان أيضاً أسقطه صريعاً. لكن مسلسل ماريا، حتى وسط الغابة، حيث تندر أجهزة التلفاز، والكهرباء غير موجودة على الدوام، ولا وجود للإرسال، أضحى هاجساً جميلاً، وكان الناس يتحدثون حول هذا المسلسل. حتى بنجامين الذي لم يكن يعنيه شيء سوى تحرير المضطهَدين، كان يعرف عن هذا المسلسل بعض الشيء. كان يُعرض وقت العصر من الاثنين إلى الجمعة مع حلقة خاصة مساء كل ثلاثاء، تلخص أحداث حلقات الأسبوع لمن لم تتسن لهم متابعتها بسبب انشغالهم في العمل. إن كانت ماريا ستُحرَّر، فلا عجب أن ذلك سيتم في حلقة مساء الثلاثاء.

لقد رسموا خطة. وقد اقتضت هذه الخطة خطف الرئيس والمغادرة في غضون سبع دقائق. في هذه اللحظة، وجب عليهم أن يكونوا قد وصلوا إلى خارج المدينة، ويقطعوا بسرعة الطرقات الخطرة عودةً إلى الغابة.

عبر النوافذ، دخل وميض قوي لضوء أحمر فاتح، واستقر على امتداد الجدران، وصحبه صوت عال جداً. كان هذا الصوت اتهامياً وضاجّاً. . . ولم يكن يشبه الغناء على الإطلاق.

الفصل الثاني

ظلت الضجة طوال الليل تملأ فضاء المكان خارج المنزل. كانت السيارات تنزلق ثم تنطلق مسرعة، وتواصلت صفارات الإنذار التي دوت ثم صمتت، ثم ما لبثت أن صمتت. وتم جلب المتاريس الخشبية إلى المكان، وجُمع الناس خلفها. بدا مدهشاً كم باتوا يسمعون أكثر وهم مستلقون على الأرض. فقد تسنى لهم التركيز. نعم، هناك وقع جر الأقدام، وصوت عصا تُضرب على راحة يد مفتوحة. كما حفظوا شكل السقف (لونه أزرق فاتح مزدان بحلية معمارية على شكل تاج كثير التفاصيل إلى حد أفقده جماله، ملتف ولولبي، وكل إنش منه مطلي باللون الذهبي، وهناك الفجوات الثلاث التي خلّفتها الرصاصات). لقد أغمض هؤلاء الضيوف أعينهم ليتسنى لهم الإصغاء بإمعان إلى الأصوات. الأصوات، تخرج من مكبر الصوت بشكل مضخّم ومكسّر، ويتم إصدار التعليمات إلى الناس الموجودين في الشارع، والأوامر إلى داخل المنزل: سوف لن يرضوا بما هو أقل من استسلام مباشر وغير مشروط.

صرخ الصوت قائلاً بنبرة عالية، وبشكل مشوّه، كأنه يصدر من قاع البحر: «فلتضعوا أسلحتكم أرضاً خارج المنزل. افتحوا الباب واخرجوا قبل الرهائن، وضعوا أيديكم خلف رؤوسكم. ثم، فليخرج الرهائن من الباب الأمامي. من أجل سلامة الرهائن، عليهم وضع أيديهم خلف رؤوسهم». عندما انتهت هذه العبارات «الواثقة» كما لو أنها تتوجه إلى أجير لديها، انتقل مكبر الصوت إلى شخص آخر، فعمد إلى تكرار نغمة التهديد «الواثقة»، نفسها، من جديد، مع بعض الاختلافات اللفظية. سُمع صوت طقطقة عالية، ثم انسكب شلال من الضوء الاصطناعي الأبيض والأزرق عبر نافذة غرفة الجلوس، مثل الحليب البارد، ما دفع بالجميع إلى النظر شَزراً. متى تم اكتشاف مشكلتهم؟ من استدعى هؤلاء القوم، وكيف أمكن هذا العدد الكبير الاجتماع خارجاً بهذه السرعة؟ هل كانوا ينتظرون معاً في قبو مركز شرطة، إيذاناً لحصول ليلة كهذه؟ هل تمرّنوا على الكلام الذي يتفوهون به، وعلى الصياح على مجهولين عبر مكبرات الصوت، رافعين نبرتهم أكثر فأكثر. حتى الضيوف أدركوا أن أحداً لن يُلقي سلاحه ويخرج من الباب لمجرد أنه أُمر بذلك. حتى هم فهموا أخيراً أنه كلما واصلوا إصدار الأوامر، انحسرت فرصة الاستجابة لها إيجاباً. لقد تمنى كل فرد من الضيوف لو أنه يمتلك مسدساً سرياً. وفي حال كانوا فعلاً يمتلكون مثل هذه المسدسات، لما أقدموا أبداً على رميها طوعاً على درج المدخل. بعد فترة من الوقت، نال من الضيوف التعب، وربما الندم، إلى درجة أنهم نسوا التمني لو أن هذا كله لم يحصل، أو لو أنهم لم يشاركوا أبداً في هذه الحفلة. وبات

جل ما يتمنونه رحيل الرجال الموجودين في الخارج، وإطفاء مكبرات الصوت، والسماح لهم جميعاً بتمضية الليلة بالنوم على الأرض. بين الحين والآخر، كانت تمر بضع لحظات لا يتكلم فيها أحد. ووحده، كان يكسر رتابة هذا الصمت المزيف والموقت، نوع مختلف من الأصوات: نقيق الضفادع وأصوات الجراد الموجودة على الأشجار، والطقطقة التي تصدر عن احتكاك معادن البندقيات التي يتم حشوها وصلي ديكها.

ادعى السيد هوسوكاوا لاحقاً أنه لم يغمض له جفن طوال الليل، لكن جين كان قد سمعه يشخر في وقت ما بعد الساعة الرابعة فجراً. كان شخيراً هادئاً صافراً كصوت الرياح التي تصدر من تحت عضادة الباب، الأمر الذي بعث على الراحة في قلب جين. لقد أطلق أشخاص آخرون في الغرفة شخيراً بعد أن غفوا لمدة عشر دقائق ربما، أو حتى عشرين دقيقة. لكن، حتى بعد نومهم، ظلوا مطيعين وبقوا نائمين على ظهورهم. كان العازف قد خلع سترته ببطء من دون أن يلفت الانتباه إليه، وصنع منها مخدة وضعها تحت رأس روكسان كوس. وطوال الليل، ظلت الأحذية المتسخة بالوحل تمر فوق رؤوس الضيوف، وتحل ضيفة في ما بينهم.

تزامن استلقاء الضيوف أرضاً في خلال ساعات الليل مع الكثير من الأحداث المربكة التي صرفت أذهانهم عما يمكن أن يحدث لاحقاً. لكن، عند طلوع الصباح، تملّك الخوف قلوب الجميع. ظلوا مستيقظين يقلّبون في أذهانهم جميع البدائل التي لم تبدُ جيدة. خلال الليل، نبت الشعر في لحى الرجال،

وتلطخت مساحيق التبرج فوق أعين النساء، من جراء البكاء. في خلال ساعات الليل ايضاً، تجعدت البذلات الرسمية وفساتين السهرة، وضاقت أحذيتهم على أرجلهم. شعر الضيوف بالألم في ظهورهم وأردافهم جراء النوم على الأرض، وتصلبت أعناقهم. واحتاج جميع من هم على الأرض، من دون أي استثناء، إلى الدخول إلى المرحاض.

كان السيد هوسوكاوا أيضاً في صلب هذه المعاناة. تشاطر هذه المأساة مع الآخرين، إلا أنه كان يلقي باللوم على نفسه. لقد أتى جميع هؤلاء الناس لحضور عيد مولده. كان إحساسه بالذنب مضاعفاً. كان يدرك جيداً، عبر موافقته على حفلة، أنها مجرد مظاهر واهية، ساهم في تعريض حيوات جميع الموجودين للخطر. لقد أتى للمشاركة في هذه الحفلة عدة موظفين من شركة نانساي، من ضمنهم أكيرا ياماموتو، مدير تنمية المشاريع، وتيتسويا كاتو، نائب الرئيس. كما حضرها نائب رئيس مصرف ساميتومو، ساتوشي أوغاوا، ونائب رئيس مصرف اليابان، يوشيكي أيوا، بالرغم من رجاء السيد هوسوكاوا الشخصي لهما بعدم الحضور. كانت الدولة المضيفة قد اتصلت بهم أيضاً قائلة إنها حفلة عيد مولد أهم عميل لديهم، وبالطبع لا يودون أن يفوّتوا عليهم حفلة عيد ميلاد مهمة كهذه. كان سفير اليابان هو الذي قام بالاتصال. وها هوذا الآن مستلق على ممسحة الأرجل عند مدخل المنزل.

لقد أسف لحال جميع الرهائن، لكن الرهينة التي اعتصر قلبه ألماً لأجلها (بالرغم من هذا الألم الذي شعر به، إلا أنه

أدرك أنه من الخطأ أن يولي تقديراً لحياة معينة أكثر من أخرى)، كانت روكسان كوس. لقد جيء بها إلى هذه الغابة الموحشة للغناء من أجله. يا له من غرور من قِبله أن يفكر في أنها هدية مناسبة. كان يكفي الاستماع إلى تسجيلاتها. وكان أكثر من كاف رؤيتها في كوفنت غاردن، الميتروبوليتان. لمَ عساه يظن أنه سيكون من الأفضل لو يتمكن من الوقوف بالقرب منها، وشمّ رائحة عطرها؟ لم يكن هذا الأمر أفضل. فبصراحة، لم تُظهر المعدات السمعية الموجودة في غرفة الجلوس جمال صوتها. لقد شعر بانزعاج عندما لاحظ قدراتها الصوتية العالية، وعندما تأمل لسانها الزهري الرطب بعد أن راحت تفتح ثغرها أكثر فأكثر. لم تكن أسنانها السفلية مستقيمة. كان حضورها شرفاً له، لكنه لا يستأهل بتاتاً الأذى الذي قد يلحق بها، أو بمن جاء ليحضر «حفلته» ويطرب لغنائها. حاول رفع رأسه نصف إنش فقط لرؤيتها. كانت مستلقية بالقرب منه تقريباً. كان يقف في مقدمة الغرفة عندما كانت تغني. كانت عيناها مغمضتين، لكنه تخيل أنها ليست نائمة. لم تكن بتلك المرأة البديعة الجمال إن نظر إليها المرء بموضوعية وهي مستلقية على أرض غرفة الجلوس. لقد بدت تقاسيمها كبيرة بعض الشيء على وجهها. لم يرَ تناسقاً في تكاوينها. بدا له أنفها كبيراً، وطويلاً جداً، وفمها كان يزداد، كلما نظر إليه، اتساعاً. وعيناها أكبر وأوسع من معدل العيون الطبيعية، لكن من له التذمر بشأن عينيها! ذكرته هاتان العينان بلون أزهار الرندو الزرقاء التي تنمو قرب بحيرة ناغانو. ابتسم لدى تفكيره في هذا الأمر، وأراد لو يلتفت وينقل

أفكاره إلى جين. لكنه، عوضاً عن ذلك، نظر إلى روكسان كوس. ها هو يعيد التحديق فيها، بعدما كان سبق له أن تفحص وجهها ملياً في خلال برامج حفلاتها التي حضرها، وعلى أغلفة الأقراص المدمجة. كتفاها منحنيتان إلى الأمام، وماذا لو كان عنقها أطول بعض الشيء. عنق أطول؟ لعن السيد هوسوكاوا نُفسه. ما الذي يفكر فيه؟ لم يكن أي من هذه الأشياء ذا أهمية. لا يمكن أياً كان النظر إليها بموضوعية على كل حال. حتى هؤلاء الذين رأوها للمرة الأولى، قبل أن تفتح ثغرها للغناء، وجدوها مشعة وساحرة، كأنه لا يمكن صوتها وحده أن يحوي موهبتها، لذلك انسدلت كأشعة الضوء من خلال بشرتها. ثم جل ما تمكن رؤيته هو غزارة شعرها وكثافته، ولمعانه، ولون وجنتيها الوردي، ويداها الجميلتان. لمح العازف السيد هوسوكاوا وهو يرفع رأسه، فأعاده السيد هوسوكاوا مباشرة إلى الأرض. كان الخاطفون قد بدؤوا يربتون على بعض الضيوف مشيرين إليهم بالوقوف واللحاق بهم. كان يسهل على السيد هوسوكاوا الادعاء أنه رفع رأسه كي يرى ذلك.

مع حلول الساعة العاشرة صباحاً، بدأ التهامس بين أوساط الضيوف. لم يكن بالأمر الصعب تبادل كلمة أو اثنتين وسط الضجة العالية التي تصدر عبر النوافذ، ووسط النهوض المتكرر للضيوف الذين يقتادون إلى غرفة المدخل. ساد القلق والتهامس بين الضيوف. في البداية، ظنوا جميعاً أنه ستُقتاد كل مجموعة منهم بعيداً وتُردى بالرصاص، ربما في الحديقة خلف المنزل. لمس فكتور فيودورف علبة السجائر في جيب سترته، وتساءل إذا

ما كانوا سيسمحون له بالتدخين لدقيقة من الوقت قبل إطلاق الرصاص عليه. كان يشعر بالعرق يتصبب من رأسه. إن أمكنه تدخين سيجارة الآن، فإن ذلك يعادل الموت بالرصاص تقريباً. ظل الضيوف هادئين وهم ينتظرون بمرارة ليروا ما الذي يحصل. لكن، عندما عادت المجموعة الأولى ضاحكة مستبشرة، همسوا لمن يجلسون إلى جانبهم قائلين: «مراحيض»، فانتشرت الكلمة كالسحر بين الموجودين.

ذهب كل شخص مع مرافق: لكل ضيف إرهابي شاب متسخ يحمل عدة أسلحة. بعض الشبان بالكاد مشى إلى جانب الضيوف، في حين أمسك شبان آخرون بأعلى ذراع الضيف بدرجات متفاوتة من العنف. أما الفتى الذي أتى ليصطحب روكسان كوس، فأمسك بكفها وليس ذراعها، وتمسَّك بيدها كما يمسك حبيبان بكفي بعضهما البعض، وهما ينشدان بقعة مهجورة على الشاطئ. لم يكن هذا الفتى بقدر جمال ذاك الذي حمل كفها في المرة الماضية.

كان هناك من الضيوف من يظنون أنهم سيُقتلون. ظلوا يهجسون مراراً وتكراراً برؤيا اقتيادهم ليلاً إلى الخارج، حيث يُرمون بالرصاص في رؤوسهم. أما روكسان كوس، فلم يخطر في بالها أي من هذه الأفكار السوداء. ربما يلقى بعض الآخرين حتفاً سيئاً، لكن ما كان أحد ليطلق النار على مغنية أوبرا. كانت على استعداد للتصرف بلطف، والسماح بحمل كفها، وحتى بمداعبتها، لكن عندما يحين الوقت ستكون الشخص الذي سينفذ

بجلده. كانت واثقة من هذا الأمر. ابتسمت في وجه الفتى عندما فتح لها باب الحمام. خالجها بعض الشك في أن يعمد إلى الدخول معها. وعندما لم يفعل، أقفلت الباب وراءها، وجلست على المرحاض، وانتحبت بكل البكاء الذي ينشج داخلها. ثم لفّت شعرها بيديها وغطت عينيها. فلتنزل اللعنات على مدير أعمالها الذي قال لها إن هذه الحفلة تساوي كل قرش يُدفع فيها! لقد تصلبت رقبتها، وشعرت بأنها على وشك الإصابة بالبرد. لكن من عساه لا يُصاب بالبرد بعد أن ينام ملتحفاً الأرض. ألم تكن توسكا؟ ألم تعمد إلى القفز عن سطح قصر سان أنجلو ليلة تلو أخرى؟ كانت توسكا أقوى من ذلك. بعد ما حصل، لن تغني إلا في إيطاليا وإنكلترا وأميركا. «إيطاليا، إنكلترا، وأميركا»... ظلت تردد هذه الكلمات الثلاث مراراً وتكراراً إلى أن أفلحت من جديد في تنظيم تَنَفُّسِها والكف عن البكاء. سيزار، الفتى الحامل البندقية والواقف أمام الباب، لم يطرق الباب لاستعجالها كما كان يُفعل مع الضيوف الآخرين، بل اتكأ على الحائط في الخارج، وتخيلها تنحني صوب صنبور المياه الذهبي لتغسل فمها. تصورها تغسل وجهها ويديها بلوح الصابون الصغير ذي الشكل الصدفي. كان لا يزال يسمع صدى الأغاني التي رددتها في رأسه، وتمتم بكل هدوء بالكلمات التي لا يزال يذكرها لتمضية الوقت. كم غريب أن تبقى هذه الأصوات عالقة في ذهنه بهذا الشكل الواضح. لم تتعجل الخروج من الحمام، لكن ما عسى المرء يطلب من مثل هذه المرأة؟ إنها روعة من الروائع. لا يمكن استعجالها في شيء.

وعندما خرجت أخيراً من الحمام، كانت يدها رطبة بعض الشيء، وباردة كثيراً. أراد لو يخاطبها بواسطة الكلمات التي غنتها، لكنه لم يعرف لها أي معنى. وعندما أعادها إلى مكانها، بالقرب من البيانو، كان العازف قد غادر ذاك المكان، ثم تمت إعادته بعد وهلة إلى مكانه هو الآخر. لقد بدا أسوأ حالاً بكثير من الضيوف الآخرين. استحال وجهه شاحباً، واحمرت حدقتاه. وقد قام كل من جيلبير وفرانسيسكو، وهما من أضخم الفتيان جثةً، بإسناده، من كلا الجانبين. واستخدم كل منهما يديه الاثنتين لجره إلى الأمام. في البداية، بدا كأن العازف حاول الهرب ناحية نافذة أو باب وتم التغلب عليه، لكن عند توجههما لإعادته إلى مكانه، انثنت ركبتاه تحته، كأنهما ورقتان انتُزعتا من دفتر ملاحظات، مطلوب منهما حمل جسده بكامل ثقله. فخرّ على الأرض مغمى عليه. أمدَّ الإرهابيان روكسان كوس بنصيحة أو معلومة باللغة الإسبانية، لكنها لم تكن تجيد لغة الفلامنكو.

نهضت بعض الشيء محاوِلةً الجلوس، لكنها لم تكن واثقة إن كان يُسمح لها بالجلوس أصلاً، ومددت له رجليه. كان رجلاً ضخم البنية. ليس ثقيلاً لكنه طويل، وقد كافحت حتى تمكنت من مد رجليه. حسبته في البداية يتمارض. سبق لها أن سمعت برهائن يدّعون العمى حتى يتم تسريحهم سريعاً، لكن لا يمكن أحداً ادعاء هذا الشحوب الظاهر على وجهه، عندما هزّته، تهادى رأسه من جنب إلى آخر. كان واحد من النوادل بالقرب منها، فمال وأسدل ذراعي العازف على جانبيه بعد أن كانتا عالقتين تحته.

همست له قائلة: «ما الذي حصل لك؟». مر بمحاذاتهما حينها عدة أشخاص ينتعلون أحذية موحلة. تمددت بالقرب من العازف وحملت معصمه بأصابعها.

تحرك العازف أخيراً، وتنهد واستدار ناحيتها وهو يرمش بشكل سريع كأنه يحاول إفاقة نفسه من نوم عميق ورائع. قال لروكسان كوس: «لن أسمح بحدوث أي شيء لك». لكن، بالرغم من أن شفتيه المزرقتين تلامسان جانب رأسها، إلا أن صوته بدا بعيداً ومتعباً. قال السيد هوسوكاوا لجين: «سوف يطلبون فدية». كانا يراقبان روكسان وعازفها. ظنا في مراحل عديدة أن العازف فارق الحياة، لكنه لا يلبث أن يعود ليتنهد أو يتزحزح من مكانه. «إن سياسة نانساي تقتضي بدفع الفدية، أياً تكن قيمتها. سوف تدفع الفدية لإخراجنا نحن الاثنين». كان هوسوكاوا يتمتم بصوت خفيض، أقل ما يُقال عنه أنه همس، وبرغم ذلك أمكن جين سماعه. «سوف يدفعون فديتها هي الأخرى. لا بد لهم من ذلك، إذ إنها أتت لأجلي». كما لا يجدر إجبار العازف على البقاء، خصوصاً أنه مريض. تنهد السيد هوسوكاوا. في الواقع، كان كل من في هذه الغرفة قد حضر لأجله، فتساءل كم عسى قيمة مثل هذه الفدية سوف ترتفع. «أشعر بأنني جلبت هذه المحنة علينا جميعاً».

قال جين: «أنتَ لا تحمل مسدساً». لقد شعرا بالراحة إلى واقع أن حديثهما باللغة اليابانية، وبصوت منخفض جداً، إلى درجة أنه لا يمكن سماعه ولو على بُعد ١٢ سنتيمتراً. «إنه الرئيس الذي اعتزموا أخذه الليلة الفائتة».

قال السيد هوسوكاوا: «أتمنى لو أنهم أخذوه».

في الجهة المقابلة من الغرفة، بالقرب من الكنبة ذات القماش المقصّب الذهبي اللون، كان سيمون وإديث تيبولت يمسكان بيدي بعضهما البعض. لم يجثما بالقرب من بقية الفرنسيين، بل ظلا وحدهما. بدا أنهما مقربان جداً من بعضهما البعض، حيث خُيل للبعض أنهما يبدوان تقريباً كالأخ والأخت، بشعرهما الأسود الناعم وعينيهما الزرقاوين. كانا يستلقيان على الأرض، حيث جرت حفلة العشاء، بكبرياء وسلاسة، وليس كمن أُجبر على الاستلقاء أرضاً تحت تهديد السلاح، بل كشخصين سئما ببساطة الوقوف. كان الجميع مستلقين وتعتريهم الرجفة والخوف، في حين كان آل تيبولت يستندان إلى بعضهما البعض: رأسها على كتفه وخده على أعلى رأسها. لم يكن يفكر في الإرهابيين بقدر ما كان يفكر في رائحة شعر زوجته المفعمة بعبق زهر اللَّيْلَك.

كان تيبولت يحب زوجته ويبادلها مشاعر الوجد أثناء مكوثه في باريس، لكن ليس بوفاء تام أو بمقدار كبير من الاهتمام. لقد مضى على زواجهما ٢٥ عاماً. أنجبا فتاتين، واعتادا على تمضية شهر من أشهر الصيف في عرض البحر مع الأصدقاء. احتل سيمون عدة وظائف، وامتلكا عدة كلاب، وأقاما عدة حفلات كبيرة بمناسبة عيد الميلاد، كان يحضرها أقرباء عديدون من المسنين. كانت إديث تيبولت امرأة أنيقة في مدينة تحوي الآلاف من النساء الأنيقات، بحيث غالباً ما كان سيمون يميل على مر السنين إلى نسيانها وسطهن. وكان يحصل أن تمر أيام

بأكملها من دون أن تخطر له على بال. لم يكن يتوقف ليفكر في ما يمكن أن تكون تفعله، أو يتساءل إذا ما كانت سعيدة... على الأقل ليس إديث نفسها كشخص، بل إديث كزوجته.

ثم، في غمرة موجة من وعود الحكومة التي تقدمها ثم ترجع عنها، تم إرسالهما إلى هذه الدولة، التي دوماً يرمزان إليها بين بعضهما البعض بـ «الدولة الموحِشة». شعر كل منهما تجاه هذه الوظيفة بالرهبة وعدم الارتياح. لكن، بعد أيام من وصولهما، حدث أمر مثير: لقد وجدها من جديد، كأنها شيء لم يدرك أبداً أنه فقده، كأغنية كان قد حفظها في شبابه ثم نسيها. فجأة، بات بوسعه رؤيتها بوضوح بالطريقة التي كان يراها فيها في عمر العشرينات، وليس بشكلها الجسدي في أيام العشرينات، لأنها باتت أجمل شكلاً بالنسبة إليه. لكنه شعر بتلك الأحاسيس القديمة، بنبضات قلبه تتسارع، وبدفق الرغبة الجامح يعتريه ويسيطر عليه من جديد. كان ينقطع نَفَسه حينما يراها في المنزل تقص الأوراق لتفرشها على الرفوف، أو مستلقية على سريرهما على بطنها تكتب الرسائل لابنتيهما اللتين ترتادان الجامعة في باريس. هل يُعقل أنها لطالما كانت على هذه الحال. هل يُعقل أنه لم يلاحظ ذلك قط؟ هل عساه لاحظ، ثم نسي بشكل لامبالٍ؟ لقد اكتشف في هذا البلد، بشوارعه القذرة وأرزّه الأصفر، أنه يحبها، وأنه يكاد يتماهى بها حدَّ أنهما يصيران شخصاً واحداً. لعل هذا الأمر ما كان ليحدث لو أنه حصل على منصب سفير لبلاده في إسبانيا. ولولا هذه الظروف بالتحديد، بعيداً عن هذا المكان الفظيع بالذات، ربما ما كان ليلاحظ أبداً أن حب حياته الحقيقي هو زوجته.

همست إديث تيبولت لزوجها وشفتاها ملاصقتان لأذنه: «لا يبدو أنهم على عجلة من أمرهم لقتل أي أحد».

لم تكن عيناه تريان سوى الرمل الأبيض والبحر الأزرق الناصع، وإديث تنزل في مياه المحيط وتغور فيه بعيداً لتسبح، ثم تلتفت إليه والمياه تتقاذف على فخذيها. تناديه قائلة: «هل أجلب لك سمكة؟»، ثم تغيب عن النظر بعد أن تغطس تحت موجة.

قال سيمون: «سوف يفصلوننا لاحقاً».

فلفّت ذراعها بإحكام حول ذراعه، وأخذت كفه في كفها من جديد.

«فليحاولوا ذلك».

لقد عُقد في السنة الماضية مؤتمر إلزامي في سويسرا، وهو بروتوكول حول الاستيلاء على أي سفارة. افترض سيمون أن القواعد تنطبق على حفلات العشاء التي يُصار إلى تخريبها أيضاً. سوف يأخذون النساء بعيداً، وسوف. . . فتوقف. لم يذكر ما قد يحدث تالياً. تساءل إذا كان لدى إديث شيء ما يخصها لتتركه في حال أخذوها، كقرط على سبيل المثال. فخطر سريعاً لسيمون تيبولت: كم أننا سريعاً نرضى بالقليل!

عاد الناس أخيراً من الحمامات، وها قد تحول الهمس الحذر البسيط الذي كان يسود أوساطهم، إلى همهمة متواصلة. بعد أن وقفوا ومدوا أرجلهم، ما عادوا يشعرون بأنهم خاضعون ومهانون مثلما كانوا عليه عندما أُجبروا على الاستلقاء على

الأرض. بدأ الناس يتبادلون بهدوء الأحاديث الحذرة. بدأوا بالدمدمة، ثم توالدت الخبريات بينهم، إلى أن تحولت الغرفة إلى حفلة كوكتيل، حيث كل من يقبع فيها على الأرض عرضة للخطر. لقد فقد المكان رهبته. بدا كأنه مسرح، وهؤلاء الخاطفون أصبحوا كأنهم ممثلون، وليس مسلحين يهددون بالإطاحة بالحكومة لم يعد الأمر يحتمل، فثار الجنرال ألفريدو وعمد إلى إطلاق النار على السقف من جديد، مخلفاً فجوة أخرى فيه. كان عليه وضع حد لهذا الوضع، وإلا لفلت زمام الأمور من بين يديه. شهق البعض بصوت عال، ثم ساد الصمت. وبعد دقيقة من دوي النار، سمعوا طَرْقاً على الباب.

التفت الجميع إلى جهة واحدة: الباب. وفكروا في أمر واحد: من عساه يكون. فمع كل الأوامر التي تصدر عبر مكبرات الصوت من الخارج، وتجمّع الحشود، وعواء الكلاب، وضجيج الطائرات المروحية فوق الرؤوس، لم يقرع أحد الباب. شعر الجميع بالتوتر كحال المرء عندما لا يشاء أن يزعجه أحد في منزله. تبادل الخاطفون الشبان النظرات بتوتر. أخذوا نَفَساً عميقاً ثم وضعوا أصابعهم على الزناد، كأنهم يقولون إنهم باتوا جاهزين لقتل أحد ما. تباحث الجنرالات الثلاثة معاً، وأشاروا بأيديهم، فتشكل صف من الشبان على جانبي الباب. سحب الجنرال بنجامين مسدسه، ولكز نائب الرئيس على كتفه بطرف حذائه المدور، دافعاً إياه للوقوف وفتح الباب.

بدا منطقياً أن أياً كان الذي يقف على الباب، ينوي بكل تأكيد الدخول وإطلاق النار. وفي حال حدوث ذلك، فحري بهم التضحية بحياة روبن إيغليسياس. نهض روبن من العش الذي صنعه قرب المدفأة الفارغة مع زوجته وأولاده الثلاثة: ابنتين لامعتين وطفل صغير. كان وجهه أحمر ومتعرقاً، وإلى جانبهم تقبع مربيتهم إيزميرالدا. إنها من منطقة الشمال، ولم تتردد في رمق الإرهابيين بعينيها بكل جرأة، في حين ظل نائب الرئيس ينظر إلى السقف. كان يخشى أن تكون الرصاصة الأخيرة قد أصابت أنبوباً في تمديدات المبنى، فمن شأن ذلك أن يشكل مشكلة عسيرة تصعب معالجتها في ظل الوضع الحالي. إن الجانب الأيمن من وجهه، الذي ظل يتغير ويكبر حجماً مع مرور الساعات، بات الآن متورماً وتحول إلى اللون الأحمر المائل إلى الاصفرار، وباتت عينه اليمنى مغمضة تماماً. والجرح لا ينفك ينزف. اضطر مرتين إلى جلب منديل عشاء جديد. عندما كان روبن إيغليسياس صبياً صغيراً، كان يمضي ساعات طويلة جاثماً على ركبتيه في الكنيسة الكاثوليكية، يدعو الله أن يمنّ عليه بنعمة الطول، وهي نعمة لم يرتضها الله لأي فرد من أفراد عائلته الكبيرة. وقد طيّب له خاطره الرهبان، وقالوا له بمزاح: «إن الله يعرف بماذا يمنّ عليك». وقد كانوا على حق. فتمتعه بقصر القامة جعله ثاني أهم رجل في الحكومة، والآن على الأرجح أنقذه قصر قامته من إصابة خطيرة بعد أن تلقّى الضربة على إحدى عظمات جمجمته، وليس على فكه الحساس مثلاً. لقد أوحت تعابير وجهه بأن الليلة الفائتة لم تمض على خير ما يرام، وهي رسالة أخرى جيدة لمن هم في الخارج.

وقف نائب الرئيس أخيراً، وهو يشعر بالألم وتصلب أجزاء جسمه، فوضع الجنرال بنجامين عصا المكنسة الرفيعة المثبَتة على ماسورة البندقية بين كتفيه من الخلف، ودفعه للتقدم إلى الأمام. إن حالة الجنرال تدعو إلى الشفقة عليه، حتى من «سجنائه»، فقد بدأت صحته تسوء دوماً بفعل التوتر العصبي، وها قد أخذت تزهر بثرة صغيرة في نهاية كل عصب، وقد تاق بعد هذه المرحلة الطويلة من كفاحه، إلى كمادة ساخنة بقدر ما كان يتوق إلى الثورة تقريباً. تكرر الطَّرْق من جديد على الباب.

قال روبن إيغليسياس موجهاً كلامه ليس إلى الواقف على الباب، بل إلى الرجل الواقف خلفه: «أنا آتٍ. أعلم أين يقع باب منزلي». تعمَّد أن يتفوه بهذه الكلمات. لقد هجس بأن حياته قد وصلت على الأرجح إلى نهايتها، وقد مدته معرفته بهذه الحقيقة بجرأة وجدها مفيدة.

قال له الجنرال بنجامين: «على مهل».

قال نائب الرئيس في سرّه: «على مهل، على مهل، نعم، أخبرني، أرجوك. فأنا لم يسبق لي أبداً أن فتحتُ باباً». ثم توجه لفتح الباب بمشيته الخاصة، التي لم تكن لا سريعة ولا بطيئة.

كان الرجل الواقف على شرفة المنزل الأمامية وسيماً جداً، ويتمتع بشعر أشقر، وقد فرقه بشكل جميل وسرّحه إلى الخلف. كان يرتدي قميصاً بيضاء وربطة عنق سوداء وسروالاً أسود. بدا في لباسه الأنيق هذا، أشبه إلى حد كبير بممثل جدّي. يُخيل للمرء أنه كان يرتدي سترة سوداء تكمل أناقته، وقد يكون خلعها

بسبب حرارة الطقس، أو ربما ليُظهر للعيان عصابة الصليب الأحمر على ذراعه. أراد روبن إيغليسياس لو يُدخل الرجل من الخارج بسبب شدة حرارة الشمس. لقد أحرقت الحرارة جبهته وأعلى وجنتيه، وصبغتها بالأحمر. نظر نائب الرئيس إلى ما وراء الرجل، نزولاً ناحية باحة منزله الأمامية، أو ما كان يفترضها باحته الأمامية. ففي الواقع لم يكن المنزل ملكاً له، ولا العشب، ولا العمال فيه، ولا الأسرّة الناعمة، ولا المناشف الزغِبة. لقد حظي بكل هذا مع الوظيفة، وعليه إعادتها لدى مغادرته المنزل. كانت أغراض أسرته الخاصة مكدّسة في المخازن، وقد مرت عليه لحظات تمنى لو تظل في مكانها الحالي لينتقل هو وعائلته إلى القصر الرئاسي. رأى عبر الفتحة الضيقة في البوابة الرئيسية مجموعة غاضبة من عناصر الشرطة، وعناصر من الجيش، ومجموعة صحافيين. وصدر من مكان ما من الشجرة، وميض ضوء قوي بدا أنه مسلط من كاميرا.

قال الرجل وهو يمد يده: «أنا جواكيم مسنر. أنا من منظمة الصليب الأحمر الدولي». كان ينطق باللغة الفرنسية. وعندما حدق فيه نائب الرئيس بعين نصف مغمضة، أعاد كلامه بلغة إسبانية ركيكة.

كان يتسم بالهدوء، فبدا كأنه لا يعي الفوضى التي تحيط بهم، وكأنه يقوم بجمع تبرعات صباح يوم أحد. لطالما كان الصليب الأحمر موجوداً لمساعدة ضحايا الزلازل والفيضانات؛ تلك الكوارث التي كان يُرسل إليها نائب الرئيس لتقييم الأضرار

وبث الطمأنينة في نفوس الناس. صافح روبن إيغليسياس يد الرجل، ثم رفع أمامه إصبعه مشيراً إليه بالانتظار. وقال للكم الهائل من المسلحين الواقفين وراءه: «الصليب الأحمر».

عاد الجنرالات الثلاثة إلى التشاور من جديد، فأجمعوا على السماح بوجود الصليب الأحمر. سأله نائب الرئيس بصوت منخفض باللغة الإنكليزية: «هل أنت واثق من رغبتك في الدخول؟». لم تكن إنكليزيته ممتازة، ربما تماثل لغة مسنر الإسبانية. «ما من ضمانة أن يعاودوا إخراجك من هنا».

قال وهو يتقدم للدخول: «سوف يخرجونني. تكمن المشكلة في وجود عدد كبير من الرهائن. وهم لا يتطلعون إلى الحصول على مزيد من الرهائن». نظر من حوله إلى الخاطفين، ثم عاد للنظر إلى نائب الرئيس: «وجهك ليس على ما يرام».

رفع روبن إيغليسياس كتفيه ليبدي تجلّداً تجاه ما ألمّ به إثر تعرضه لضربة من كعب البندقية، لكن مسنر افترض أن رد فعله هذا ناجم عن عدم فهمه السؤال. قال بالإنكليزية: «أنا أتكلم الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية. أنا سويسري وأتكلم أيضاً الإسبانية بعض الشيء». رفع إصبعيه وباعد بينهما سنتمتراً واحداً تقريباً، كأنه يقول إن قدرته على نطق اللغة الإسبانية ليست سوى بهذا المقدار. «هذه ليست منطقة عملي. كنتُ في إجازة، هل تتصورون هذا؟ أنا معجب كثيراً بآثار بلادكم. أنا سائح، وإذ بهم يستدعونني للعمل». بدا جواكيم مسنر مرتاحاً على نحو غير عادي، كأنه جار ما مرّ على جاره

الآخر ليقترض منه بعض البيض، ومكث عنده طويلاً ليتبادل معه أطراف الحديث. «عليّ إحضار مترجم إن كنت سأعمل باللغة الإسبانية. لدي مترجم في الخارج».

هز نائب الرئيس برأسه، لكنه لم يفهم بصراحة نصف ما نطق به مسنر. كان ليفهم القليل من اللغة الإنكليزية، فقط في حال نُطقت الكلمات على مهل، ولم يتعرض قبل سماعها لكدمة على وجهه بكعب بندقية. اعتقد أن في حديثه ما يدور حول مترجم. حتى لو لم يكن هذا صحيحاً، فهو يود مترجماً على أي حال. قال للجنرال باللغة الإسبانية: «مترجم».

قال الجنرال بنجامين وهو يجول بنظره في أرجاء الغرفة، ويستذكر أمراً حصل الليلة الفائتة: «مترجم، مترجم؟».

بدا جين في تلك اللحظة، كأن السماء هي من أرسلته. كان خير عون في مثل هذا الظرف، لكنه، لا يميل بطبيعته إلى البطولية. مستلقياً لوهلة يتذكر الضغط القوي الذي أحدثه الرشاش على صدره. وحتى لو لم يتلفظ بكلمة، فسوف يتذكرون عاجلاً أم آجلاً أنه مترجم. همس جين للسيد هوسوكاوا، سائلاً: «هل تسمح»؟

قال له السيد هوسوكاوا: «تفضل»، ولمس كتف جين. سادت لحظة صمت، ثم رفع جين واتاناب يداً خجولة. لوح له الجنرال ألفريدو بالوقوف. كان جين، كحال معظم الرجال، قد خلع حذاءه من رجليه، فانحنى لينتعله من جديد. لكن الجنرال صرخ في وجهه بعد أن نفد صبره، فقطع جين طريقه بين الضيوف بجاربيه. كان يشعر بالإحراج، ويمشي على رؤوس

أصابعه. وجد من الفظاظة الدوس على أحدهم، فظل يعتذر للناس بهدوء، وهو يسير بينهم مردداً كلمة «عذراً»، بأكثر من لغة: بالإنكليزية والفرنسية والإسبانية.

قال جواكيم مسنر، رجل الصليب الأحمر، بالإنكليزية وهو يصافح يد جين: «هل تتكلم الإنكليزية والفرنسية. هل تفضل التحدث بلغة من دون أخرى؟».

فهز جين رأسه.

فقال مسنر بالفرنسية: «إذاً، سنتكلم بالفرنسية إن كان الأمر سيان. هل أنتم بخير؟». كان وجهه عبارة عن مزيج مثير من الألوان المتشابكة. عيناه زرقاوان، وبشرته بيضاء، وجبينه وشفتاه لونها أحمر بعد أن لفحتها حرارة الشمس، وشعره أشقر بلون حبّات الذرة التي رآها جين في إحدى المرات في أميركا. كان يبدو كأنه مرسم يحوي الألوان الأساسية كلها برأي جين. من مثل هذا الوجه، يُحتمل أي بداية.

«نحن بخير».

«هل تعرضتم لأي سوء معاملة؟».

قال الجنرال ألفريدو: «فلتتكلما بالإسبانية».

فسّر له جين كلام الجنرال، ثم أعاد القول، وقد مرر نظراته إلى نائب الرئيس: «إنهم بخير». لم يبدُ نائب الرئيس بخير على الإطلاق.

«قل لهم إنني سأعمل كمنسق بينهم وبين الخارج»، ثم غرق مسنر في التفكير لدقيقة من الوقت، وكرر الجملة بالإسبانية بنفسه

بشكل جيد. ابتسم أخيراً في وجه جين، وقال بالفرنسية: «لا تجدر بي المحاولة مرة أخرى، فقد أرتكب خطأً ما، وقد نقع جميعاً في المتاعب».

قال الجنرال ألفريدو: «بالإسبانية».

«إنه يقول إنه لا يجيد الإسبانية بشكل جيد».

فهز ألفريدو برأسه: «إن ما نريده بالطبع هو إطلاق سراح غير مشروط لجميع الرهائن من دون أن يتعرضوا لأي أذى. وما سنتفق عليه في الوقت الحالي، هو إخراج بعض الأشخاص الإضافيين». رمى مسنر بنظره من حوله، فرأى ممددين على السجادة ضيوفاً أنيقي الملابس، ونوادل يرتدون سترات بيضاء، رافعين رؤوسهم تجاهه. كانت الصورة الشاملة غير طبيعية البتة. ثمة عدد كبير من الأشخاص. «على الأرجح نفد الطعام من عندكم الآن، أو لعله سينفد الليلة. ليست هناك أي ضرورة لهذا العدد الكبير من الأشخاص. عليك أن تطلق سراح النسوة، وطاقم العمل، والمرضى من الضيوف، وكل من يسعك إطلاق سراحه».

قال الجنرال: «وما المقابل؟».

«مقابل ما يكفي من الطعام، والوسادات، والأغطية، والسجائر، ماذا تحتاجون؟».

«لدينا مطالب».

هز مسنر برأسه. كان جاداً، لكنه كان متعباً أيضاً. كأن هذا

النقاش اعتاد على إجرائه عشر مرات في اليوم قبل تناول الفطور، وكأن كل حفلات الميلاد انتهت بمثل هذه الكارثة. «أنا واثق من أن لديكم مطالب، وواثق أيضاً من أنهم سيصغون إليها. لكني أقول لكم إن هذا ـ ومد ذراعه إلى الأمام ليوضح أنه يقصد بكلامه الأشخاص المستلقين على الأرض ـ أمر لا يحتمله أحد. أطلق سراح الأشخاص الإضافيين الآن: من لا تحتاج إليهم، وسيؤخذ الأمر كمبادرة حسن نية، وتعطون انطباعاً عن أنفسكم بأنكم أشخاص حصيفون».

سأل الجنرال بنجامين جين: «من قال إننا حصيفون؟». ثم قام جين نفسه بترجمة هذا الكلام.

«لقد أحكمتم السيطرة على المكان منذ ١٢ ساعة، وحمداً لله أن أحداً لم يمت». قال مسنر لجين: «لم يمت أحد. أليس كذلك؟»، فهز جين برأسه مرة وحيدة نافياً الأمر، وترجم النصف الأول من الجملة. «هذا يجعل منكم أشخاصاً حصيفين».

«قل لهم أن يرسلوا إلينا الرئيس ماسودا. لقد أتينا إلى هنا للحصول على الرئيس، وعندما نحصل عليه سنطلق سراح الجميع». وأشار بيده ناحية جميع من في الغرفة. «انظر إلى هؤلاء الناس! حتى أنني لا أعرف كم عددهم. مئتان؟ أو أكثر؟ لا تقل لي إن رجلاً مقابل مئتين ليس بتبادل حصيف».

قال مسنر: «لن يأتوا إليك بالرئيس».

«هذا من أتينا من أجله».

تنهد مسنر وهز برأسه بجدية. «حسناً، لقد أتيتُ إلى هنا لتمضية عطلة. يبدو أن أحداً لن يحصل على ما يبتغيه».

ظل روبن إيغليسياس واقفاً بالقرب من جين طوال الوقت يستمع إلى الحديث من دون مبالاة، كأنه غير معني بما سيخلُصُ إليه الحديث. لقد كان السياسي الأعلى مرتبة في الغرفة. وبرغم ذلك، لم يكن يُنظر إليه بصفته الزعيم أو الشخص المرموق، بل كونه الرهينة الرئاسية البديلة. اسأل المواطن العادي في هذا البلد المفتقر إلى وسائل الاتصال عن شخصية نائب الرئيس، فلن يلقى منه المرء سوى هز كتفيه والمضي في سبيله. إن نواب الرؤساء ليسوا سوى بطاقات زيارة، أشياء تُرسل للحلول مكان أشياء مرغوب فيها. إنهم قابلون للاستبدال والتغيير. لم يحصل أن خاضت أي دولة حرباً أو كسبتها جراء كلام ملهِم نطق به نائب رئيس، وليس هناك من يفهم هذا الأمر بوضوح تام أكثر من نائب رئيس الدولة المستضيفة.

قال روبن للجنرالات بهدوء: «أَخلوا سبيلهم. هذا الرجل محق. لن يحضر ماسودا إلى هنا أبداً». ما يثير الضحك أنه عندما قال روبن «لن يحضر إلى هنا»، كان يغني منزله. إذ لطالما استثنى ماسودا روبن. لم يكن يعرف أولاده. ولم يطلب أبداً مراقصة زوجته في حفلات العشاء الرسمية. أن يريد المرء شخصاً عادياً على بطاقة تعريفه، أمر مختلف كلياً عن رغبته في وجود هذا الشخص إلى طاولة عشائه. «أعرف كيف تسير هذه الأمور. أَعطوهم النساء والأشخاص الإضافيين، تُعطوهم فكرة

أنكم أشخاص بوسعهم العمل معهم». عندما تم الاستيلاء على المصرف الفيدرالي منذ سنتين، لم يعطوا شيئاً. لم يعطوا لا عميلاً ولا موظفاً واحداً. وقاموا بشنق مدير المصرف في المدخل الأمامي لتُصوّره وسائلُ الإعلام. يتذكر الجميع كيف انتهى بهم الأمر: تم إطلاق النار على كل الإرهابيين وهم واقفون في مقابل الحائط الرخامي. كان روبن يحاول القول لهم إن مثل هذه الأمور لا تفلح أبداً. لم يحصل أن تمت تلبية أي مطالب، أو لم تُلبَّ بصدق. ولم ينفذْ أحد بالمال أو بحفنة من الرفاق الذين تم تحريرهم من سجن ذي رقابة مشددة. السؤال الوحيد هو، كم سيأخذهم الوقت حتى يفلحوا في إنهاكهم، وكم من الأشخاص سيقتلون في خلال هذه العملية.

رفع الجنرال بنجامين إصبعاً واحدة، ولكز منديل العشاء الورقي الملوث بالدماء الذي يحمله نائب الرئيس، ويضغط به على وجهه. فبالكاد تحمل روبن هذه اللكزة. «هل وجّهنا إليك أي سؤال؟».

قال وهو يشعر بالقليل من الغثيان من جراء نوبة ألم: «هذا منزلي».

«عد إلى الأرض».

كان روبن ينشد الاستلقاء، لذا استدار من دون التلفظ بأي كلمة. وعندما أخذ مسنر بذراعه وأوقفه، شعر بما يقارب الحزن.

قال مسنر: «يجب أن يلحم أحد ما هذا الجرح. سوف أستدعي مسعفاً».

قال الجنرال ألفريدو: «ممنوع دخول المسعفين، وممنوع تضميد الجرح. لم يكن وجهه جميلاً قط على أي حال».

«لا يسعك تركه ينزف بهذا الشكل».

هز الجنرال بكتفيه بلا مبالاة: «بل يسعني ذلك».

ظل نائب الرئيس يستمع إلى الحديث عاجزاً عن دعم قضيته. وصدقاً، عندما فكر في الإبرة في ظل إحساسه بغثيان شديد، وألم في رأسه، وضغط قوي في عينيه، لم يكن واثقاً من أنه لا يقف في صف الإرهابيين لكسب هذا النقاش بالتحديد.

«لن تحرزوا أي تقدم إن نزف هذا الرجل حتى الموت». بدا صوت مسنر هادئاً ليوازن بذلك جدية الجملة التي قالها.

فكر نائب الرئيس في كلمتَي: «حتى الموت».

طلب الجنرال هكتور، الذي لم يقدم الكثير من المساهمات، من المربية أن تصعد إلى الطابق العلوي لإحضار صندوق الخياطة. صفق بيديه مرتين مثل معلمة مدرسة تسترعي انتباه الأطفال، فصعدت وهي تتعثر بخطاها بعد أن خدرت رجلها اليسرى. وبمجرد مغادرتها، بدأ ابنه الأصغر ماركو، الذي بالكاد كان في الرابعة من عمره، يبكي بشدة. كان يعتقد أن تلك المرأة العاملة لديهم هي أمه.

قال الجنرال هكتور بتثاقل: «فلتنه هذه المسألة الآن».

أدار روبن إيغليسياس وجهه المتورم ناحية جواكيم مسنر. لكن صندوق الخياطة لم يكن ما يريده. لم يكن روبن عبارة عن

زر يحتاج إلى التثبيت، أو حاشية ثوب تحتاج إلى التقصير. كما أن هذا المكان ليس بالأدغال، وهو ليس برجل بدائي. لقد سبق له أن أجرى مرتين في حياته عمليتي تقطيب لجرحين، وقد تمتا في المستشفى بشكل نظيف، حيث المعدات المعقمة موجودة على أوان فضية مسطحة.

سأل مستر جين: «هل ثمة طبيب هنا؟».

لم يكن جين يعرف، لكنه سأل الضيوف في الغرفة بصوت عال، وكل مرة بلغة مختلفة.

قال روبن إيغليسياس: «لا بد من أننا دعونا طبيباً واحداً على الأقل»، لكن مع تفاقم الضغط في رأسه لم يعد يذكر شيئاً.

نزلت جينها الفتاة التي تدعى إيزميرالدا على السلالم وهي تحمل سلة مربعة من الأماليد المجدولة تحت إبطها. ما كانت لتمثل شيئاً بين كل أولئك النساء المرتديات فساتين السهرة الأنيقة. إنها فتاة ريفية ترتدي بزّة نظامية كناية عن تنورة وقميص سوداوين، وياقة وكمين باللون الأبيض، وشعرها المجدول الطويل والأسود يماثل في كثافته عرض معصم طفل، ينهدل على ظهرها مع كل خطوة. لكن الآن، بات جميع من في الغرفة ينظرون إليها: إلى طريقة تحركها بكل سلاسة؛ إلى الطريقة التي تبدو فيها مرتاحة كثيراً، كأن هذا يوم عادي من أيام حياتها، وأمامها بعض أعمال الرتق. كانت عيناها تنمان عن ذكاء، وقد أبقت ذقنها مرفوعة. فجأة، بات جميع من في الغرفة يرونها

بقدر جمال النساء الأخريات، وقد شعت السلالم الرخامية التي نزلت عليها بنورها. كرر جين نداءه بحثاً عمن ينقذها: «طبيب، طبيب»، في حين اندفع نائب الرئيس لمناداة الفتاة باسمها: إيزميرالدا.

إن أحداً في الغرفة لم يرفع يده، فخلُص إلى عدم وجود أطباء. لكن هذا لم يكن صحيحاً. كان الدكتور غوميز مستلقياً في الخلف بالقرب من غرفة الطعام تقريباً، وكانت زوجته تلكزه بقوة على أضلعه بظفرين مطليين باللون الأحمر. كان قد ترك مزاولة المهنة منذ أعوام ليصبح مديراً لمستشفى. متى كانت آخر مرة قطَّب في جرح أحد ما؟ كان أيام ممارسته مهنةَ الطب، اختصاصياً في أمراض الرئة. وبالتأكيد، لم يخرز إبرة في جلد منذ أيام تمرّنه كطبيب. إنه على الأرجح ليس مؤهلاً للقيام بمهمة التقطيب أكثر من زوجته التي كانت على الأقل تدأب على تطريز الكنفا طوال الوقت. ومن دون أن يقوم بقطبة واحدة، تكشَّف له ما سيحدث تالياً: سوف يُصاب بالالتهاب بكل تأكيد؛ سوف لن يجلبوا له المضادات الحيوية اللازمة، ثم لاحقاً عليه إعادة فتح الجرح وتجفيفه وإعادة تقطيبه. . . هناك على وجه نائب الرئيس. أصابته الرجفة لدى التفكير في هذا الأمر. قد لا يسير الأمر على ما يرام، وسيلقي الناس باللوم عليه، وسينتشر الأمر في الإعلام لاحقاً: طبيب، يرأس مستشفى، أقدم على قتل إنسان ربما، بالرغم من أن أحداً لا يسعه الادعاء أن الذنب يقع على عاتقه. شعر بالرجفة تدب في يديه. كان لا يزال يستلقي في مكانه، وبرغم ذلك لم تكف يداه عن الارتجاف على صدره. أنّى لهاتين

اليدين تقطيب وجه رجل، وترك ندبة سيُعرف كلاهما من خلالها؟ ثم ظهرت تلك الفتاة التي تنزل على السلالم حاملة سلتها، وتبدو بحد ذاتها أملاً كبيراً لهم. لقد كانت ملاكاً! لم يسبق للطبيب أبداً أن أفلح في إيجاد مثل هؤلاء الفتيات اللواتي يبدين ذكاءً ليعملن في طوابق المستشفى، ولا مثل هذه الفتاة الجميلة التي تبدو المحافظةُ على نظافة بزتها النظامية أمراً هيّناً وسهلاً عليها.

تمتمت زوجته قائلة: «قم واذهب إليهم، وإلا فسأرفع أنا يدك نيابة عنك».

أغمض الطبيب عينيه وحرك رأسه بتؤدة من جنب إلى آخر، بطريقة لا تلفت انتباه أحد إليه. ما سيحدث سيحدث. القُطب لن تنقذ الرجل ولن تقتله. لقد رُميت أوراق اللعب، ولم يبق سوى الانتظار ورؤية النتائج.

أعطت إيزميرالدا السلة لجواكيم مسنر، لكنها لم تبتعد، بل رفعت الغطاء الذي كان مبطناً بقماشة منقوشة باللون الزهري، وأخذت إبرة من الوسادة التي كانت على شكل البندورة، ومِكَبّ خيوط سوداء، وأدخلت الخيط في الإبرة. قطعت الخيط بأسنانها بلطف، وصنعت عقدة صغيرة ونظيفة في طرف الخيط. كان جميع الرجال، بمن فيهم الجنرالات، يراقبونها كأنها تقوم بأمر عجيب؛ أمر يفوق الإبرة والخيط بكثير؛ أمر ما كانوا أبداً ليتمكنوا من القيام به. ثم وضعت يدها في جيب تنورتها، وأخذت منه قارورة من محلول الكحول المطهّر، وغطّست فيه

الإبرة ثم رفعتها صعوداً ونزولاً عدة مرات. التعقيم. ها هي ذي فتاة ريفية بسيطة. يا له من عمل ذكي. رفعت الإبرة إلى الأعلى حاملة العقدة فحسب، ثم مدت يدها لتعطيها لجواكيم مسنر.

قال، وهو يحمل العقدة بين إبهامه وسبابته: «آه»!

تأوّه كثيراً، ثم جرى نقاش بينه وبين نائب الرئيس. اعتقدا بداية أنه يجدر بهما الوقوف، ثم بدا أنه من الأفضل لنائب الرئيس أن يجلس، ثم قررا أن الأنسب له الاستلقاء أرضاً بالقرب من «لمبادير» كان لا يزال مضاءً، تم ركنه فوق إحدى الطاولات، حيث كان المكان الأفضل للإضاءة. كان الرجلان يشعران بالتوتر الشديد. كل منهما مرتعب أكثر من الآخر. فرك مسنر يديه بالكحول ثلاث مرات. ما كان يدور في خلد إيغليسياس حينها أنه يُفضل لو يُضرب بالبندقية من جديد. استلقى على السجادة بعيداً عن زوجته وأولاده، وانحنى مسنر فوقه، وبعد أن حجب الضوء عن نفسه رجع إلى الوراء وأدار وجه نائب الرئيس من جانب إلى آخر. حاول نائب الرئيس أن يشغل تفكيره بأمر محبب، لذا فكر بإيزميرالدا. كانت قدرتها على تدبر الأمور أمراً ملحوظاً من قِبلها بالفعل. لعل زوجته علمتها هذا الأمر: مبدأ البكتيريا، والحاجة إلى الإبقاء على نظافة الأشياء. كم كان محظوظاً لقيام هذه الفتاة برعاية أولاده. كان الدم قد كف عن التدفق بغزارة، لكنه ما فتئ ينزّ، فتوقف مسنر ليمسحه بمنديل ورقي. وسط تلك الظروف ـ الأصوات العالية التي تبعث برسائل عبر النوافذ؛ الشارات الضوئية التي لا تنفك تضيء

وتنطفئ؛ والرهائن المنتشرين على الأرض؛ والخاطفين الذين يشعرون بالنعاس يتمنطقون بمسدساتهم وخناجرهم ـ، ما كان المرء ليظن أن أحداً قد يعبأ بما سيحل بخد روبن إيغليسياس. لكن ها هم الناس، وقد اشرأبّت أعناقهم إلى الأعلى مثل السلاحف ليروا ما الذي سيحدث تالياً، وليشاهدوا تلك الإبرة تنغرس لتصنع أول قطبة لها.

قال الجنرال ألفريدو: «لقد بقيت لك خمس دقائق».

قام جواكيم مسنر بتقريب طرفي الجرح بيده اليسرى، وغرس الإبرة بيده اليمنى. ظن أن إنجازه الأمر بسرعة يخفف من الألم. أساء تقدير سماكة الجرح وغرس الإبرة عميقاً إلى أن لامست العظم. أطلق كل من الرجلين صوتاً كان أقل من صرخة، قوياً لكنه قصير وخاطف، ثم عاد مسنر وأخرج الإبرة من جديد ببعض الجهد، فعادا إلى حيث بدآ تماماً. ما تغيّر أن الفجوة الصغيرة باتت الآن هي نفسها تنزّ الدم.

ها هي إيزميرالدا تنظف يديها من دون أن يطلب منها أحد ذلك. كانت تعلو وجهها نظرة، لطالما كان نائب الرئيس يلمحها على وجهها عندما تتعامل مع الأطفال. لقد جربا أمراً وفشلا، وقد سمحت للأمور بالتمادي إلى درجة كافية. أخذت الإبرة والخيط من جواكيم مسنر، وألقت بها من جديد في الكحول. ارتاح نائب الرئيس كثيراً لرؤية مسنر يبتعد. لم يأبه لنياتها أو مؤهلاتها، بل اكتفى فحسب بمشاهدتها تنحني إلى جانب الضوء.

وجد روبن إيغليسياس وجهها بهيجاً كوجوه القديسين، على

الرغم من أنها لم تكن تبتسم. ارتاح إلى عينيها البنيتين الحادتي النظرات، وكانتا تبعدان الآن مجرد بضعة إنشات عن عينيه. رفض إغماض عينيه بالرغم من ألمه الشديد. أدرك أنه لن تتسنى له من جديد رؤية عينيها تبادلانه التركيز والتعاطف هذين، وتحنو بهما على وجهه، حتى لو قُدّرتْ له النجاة من هذه المحنة وعاش ليبلغ المئة من عمره. جمد في مكانه عندما اقتربت الإبرة منه، وأخذ يتنشق رائحة العشب المنبعثة من شعرها. كان بالفعل يشعر كأنه أشبه بزر غير محكَم، أو سروال صغير تضعه على حجرها الدافئ وتقوم بخياطته في المساء. لم يكن الأمر سيئاً كثيراً. كان مجرد شيء آخر على إيزميرالدا إعادة جمعه من جديد؛ شيء آخر بحاجة إلى التصليح. سببت له الإبرة الصغيرة الألم. لم تكن تروق له رؤية هذه الإبرة تمر بمحاذاة عينه. لم يعجبه هذا الشد الخفيف في نهاية كل قطبة. كان يشعر كأنه سمكة تم اصطيادها، لكنه كان يشعر بالامتنان لوجوده بهذا القرب من الفتاة التي كان يراها كل يوم. لطالما رآها تجلس على العشب مع أولاده، على فراش تحت شجرة، تسكب لهم الشاي في أكواب عتيقة، وماركو في حجرها، وابنتاه روزا وإيميلدا تحملان دميتيهما. كانت تقع عيناه عليها وهي تسير في الرواق، وتقول «عمتم مساءً، عمتم مساءً، ليس هناك مزيد من الماء، اخلدوا إلى النوم، وأغمضوا أعينكم». لقد التزمت الصمت خلال تركيزها على التقطيب، وبرغم ذلك، مجرد التفكير في صوتها جعله يرتاح، لكنه تألم لمعرفته أنه سيأسف عندما تفرغ من عملها، وعندما لا يعود جسدها ملاصقاً لجسده.

كان مشغولاً بخيالاته عندما فرغت من التقطيب وصنعت عقدة أخرى، فانحنت عليه وقضمت الخيط كأنها تقبله. لم يكن لدى شفتيها خيار إلا لمس القطب التي صنعتها يداها. أمكنه سماع هذا القضم السريع لأسنانها، ثم جلست من جديد. مررت يدها بحنو على أعلى رأسه تقديراً منها للمعاناة التي شهدها. يا لإيزميرالدا الجميلة.

قالت له: «أنتَ شجاع كثيراً».

إن كل من كان قريباً منهما ابتسم وتنفس الصعداء. لقد أبلت حسناً في ما قامت به. صنعت خطاً منظماً من القطب السوداء المتساوية في الحجم على جانب رأسه. هذا ما كان يتوقعه المرء من فتاة تمت تربيتها للخياطة. هرع ماركو إلى أحضان إيزميرالدا عندما عادت للانضمام إليهم، فوضع رأسه على صدرها واحتضنها بقوة. أما نائب الرئيس فلم يتحرك. كان ألم التجربة ومتعتها يتصادمان في نفسه، وقد أطلق العنان لخياله للاستمتاع بهذه اللحظات، وأغمض عينيه كأنه أُعطي مهدئاً ما.

قال الجنرال لمسنر وجين: «أنتما الاثنان اذهبا واستلقيا أرضاً. سوف نناقش الأمر». استخدم مسدسه للإشارة إلى الأرض، إلى مكان ما ليس بالقريب.

لم يحاول مسنر استئناف التفاوض. قال: «أنا لا أستلقي أرضاً»، لكن صوته بدا متعباً إلى درجة أن المرء يعتقد أنه يتمنى الارتماء على الأرض. «أنا أنتظر في الخارج. وسأعود من جديد بعد ساعة». ثم هز برأسه لجين كتحية له، وقام ببساطة بفتح

الباب والخروج من المنزل. تساءل جين لو أمكنه القيام بالأمر نفسه، والقول إنه سيكون خارجاً بالانتظار. لكن جين أدرك أنه ليس مسنر. على الأرجح بدا كأنه ليس هناك جدوى من إطلاق النار على مسنر. لقد بدا كأنه شخص يتم إطلاق النار عليه يومياً في حياته، وقد سأم الأمر ببساطة. أما جين الذي لا تزال القطب تشغل تفكيره، فكان يشعر بأنه هالك لا محالة، هالك ومخلص، وقد عاد إلى مكانه بالقرب من السيد هوسوكاوا.

همس له السيد هوسوكاوا: «ما الذي قالوه؟».

«أظنهم سيطلقون سراح النسوة. لم يأخذوا القرار بعدُ، لكن يبدو أنهم يريدون ذلك. يقولون إن عددنا كبير جداً». كان هناك أشخاص يحيطون به من كل جانب، يبعد كل منهم ٦ سنتيمترات، ليس أكثر. شعر كأنه يستقل قطار يامانوت المتجه إلى محطة طوكيو عند الساعة الثامنة صباحاً. مد يده إلى الأعلى وحلّ عقدة ربطة عنقه.

أغمض السيد هوسوكاوا عينيه. شعر بسكينة تنتشر فوقه مثل غطاء ناعم. قال: «جيد». سوف يُطلق سراح روكسان كوس، وستخرج سالمة، وفي الوقت الملائم، لتغني في الأرجنتين. في غضون بضعة أيام ستفارقها الندبة التي خلفتها هذه التجربة. وسوف تتابع ما سيؤول إليه أمرهم عبر الصحف. وستقص أخبار ما حدث هنا في خلال حفلات الكوكتيل، وسيُذهل الناس لسماعها. لكن الناس دوماً يُذهلون. ستغني غيلدا في الأسبوع الأول في بوينس آيريس. بدت له المصادفة المثلى. هي تغني

غيلدا، وهو لا يزال طفلاً مع والده في طوكيو. إنه يشاهدها من على المقاعد العالية من مكان بعيد جداً، وبرغم ذلك لا يزال صوتها رخيماً وعذباً، تماماً كما كان حينما كان يقف بالقرب منها على مسافة تكفي للمسها. إن حركاتها الجريئة، وتبرجها المسرحي، تصرفات توحي بأمور تعتبر رائعة على مسافة بعيدة. إنها تغني مع والدها ريغوليتو. تقول لوالدها إنها تحبه، في حين يأخذ كاتسومي هوسوكاوا، الجالسُ في المقاعد العالية، بيد والده. تنتفض الأوبرا فوق قطع السجاد والأكواب نصف المملوءة في غرفة الجلوس. إنها ترحل بعيداً عن حفلات عيد الميلاد الخاصة ومشاريع المصانع. إنها ترتفع وتطير فوق الدولة المضيفة إلى أن تحط بلطف على المسرح حيث تعود لتصبح نفسها الكاملة: تصبح شيئاً جميلاً وبعيداً. جميع أفراد الأوركسترا يدعمونها الآن. إنها تصل مع الأصوات. ترفع الأصوات إلى الأعلى، وصوت روكسان كوس الجميل يغني غيلدا لكاتسومي هوسوكاوا الفتى. يهز صوتها العظام الصغيرة الغائرة في أذنيه. ويبقى داخله ويصبح هو. إنها تغني الجزء الخاص بها له ولآلاف الأشخاص الآخرين. إنه إنسان ليس مجهولاً، ومحبوب، وعلى قدر المساواة مع الآخرين.

كان في عداد الرهائن، كاهنان من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، يستلقيان أيضاً على الأرض، كل منهما في الجهة المقابلة من الغرفة. يستلقي المونسينيور رولان خلف الكنبة التي يجلس أمامها آل تيبولت. اعتقد أنه من الأفضل له البقاء بعيداً عن النوافذ في حال حصول تبادل لإطلاق النار. تتحتم عليه،

كونه مرشداً لقومه، حماية نفسه. لطالما كان الكهنة الكاثوليك أهدافاً للثورات السياسية، ما عليك سوى تصفّح الجرائد. كان الموت لغزاً مقدساً، وميقاته يخضع لمشيئة الله وحده. لكن، كانت هناك أسباب قوية تحثه على العيش. كان يسود الاعتقاد أن المونسينيور سيُمنح منصب المطران في حال توفي المطران روميرو، المسن. ففي النهاية، المونسينيور رولان هو من حضر جميع المراسيم، وأتمّ الصفقات التي وسّعتْ إطار الكنيسة. ليس هناك أمر في العالم محسوماً بشكل قاطع، ليس حتى الكاثوليكية في هذه الأدغال الغارقة في الفقر المدقع. انظروا فقط إلى المدّ الآخذ في الاتساع لرهبان المورمون، مع أموالهم وبعثاتهم التبشيرية. يا لجرأة إرسال بعثات تبشيرية إلى دولة كاثوليكية! كأنهم كائنات متوحشة جاهزة للتحويل. كان مستلقياً ويسند رأسه فوق وسادة صغيرة للكنبة، أفلح في اقتناصها في طريقه إلى الأرض، ولا ينفك وركاه يؤلمانه، فأخذ يحلم بالحمام المطوّل والدافئ الذي سيأخذه بعد انتهاء هذا كله، ثم سيقبع ثلاثة أيام على الأقل في سريره الوثير. توجد بالطبع طرائق إيجابية للنظر إلى الأشياء. مع افتراض عدم حصول أي تصرفات جنونية، وإطلاق سراحه مع أول دفعة من الرهائن. يمكن الخطف عندها أن يكون حسن ختام مركزه كمونسينيور. ذلك أن مجرد إعلان التعرض للاختطاف من شأنه أن يجعل حتى من رجل هرب من دون التعرض للأذى، شهيداً مقدساً.

هذا ما كان ليحصل لولا وجود كاهن شاب كان مستلقياً على الأرض الرخامية الباردة في ردهة المدخل الأمامية. لقد

سبق للمونسينيور رولان أن التقى بالأب أرغيداس. كان حاضراً عندما أخذ على نفسه العهود المقدسة قبل سنتين، لكنه لا يذكر أياً من هذا. إن هذه الدولة لا تفتقر إلى الشبان الذين يودون الالتحاق بالرهبنة. فبشعرهم الأسود القصير، وقمصانهم السوداء المهلهلة، لا يمكن تمييز هؤلاء الرهبان عن بعضهم البعض تماماً مثل الأطفال في ملابسهم البيضاء خلال عمادتهم الأولى. لم يكن لدى المونسينيور أدنى فكرة عن وجود الأب أرغيداس في الغرفة حتى. لم تلمحه عيناه ولا مرة واحدة في خلال الأمسية. إذاً، كيف جرى أن تمت دعوة كاهن شاب إلى حفلة في منزل نائب الرئيس؟

كان الأب أرغيداس في السادسة والعشرين من عمره، ويعمل ككاهن للرعية الثالثة في الجانب الآخر من العاصمة: يُضيء الشموع، وينظم قداسات العشاء الرباني، ويتمم واجبات ليست أسمى من تلك التي يقوم بها خدام الكهنة المدربون. في اللحظات القليلة من أيامه التي لا يكون فيها منشغلاً بعبادة الله من خلال الصلوات، وخدمة الناس عبر المراسيم، كان يذهب إلى مكتبة الجامعة ويستمع إلى الأوبرا. كان يجلس في القبو داخل مقصورة خشبية عتيقة، ويستمع إلى التسجيلات بواسطة سماعتي أذن سوداوين، ضخمتين وضيقتين كثيراً، تسببان له ألماً في رأسه. لم تكن الجامعة تتمتع بالثراء، وبالتالي لم تكن الأوبرا على سلم أولويات الإنفاق، لذا كانت معزوفات الأوبرا لا تزال مسجّلة على اسطوانات كبيرة، وليس على أقراص مدمجة. كان الأب أرغيداس يفضّل معزوفات معينة على غيرها،

لكنه كان يستمع إلى جميع المعزوفات من دون تمييز: كل شيء، من داي زوبرفلوت إلى تروبل إن تاهيتي. كان يغمض عينيه، ويتمتم بهدوء الكلمات التي لم يكن يفقه منها شيئاً. في البداية، لعن الأشخاص الذين سبقوه، أولئك الذين تركوا بصماتهم على التسجيلات، أو خدشوها، أو أسوأ من ذلك، قاموا بكل بساطة بأخذ واحد من التسجيلات، وبالتالي لم يعد هنالك الفقرة الثالثة من لولا. ثم عاد وذكّر نفسه بأنه كاهن، فجثم على ركبتيه على الأرض الاسمنتية في قبو المكتبة.

يشعر في أغلب الأحيان، في خلال استماعه إلى هذه المعزوفات، بأن روحه امتلأت بنوع من السعادة الغامرة. شعور عجز عن تسميته، لكن لا يلبث أن يخترقه شعور مزعج: أهو الشوق؟ أم الحب؟ صمم في بدايات تدرجه الكهنوتي، على التخلي عن سماع الأوبرا كحال الشبان الآخرين الذين عزموا على التخلي عن النساء. لقد ظن أن ثمة سوءاً في مثل هذا الوله، وخصوصاً بالنسبة إلى كاهن. وبسبب افتقاره إلى خطايا حقيقية أو كبيرة ليعترف بها، قدم خطيئة الأوبرا الوهمية عصر أربعاء كأعظم تضحية يهبها للمسيح.

قال الصوت من الجهة المقابلة من الستار: «فيردي أم فاغنر؟».

أجاب الأب أرغيداس: «كلاهما». لكن عندما أفاق من تأثير السؤال الذي فاجأه، غيّر قراره: «فيردي».

فأجابه الصوت: «أنتَ شاب. عد إلي بعد عشرين سنة وأخبرني عن الأمر من جديد، إن أبقاني الله حياً».

كافح الكاهن الشاب ليتعرف إلى الصوت. كان بالتأكيد يعرف جميع الأصوات في كنيسة سان بيدرو: «أوَليستْ بخطيئة؟».

«الفن ليس خطيئة. ليس دوماً جيداً، لكنه ليس بخطيئة». صمت الصوت لدقيقة، ثم دس الأب أرغيداس إصبعه على الشريط الأسود الموجود على يافتة محاولاً إدخال بعض الهواء الدافئ إلى قميصه. «إن بعض كلمات الأوبرا... حسناً، حاوِل التركيز على الموسيقى. الموسيقى هي جوهر الأوبرا».

سحب الأب أرغيداس إثمه الصغير والمتسرع، وتلا كل صلاة ثلاث مرات تضرعاً، لشعوره بالفرح. ليس مضطراً إلى التخلي عن حبه. لقد غيّر بعد تلك الحادثة رأيه كلياً، وقرر أن مثل هذا الجمال لا بد من أنه يُرضي الله. كان واثقاً من كون الموسيقى تحث على التمجيد، وإن كانت الكلمات غالباً ما تركز على آثام الإنسان. حسناً، ألم يتطرق يسوع المسيح نفسه إلى هذا الموضوع بالتحديد؟ كان عندما يختبر مشاعر انزعاج بسبب لاأخلاقية ما يسمعه، يعمد بكل بساطة إلى تصحيح الوضع عبر الامتناع عن قراءة كلمات الأوبرا. كان قد سبق له أن درس اللغة اللاتينية خلال التدرج الكهنوتي، لكنه رفض ربط هذه اللغة بالإيطالية. كان تشايكوفسكي في هذه الحالات، خير مثال. إنه يجهل الروسية تماماً. ولسوء الحظ، تتأتّى، في بعض الأحيان،

الشهوات من الموسيقى وليس الكلمات. ولم يُبعده جهله اللغةَ الفرنسية، عن الاستماع إلى كارمن. كانت كارمن تُغرقه في الأحلام. وبرغم ذلك، يتمكن معظم الأحيان من الادعاء أن كل رجل وامرأة يغنيان في كل أوبرا بهذا القدر من الروعة والسحر، لأنهما يغنيان عن حب الله الذي يسكن في قلوبهم.

ما إن حرره الكاهن الذي استمع إلى اعترافه، لم يعمد بعدها الأب أرغيداس إلى إخفاء حبه الموسيقى. لم يكن أحد يكترث لأمر اهتماماته بطريقة أو بأخرى، ما لم تكن تشغله عن مهامه الحياتية. لعل هذه الدولة ليست بالدولة الحديثة. وليس الدين فكرة عصرية، لكن هذا العصر عصر الحداثة. كان الناس في الرعية يكنّون محبة لهذا الكاهن الشاب، ويحترمون نشاطه الكبير في طلاء مقاعد الكنيسة، والطريقة التي يركع فيها أمام الشموع لمدة ساعة كل صباح قبل بدء القداس. كانت من بين الأشخاص الذين لاحظوا أعماله الجيدة، امرأة تدعى آنا لويا، النسيبة المفضلة لزوجة نائب الرئيس. كانت الموسيقى من بين اهتماماتها هي الأخرى، وكانت تسخى على الأب أرغيداس بإعارته بعض التسجيلات. عندما تناهت إلى سمع آنا إشاعة بأن روكسان كوس آتية للغناء في حفلة، اتصلت بنسيبتها لتسألها إن أمكن كاهناً شاباً الحضور. بالطبع ليس هناك ضرورة لدعوته إلى المشاركة في العشاء، وبوسعه الانتظار في المطبخ خلال المأدبة الاحتفالية، وفي وسعه أيضاً الانتظار في المطبخ عند غناء روكسان كوس، لا مشكلة في ذلك، لكن إن أمكنه التواجد في المنزل، وحتى في الحديقة، فستكون غاية في الامتنان. كان

الأب أرغيداس قد اعترف لآنا بعد جلسة تدريب لكورس الكنيسة، بأنه لم يسبق له أبداً أن استمع إلى أداء حي للأوبرا. إن حب حياته بعد الله يقبع في تسجيلات الفينيل السوداء. كانت آنا قد فقدت ابناً قبل أكثر من عشرين عاماً. كان في الثالثة من عمره عندما غرق في مستنقع للري. لديها الكثير من الأولاد الآخرين، وكانت تحبهم كثيراً، ولم تكن تتكلم على الفتى الذي فقدته. في الواقع، المرة الوحيدة التي تذكرت فيها ذاك الفتى كانت عندما وقع بصرها على الأب أرغيداس. سألت نسيبتها من جديد عبر الهاتف: «هل باستطاعة الأب أرغيداس الحضور لسماع مغنية الأوبرا؟».

كانت تجربة مختلفة بطريقة لم تخطر له أبداً من قبل، كأن الصوت شيء تمكن رؤيته، ويمكن تحسسه. بالتأكيد يمكن الشعور به، حتى من المكان الذي كان يقف فيه في آخر الغرفة. كان الصوت يهتز بين طيات غفّارته، ويلفح خديه. لم يخطر له أبداً في حياته، أن لمثل هذه المرأة وجوداً؛ امرأة قريبة جداً من الله إلى حد أن صوت الله ينبعث منها. لا بد من أنها غارت بعيداً داخل نفسها وتوحَّدت بنفس الله، لتصدر مثل هذا الصوت. بدا كأن الصوت يصدر من مركز الأرض، وبفعل جهدها الكبير وقوة إرادتها سحبته إلى الأعلى من بين الأوساخ والصخور، وعبر الألواح الخشبية لأرض المنزل، صعوداً صوب رجليها، حيث صعد عبرها وامتد وصعد وازداد دفئاً بفعل حرارتها، ثم صدر عبر الزنابق البيضاء في حنجرتها وتوجه

مباشرة إلى الله في السماء. لقد كانت معجزة بحق، وقد انهمرت دموعه كونه حظي بنعمة أنه شاهد عليها.

حتى الآن، بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة أمضوها على الأرض الرخامية في مدخل المنزل، وبعد أن تخلل البرد إلى داخل عظامه، كان صوت روكسان كوس يرسم دوائر كبيرة وانقضاضية داخل رأسه. لو لم يُطلب منه الاستلقاء، لكان أُجبر على الطلب منهم السماح له بذلك. احتاج إلى كل هذه المدة ليرتاح. ومن أفضل ما حظي به أن فترة راحته كانت على أرض رخامية. فقد ظلت الأرض تذكره بالله. لو أنه تمدد على سجادة ناعمة لكان نسي نفسه كلياً. أسعده واقع أنه أمضى الليل وسط بحر من مكبرات الصوت والشارات الضوئية، فقد أبقاه الضجيج صاحياً يفكر، مسروراً (وقد ارتجى الغفران لأجل هذا الأمر) لكونه فوّت عليه قداس الصباح، ولأنه تسنى له بذلك التمتع بهذه اللحظات فترة أطول. كلما طال مكوثه في ذاك المكان، طالت اللحظة أكثر، كأن صدى صوتها لا يزال يُرْجِع تردداته على هذه الجدران المغطاة بالأوراق المزركشة. في النهاية، كانت لا تزال هناك، مستلقية في مكان ما، حيث يعجز عن رؤيتها، لكن ليس في مكان بعيد جداً. أمل لها أن تمضي ليلة مريحة، وأن يفكر أحد ما في السماح لها بالنوم على إحدى الكنبات.

لم تكن روكسان كوس وحدها من يشغل باله. كان الأب أرغيداس يشعر بالقلق أيضاً على أفراد العصابة الشبان. كان العديد منهم يقفون بشكل مستقيم على الحائط، ويباعدون بين

أرجلهم، ويتكئون على بنادقهم كأنها عصيّ للمشي. ثم ترجع رؤوسهم إلى الوراء ويغفون لعشر ثوان قبل أن تنثني ركبهم وتسقط منهم بنادقهم. غالباً ما كان الأب أرغيداس يرافق الشرطة لجمع جثث المنتحرين، الذين غالباً ما كانوا يبدون كأنهم عمدوا إلى الانتحار بهذه الوضعية بالذات، حيث تضغط أصابع أرجلهم على الزناد.

همس لواحد من الفتيان، كان يحرس الناس في ردهة المدخل، وكان أغلبُهم طهاةً ونوادل مستلقين على الأرض الصلبة: أشخاصاً ذوي مرتبة اجتماعية دنيا. نادى له: «بُني». كان في مقتبل العمر، وغالباً ما كان يجد صعوبة في مناداة أبناء الرعية بـ «بني»، لكنه شعر كأن هذا الفتى ابنه. بدا يشبه أنسباءه. بدا أشبه بكل طفل يركض من الكنيسة بعد تناوله لقمة مقدسة من خبز القربان المقدس، وتكون حينها لا تزال بيضاء ومدورة على لسانه: «تعال إلى هنا».

نظر الفتى شزراً ناحية السقف كأنه يسمع الصوت في منامه. ادعى أنه لم يلاحظ الكاهن، فناداه الأب أرغيداس من جديد: «بني، تعال إلى هنا».

نظر عندها الفتى إلى الأسفل وعلا وجهه الارتباك. كيف عسى المرء ألا يرد على كاهن؟ كيف يُعقل للمرء ألا يستجيب له عندما يناديه؟ فهمس له: «أبتاه؟».

تمتم الكاهن وربّت بيده على الأرض، بطريقة لا تعدو كونها نقرة طفيفة بأصابعه: «تعال إلى هنا». لم يكن المكان مزدحماً

على الأرض الرخامية. يوجد هنا الكثير من المجال، ما يتيح للمرء التمدد، على عكس غرفة الجلوس المفروشة بالسجاد. عندما يمضي المرء ليلته متكئاً على بندقية، يبدو له المجال الفسيح على الأرض الرخامية، مرحِّباً بقدر سرير من الريش.

جال الفتى بنظره بتوتر في أرجاء الغرفة، ثم في المكان الذي كان يجتمع فيه الجنرالات، فتمتم له قائلاً: «لا يُسمح لي بالاقتراب». لقد كان هذا الفتى هندياً، ويتكلم لغة الشمال التي كانت جدة الأب أرغيداس تخاطب بها أمه وخالاته.

قال الكاهن بنرة خالية من نفحة تسلط، ومفعمة بالتعاطف: «بل أرى أنه يُسمح لك».

فكر الفتى في هذا الأمر لوهلة، ثم رفع رأسه إلى الأعلى كأنه يتفحص حلية التاج المعمارية الكثيرة التفاصيل التي كانت تزين السقف. اغرورقت عيناه بالدموع، اضطر معها إلى أن يرمش بكثرة كي يحجب دموعه. إنه لا يزال صاحياً منذ وقت طويل، وباتت أصابعه ترتجف حول ماسورة بندقيته، إلى حدّ أنه ما عاد في استطاعة الكاهن التمييز أين تنتهي أصابعه وأين يبدأ المعدن الأزرق ـ الأخضر.

تنهد الأب أرغيداس وكفَّ عن مناداته للحظة. سوف ينادي الفتى من جديد في وقت لاحق كي يُعلمه فحسب، بتوافر مكان له كي يرتاح، وبوجود غفران لأي خطيئة.

ضجت الحشود الموجودة على الأرض بالاحتجاجات.

اضطر البعض منهم إلى دخول الحمام من جديد. وحصلت تمتمات حول الحاجة إلى أدوية. أراد الناس الوقوف، وتناول الطعام، وشرب الماء، كي يزيلوا الطعم من أفواههم. لقد مدهم الشعور بالضيق بالشجاعة، لكن كان هناك الآتي أيضاً: مضت ١٨ ساعة تقريباً ولم يمت فيها أحد. لقد بدأ الرهائن يعتقدون أنهم لن يُقتلوا. إن كان المرء يريد شيئاً معيناً في الحياة، يَمِلْ إلى الإحجام عن الرغبة في أي شيء آخر. بمجرد أن يشعر المرء بأن حياته في مأمن، يشعر بأن لديه حرية التذمر.

تجرّأ أخيراً فيكتور فيودورف، وهو رجل من موسكو، على إشعال سيجارة، على الرغم من أنه وجب تسليم جميع الولاعات وعيدان الثقاب. ونفخ الدخان إلى الأعلى ناحية السقف. كان يبلغ ٤٧ من العمر، وما زال يدخن بانتظام مذ كان في الثانية عشرة... حتى في الأوقات العسيرة، عندما كان يجد نفسه بين خياري الطعام والسجائر.

طقطق الجنرال بنجامين أصابعه، فهرع أحد الفتيان لأخذ سيجارة فيودورف، لكن فيودورف واصل غير آبه، تدخين السيجارة. كان رجلاً ضخماً، حتى لدى استلقائه أرضاً، وحتى وهو مجرد من أي سلاح خلا السيجارة نفسها. بدا أشبه بالرجل الذي سيكسب المعركة. قال للجندي بالروسية: «إياك أن تحاول».

لم يفهم الفتى كلامه، وبدا غير واثق كيف عساه يكمل مهمته. حاول أن يثبت يده عندما سحب بندقيته وصوبها ناحية

فيودورف. قال ييغور ليدبيد، وهو روسي آخر وصديق لفيودورف: «هذا يكفي. هل سترمينا بالرصاص بسبب قيامنا بالتدخين!».

يا لها من متعة: السيجارة. كم يجد المرء متعة في التدخين بعد امتناعه عن ذلك لمدة يوم. تتسنى له عندها ملاحظة الطعم: لون الدخان الأزرق الفاتح. ويتسنى للمرء الاسترخاء والدخول في حالة الطيش السارّة التي يتذكرها من أيام الصبا. كان يكفي المرء أن يحجم عن التدخين كي تتسنى له معرفة متعة معاودة التدخين من جديد. كان فيودورف قد وصل تقريباً في سيجارته إلى حد أنه سيحرق أصابعه تقريباً. يا للأسف. ثم جلس وأذهل الفتى المسلح وسحق السيجارة تحت نعل حذائه.

لفرحة نائب الرئيس الشديدة، قام فيودورف بوضع عقب السيجارة في جيب بزته الرسمية، فعاد الفتى ليدس مسدسه بشكل غريب في حزام سراوله، ومشى بعيداً.

صرخت امرأة قائلة: «لن أتحمل المزيد من هذا، ولا دقيقة واحدة!». لكن، عندما نظر الناس من حولهم، لم يكن أحد منهم واثقاً ممن صدر هذا الكلام.

أوقف الجنرال بنجامين بعد ساعتين من مغادرة جواكيم مسنر، نائب الرئيس عن الأرض، ودفعه ليفتح الباب والتلويح لمسنر بمعاودة الدخول.

هل يُعقل أن يكون مسنر قد قضى كل ذاك الوقت بالوقوف

خارجاً؟ لقد بدت وجنتاه الجميلتان أكثر احمراراً حتى من ذي قبل.

قال مسنر لنائب الرئيس بالإسبانية: «هل كل شيء على ما يرام؟».

كأنه قضى الساعتين الأخيرتين تحت أشعة الشمس يعمل على مهاراته اللغوية.

قال نائب الرئيس بالإنكليزية في محاولة منه ليبدو عميق التفكير: «لم يحصل الكثير من التغيّرات». كان لا يزال تساوره ذرات من الشعور بأنه المضيف.

«لم يعد وجهك بقدر السوء الذي كان عليه. لقد قمت بعمل جيد في ما يخص. . .» ـ كافح لإيجاد الكلمة المناسبة ـ. . . ثم قال أخيراً: «. . .التقطيب». رفع نائب الرئيس إصبعه ناحية خده، لكن مسنر أنزل له يده: «لا تلمس الجرح». نظر في أرجاء الغرفة: «هل لا يزال الرجل الياباني هنا؟».

فسأله روبن: «وأين عساه يذهب؟».

ألقى مسنر نظرة على الأجساد المترامية حول رجليه، جميعهم دافئون ويلتقطون النفس في آن معاً. لقد سبق له ورأى ما هو أسوأ، فعلاً.

قال نائب الرئيس للجنرالات، الذين كانوا ينظرون بعيداً عنهما، كأنهم لم يلحظوا وصول مسنر: «سوف أستدعي المترجم». ثم رفع واحد منهم أخيراً رأسه إلى الأعلى، ونظر

إليه، وقام بنوع من الإيماءات المقتضبة والجانبية بحاجبيه، ففهم منها روبن إيغليسياس أنها تعني: لا بأس، اذهب.

لم يعمد إلى مناداة جين، لكنه مشى في أرجاء الغرفة وصولاً إليه. كانت فرصة لتمديد رجليه ولتعداد ضيوفه. أخذت معظم الحاضرين عند رؤيتهم له دهشةٌ تشبه الإحساس ما بين الجفلة والابتسامة. كان جانب وجهه يتورم بشكل مريع من دون الثلج. لربما ساهمت القطب البارزة في وجهه في ازدياده ورماً. وكلمة السر لتلافي أي سوء أكبر، هي: الثلج. ليس الأمر كأنه يبحث عن البنسيلين. هناك الكثير من الثلج في المنزل. توجد ثلاجتان، واحدة منهما تقع إلى جانب البراد في المطبخ، والأخرى تقع في القبو، ومخصصة للتخزين فحسب. كما توجد آلة في المطبخ مركونة جانباً، وجل ما تفعله هو إنتاج الثلج في علبة بلاستيكية طوال النهار. وبرغم ذلك، أدرك أنه ليس بالشخص المحبب لدى الجنرالات. وأن يغالي في طلب مكعب من الثلج، قد يودي به إلى تلقي كدمة في عينه الأخرى. كم لطيف أن يتسنى له إسناد وجهه على المعدن الأبيض البارد لباب البراد في المطبخ. لن يكون حتى في حاجة إلى الثلج، سيكون هذا كافياً. قال وهو يخطو فوق المونسينيور رولان المستلقي على الأرض: «أيها المونسينيور، أنا في غاية الأسف. هل أنت مرتاح؟ نعم؟ جيد... جيد».

كان منزلاً جميلاً، والسجادة التي احتشد عليها الناس جميلة أيضاً. من كان ليظن أنه ستتسنى له يوماً فرصة العيش في منزل

يحوي ثلاجتين وآلة مخصصة لصنع الثلج؟ لقد كان حظاً رائعاً. كان عمل والده ينحصر في ما مضى في تحميل الحقائب على عربة مفتوحة، للقطارات أولاً، ثم للخطوط الجوية. ووالدته ربّت ٨ أطفال، وكانت تبيع الخضار، وتعمل في الحياكة. كم مرة تم سرد هذه القصة؟ روبن إيغليسياس حفر طريقه بيده إلى القمة. أول فرد في عائلته يُنهي الدراسة الثانوية! عمل كبواب، وككاتب في المحكمة، ليدخل كلية الحقوق. وشهد بعد ذلك نجاحاً في مهنته في مجال المحاماة، وأخذ الخطوات الصحيحة على سلم السياسة غير المستقر. هذا ما جعل منه، كطوله تماماً، نائب رئيس ممتازاً. في هذه القصة لم يأتوا أبداً على ذكر كيف حصل له أن نال هذه الزيجة المميزة، فقد تزوج بابنة شريك قديم حملت منه في خلال احتفال بعيد الميلاد، وكيف دفعه طموح زوجته ووالديها إلى الأمام. لقد ارتأوا أن هذه القصة لم تكن بقدر أهمية تلك.

قام رجل كان يستلقي على الأرض بالقرب من الكرسي المجنّح والمنجّد، بطرح سؤال عليه بلغة اعتقدها روبن أنها الألمانية. فقال له نائب الرئيس إنه لا يعلم.

كان جين المترجم يستلقي على مسافة قريبة من السيد هوسوكاوا. همس شيئاً في أذن هوسوكاوا، فما كان منه إلا أن أغمض عينيه وهز برأسه بشكل طفيف. لقد نسي روبن أمر السيد هوسوكاوا كلياً. فكر بينه وبين نفسه، «عيد ميلاد سعيد، سيدي. لا أحسبنّ أنه سيتم بناء أي مصانع هنا هذه السنة». وفي مكان

ليس ببعيد جداً عنهم، كانت تقبع روكسان كوس وعازفها. لقد بدت أفضل مما كانت عليه حتى في الليلة الماضية، إن صح ذلك. فقد أسدلت شعرها وشعت بشرتها كأنها كانت تنتظر مثل هذه الفرصة لتستريح. تمتمت له باللغة الإنكليزية، وقد وضعت يدها على خدها إشارة إلى الاهتمام الذي تبديه بجرحه: «كيف حالك؟». كان يشعر تلك اللحظة بأنه على وشك الإغماء. ربما سبب ذلك أنه لم يأكل بعدُ، أو ربما بسبب الإنهاك، أو فقده الدم، أو بسبب بداية التهابات يعاني بسببها. لقد لمست وجهها بهذه الطريقة لأنها فقط تعجز عن الوقوف ولمس خده بيدها، وعندما تخيلها واقفة وتلمس خده، خرّ على الأرض ووازن نفسه على أصابع قدميه، ووضع يديه أمامه، وأنزل رأسه إلى الأمام حتى يذهب عنه هذا الشعور، ثم رفع عينيه ببطء تجاه عينيها اللتين بدتا الآن مرتعبتين، وهمس لها مطمئناً: «إنني بخير». لاحظ في تلك اللحظة عازفها. لم يبد هذا المهووس بالموسيقى وبها، أنه بصراحة بخير على الإطلاق. بدا له أنه لو أمكن روكسان كوس أن تمنّ عليه بهذا القدر من التعاطف، يجدر بها أن تلقي نظرة جيدة إلى الرجل المستلقي إلى جانبها. كان وجهه شاحباً، وبالرغم من أن عينيه كانتا مفتوحتين وصدره يتحرك بوتيرة طفيفة، إلا أنه كانت تغلب عليه سكينة وجدها نائب الرئيس لا تبشر بأي خير إطلاقاً. ثم قال بلطف وأشار إليه: «وهو؟».

نظرت إلى الجسد الموجود قربها كأنها تلاحظه للمرة الأولى. «إنه يقول إنه يعاني الأنفلونزا. أظنه يشعر بتوتر شديد».

كانا يتحدثان بصوت منخفض جداً، لكن بدا صوتها مذهلاً، كما لو أنها تؤدي وصلة غنائية بالرغم من أنه لم يفهم تماماً كل ما تفوهت به.

نادى الجنرال ألفريدو قائلاً: «أيها المترجم!».

أراد روبن أن يقف ويمد يده إلى جين، لكن جين الأصغر سناً، عاجله ووقف على رجليه في وقت أسرع. ومد يده نزولاً ليساعد نائب الرئيس. أخذ يد روبن، كأن نائب الرئيس أُصيب فجأة بالعمى، ثم جرّه إلى الأمام في أرجاء الغرفة. كم يمكن المرء تشكيل الروابط في ظل ظروف مثل هذه، يا للاستنتاجات الجريئة التي بوسع المرء التوصل إليها في وضع مريع كهذا: كانت روكسان المرأة التي لطالما أحبها؛ وجين واتاناب ابنه؛ ولم يعد المنزل ملكاً له؛ وأفَلَتْ حياته التي كان يعهدها، أي حياته السياسية. تساءل روبن إيغليسياس إن كان جميع الرهائن من حول العالم ينتابهم الشعور نفسه.

قال مسنر وهو يصافح يد جين بحرارة كأنه يقدم إليه التعازي: «جين، يجدر بنائب الرئيس الحصول على الأدوية». قال هذا الكلام بالفرنسية حتى يترجمه جين.

قال الجنرال بنجامين: «لقد قضينا كثيراً من الوقت في مناقشة حاجات رجل أخرق».

عرض روبن نفسه قائلاً: «ثلج؟»، بعد أن امتلأ رأسه فجأة بملذات الثلج: بالثلج الموجود على أعالي جبال الأنديز، وبهؤلاء المتزلجين الأولمبيين الذين يظهرون على شاشات التلفزة، وبالشابات اللواتي يضعن أوشحة شفافة حول خصورهن

الشبيهة بخصور الدمى. لقد بات الآن يحترق حياً، والشفرات الفضية لمزلاجاتهم تقذف عالياً نثرات ثلج بيضاء ناصعة. إنه يريد أن يُدفن في الثلج.

نادى الجنرال أحد الفتيان بنفاد صبر: «اسماعيل، اذهب إلى المطبخ، واجلب له منشفة وثلجاً».

ارتسم السرور على وجه اسماعيل، وهو أحد الفتية الواقفين بمحاذاة الحائط، ويمتاز بصغر سنّه، وينتعل الحذاء الأسوأ حالاً فيهم جميعاً. لعله شعر بالفخر لكون الخيار وقع عليه للقيام بالمهمة. ربما أراد مساعدة نائب الرئيس. ربما أراد التوجه إلى المطبخ حيث بالتأكيد سيجد بانتظاره صوانٍ من بقايا الرقاقات والخبز المحمص وبما لذ وطاب. قال الجنرال ألفريدو بمرارة: «إن أحداً لا يعطي شعبنا الثلج عندما يحتاج إليه».

قال مسنر وهو شبه مُصغٍ إلى ترجمة جين: «بالتأكيد. هل توصلتم إلى أي نوع من التسوية هنا؟».

قال الجنرال ألفريدو: «سنسمح لك بأخذ النساء. إننا لا نبدي اهتماماً بأذية النساء. ويمكن العمال والكاهنَين وكل من هو مريض المغادرة. وبعد ذلك سنراجع قائمة الأشخاص الذين بقوا عندنا. ربما نجد عندها بضعة أشخاص آخرين بوسعهم المغادرة أيضاً. وفي المقابل نود بعض المؤن». سحب ورقة مطوية بترتيب من جيبه الأمامي، وأمسكها بين أصابعه الثلاث المتبقية في يده اليسرى. «هذه الأشياء التي نحتاج إليها. وتجدر قراءة الصفحة الثانية أمام الصحافة. إنها مطالبنا». كان ألفريدو واثقاً جداً من

أن خطتهم ستنقلب إلى حال أفضل مما انقلبت إليه. ففي النهاية، نسيبه هو الذي عمل مرة على جهاز التكييف في هذا المنزل، وأفلح في سرقة نسخة من خريطة المنزل.

أخذ مسنر الورقتين ونظر إليهما لدقيقة من الوقت، ثم طلب من جين قراءتهما. فوجئ جين حينما وجد يديه ترتجفان. لا يذكر أن حصل له في حياته أن ترجم كلاماً يعنيه شخصياً. «نيابة عن الشعب، احتجزت عصابة «لا فاميليا دو مارتن سواريز» الرهائن التالية».

رفع مسنر يده أمام جين حتى يكف عن الكلام. «لا فاميليا دو مارتن سواريز؟».

فهز الجنرال برأسه.

أبقى مسنر نبرة صوته منخفضة، وقال: «ليس «لا ديركسيون أوتينتيكا؟»».

قال الجنرال ألفريدو وقد تأثر صوته بالإهانة: «لقد قلتَ إننا أشخاص حصيفون. ما رأيك؟ هل تعتقد أن «لا ديركسيون أوتينتيكا» قد تتكلم معك؟ هل تعتقد أننا كنا لنطلق سراح النسوة؟ أنا أعرف عصابة «لا ديركسيون أوتينتيكا» («ل.د.أ.»). إن من يجدون أنه لا فائدة تُرجى منه يرمونه بالرصاص. ومَن الذين رميناهم بالرصاص؟ لا أحد. إننا نحاول القيام بشيء من أجل الشعب، هل يسعك فهم هذا الأمر؟». وتقدم خطوة في اتجاه مسنر، الذي عرف المغزى وراءها، لكن جين دس نفسه بهدوء بينهما.

قال جين محافظاً على نبرة صوت حازمة ومفهومة: «إننا نحاول القيام بشيء من أجل الشعب». أما الجزء الآخر من الجملة «هل يسعك فهم هذا الأمر؟»، فقد كان لا طائل منه، لذا أهمل ترجمته.

اعتذر مسنر عن الخطأ الذي ارتكبه، والذي كان خطأً صادقاً. لم يكونوا عصابة «ل.د.أ.». وجب عليه التركيز حتى يضبط زاويتي فمه، ويمنعهما من الالتواء صعوداً. «متى سيتم إطلاق سراح المجموعة الأولى؟».

لم يستطع الجنرال ألفريدو التكلم معه. كان يصك على أسنانه. حتى الجنرال هكتور الذي لم يكن يتكلم كثيراً، بصق على السجادة المنمقة. عاد إسماعيل مع منشفتين مليئتين بمكعبات الثلج، وهي إشارة إلى مدى الوفرة التي كان يتمتع بها المطبخ. ضرب الجنرال بنجامين إحدى المنشفتين فأوقع مكعبات الثلج الصافية منها فتدحرجت وانتشرت على السجادة. كل من كان قريباً التقطوا المكعبات التي سقطت ودسّوها في أفواههم. وبسرعة أعطى إسماعيل، الذي أصابه الخوف، ما بقي من الثلج لنائب الرئيس مع انحناءة طفيفة من رأسه. بادله روبن الانحناء. كان يرى أنه حري به ألا يلفت الانتباه إليه أكثر من اللازم. بدا جلياً أنه لا يلزمهم الكثير حتى يعاودوا ضربه من جديد بكعب البندقية على رأسه. وضع الثلج على وجهه، وتأوه بسبب الألم والشعور العميق العميق بانتعاش البرودة.

تنحنح الجنرال بنجامين واستجمع قواه، ثم قال: «سوف

نقسمهم الآن». توجه أولاً بالكلام إلى الجنود. «انتبهوا. تأهبوا». وقف الفتيان الذين كانوا بمحاذاة الحائط بشكل مستقيم، ورفعوا أسلحتهم إلى مستوى صدورهم، ثم أضاف: «فلينهض الجميع على رجليه».

قال جين باليابانية: «أستميحك عذراً، عليك الوقوف الآن. إن كان الخاطفون يمنعون الكلام، فقد كانوا يستثنون جين من ذلك. ثم أعاد الجملة من جديد بالعديد من اللغات التي يسعه تذكرها. قالها بلغات أدرك أنه ما من لزوم للنطق بها، لأن أحداً لن يعرفها، مثل الكرواتية ـ الصربية، والصينية، وذلك لمجرد أنه كان يشعر براحة في الكلام، ولم يكن هناك من يعمد إلى منعه. «قفوا»، كلمة ليست بحاجة إلى الترجمة في المقام الأول. فالناس يتصرفون كالنعاج في أحوال معينة. وعندما يبدأ البعض بالوقوف سيتبعه الآخرون.

كان الناس متصلّبين ومستغريبن. حاول البعض إيجاد مكان حذائه، والبعض الآخر نسي أمره تماماً، وبعض الناس مشى بخفة على إحدى الرِّجلين في محاولة لإزالة الخدر منها. كانوا يشعرون بالتوتر. وبقدر ما كان تفكيرهم منشغلاً على الدوام بفكرة الرغبة في الوقوف، إلا أنهم شعروا بعدم الأمان عندما باتوا الآن واقفين على أرجلهم. بدا أن التغيرات ستكون على الأرجح سيئة وليست حسنة، وأن الوقوف زاد من احتمال التعرض لإطلاق النار.

«فلتقف النساء في أقصى الجانب الأيمن من الغرفة، والرجال إلى أقصى اليسار». ترجم جين الجملة إلى مختلف

اللغات التي يعرفها، من دون أدنى فكرة عن البلدان التي يأتي منها الضيوف، ومن الذين يعتبرون بحاجة إلى الترجمة. كان صوته مفعماً بالرتابة المهدّئة التي تمتاز بها الإعلانات التي تُسمع في محطات القطارات والمطارات.

لكن، لم ينفصل الرجال والنساء بسرعة. تعلقوا عوضاً عن ذلك ببعضهم البعض، ولفّوا أذرعتهم حول أعناق بعضهم البعض. والأزواج الذين لم يسبق لهم أن عانقوا بعضهم بهذه الطريقة منذ سنين، والذين ربما لم يعانقوا بعضهم بهذه الطريقة أمام الملأ، تعانقوا الآن بشغف. إنها لحظة الحقيقة؛ لحظة نحسّ بهجر من نحب... ربما إلى الأبد. إنها حفلة طالت ببساطة لمدة طويلة جداً. لقد توقفت الموسيقى وتوقف الرقص، وبرغم ذلك لا يزال الأزواج واقفين، وكل زوجين يتمسكان ببعضهما البعض في حالة ترقّب. الوحيدان اللذان شكلا ثنائياً غريباً، كانا روكسان كوس وعازفها. لقد بدت صغيرة الحجم كثيراً بين ذراعيه، فبدت أشبه بطفلة تقريباً. لم تبد أنها راغبة في احتضانه لها، لكن عند التمحيص بهما عن قرب، تبدو كأنها تتمسك به. كان قد غطاها بجسمه، والتكشيرة التي ارتسمت على وجهها دلّت على أنها امرأة لا تحتمل مثل هذا الوزن. قام السيد هوسوكاوا بعد أن أدرك مدى انزعاجها (لأنه كان يراقبها، إذ لم يكن لديه من يعانقه، فزوجته موجودة بمأمن في طوكيو) بأخذ العازف بين ذراعيه، وحمل الرجل الذي يفوقه حجماً بكثير على كتفيه كأنه معطف في طقس بات أكثر دفئاً. ترنح السيد هوسوكاوا بعض الشيء، لكن لم يكن بأمر يُذكر مقارنة بالارتياح الذي علا وجهها.

قالت: «شكراً لك».

فقال: «شكراً لكِ».

«هل ستعتني به؟». رفع عندئذ العازف رأسه وحمل بعض ثقله على رجليه.

كرر السيد هوسوكاوا الشكر بلطف: «شكراً لك».

أما الرجال الآخرون، الذين لا أزواج لهم، وعلى الأغلب النوادل منهم، الذين تمنى كل منهم لو أنه الشخص الذي أزاح هذا الأجنبي الضخم عن كتفيها، فتقدموا لمساعدة السيد هوسوكاوا، وانتقلوا معاً إلى الجانب الأيسر من الغرفة برفقة ذاك الرجل الكريه الرائحة، والذي ظل رأسه الأشقر الشعر يترنح كأن رقبته قد كُسرت. التفت السيد هوسوكاوا ونظر إليها، وقد تألم لمعرفته أنها ستمسي وحدها. خطر له أنها قد تكون تراقبه، لكنها كانت تنظر إلى عازفها الذي كان منهاراً بين يدي السيد هوسوكاوا. وبمجرد أن بات بعيداً عنها، أمكنها رؤية كم بدا متعباً. والآن وسط كل هذه الوداعات الحارة، فوجئ السيد هوسوكاوا بأنه لم تخطر له حتى فكرة جلب زوجته إلى هذه الدولة. لم يخبرها أنه تمت دعوتها، بل قال لها إنه ذاهب لحضور اجتماع عمل، وليس حفلة عيد ميلاد منظّمة على شرفه. كان بينهما اتفاق ضمني بوجوب بقاء السيدة هوسوكاوا دوماً في المنزل إلى جانب بناتهما. فلم يعمدا أبداً إلى السفر معاً. والآن، بات يرى لِمَ كان قراره حكيماً. لقد درأ عن زوجته هذه المعاناة، واحتمال تعرضها للأذى. لقد قام بحمايتها. لكن لم يقو برغم ذلك، إلا على التساؤل كيف كانت الحال لتكون

عليه، لو أنهما كانا واقفين معاً الآن. هل كانا ليشعرا بالحزن الشديد لدى الطلب منهما الابتعاد عن بعضهما البعض؟

لم يتبادل كل من إديث وسيمون تيبولت أي كلمة، لمدة بدت كأنها طالت دهراً، في حين أنها كانت مجرد دقيقة واحدة. ثم قبلته وقالت له: «سوف أفكر فيك في الخارج». أمكنه التفوه بأي شيء. لا يشكل الأمر أي فارق. كان يفكر في الأعوام العشرين التي مرت على زواجهما؛ تلك السنين التي أحبها فيها من دون أي نوع من التفهم الحقيقي. سيكون هذا عقابه الآن، على كل ذاك الوقت الذي أهدره. «العزيزة» إديث. خلعت عنها الإزار الحريري الخفيف الذي كانت تضعه عليها. كان قد نسي أن يطلبه منها. كان لونه أزرق رائعاً، الأزرق الذي يُستخدم لأواني العشاء الخاصة بالملوك، والذي يزدان به الريش الذي يغطي صدور العصافير في هذه الأدغال النائية. جعدته وصنعت منه كرة صغيرة جداً، ثم وضعته بين يديه المفتوحتين.

قالت له: «إياك أن تُقْدِم على أي عمل غبي». ولأن هذا كان الطلب الأخير الذي طلبته منه، أقسم أن يلتزم به.

حصل انفصال الأزواج بشكل هادئ. لم تكن هناك ضرورة لفصل أي ثنائي بقوة السلاح. أدرك كل رجل وامرأة أن وقتهما قد انتهى، وأن لا مناص من الانفصال، فقام الجميع بتنفيذ الأوامر، كأن وصلة رقص معقدة على وشك البدء، وقريباً سيعاودون الانضمام، ثم الافتراق، ثم تبديل الشركاء، إنما فقط ليعاودوا احتضانهم من جديد.

أخذ مسنر كومة من بطاقات الأعمال من محفظته، وأعطى لكل جنرال واحدة، وأعطى واحدة لجين، وواحدة لنائب الرئيس، ثم ترك البطاقات الباقية على طبق على طاولة غرفة الجلوس. وقال: «تحتوي هذه البطاقات على رقم هاتفي. إنه رقمي الخاص. إن أردتم التكلم معيُ فلتتصلوا بي على هذا الرقم. سوف يُبقون الخطوط الهاتفية مفتوحة في المنزل في الوقت الحالي».

نظر كل منهم إلى البطاقات، وهم يشعرون بالارتباك. بدا الأمر كأنه يدعوهم إلى غداء ما، كأنه لم يفهم جسامة الوضع.

قال مسنر: «قد تحتاجون إلى شيء ما. وقد تودون التحدث إلى أحد ما من الخارج».

قام جين بانحناءة طفيفة. وجب عليه الانحناء لمسنر حتى حدود خصره، ليُظهر له احتراماً على مجيئه إلى هذا المكان، ولمخاطرته بحياته كرمى لهم. لكنه أدرك أن أحداً لن يفهم الأمر. ثم توجه السيد هوسوكاوا وأخذ بطاقة من الطبق وصافح يد مسنر، وانحنى كثيراً حتى أوشك رأسه على لمس الأرض.

توجه بعدئذ الجنرالات ألفريدو وبنجامين وهكتور إلى الضيوف من الرجال، وانتقوا منهم العمال، والنوادل، والطهاة، وعمال التنظيف، ووضعوهم مع النساء. كان هدفهم الرئيسي تحرير العمال عبر الثورة، لذا ما كانوا ليُبقوهم في عداد الرهائن. ثم سألوا إن كان أحد ما يعاني مرضاً شديداً، وجعلوا جين يكرر السؤال عدة مرات. قد يخطر للمرء أن كل فرد منهم

سيدّعي الإصابة بوهن في القلب، لكن الضيوف ظلوا في حالة صمت مطبق. تقدّمت إلى الأمام مجموعة صغيرة من المسنين، ورجل إيطالي وسيم أظهر سوار تعريف طبي، فتمت إعادته إلى أحضان زوجته. عمد رجل واحد فقط إلى الكذب ولم يُفتضح أمره: أخبرهم الدكتور غوميز أنه يعاني مرضاً في الكليتين منذ سنين، وأنه تأخر على موعد غسل الكلى. شعرت زوجته بالعار وأدارت له ظهرها. بدا العازف، وهو الأكثر مرضاً بينهم، مرتبكاً إلى حد منعه من التماس الخروج لنفسه، لذا وضعوه على كرسي في مكان كانوا واثقين من أنهم لن ينسوه فيه. وسمحوا أيضاً للكاهنَين بالمغادرة، فرسم المونسينيور رولان إشارة الصليب فوق الأشخاص الذين سيبقون. اعتُبرت مبادرة لطيفة، ثم ابتعد، لكن الأب أرغيداس الذي لم يكن عنده مشاغل ضرورية تمنعه من البقاء، طلب الإذن بالبقاء.

سأله الجنرال ألفريدو باستغراب: «البقاء؟».

فقال له: «سوف تحتاجون إلى كاهن».

ارتسمت على وجه ألفريدو ابتسامة صغيرة. كانت المرة الأولى التي يبتسم فيها: «صدّقني سوف تود المغادرة».

«إن ظل الناس هنا حتى الأحد، فستحتاجون إلى من يقوم بالقداس».

«سوف نصلي وحدنا».

قال الكاهن وعيناه متوجهتان إلى الأرض: «بكل احترام يا سيدي، أود البقاء».

أُقفلت بهذا الكلام القضية. لم يقو المونسينيور رولان على فعل شيء عدا مراقبة مجريات الأمور من دون أي حول أو قوة. بات يقف بين النساء، وقد ولّد فيه ذلك الشعور بالخزي. كان طبيعياً أن يمتلئ غضباً مستشيطاً. ودَّ لو يخنق الكاهن الشاب بيد واحدة، لكن الأوان قد فات على ذلك. لقد تم إنقاذه وانتهى الأمر.

وجب إخلاء سبيل نائب الرئيس بسبب وضعه الصحي، لكنه لم يكلف نفسه حتى عناء السؤال. وعوضاً عن ذلك، وبالرغم من إصابته بالحمى وحمله كيساً من الثلج الذائب كان يضغط به على وجهه، طُلب منه الخروج من الباب والنزول ناحية البوابة الكبيرة الموجودة وسط الحائط، وإعلان إطلاق سراح الناس أمام الإعلام. بالكاد حظي بثانية من الوقت مع زوجته، وهي امرأة مرموقة جعلت من مصلحته المهنية شغلها الشاغل في الحياة، ولم تنبس ببنت شفة وهي تراقبه يبدّد حصيلة جهودها. ولم يحظ بدقيقة واحدة مع ابنتيه إيملدا وروزا، اللتين أحسنتا التصرف وظلتا مستلقيتين طوال النهار على جنبيهما، تلعبان بأصابعهما لعبة معقدة مع بعضهما البعض، لم يقو هو نفسه على فهمها. لم يقل شيئاً لإيزميرالدا، لأنه لم يجد الكلمات المناسبة لشكرها. كان يشعر بالقلق عليها. في حال تم قتله، هل سيبقونها في عملها؟ لقد أمل ذلك من كل قلبه. كانت تتمتع بقوام جميل، وتتحلى بالصبر مع الأولاد. لقد علمتهم كيفية تلوين صور الحيوانات على صخور صغيرة، وصنعوا من تلك الصخور عوالم رائعة. كان يوجد الكثير من هذه الصخور في

الطابق العلوي. وعاجلاً أم آجلاً، سوف يفلح في النفاذ منهم، وسيتوجه لرؤية هذه اللوحات. تمسكت زوجته بابنهما إلى حد أنه بكى بسبب الضغط الناجم عن يديها. كانت تخشى أن يحاولوا أخذه ووضعه إلى جانب الرجال، لكن روبن ربّت على أصابعها وطمأنها. قال لها: «لن يعتبره أحد من عداد الرجال». قبّل ماركو رأسه، ولثم شعره الحريري الصبياني الرائحة، ثم توجه إلى الباب.

كان أفضل من الرئيس ماسودا، رجلاً لهذه المهمة. لا يستطيع الرئيس التفوه بكلمة ما لم تكن مكتوبة. لم يكن رجلاً غبياً، بل تعوزه العفوية. كما أنه يعاني حدة المزاج والغرور، ولا يحتمل أن يظل يتلقى أمر التوجه من الغرفة إلى الباب، رواحاً وإياباً. قد يتفوه بكلمة منفلتة من عقالها، وغير مسموح بها، فيتعرض لإطلاق النار، ما سيؤدي في النهاية إلى مقتل الجميع رمياً بالرصاص. للمرة الأولى، وجد أنه كان من الأفضل بقاء ماسودا في منزله لمشاهدة المسلسل، لأنه يمكن روبن أن يكون الخادم، الرجل المستقيم، وعبر قيامه بذلك ينقذ حياة زوجته، وأولاده، ومربيتهم الجميلة، والشهيرة روكسان كوس. إن هذا العمل المحدد الذي كُلف به الآن، كان في الواقع مناسباً كثيراً لمواهبه كنائب رئيس. خرج مسنر ورافقه على سلالم المدخل الأمامي. كانت السماء قد تلبدت بالغيوم، لكن الهواء كان منعشاً وعليلاً. أنزل الأشخاص الموجودون في نهاية الممشى أسلحتهم، ثم خرجت النساء، وفساتين تلمع تحت أشعة شمس العصر. لولا وجود الشرطة والمصورين، قد يخطر للمارة

أنها كانت حفلة انتهت بشجار نشب بين كل زوجين، وآلت النسوة على أنفسهن الانسحاب وحدهن باكراً. كن يبكين، وقد استحالت شعورُهن عقداً متشابكة، وأُفسد تبرجهن. كن يحملن تنانير أثوابهن بين أيديهن، وأغلبهن يحملن أحذيتهن. والنساء اللواتي خلَّفن أحذيتهن في منازلهن، تمزقت جواربهن بسبب السير على بلاط الممشى الأمامي الخشن. وبالرغم من ذلك، لم تلحظ أي منهن الأمر. كأن خلفهن توجد سفينة غارقة أو مبنى محترق. وكلما ابتعدن عن المنزل ازددن نحيباً. الرجال القلة، الخدم، المرضى، خرجوا وراءهم، ويبدو عليهم ضعف الحيلة في وجه هذا الأسى الشديد الذي لا يتحملون وزره.

الفصل الثالث

تم إطلاق سراح جميع النساء ما عدا واحدة. كانت في مكان ما وسط الصف. كانت مثل جميع النساء الأخريات، تنظر إلى الوراء ناحية غرفة الجلوس، وليس إلى الباب المفتوح، مُطرقة في الأرض حيث نامت كأنها لم تمض ليلة فحسب، بل عاشت فيها سنين عديدة. كانت تنظر إلى الرجال الذين لن يخرجوا، والذين لم تكن تعرف منهم أحداً، عدا ذاك السيد الياباني الذي تعرف أن الحفلة أُقيمت على شرفه، وهي بالتأكيد لم تكن تعرفه، لكنه مد لها يد العون مع عازفها، ولأجل ذلك بحثت عنه بين الجميع، وابتسمت في وجهه. ظل الرجال يتحركون من مكان إلى آخر ضمن مجموعتهم، ويبدو عليهم جميعاً من أقصى الطرف المقابل من الغرفة، الحزن والتوتر. رد السيد هوسوكاوا لها الابتسامة كعربون تقدير صغير، ثم أحنى رأسه. وباستثناء السيد هوسوكاوا، لم يكن الرجال يفكرون في روكسان كوس عندئذ. لقد نسوا أمرها وأمر أغانيها الرائعة. كانوا يراقبون زوجاتهم وهن خارجات من الباب لتنسدل عليهن أشعة

شمس العصر الجميلة، وقد ظنوا أنهم لن يستطيعوا رؤيتهن من جديد. ها قد ارتفع الحب الذي شعروا به عالياً، إلى قصباتهم الهوائية وحجب عنهم الهواء. وها هي إديث تيبولت تغادر، وزوجة نائب الرئيس، والجميلة إيزميرالدا.

أوشكت روكسان كوس على الوصول إلى الباب، ربما تفصلها عنه ست نساء، عندما تقدم الجنرال هكتور إلى الأمام وأمسك بذراعها. لم يمسكها بطريقة عنيفة. لعله كان يعمد إلى مرافقتها إلى مكان ما. ربما أراد لها أن تكون في مقدمة الصف. قال لها بالإسبانية: «انتظري»، ثم أشار إلى الحائط حيث أرادها أن تقف وحدها بالقرب من لوحة ضخمة لماتيس تصوّر إناءً مليئاً بالإجاص والخوخ. كانت هذه اللوحة واحدة من لوحتي ماتيس اللتين لا توجد سواهما في البلد برمته، وقد تمت استعارتها من متحف الفنون لأجل هذه الحفلة. شعرت روكسان بالارتباك، فنظرت عندئذ إلى المترجم. قال لها جين بلطف، بالإنكليزية: «انتظري»، محاولاً أن يُظهر هذه الكلمة الوحيدة لطيفة بقدر الإمكان. إن كلمة، «انتظري»، لا تعني في النهاية أنه لن يسعها المغادرة، بل ربما سيتم تأخير مغادرتها فحسب.

تلقّت الكلمة، وفكرت فيها لوهلة. كانت لا تزال تشك في أنه يقصد فعلاً هذه الكلمة التي تلفَّظ بها حتى بعدما سمعتها بالإنكليزية، فانتظرت كأنها طفلة. اعتادت أيامَ المدرسة الانتظارَ في الصف من أجل تجارب الأداء. لكن في الحقيقة، في الأعوام الأخيرة، لم يطلب أحد منها الانتظار على الإطلاق. بل

الناس هم الذين كانوا ينتظرونها. أما هي فلم تنتظر. إن هذا كله ـ حفلة عيد الميلاد، البلد السخيف، الأسلحة، الخطر، والانتظار الذي تخللها جيمعاً ـ عبارة عن مهزلة. سحبت ذراعها بقوة فتسببت في انزلاق نظارة الجنرال عن أنفه. قالت للجنرال هكتور بعد أن فاض بها، ولم تعد ترغب في وجود يده على جلدها: «اسمع، كفانا إلى هذا الحد». فتح جين فمه إيذاناً بالترجمة، ثم ارتأى أنه يستحسن به ألا يفعل. كما أنها كانت لا تزال تتكلم. «لقد أتيتُ إلى هنا لأقوم بعملي، كي أغني في حفلة، وقد قمت بالأمر. لقد أُمرت بالنوم على الأرض مع جميع أولئك الناس الذين تمتلك سبباً ما لتبقيهم هنا، وقد قمت بهذا الأمر أيضاً. لكن انتهى الأمر الآن». ثم أشارت إلى الكرسي حيث يجلس عازفها منهاراً، وقالت وقد خلا كلامها من الإقناع: «إنه مريض. وعليّ أن أكون معه». بدا العازف ميتاً أكثر مما بدا مريضاً، وهو قابع على الكرسي وذراعاه يتدليان عن الجانبين كأنهما عَلَمان في يوم ساكن الهواء. عندما تكلمت، لم يرفع رأسه. كف الصف عن التحرك. حتى النساء اللواتي باتت لهن الحرية بالمغادرة توقفن لمراقبتها، بغض النظر عما إذا كن يمتلكن أدنى فكرة عما تقوله أم لا. في لحظة الشك هذه بالذات، أي لحظة السكون المحتوم الذي يسبق الترجمة، رأت روكسان كوس الفرصة ملائمة جداً للخروج. فتقدمت إلى الأمام ناحية الباب الأساسي الذي كان مفتوحاً ومنتظراً. فمد الجنرال هكتور ذراعه ليمسك بها، وعندما أخفق في إمساك ذراعها

جذبها بقوة من شعرها. إن مثل هذا الشعر يجعل من المرأة هدفاً سهلاً. بدا الأمر كأنها مربوطة بعدة حبال ناعمة وطويلة.

ثم حدثت ثلاثة أمور بسرعة متتالية: أولاً، أطلقت روكسان كوس، مغنية الأوبرا، صوتاً عالياً وواضحاً، بدا كأنه مزيج من المفاجأة والألم الحقيقي. لقد اندفعت رقبتها إلى الوراء بفعل شدّه لشعرها. ثانياً، رجع كل ضيف دُعي إلى الحفلة خطوة إلى الأمام (باستثناء عازفها)، فبدت هذه اللحظة كأنها لحظة التمرد. ثالثاً، قام كل من الخاطفين، الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة إلى الواحد والأربعين، بصلي ديك البندقية التي كان يحملها، فتوحد الصوت العالي لطقطقة المعدن كأنه فيلم تم تجميعه في إطار مشهد واحد. وعندها انتظر كل من في الغرفة، وطال الوقت، إلى أن استدارت روكسان كوس من دون قيامها بأي حركة، مثل ترتيب ثوبها أو لمس شعرها، وتوجهت للوقوف قرب لوحة ماتيس، التي لم تكن عملاً فنياً رائعاً، بكل صراحة.

بدأ الجنرالات إثر ذلك يتناقشون بهدوء في ما بينهم. حتى الجنود الشبان كانوا ينحنون إلى الأمام محاولين الاستماع. اندمجت أصواتهم معاً. سُمعت تتردد بينهم كلمات، مثل: «امرأة»، ثم «أبداً»، و«اتفاق». ثم قال أحدهم بصوت منخفض ومرتبك «بوسعها الغناء». ونظراً إلى تقارب رؤوسهم من بعضها البعض، استحالت معرفة القائل. يمكن أن يكونوا جميعاً قائليها، أو ربما جميعنا.

توجد أسباب أسوأ للإبقاء على شخص ما كرهينة. عادة يُبقي المرء شخصاً ما رهينة بحكم أهميته بالنسبة إليه، وما يمكن مقايضته به: مال، أو حرية، أو شخص آخر يرغب فيه أكثر. يمكن أي شخص أن يكون غرضاً للتبادل عندما تجد الطريقة للإمساك به. لذا أن تمسك بامرأة من أجل أغنية، لأن ما يتوقون إليه هو سماع صوتها، ألم يكن بالأمر نفسه؟ لقد قرر الإرهابيون بعد أن فقدوا فرصة الحصول على ما أتوا لأجله، أخذ شيء ما عوضاً عن الرئيس، شيء لم يدركوا في حياتهم أنهم يريدونه إلى أن جلسوا القرفصاء في فتحات التهوئة المعتمة والصغيرة: الأوبرا. لقد قرروا أخذ الشيء الذي كان السيد هوسوكاوا يعيش من أجله بالتحديد. وقفت روكسان وحدها إلى الحائط بالقرب من لوحة الفاكهة المبعثرة والناصعة الألوان، وبكت نتيجة إحباطها. بدأ الجنرالات يرفعون أصواتهم في الوقت الذي كانت فيه بقية النساء والخدم يخرجون من الباب. فحدق الرجال، وأبقى الإرهابيون الشبان بنادقهم مرفوعة. قام العازف الذي غفا في كرسيه بشكل موقت، بانتشال نفسه، ثم وقف وخرج من الغرفة بمساعدة عمال المطبخ من دون أن يلحظ أن روكسان لم تكن إلى جانبه.

قال الجنرال بنجامين وهو يمشي ضمن مساحة واسعة على أرض كانت ملأى بالرهائن من قبل: «هذا أفضل حالاً. بات الآن بوسع المرء التنفس».

أمكنهم من داخل المنزل سماع أصوات الاحتفال والتصفيق

الذي يُستَقبل به الناس الرهائن المحررون. وانبعث وميض كاميرا قوي من الجانب الآخر من حائط الحديقة. ووسط هذه الجلبة، عاود العازف الدخول من الباب الرئيسي الذي لم يكلف أحد نفسه عناء إقفاله. فتحه بقوة، بحيث ارتطم بالحائط وراءه، فخلّفت مسكة الباب علامة على الخشب. كانوا ليرموه بالرصاص، لكنهم كانوا يعرفونه. قال باللغة السويدية: «روكسان كوس ليست في الخارج». كان صوته ثقيلاً، بحيث علقت الحروف الساكنة بين أسنانه: «إنها ليست في الخارج!».

كان كلام العازف مبهماً إلى درجة أنه أخذ جين دقيقة حتى فهم اللغة التي ينطق بها. ما يعرفه من اللغة السويدية كان قد تعلمه من أفلام بيرغمان. كان قد تعلمه حينما كان طالباً جامعياً عبر مطابقة الترجمة أسفل الشاشة مع الصوت. في اللغة السويدية لم يكن يسعه المحادثة إلا بواسطة الكلمات الأساسية. قال جين: «إنها هنا».

بدا كأن غضب العازف أعاد إليه عافيته بشكل موقت. ولوهلة من الوقت، عاد الدم ليتدفق في وجهه الشاحب. «لقد أُطلق سراح جميع النساء!». هز يديه في الهواء كأنه يحاول إبعاد طيور الغراب عن حقل ذرة، واستحالت شفتاه المزرقتان سريعاً إلى اللون الأبيض جراء اللعاب الذي كان يبصقه. ترجم جين كلامه إلى اللغة الإسبانية.

قالت روكسان: «كريستوف، أنا هنا»، ولوحت له بيدها كأنه تم فصلهما منذ برهة في حفلة ما.

صرخ العازف قائلاً: «خذوني بدلاً منها»، وركبتاه ترنحان بشكل خطير كأنهما ستنثنيان ثانيةً. لقد قدم عرضاً مبهجاً قديم الطراز، على الرغم من علم كل من في الغرفة، بأن أحداً لا يريده هو، بل يريدونها هي.

قال الجنرال ألفريدو: «ضعوه خارجاً».

تقدم اثنان من الفتيان إلى الأمام، لكن ما لبث العازف، الذي لم يتوقع أحد أن يكون قادراً على الهرب في حالة انهياره السريعة والغامضة، أن اندفع من أمامهما كالسهم وجلس على الأرض إلى جانب روكسان كوس. وجه أحد الفتيَيْن بندقيته ناحية رأسه الكبير المغطى بالشعر الأشقر.

قال الجنرال ألفريدو: «إياك أن تطلق النار عليها عَرَضاً».

نادت روكسان كوس قائلة: «ما الذي يقوله؟».

فأخبرها جين بتردد.

«عَرَضاً». بهذه الطريقة يتعرض الناس لإطلاق النار في مثل تلك الظروف: من دون تعمد الأذى، لكن رصاصة تخطئ مكانها بضعة إنشات. لعنت روكسان كوس جميع من في الغرفة وهي تحبس أنفاسها. لم تتخيل نفسها أبداً تموت جراء عجز إرهابي «غبي» عن التصويب بدقة. كان العازف يتنفس بشكل سريع جداً ومقتضب. أغمض عينيه وأسند رأسه فوق ساقها. كانت آخر ثورة شغف قام بها كافية بالنسبة إليه. وبسرعة شديدة غفا.

قال الجنرال بنجامين: «كرمى لله اتركه هنا»، مُقْدِماً على أفدح خطأ يرتكبه في عملية استيلاء لم تكن أكثر من سلسلة متتالية من الأخطاء.

بمجرد أن تلفظ بهذه الكلمات، سقط العازف إلى الأمام وتقيأ رغوة صفراء فاتحة اللون. كانت روكسان تحاول مد ساقيه من جديد، لكن هذه المرة من دون مساعدة من أحد. قالت بمكر: «على الأقل جرّوه إلى الخارج. ألا ترون أن سوءاً ما قد أصابه؟». كان يبدو جلياً أن أمراً فظيعاً جداً قد لحق بالعازف. كانت بشرته رطبة وباردة، وقد تغير لونها بشكل خطير.

ترجم جين طلبها، لكن تم تجاهل الأمر. قال الجنرال بنجامين: «لا رئيس، مغنية أوبرا واحدة. برأيي إنه تبادل مزرٍ».

قال الجنرال ألفريدو: «إنها تساوي أكثر مع عازف البيانو».

«لا يسعك الحصول على دولار واحد مقابله».

قال الجنرال هكتور بهدوء: «سوف نُبقي عليها»، وأُقفل بذلك موضوع مغنية الأوبرا. وعلى الرغم من أن هكتور كان الأقل كلاماً، إلا أن جميع الجنود كانوا يخشونه. حتى الجنرالان الآخران كانا يهابانه.

كان جميع الرهائن، بمن فيهم جين، واقفين في الجهة المقابلة لمكان وقوف روكسان وعازفها إلى الحائط. تمتم الأب أرغيداس صلاة بهدوء. كان مستغرباً لحظتها، ثم توجه لمساعدتها. ابتسم عندما طلب منه الجنرال بنجامين العودة إلى

مكانه، وهز برأسه، كأن الجنرال يبادله دعابة صغيرة، ولم يكن بهذا المعنى يرتكب خطيئة. اندهش الكاهن لسرعة خفقان قلبه، وللخوف الذي دب في ساقيه وجعله ضعيفاً. لم يكن خوفاً من التعرض لإطلاق النار بالطبع. لم يعتقد أنهم قد يُقْدمون على رميه بالرصاص، وفي حال فعلوا، فلا حول ولا قوة! لكأنما انبعث الخوف من رائحة الزنابق الجرسية الشكل الصغيرة في شعرها ولونه الأشقر الدافئ. لم يؤثر فيه مثل هذه الأمور مذ كان في الرابعة عشرة من عمره عندما سلّم قلبه إلى المسيح، وخلّف جميع هذه الإزعاجات وراءه. ولمَ عساه يشعر، في خضم كل الخوف والارتباك هذين، وفي ظل خطر الموت الذي يخيم على كثير من الأرواح، بهذا القدر الكبير من الحظ الجيد؟ يا له من حظ جيد لا يمكن تخيله! أن تربطه صداقة مع آنا لويا، نسيبة زوجة نائب الرئيس، التي طلبت التكرّم بدعوته إلى الحفلة، فتم تقبّل طلبها، وسُمح له بالتالي بالوقوف في آخر الغرفة للاستماع لأول مرة في حياته إلى أوبرا حية، لا يؤديها أي كان، بل تؤديها روكسان كوس نفسها، التي كانت في نظر الجميع أعظم مغنية أوبرا. أصلاً، يُعتبر مجيئها إلى هذا البلد، أمراً كافياً بحد ذاته. إن الشرف الذي قد يشعر به، وهو مستلق على سريره الوحيد في القبو في بيت القسيس لدى علمه بأنها ستكون موجودة لليلة واحدة في المدينة نفسها التي يعيش فيها، من شأنه أن يمثل هدية مذهلة. لكن أن تُسمح له برؤيتها، ثم بحكم القدر (الذي قد يحمل أيضاً أموراً فظيعة، لكنه يظل برغم ذلك، كحال جميع الأقدار ومشيئة الله، وإرادته)، بات هنا

الآن، يتقدم لمساعدتها في مد رجلَي عازفها الطويلتين، ويقترب بما فيه الكفاية منها ليشتم رائحة الزنابق، ويرى بشرتها البيضاء الناعمة التي تختفي خلف ياقة فستانها الفستقي اللون. وجد أن بعض الدبابيس ظل في مكانه على أعلى رأسها حتى لا يتدلى شعرها على عينيها. يا لها من هدية. ما أمكنه التفكير في الأمر بأي طريقة أخرى. يعتقد أن مثل هذا الصوت لا بد من أنه يأتي من الله، وبالتالي فإنه يقف الآن إلى جانب حب الله. وذاك الارتجاف في صدره، وهذا الارتعاش في يديه، ليسا سوى دليل على ذلك. كيف عسى قلبه لا يمتلئ حباً وهو واقف بهذا القرب الشديد من الله؟

ابتسمت في وجهه، ابتسامة تنمّ عن لطف، وعن تحفظ أيضاً، نظراً إلى الظروف الراهنة. همست له سائلة: «هل تعرف لمَ يُبقون عليّ هنا؟».

أحس عند سماع صوتها بأول موجة يأس. ليس يأساً منها على الإطلاق، بل من نفسه. الإنكليزية. لقد أجمع الجميع على أهمية تعلم اللغة الإنكليزية. ما الذي يقوله السيّاح؟ «أتمنى لك نهاراً جميلاً؟». لكن، ماذا لو كانت هذه إجابة غير مناسبة؟ ماذا لو كانت إجابة جارحة بطريقة ما؟ لعلهم يسألون عن شيء ما: كاميرا، فيلم، توجيهات، أو مال؟ فعمد إلى الصلاة. ثم نطق أخيراً بالكلمة الوحيدة التي كان واثقاً من معناها: «الإنكليزية؟».

قالت وهي تهز برأسها تعاطفاً: «آه»، ثم عادت لتنتبه إلى ما كانت تقوم به.

عندما قوّما جلسة العازف إلى أن بدا أخيراً مرتاحاً، أخذ الأب أرغيداس منديله الخاص ومسح به بقايا القيء. ليس ثمة أي مجال أمامه كي يدعي امتلاكه أي معرفة طبية حقيقية، لكنه أمضى بالتأكيد الكثير من وقته في زيارة المرضى. والقربان المقدس الذي غالباً ما كان يقوم به هو قربان الموت. ووفقاً لهاتين التجربتين وجد أن الرجل الذي كان يعزف على البيانو بطريقة رائعة بدا أقرب إلى الموت منه إلى المرض. سأل روكسان كوس وهو يضع يده عى صدر العازف: «أهو كاثوليكي؟».

لم تكن أصلاً تمتلك فكرة، سواء أكان الرجل الذي يعزف لها البيانو تربطه أي صلة بالله أم لا، فأنّى لها معرفة أي كنيسة يوطد فيها هذه العلاقة؟ هزت بكتفيها مشيرة إلى عدم معرفتها. على الأقل أمكنها التواصل مع الكاهن بهذا القدر.

سألها بالإسبانية وهو يشير إليها بأدب بداعي الحشرية المحضة: «أأنتِ كاثوليكية؟».

قالت: «أنا؟»، وهي تضع يدها على مقدمة فستانها. «نعم»، ثم هزت برأسها. وأردفت باللغة الإسبانية: «نعم كاثوليكية». كانتا كلمتين بسيطتين، لكنها افتخرت بنفسها لإجابتها باللغة الإسبانية.

ابتسم في وجهها حينئذ. أما العازف المسكين، فإن كان يُحتضر، وإن كان كاثوليكياً، فإنهما احتمالان غاية في الخطورة. لكن عندما نأتي إلى مسألة الراحة الأبدية للروح، فمن الأفضل أن نأخذ الحيطة والحذر. إن أخطأ وقدّم الشعائر الأخيرة ليهودي

ثم ما لبث المحتضر أن تعافى في ما بعد، عندها أيُّ ضرر سيكون قد أحدثه عدا عن كونه شغل القليل من وقته: وقت رهينة فاقدة الوعي حينها. ربّت على راحة يد روكسان. كانت راحة يدها أشبه براحة يد طفلة! ناعمة وبيضاء ومدوّرة من الأعلى. كانت تضع في إصبعها خاتماً فيه حجر زيتي اللون بحجم بيضة الطير، وتحيط بهذا الحجر حبات صغيرة من الماس. في العادة، عندما يرى نساء يتحلين بخواتم مثل هذه، يتمنى لو أنهن يتبرعن بها للفقراء، لكنه وجد نفسه اليوم يتخيل متعة وضع مثل هذا الخاتم بلطف في إصبعها. وثق تماماً من أن هذه الفكرة لم تكن لائقة، فشعر بالعرق يتصبب من جبهته بسبب توتره. لم يعد المنديل معه. فاستأذن منها راغباً في التوجه للتكلم مع الجنرالات.

قال الأب أرغيداس وهو يخفض صوته: «ذاك الرجل هناك، أعتقد أنه يموت».

قال الجنرال ألفريدو: «إنه لا يموت. إنه يحاول إخراجها من هنا. إنه يتمارض».

لا أعتقد ذلك. انظر إليه. لقد خف نبضه وشحب لون بشرته». وأدار رأسه فوق كتفيه والتفت إلى خلف البيانو الضخم وباقات الزنبق والزهور الضخمة التي تم تنسيقها من أجل الحفلة التي انتهت منذ وقت طويل، إلى حيث يستلقي العازف على حافة السجادة كأنه شيء ضخم تم رميه هناك. «يوجد أمور لا يمكن المرء ادعاؤها».

«هو من قرر البقاء. لقد وضعناه خارجاً لكنه عاد. هذه ليست أفعال رجل يُحتضر». أدار الجنرال ألفريدو رأسه بعيداً، ثم فرك يده. لقد مضت عشر سنين على فقده هذه الأصابع، وبرغم ذلك ما زالت تؤلمه.

قال الجنرال بنجامين للكاهن: «عد إلى حيث أُمرت بالبقاء». كان الجنرال يستمتع بنفحة الراحة المزيفة التي غمرته لدى رؤيته أن نصف الناس قد غادروا، كأن نصف مشاكله قد تم حله. لقد أدرك عدم صحة هذا الأمر، لكنه أراد بعض الهدوء ليستمتع به. بدت الغرفة واسعة جداً.

«أود بعض الزيت من المطبخ لتأدية الشعائر الأخيرة».

قال الجنرال بنجامين وهو يدير رأسه من جنب إلى آخر: «ممنوع الدخول إلى المطبخ»، ثم أشعل سيجارة كي يتصرف مع الكاهن بفظاظة. تمنى لو غادر الكاهن والعازف عندما طُلب منهما ذلك. لا يجدر السماح للناس باختيار البقاء كرهائن. كان عديم الخبرة في ما يخص التصرف مع الكهنة بفظاظة، لذا احتاج إلى السيجارة كوسيلة تساعده على ذلك. أطفأ عود الثقاب ورماه على السجادة. أراد أن ينفخ الدخان إلى الأمام، لكنه عجز عن ذلك.

قال الأب أرغيداس: «بوسعي القيام بالأمر من دون الزيت».

ورد الجنرال ألفريدو: «ممنوع القيام بالشعائر الأخيرة. إنه لا يحتضر».

قال الكاهن باحترام: «كنت أسأل فحسب عن الزيت، وليس عن الشعائر الأخيرة».

تمنى كل من الجنرالات إيقافه، وصفعه، أو أن يسوقه واحد من الفتيان ببندقية في ظهره، لكن لم يشعر أي منهم بالقدرة على فعل ذلك. ويعود السبب في ذلك، إما إلى قوة الكنيسة، وإما إلى قوة مغنية الأوبرا التي تنحني فوق الرجل الذي اعتبروه حبيباً لها. عاد الأب أرغيداس إلى روكسان كوس وعازفها. كانت قد فكت له الزر الأعلى في قميصه، وأخذت تستمع إلى دقات قلبه. انسدل شعرها على رقبته وكتفيه بطريقة كانت لتبلغ بالعازف أقصى درجات السعادة لو أنه كان واعياً، لكنها عجزت عن إيقاظه. وكذلك الكاهن. ركع الأب أرغيداس إلى جانبه، وبدأ يتلو صلوات الشعائر الأخيرة. لعل الشعائر كانت لتكون أعظم لو أنه كان يرتدي الثوب الديني، ولو أن هناك بعض الزيت ليستخدمه، ولو أن هناك بعض الشموع الجميلة. لكن الصلوات البسيطة بدأت بطرائق ما أقرب إلى الله. أمِل أن يكون العازف كاثوليكياً. أمِل أن تهرع روحه إلى ما بين ذراعي المسيح المفتوحين.

«الرب الرحيم، هدى الناس إليه عبر موت ابنه ونشوره، وأرسل إلينا الروح القدس لمغفرة الخطايا، عبر كهنوت الكنيسة، فليمن عليك الله بالعفو والسكينة». شعر الأب أرغيداس بموجة من الحنان تسري داخله تجاه ذاك الرجل، أي ما يقارب رابطة خانقة من الحب. لقد كان يعزف لها. وظل يسمع صوتها يوماً بعد يوم، فشكّله هذا الصوت على ما هو عليه. همس بصدق

نبير في أذن الرجل البيضاء الناصعة: «أنا أحررك من خطاياك». وبصدق، سامح فعلاً العازف على كل ما يمكن أن يكون قد اقدم عليه، وما قد يكون اقترفه: «باسم الأب والابن والروح القدس».

قالت روكسان كوس وهي تمسك اليد الرطبة والباردة التي ما انفكت تعمل معها من دون كلل أو ملل: «الشعائر الأخيرة؟». لم تكن تعرف اللغة، لكن الشعائر الكاثوليكية معروفة في كل مكان. لا يُعقل أن تكون هذه إشارة جيدة.

«عبر الألغاز المقدسة لتخليصنا، فليُعتقك الرب العظيم من جميع الخطايا في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة. فليفتح في وجهك أبواب الجنة ويستقبلك في غمرة الفرح الأبدي».

علت الدهشة وجه روكسان كوس، كأن المنوّم المغناطيسي لوّح بساعته، لكن لم يطقطق إصبعيه بعد. قالت: «لقد كان عازف بيانو ملهماً». أرادت أن تنضم إلى الكاهن في الصلاة لراحة روحه، لكنها بصراحة لم تعد تذكر كيفية تلاوتها. فأضافت: «لقد كان دقيقاً في مواعيده».

«فلنسأل الله أن يمنّ على أخينا برحمته، ويمنحه الراحة عبر هذا المسح المقدس». مرر الأب أرغيداس إبهامه على لسانه لأنه أراد مادة رطبة، ولم يخطر في باله أي شيء آخر. ثم وضع إبهامه على جبهة العازف، وقال: «عبر هذا المسح المقدس فليساعدك الله بمحبته ورحمته بنعمة الروح القدس».

تذكرت روكسان كوس كيف كانت الراهبات يقفن فوقها حينما

كانت تحفظ صلواتها. رأت سبحات خشب الورد تتدلى من خصورهن، وشمت رائحة القهوة تنبعث من أفواههن، ورائحة تعرّقهن المنغرسة في قماش أثوابهن: الأخت جوان، والأخت ماري جوزيف، والأخت سيرينا. أمكنها تذكرهن جميعاً، لكنها عجزت تماماً عن تذكر حتى كلمة واحدة من الصلاة. قالت، على الرغم من عدم قدرة الكاهن على فهم كلامها، وبالرغم من أن العازف لم يعد يسمع صوتها: «أحياناً، كنا نطلب السندويشات والقهوة بعد التمرين، فنتجاذب أطراف الحديث حينها». كان قد أخبرها عن طفولته. أكان من السويد أم من النرويج؟ لقد تكلم على حدّة برودة الطقس في فصل الشتاء، لكنه لم يذكر أبداً كيفية نشوئه هناك. لم تكن والدته تسمح له بلعب أي من ألعاب الكرة، لأنها كانت تخشى كثيراً على يديه. ليس بعد كل ذاك الكم الكبير من المال الذي أنفقته على دروس البيانو.

مسح الأب أرغيداس على يدي العازف، وهو يقول: «فلينقذك الرب الذي يخلصنا من الخطايا ويرفعك إليه».

التقطت روكسان بعضاً من خصلات شعره الشقراء الناعمة ومسّدتها بين أصابعها. بدا الوهن على هذه الخصلات. بدت كأنها تنتمي إلى شخص لم يعد له وجود في هذ العالم. في الحقيقة، كانت روكسان تشعر ببعض الكراهية تجاه العازف. لقد عملا معاً، جنباً إلى جنب، لمدة شهور بكل محبة. كان يجيد العزف. كان يعزف بشغف، لكنه لم يحاول أبداً أن يغطي عليها، ولا أن ينافسها. كان يتسم بالهدوء والتحفظ، وقد أحبَّ ذلك فيه. لم تحاول أبداً تشجيعه على الكلام. لم تفكر فيه قط بالقدر

الكافي، لتتساءل إذا ما وجب عليها القيام بذلك. ثم أُخذ القرار أن يرافقها إلى هذه الرحلة. وبمجرد أن رفعت الطائرة دواليبها عن الأرض، أمسك العازف بيدها وأخبرها عن عبء حبه الثقيل الذي كان يسكنه. ألم تكن تعرف؟ طوال تلك الأعوام التي قضاها إلى جانبها، يستمع إلى غنائها. انحنى ناحية مقعدها، وحاول أن يضغط بأذنه على صدرها، لكنها دفعته بعيداً عنها. هذا ما كانت الحال عليه طوال رحلة امتدت ١٨ ساعة. وظلت الحال على ما هي عليه في سيارة الليموزين التي أقلتهما إلى الفندق. ظل ينحب ويرجوها كطفل. ذكّرها بكل ثوب ارتدته في كل جلسة تدريب. مرت السيارة خارج الشباك بالقرب من حائط مغطى تماماً بأوراق خضراء ونبات معترش. أين كانت تذهب؟ مرر إصبعه ليحاول لمس تنورتها، فأبعدته بتأفف براحة يدها.

حنت روكسان رأسها وأغمضت عينيها، وضغطت على خصلات شعره بيديها الاثنتين. عادت وتذكّرت الراهبات اللواتي لا زلن يسكنَّ خيالها. قالت الأخت جوان في ما مضى: «إن تلاوة الصلاة أمر لطيف». لقد كانت الأخت جوان المفضلة لديها. كانت شابة، وجميلة بقَدْر، وتحتفظ بقطع شوكولا في طاولتها. «لا يتعلق الأمر دوماً بالأشياء التي يريدها المرء، بل يمكن أن يرتبط بالأشياء التي يقدّرها». غالباً ما كانت الأخت جوان تطلب من روكسان الغناء للأطفال قبل التجمع: «آه يا مريم، إننا نتوجك بالأزهار اليوم»، حتى وسط برد شيكاغو القارس.

همست قائلة: «لطالما أحب سماع الأخبار حول شيكاغو.

لقد ترعرع في تلك المدينة. أراد أن يعلم كيف يكون الأمر حينما ينشأ المرء بالقرب من دار أوبرا. أخبرني أنه بعد أن انتقل للعيش في إيطاليا، لم يعد يسعه مغادرتها. قال إنه ما عاد يحتمل فصول الشتاء الشمالية القارسة».

رفع الأب أرغيداس رأسه ونظر إليها، وهو يتوق إلى فهم كلامها. هل كان اعترافاً؟ هل ما تقوله صلاة؟

قالت: «لعله أكل شيئاً ما وأضرّ به. لعله يتحسس من طعام معين. لعله كان مريضاً قبل مجيئنا إلى هنا». بالتأكيد، إنه ليس بالرجل الذي كانت تعهده.

ظل الثلاثة هادئين لفترة من الوقت. أغمض العازف جفنيه وجلس الكاهن ومغنية الأوبرا ينظران إلى هاتين العينين المغمضتين. ثم خطر في بال روكسان كوس أمر، فمدت من دون أي تردد يدها إلى داخل جُيوبه وأخرجت منها محفظته ومنديلاً وعلبة سكاكر بطعم النعناع. بحثت في المحفظة، ثم وضعتها أرضاً. وجدت فيها جواز سفره: إنه سويدي. ثم دسّت يديها عميقاً في جيبي بنطاله. عندها كف الأب أرغيداس عن تلاوة الصلاة، ونظر إليها. وجدت محقنة لمرض السكري تحت الجلد، مستعملة ومغطاة، وقارورة زجاجية صغيرة مغطاة بسدادة مطاطية، لا تحوي سوى قطرة أو قطرتين في قعرها: إنسولين. لقد نفد منه الإنسولين. وجب أن يعودا إلى الفندق عند منتصف الليل، هذا ما وعدوهما به. لذا، لم يكن هناك أي داع ليجلب معه أكثر من حقنة واحدة. هبت ووقفت على رجليها وهي تمسك بالدليل بين راحتي يديها المرفوعتين. رفع الأب أرغيداس رأسه

ونظر إليها وهي تهرع إلى الجنرالات. صاحت قائلة: «ديابيتيّ»: كلمة يجب أن تكون مفهومة في كل اللغات. فهذه المصطلحات العلمية تتجذّر كلها من أصول لاتينية، الشجرة الواحدة التي يجدر بهم جميعاً فهمها. أدارت رأسها ناحية الحائط الذي يقف مقابله الرجال. كانوا جميعاً ينظرون إليها، كما كانت الحال في كل حفلة من حفلات الأوبرا... وعرض اليوم كان الموت المأساوي للعازف.

قالت لجين: «ديابيتيّ».

تقدم جين إلى الأمام. لقد أراد أن يعطي الكاهن فرصته، لكن الآن، لم تعد لهذه الطقوس من أهمية. شرح للجنرالات ما وجب أن يفهموه من دون أي ترجمة: إن الرجل في حالة غيبوبة جراء إصابته بداء البول السكري. يعني أن هناك في الخارج دواءً كان من شأنه إنقاذه لو كان لا يزال على قيد الحياة. توجهوا إليه لرؤيته. لقد توقع الجنرالات كل شيء، إلا أن يموت عازف مسكين من دون أن يستطيعوا فعل شيء لإنقاذه. رمى الجنرال بنجامين سيجارته في المدفأة الرخامية التي كانت كبيرة الحجم إلى حد أنها تتسع لثلاثة أطفال ذوي حجم كبير. في الواقع، كان أولاد نائب الرئيس الثلاثة يتجمعون فيها بعد إفراغها من الرماد وتنظيفها، مدعين أن الساحرات يطبخنهم. كان الأب أرغيداس قد أنهى الصلاة، ومكث بالقرب من العازف، ويداه مطبقتان على بعضهما البعض، ورأسه محنيّ، ويدعو بصمت للرجل كي يَثْقَف السلوى والفرح في حب الله الأبدي بعد أن فارق الحياة.

لم يعرف الكاهن كم أمضى من الوقت على هذه الحال. وعندما فتح عينيه وجد أنه لم يعد وحده مع العازف. ابتسم الأب أرغيداس بلطف للأشخاص المحتشدين حولهما. قال كأنه يفسر الحال: «من يسعه أن يبعدنا عن حب المسيح؟».

من كان يتوقع أن تجثو روكسان كوس وتخر منهارة على الأرض. كان منظراً جميلاً، حيث انتفخ ثوبها الشيفون الأخضر الفاتح تحتها ككومة من أوراق الربيع الحديثة الإيناع، وقد عصفت بها رياح نيسان. حملت بين يديها أنامله التي كانت والدته توليها عناية خاصة؛ تلك الأصابع التي شاهدتها تعزف موسيقى شوبان ساعة بعد أخرى، من دون تعب. وجدتها باردة. بات لون وجهه الذي لم يبدُ على ما يرام منذ ساعات، يزداد سوءاً بشكل سريع. تحولت منطقة ما حول العينين إلى اللون الأصفر، وأخذت منطقة ما حول شفتيه تتحول إلى اللون الأرجواني الشاحب. كانت ربطة عنقه منزوعة، وأزرار قميصه الأمامية مفكوكة، لكنه لا يزال يرتدي سترته ذات الذيل الطويل وصُدرته البيضاء. كان لا يزال متأنقاً من أجل العزف. جميل أن يلقى المرء وجه ربه بهذه الأناقة. جميل أن ترتقي روحه إليه متأهبة لأداء وصلة موسيقية. لم يخطر لها ولا لوهلة واحدة أنه رجل سيئ. كان عازف بيانو لامعاً. لكن، ما كان يجدر به أن ينتظر حتى يُحتجزوا داخل الطائرة كي يخبرها بماهية شعوره تجاهها، والآن بعد موته ما كانت لتلومه على هذا الأمر.

ترك جميع الرجال أمكنتهم قرب الحائط، وتوجهوا إلى الجانب الآخر من الغرفة، ووقفوا هناك جنباً إلى جنب مع

مجموعة الخاطفين. كانوا جيمعاً يشعرون بالكراهية تجاه العازف. لقد ظنوا أنه محظوظ كثيراً لقدرته على العزف على البيانو بمهارة عالية، وحسبوه جريئاً كثيراً بسبب الطريقة التي غطى روكسان بها وحجبها عنهم. لكن، عندما فارق الحياة، شعروا بخسارته. ففي النهاية، مات لأجلها. حتى في الطرف المقابل من الغرفة، وبلغات عجزوا عن فهمها، أمكنهم تتبّع القصة بكل وضوح. لم يخبرها قط أنه يعاني داء البول السكري. لقد اختار البقاء معها بدلاً من التوجه إلى طلب الإنسولين الذي كان من شأنه إنقاذ حياته. يا للعازف المسكين، صديقهم. لقد كان واحداً منهم.

قال الجنرال بنجامين وهو يضرب بيده في الهواء: «الآن، هل مات رجل!». ازداد مرضه سوءاً لدى التفكير في هذا الأمر، وبات الألم أشبه بإبر ساخنة تنخر مجتمعة أطراف أعصاب وجهه.

أجابه الجنرال ألفريدو ببرودة: «ليس أول رجل يموت في العالم». سبق لألفريدو أن تعرض للموت مرات عدة، لم يعد يقوى على إحصائها. لقد تلقى رصاصة في معدته، كادت تودي بحياته. وبعدها بستة أشهر، فقد إصبعين بطلق ناري. ثم في السنة الماضية، مرت رصاصة بالقرب من رقبته، لكنها أخطأته، ولم تنل منه.

«نحن لسنا هنا لقتل هؤلاء الناس. إننا هنا لأخذ الرئيس، ثم المغادرة».

ذكّره ألفريدو قائلاً: «الرئيس ليس موجوداً».

خرّ الجنرال هكتور إلى الأرض. لم يثق يوماً بأحد. ضغط بأصابعه الرفيعة على رقبة الرجل الميت: «ربما يجدر بنا إطلاق النار عليه، ووضع جثته في الخارج. لنجعلهم يدركون مع من يتعاملون».

رفع الأب أرغيداس رأسه بعد أن كان منشغلاً بتلاوة الصلاة، وحدّق في الجنرالات. أحس الرهائن الناطقون بالإسبانية بالرعب لدى سماعهم فكرة إطلاق النار على صديقهم الجديد المتوفّى. وأولئك الذين لم يعرفوا أن روكسان كوس لا تتكلم الإسبانية، لم يكونوا واثقين من الأمر لأنها لم تحرك ساكناً. بدت مذهولة مما حدث، وكيف مات من أجلها. لم تعرف كم من الوقت مضى وهي ممسكة رأسها بين يديها، وتنورة فستانها محيطة بها، في الوقت الذي كان يتكلم فيه الجنرالات حول انتهاك حرمة الموت.

دنا رجل ألماني يدعى لوثر فولكن، كان يجيد بعض الإسبانية. استطاع بصعوبة أن يكوّن فكرة غامضة عما كان يجري، طلب من جين الموجود داخل الحشد أن يترجم له ويخبره عن سبب هذه الجمهرة.

قال: «قل لهم إن الأمر لن يجدي نفعاً. فالجرح لن ينزف. بوسعهم إطلاق النار عليه في رأسه الآن، وبرغم ذلك سيدركون سريعاً أن الوفاة لم تحدث نتيجة الطلقة النارية». كان لوثر يعمل كنائب رئيس لشركة هوشست، وهي إحدى شركات الصيدلة، وقد تخصص في علم الأحياء في الجامعة قبل أعوام عديدة. كان يشعر بسوء شديد تجاه موت العازف. الإنسولين الذي مات

بسبب فقدانه، يمثل أغلبية مبيعات الشركة. في الواقع، كانوا أهم مصنعّي هذا العقار في ألمانيا. لديهم هذا العقار في جميع أرجاء الشركة: عينات مجانية من جميع أنواع الإنسولين تنتظر أن تُعطى لأحد ما، وبرادات مليئة بكميات كبيرة من القوارير الزجاجية الجاهزة للاستعمال. كان قد أتى إلى الحفلة لأنه وجد أنه في حال كانت شركة نانساي تفكر في بناء مصنع الكترونيات في ذاك البلد المضيف، لعله يفكر في التصنيع هناك أيضاً. والآن، ها هو ذا يحدق في رجل، وافته المنية جراء احتياجه إلى قطرات قليلة من الإنسولين. يا لسخرية الموت والحياة. لم يكن يقوى على إنقاذ حياة الرجل، لكن يسعه على الأقل عتقه من مهانة أن يُقتل من جديد.

نقل جين المعلومات محاولاً انتقاء كلمات تجعل الأمر برمته يبدو مرعباً وغير مقبول، لأنه هو الآخر لم يشأ رؤية العازف المسكين يُرمى بالرصاص. سحب الجنرال هكتور مسدسه وحدق في الجثة الموجودة على الأرض وهو يفكر، ثم قال: «هذا سخيف»!

نظرت عندها روكسان كوس إلى الأعلى، ثم سألت جين: «علامَ سيطلق النار؟».

طمأنها جين قائلاً: «ليس على أحد».

مررت أصابعها بشكل مستقيم تحت عينيها. «لكنه لا يسعى إلى تنظيف مسدسه. هل سيبدأون بقتلنا الآن؟». بدا صوتها مخنوقاً، وقد اتشحت نبرته بواقعية مفرطة، كأنها تقول إن لديها برنامجاً محدداً وتحتاج إلى التأكد من مجريات الأمور.

همس نائب الرئيس لجين بالإسبانية: «بوسعك البوح لها بالحقيقة. إن كان لأحد أن يوقف ما يحصل، فإنه بلا شك هي».

لا يفترض أن تكون مسؤولية جين التوصل إلى قرار بشأن ما هو أفضل بالنسبة إليها، وما يجدر به قوله وعدم قوله. لم يكن يعرفها. لم يكن يعرف كيف ستتقبل مثل هذا الأمر. لكن عندما أمسكت بكاحله بالطريقة نفسها التي يمسك فيها شخص واقف بمعصم محدثه، نظر إلى الأسفل إلى هذه اليد الشهيرة التي تلمس أسفل، بنطاله واعتراه الارتباك.

قالت: «تكلم بالإنكليزية».

فاعترف لها جين قائلاً: «إنهم يفكرون في رميه بالرصاص».

قالت، في حال فاتتهم الفكرة: «إنه ميت. كيف تقول ميت بالإسبانية؟».

أخبرها جين، فنادت بأعلى صوتها بالإسبانية: «ميت»، ثم وقفت. كانت في وقت سابق قد أقدمت على ارتكاب خطأ خلع الحذاء من رجليها. فبدت هذه المرأة الصغيرة الحجم أصغر حجماً في غرفة مليئة بالرجال. حتى نائب الرئيس كان يفوقها عدة إنشات طولاً. لكن حينما أرجعت كتفيها إلى الوراء ورفعت رأسها، بدت كأنها تحضر نفسها لتكبُر. كأنه بعد أعوام من الظهور على المسارح عن بُعد، تعلمتْ كيف تلهب حماسة الناس وتثيرها، ليس على صوتها فحسب، بل على كامل جسدها، وقد بدا أن الغضب الذي يتملّكها رفع قامتها طولاً إلى

أن بدت أنها تفوقهم جميعاً طولاً. قالت للجنرالات: «افهموا أن أي رصاصة تُوجه إلى ذاك الرجل، يجب أن تعبرني أولاً». كانت تشعر بسوء بالغ حيال العازف. لا تزال تذكر جيداً كيف طلبت من مضيفة الطيران أن تجد لها مقعداً آخر على الطائرة في محاولة منها لإسكاته، وإبعاده عنها.

أشارت بإصبعها إلى جين الذي أخبرهم بتردد ما قالته.

وافق الرجال الذين كانوا يحيطون بها على كلامها. لقد مات الرجل من أجلها، وهي ستموت من أجله!

«لقد أبقيتم على امرأة واحدة، أميركية واحدة، والشخص الوحيد هنا المشهور في أرجاء العالم. وإن قتلتموني، فكونوا واثقين من أنكم ـ ثم توجهت إلى المترجم بالسؤال: هل تفهم كل ما أقوله؟ ـ سينزل غضب الله عليكم وعلى قومكم».

صحيح أن جين كان يقوم بترجمة الكلمات حرفياً بطريقة واضحة وبسيطة، إلا أن كل من في الغرفة فهم ما كانت تقوله من دون الحاجة إلى ترجمته. كان انفعالها فضّاحاً، ولم يكن صعباً إدراك ما تقوله، بالطريقة نفسها التي يفهمونها حينما تغني بوتشيني بالإيطالية.

«أَخرِجوه من هنا. جرّوه إلى السلالم الأمامية إن اضطررتم، لكن دعوا الناس في الخارج يعيدوه إلى دياره بجسد سليم». تعرقت جبهة روكسان كوس بعض الشيء. زادها الانفعال جمالاً، فبدت تشع مثل جان دارك قبالة النار. عندما فرغت من الكلام، أخذت نَفَساً، ثم أعادت ملء رئتيها بالهواء بالكامل،

ثم جلست من جديد. تقصّدت لدى جلوسها أن تدير ظهرها للجنرالات، وانحنت إلى الأمام لتضع رأسها على صدر عازفها. ها قد أسندت رأسها أخيراً إلى صدره الساكن، وحققت له في مماته حلماً طالما راوده في حياته. استعادت زمام السيطرة على أعصابها. فوجئت عندما اكتشفت كم أن جسده مريح، وتساءلت كيف أمكنها أن تُعجب به الآن بعدما بات جثة هامدة. بمجرد أن شعرت بأنها عادت إلى طبيعتها من جديد، لتختبر صدق مشاعرها، ولتتأكد من وجهة نظرها. كانت شفتاه باردتين ورخوتين فوق أسنانه الصلبة.

تقدم السيد هوسوكاوا من مكان ما وسط الحشد، إلى الأمام، ودس يده في جيبه، وأخرج منه منديلاً نظيفاً ومطوياً وأعطاه لها. وجد غرابة لمدى انحسار ما يمكنه تقديمه إليها. وبرغم ذلك، أخذت المنديل كأنه الشيء الذي ترغب فيه بشدة، ومسحت به تحت عينيها.

الجنرال بنجامين غير راغب في مشاهدة أي تبادل مؤثر آخر. قال محاولاً حسم الأمر، واستعاد زمام المبادرة: «فليعد الجميع إلى أماكنهم»، ثم توجه وجلس على واحد من الكراسي المجنحة بالقرب من المدفأة، وأشعل سيجارة. لم يكن ثمة ما يفعله. لم يقو على ضربها كما وجب عليه أن يفعل. بالتأكيد ستحصل عندها ثورة هائلة في غرفة ضئيلة المساحة، ولم يكن واثقاً إذا ما كان أفراد جيشه الشبان سوف يقدمون، هم أيضاً، على إطلاق النار دفاعاً عنها. إن ما عجز عن فهمه هو سبب

شعوره بالحزن على العازف. كان ألفريدو محقاً، ليس الأمر كأنه أول من مات في العالم. في أغلب الأيام، يبدو له أن معظم الأشخاص الذين يعرفهم في عداد الموتى. لكن الفرق يكمن في أن الأشخاص الذين ماتوا قتلاً، ذُبحوا بطرائق شتى سرقت النوم من لياليه. أما هذا الرجل، العازف، فمات بكل بساطة. أحياناً هذان الأمران لا يبدوان متشابهين تماماً. فكّر في أخيه الموجود في السجن. بالكاد يمكن اعتباره حياً. سرق السجن منه أجمل سنيّ حياته، وجعله بمثابة الميت، يقبع يوماً بعد يوماً في حجرة معتمة وباردة. وتساءل إن كان أخوه سيظل حياً فترة أطول بعض الشيء، ربما لمجرد يومين، حتى تتم تلبية مطالبهم، ويفلحوا في إطلاق سراحه.

لقد بث موت العازف القلَق في نفسه. يمكن الناس أن يموتوا بكل سهولة إن لم يصل إليهم أحد ما في الوقت المناسب. رفع نظره عن سيجارته، وقال للحشد: «ابتعدوا من هنا». كان غاضباً بشدة، بحيث لم يعرف أحد كيف ترك مكانه وغادره. حتى روكسان وقفت وتركت جثة عازفها امتثالاً للطلب. لقد بدت متعبة الآن. ثم أمر أفراد عصابته بالعودة إلى مواقعهم، وطلب من الضيوف بحزم العودة للجلوس والانتظار.

توجه ألفريدو إلى الهاتف وحمله بتردد، كأنه غير واثق من كيفية عمله. لا يجدر بالأعمال الحربية أن تتضمن هواتف خلوية. من شأن ذلك التقليل من أهمية كل شيء. دس يده في واحد من الجيوب الكثيرة لبنطاله الزيتي البالي، وأخرج بطاقة

عمل واتصل بمسنر. قال له إنه وقعت حالة مرض، وليس وفاة، ويجدر بهما مناقشة أمر تسليم الجثة.

بات كل شيء من دون العازف مختلفاً. قد يخطر للمرء أنه تجدر قراءة الجملة على النحو الآتي: «من دون ١١٧ رهينة، بات كل شيء مختلفاً؛ أو، بما أن الإرهابيين قالوا إنهم ليسوا هنا لقتل أحد، فإن كل شيء بدا مختلفاً». لكن، لم يكن هذا صحيحاً. فقد شعروا بخسارة العازف. حتى الرجال الذين أرسلوا عما قريب زوجاتهم وحبيباتهم إلى الخارج، ورأوهن يمشين بعيداً بفساتينهن الرائعة، كانوا يفكرون في الرجل الميت. لم تربطهم به أي معرفة على الإطلاق. افترض العديد أنه كان أميركياً. ها هي الأنسولين تُنتج بكثرة هائلة، في حين مات رجل لافتقاره إلى هذه المادة، وذلك كي يسعه البقاء مع المرأة التي يحب. سأل كل منهم نفسه إن كان ليُقْدم على مثل هذا العمل. وتوصل الجميع إلى قرار حاسم بأنهم ما كانوا ليفعلوا ذلك أبداً. جسّد العازف طيشاً غريباً من الحب لم يشهدوه منذ شبابهم. ما لم يفهموه، هو السبب الذي دعا بروكسان كوس، التي تجلس الآن في زاوية إحدى الكنبات الضخمة وتنحب بهدوء وتكفكف دموعها بمنديل السيد هوسوكاوا، إلى عدم الوقوع في حب عازفها، وأنها لم تعرفه إلا من المنطلق المهني، وأنه حينما حاول التعبير لها عن مشاعره تبين أنه أقدم على خطأ فادح. إن ذاك النوع من الحب الذي يضحي بحياته بكل سهولة وبكل غباء، هو دوماً الحب من طرف واحد. ما كان سيمون تيبولت ليُقدِم أبداً على تصرف غبي من أجل إديث. بل على العكس،

كان ليعمد إلى القيام بجميع التصرفات الجبانة التي تتوافر أمامه، كي يضمن أن يمضيا حياتيهما إلى جانب بعضهما البعض. لكن، من دون توافر جميع الحقائق الضرورية، لم يفهم أحد ما الذي حصل، وجل ما أمكنهم التفكير فيه، أن العازف كان رجلاً يفوقهم شجاعة وقدرة، وأنه أحب بقدر أكبر من قدرتهم هم على الحب.

ها قد هدأت الأجواء في الغرفة. أخذت باقات الورود الضخمة التي كانت موزّعة في أرجاء المكان في الذبول، فاستحالت أطراف الأوراق البيضاء بنيةَ اللون. وباتت أكواب الشامبانيا نصف المملوءة والموضوعة على أطراف الطاولات، دافئة وغير فوّارة. كان الحراس الشبان منهكي القوى إلى حد أن البعض منهم غفا مقابل الحائط، وانزلق إلى الأرض من دون أن يصحو. ومكث الزوار في غرفة الجلوس، يتهامسون بعض الشيء، لكنهم التزموا الصمت. استلقوا على الكراسي المنجدة وناموا. لم يختبروا صبر حراسهم. أخذوا الوسائد عن الكنبات وتمددوا على الأرض بطريقة تذكر بالليلة الماضية، لكن على نحو أفضل. كانوا يدركون أنه يفترض بهم البقاء في غرفة الجلوس والالتزام بالهدوء، وتفادي القيام بأي حركات مفاجئة. لم يفكر أحد في الهروب من نافذة الحمام عندما توجهوا إليه من دون أي مرافقة، ربما بحكم اتفاق مهذّب غير معلن. ظهر نوع معين من الاحترام القسري لجثة العازف، عازفهم، والآن وجب عليهم العيش بمقتضى المعايير العالية التي فرضها.

دخل مسنر أخيراً. طلب أولاً رؤية روكسان كوس. باتت شفتاه تبدوان أرفع، وأكثر صرامة. ومن دون أي تفكير تكلم باللغة الألمانية. نهض جين بتثاقل من كرسيه، وتوجه لينقل لهم ما كان يقوله. أشار الجنرالات إلى المرأة على الكنبة، التي كانت لا تزال تدس وجهها في المنديل.

قال مسنر، بلهجة حاذر أن تبدو كأنها توحي بالتساؤل: «سوف تخرج الآن».

وقال الجنرال ألفريدو: «هل سيأتي الرئيس؟».

«هل ستدعونها تتوجه إلى ديارها مع الجثة؟». إنه ليس مسنر الذي رأوه من قبل. إن منظر الغرفة المليئة بالرهائن المجبَرة على الاستلقاء أرضاً، ومنظر نائب الرئيس المهشَّم الوجه، ومنظر الفتيان الذين يحملون الأسلحة، جميعها أمور دفعته إلى الشعور بالتعب فحسب. أما الآن، فقد بات يشعر بالغضب. إنه غاضب، ولا يملك شيئاً عدا صليباً أحمر صغيراً مثبتاً على أعلى ذراعه، لحمايته في غرفة مليئة بالأسلحة.

بدا أن غضبه ولّد صبراً غير عادي لدى الجنرالات. قال له هكتور: «الموتى لا يعرفون من الذي يجلس إلى جانبهم».

«أنتم قلتم إنكم ستحررون جميع النساء».

قال الجنرال بنجامين: «لقد دخلنا عبر فتحات التهوئة»، ثم كفَّ لوهلة عن الكلام، وأضاف: «مثل الحشرات».

قال مسنر: «أريد أن أعرف إن كان بوسعي الوثوق بكم».

تمنى جين لو كان بوسعه محاكاة حدّة صوته، ونقل الطريقة التي يسدد فيها كل كلمة مثلما تُضرب مطرقة صغيرة على طبل.

«إن قلتم لي شيئاً، فهل يُفترض بي تصديقكم؟».

«لقد أطلقنا سراح الخدم، والمرضى، وجميع النساء، ما عدا واحدة. ربما ثمة شيء في هذه المرأة يثير اهتمامك. ربما لو أبقينا على واحدة غيرها لما كنت لتأبه بهذا القدر».

«هل لي بتصديقكم؟».

فكر الجنرال بنجامين في هذا الأمر لوهلة، ثم رفع يده كأنه أراد أن يصفع بها خده، ثم أحجم عن ذلك: «إننا لسنا في الجانب نفسه».

قال مسنر: «السويسريون لا ينحازون أبداً إلى أي جانب. إننا نقف إلى جانب السويسريين فحسب».

لم يكن لدى أي من هؤلاء الجنرلات ما يضيفونه إلى مسنر الذي لم يحتج إلى تأكيد أن العازف المتسلقي بالقرب من رجليه ميت بالفعل. كان الكاهن قد غطى الجثة بغطاء طاولة، وظل الغطاء في مكانه. خرج مسنر من الباب من دون التفوه بأي كلمة لطيفة، ثم عاد بعد ساعة برفقة مساعد. أدخلوا حمالة كتلك الموجودة في سيارات الإسعاف، مغطاة بالصناديق والأكياس. وبعد إنزال الأغراض، أدخل مسنر ومساعده الحمالة، وحاولا وضع الرجل الضخم عليها. احتاجا إلى مساعدة العديد من الشبان الخاطفين الأصغر سناً. فبعدما مات العازف بات أثقل

وزناً، كأن كل الألحان التي عزفها، وكل التمارين اليومية الطويلة، وكل الحزن والألم اللذين اختزنهما داخله وهو لا يجرؤ على البوح بحبه لروكسان كوس، قد تجمعت كلها، وربضت في هذه اللحظات الأخيرة، مثل قضبان معدنية على صدره. عندما وُضع في مكانه وتم ربطه فيه، تدلت يداه الناعمتان من تحت غطاء الطاولة المخرّم، ثم أخذوه. أدارت روكسان رأسها كأنها تتفحص وسائد الكنبة، فتساءل السيد هوسوكاوا إن كانت تفكر في برونهيلد، وإن كانت تتمنى مجيء حصان ليأخذها إلى النار حيث جثة حبيبها.

همس نائب الرئيس لرجل غريب يجلس قربه: «أعتقد أنه ما وجب عليهم إدخال الطعام بهذه الطريقة»، بالرغم من أنه كان يشعر بالجوع والحشرية لمعرفة ماذا يوجد داخل الأكياس. «برأيي، وجب عليهم أن يقوموا بزيارتين منفصلتين، من باب الاحترام». كان ضوء شمس العصر المتأخر يتخلل عبر نوافذ غرفة الجلوس الطويلة، راسماً خطوطاً ذهبية على الأرض. وجد روبن أن الغرفة جميلة، وأن الجلوس في هذه الغرفة، في هذا الوقت، ممتع. كان نادراً ما يكون في المنزل قبل حلول الظلام، وفي أغلب الأحيان لا يمكث في المنزل على الإطلاق، ويمضي معظم وقته في الخارج يمثل الرئيس في رحلة أو أخرى. كانت مكعبات الثلج في يده قد ذابت كلها تقريباً، وقد أصاب كمَّ قميصه البلل بسبب المياه التي سالت بغزارة من راحة يده. وبرغم ذلك، ارتاح إلى وجود المنشفة المبللة على وجهه المتورم. تساءل أين ستنام زوجته وأولاده هذه الليلة: هل

سيدعوهم الرئيس وزوجته إلى المبيت في منزلهما كوسيلة دعائية جيدة، أم سيبيتون في غرفة فندق مشددة الحراسة. أمِل أن تتوجه زوجته إلى منزل نسيبتها آنا. على الأقل ستقوم آنا بمواساتها. على الأقل ستروّح عن الأولاد، وتستمع إلى الفتاتين اللتين ستخبرانها قصة اختطافهما. سيكون عليهم تشاطر الأسرّة والنوم على الكنبة التي تتمدد لتصبح سريراً. لكن، لا بأس في ذلك. ستكون هذه الحال أفضل من جناح الضيوف البارد في منزل ماسودا، حيث ستُجبر إيزميرالدا، بكل تأكيد، على النوم في غرفة الخدم.

جلس جين والسيد هوسوكاوا إلى الجانب الآخر من الغرفة بالقرب من النوافذ العملاقة، بعيداً عن بقية أبناء بلدهما، مواطنيهما. من دواعي الأدب ألا ينضم إليهما هؤلاء الرجال ما لم تتم دعوتهم. حتى وسط هذه الظروف غير الطبيعية، فالمعايير الاجتماعية لا تزال تفرض نفسها. لم يكن السيد هوسوكاوا في مزاج يسمح له بأي رفقة. قال لجين: «لقد كان عازفاً ممتازاً. واستمتعت بسماع عزفه». من بين جميع الرجال في الغرفة، كان السيد هوسوكاوا الوحيد الذي لا يزال يرتدي سترته وربطة عنقه. وهو نفسه، لا يدري، كيف أنه، وسط هذه الظروف، ظلت ثيابه غير مجعدة.

«هل تود مني القول لها»؟

«ماذا؟».

قال جين: «حول العازف».

نظر السيد هوسوكاوا إلى روكسان كوس، التي كان لا يزال وجهها مخبأ وراء شعرها المنسدل. وبالرغم من وجود رجال على الكنبة حيث كانت تجلس، إلا أنه بدا واضحاً أنها كانت وحيدة. كان الكاهن بالقرب منها، لكن ليس معها. كانت عيناه مغمضتين، وشفتاه مضمومتين إلى بعضهما البعض، ويتلو كلمات الصلاة. «آه، أنا واثق من أنها تدرك هذا الأمر». ثم أضاف بطريقة يشوبها بعض الشك: «أنا واثق من أن الجميع أخبروها بذلك».

لم يصمم جين على الأمر، بل انتظر. لم تكن مسؤوليته تقديم النصح إلى السيد هوسوكاوا. لقد أدرك أنه يجب عليه انتظاره ليتوصل وحده إلى ما يريده.

قال: «إن لم يكن ثمة إزعاج لها، فربما بوسعك تقديم التعازي إليها نيابة عني. قل لها إنني أرى أن عازفها كان رجلاً شجاعاً وموهوباً». ثم نظر إلى جين مباشرة، وهو أمر لم يكن معهوداً بينهما.

ثم أضاف: «ماذا لو كنتُ أنا المسؤول عن موته؟».

«كيف يُعقل هذا؟».

«كانت هذه حفلة عيد مولدي. لقد أتيا إلى هنا من أجلي».

قال جين: «لقد أتيا إلى هنا ليعملا. إنهما لا يعرفانك».

بدا السيد هوسوكاوا في اليوم التالي لعيد مولده الثالث والخمسين، كبيراً في السن على نحو مفاجئ. كان قد ارتكب

خطأً في قبوله مثل هذه الهدية، والآن بدت كأنها تسحب الأعوام من حياته. «قل لها... قل لها إنني أشعر بالأسى الشديد».

هز جين برأسه، ثم وقف ومشى في الغرفة التي كانت واسعة جداً. حتى لو استُثنيت ردهة المدخل الشاسعة الموجودة في طرف الغرفة وغرفة الطعام الموجودة في الطرف الآخر من الغرفة، تُعتبر غرفة الجلوس رحبة للغاية، حيث تحوي ثلاث مساحات منفصلة مجهزة بالكراسي والكنبات: غرف جلوس ضمن غرف جلوس. وُضع الأثاث جانباً من أجل الحفل الموسيقي، ثم تم جره ببطء إلى مكانه، لكن من دون ترتيب متقن كي يستريح عليه بقية الضيوف. لو أن الغرفة احتوت على مكتب استقبال لكانت بدت شبيهة كثيراً ببهو الفنادق الشاسع. خطر في بال جين أنه لو كان هناك عازف بيانو، ثم أوقف نفسه عن التفكير. كانت روكسان كوس وحدها، لكن كان يقف وراءها إرهابي شاب في مكان ليس ببعيد كثيراً، حاملاً بندقيته بالقرب من صدره. سبق لجين أن رأى هذا الفتى من قبل. كان هو نفسه الذي حمل يد روكسان كوس لحظة استلقوا على الأرض في بداية الأمر. لِمَ عساه تذكر هذا الفتى في حين أن جميعهم متشابهون؟ ثمة أمر ما في وجهه الذي يتسم بالبراءة، والذكاء نوعاً ما، وقد ميزه ذلك عن الباقين. شعر جين بانزعاج كونه لاحظ كل هذه التفاصيل، ثم رفع الفتى عينيه عن الأرض ورأى جين ينظر إليه. حدقا في بعضهما البعض لوهلة، ثم سرعان ما أشاح كل منهما بنظره بعيداً. انتاب جين شعور غريب بالضيق.

لقد سهل عليه هذا الإحساس الحديث إلى روكسان كوس. لم تُخْفِه بقدر ذاك الفتى.

قال لمغنية الأوبرا: «عذراً»، ثم أخرج الفتى من رأسه. ما كان جين أبداً ليأتي إليها من تلقاء نفسه. ما كان أبداً ليتحلى بالشجاعة ليعبر لها عن تعاطفه وتعازيه، تماماً مثلما يفتقر السيد هوسوكاوا إلى الشجاعة للتكلم معها، حتى لو كان يتقن الإنكليزية ببراعة شديدة. لكن، كانا يسيران معاً في العالم بسهولة تامة: نصفان صغيران من الشجاعة يشكلان كلاً شجاعاً.

نادت: «جين»، ثم علت وجهها ابتسامة حزن. كانت عيناها لا تزالان حمراوين ودامعتين. مدت يدها وأخذت بيده. من بين جميع أسماء من في الغرفة، لم تكن واثقة سوى من اسمه، وقد شعرت بالراحة لتلفّظها به على الملأ. «جين، شكراً لك على ما فعلته من قبل، على إيقافك لهم».

هز برأسه نافياً، وقال: «أنا لم أوقف أحداً». فوجئ لسماع اسمه يخرج من بين شفتيها. فوجئ لوقع اسمه حين تهمس به، وبلمسة يدها أكثر.

«ما كان لكلامي أي معنى لو أنك لم تكن موجوداً لإخبارهم بما كنت أقوله. وإلا لكنت مجرد امرأة تصرخ».

«لقد أوضحت الأمور بشكل جيد».

«تخيل أنهم أرادوا رميه بالرصاص»، ثم أفلتت يده.

قال جين: «يُسعدني»، ثم توقف محاولاً التفكير في ما إذا

كان هناك أي أمر يبعث على السرور. «يسعدني أن صديقك حظي ببعض السلام. أنا واثق من أنهم سيرسلونه إلى دياره قريباً».

قالت: «نعم».

تخيّل كل من جين وروكسان، العازفَ يتوجه إلى دياره، كأنه يجلس على مقعد في الطائرة إلى جانب النافذة، تنظر روحه خارجاً إلى الغيوم التي تغطي سماء الدولة المضيفة التي مات فيها.

«طلب مني موظَّفو السيد هوسوكاوا تقديم تعازيه إليك. أراد مني إخبارك أن عازفك كان موهوباً كثيراً. وقد شرفنا سماعه يعزف».

هزت برأسها وقالت: «أتعلم، إنه محق. كان كريستوف جيداً جداً. لا أفترض أن الناس يلاحظون العازف في أغلب الأحيان. لطف من موظفك قول هذا الكلام». ثم رفعت يدها المفتوحة إلى جين. «لقد أعطاني منديله». كان المنديل عبارة عن قطعة قماش بيضاء صغيرة مجعدة في راحة يدها. «أخشى أنني أفسدته. لا أحسبه سيريد استرجاعه».

«بالتأكيد سيود منك الاحتفاظ به».

«أعِد عليّ اسمه».

«هو ـ سو ـ كاوا».

قالت وهي تهز برأسها: «هوسوكاوا. لقد أقميت هذه الحفلة بمناسبة عيد مولده».

«نعم، وهو يشعر بالأسف الشديد حيال هذا الأمر أيضاً. يحس بذنب لأن ما حصل كان بسببه. إنه يحمل على عاتقه هماً ثقيلاً من المسؤولية».

«إن الحفلة كانت عيد مولده؟».

«إنكِ أتيت أنت وصديقك إلى هنا من أجله. إنه يشعر بأنك محتجزة هنا بسببه، وأن صديقك ربما...». توقف جين من جديد. لم يكن هناك جدوى من الإفصاح عن الأمر. بوجوده بهذا القُرب الشديد منها، بدا له وجهها شاباً ونضراً. يشبه إلى حد كبير وجه الفتيات الصغيرات، بعينيها الزرقاوين وشعرها الطويل. لكنه أدرك أنها تكبره بعشر سنين على الأقل. خمَّن أنها في أواخر الثلاثينات من عمرها.

قالت: «قل للسيد هوسوكاوا نيابة عني»، ثم كفت عن الكلام. توقفت كي تُرجع ضفائر من شعرها إلى الوراء بعيداً عن وجهها. «سحقاً، ما الذي يشغلني عن قول هذا الكلام له بنفسي. أهو لا يجيد اللغة الإنكليزية؟ حسناً، ستقوم أنت بالترجمة. أنت الوحيد بيننا هنا الذي لديه عمل ووظيفة. هل ثمة لغات لا تجيدها؟».

ابتسم جين لهذه الفكرة: اللائحة اللامتناهية من اللغات التي لا يجيدها. قال: «أنا لا أجيد معظم اللغات». وقف جين، ثم

وضعت روكسان كوس يدها على ذراعه لتسير في أرجاء الغرفة كأنه قد يُغمى عليها. كان احتمالاً وارداً. فقد مر عليها يوم عصيب. رفع كل من في الغرفة رؤوسهم، وعلقوا أحاديثهم لمشاهدتهما: المترجم الياباني الشاب الطويل يجوب الغرفة الرحبة بصحبة مغنية الأوبرا التي تضع يدها على يده. كم وجد غرابة وروعة في رؤيتها تسند يدها إلى أعلى كتفه، وأصابعها الناعمة تكاد تلمس معصمه.

لاحظ السيد هوسوكوا، الذي كان يحاول أن يشيح بنظره بعيداً، أن جين يجلب روكسان كوس إليه. شعر برعشة خجل تملأ تعابير وجهه، وتسري في عروقه، فوقف انتظاراً لوصولها.

قالت روكسان كوس: «تحياتي سيد هوسوكاوا»، ومدت يدها إليه.

قال لها: «تحياتي آنسة كوس»، وأحنى رأسه.

أخذت روكسان كرسياً، وجلب السيد هوسوكاوا كرسياً آخر، وسحب جين كرسياً ثالثاً أصغر حجماً، وانتظر.

قالت له: «أخبرني جين أنك تشعر بأنك مسؤول عما آلت إليه الأمور».

هز السيد هوسوكاوا برأسه. تكلم معها بصدق شديد، بالطريقة نفسها التي يتحدث فيها شخصان يعرفان بعضهما البعض منذ أبد الدهر؟ لكن ما هو الدهر؟ هذا العصر؟ هذا المساء؟ لقد غيّر الخاطفون التوقيت الزمني، ولم يعد أحد يدري أي

شيء عن الوقت. حريّ به هذه المرة أن يكون صادقاً وغير لائق كعبء الذنب الذي يشد على رقبته، ويضغط على روحه. قال لها إنه خذل دعوات كثيرة من الدولة المضيفة، لكنه عاد ووافق أخيراً على المجيء بمجرد أن قالوا له إنها ستحضر هي هذا الحفل. أخبرها أنه لم ينو أبداً مساعدة هذه الدولة، وأنه لطالما كان معجباً كثيراً بأعمالها، وسمّى لها المدن التي رآها فيها. قال إنه لا بد من أنه مسؤول، نوعاً ما، عن موت عازفها.

قالت: «لا، لا، أنا أغني في أماكن عديدة. يندر كثيراً أن أغني في حفلات خاصة مثل هذه. بصراحة، معظم الناس لا يملكون المال الكافي، لكني قمت بإحياء مثل هذه الحفلات من قبل. أنا لم آت إلى هنا من أجل عيد مولدك، مع احترامي الشديد لك، لكنني لم أكن أذكر حتى اسم الشخص المحتفى بعيد مولده. كما أنني فهمت أن هؤلاء الأشخاص لم يبتغوك أنت، ولم يريدوا اختطافك، بل كانوا يسعون وراء الرئيس».

قال السيد هوسوكاوا: «لكني أنا الذي كنت السبب المباشر لتنفيذ هذا الحفل».

قالت: «أو ربما أنا؟ لقد فكرت في التواني عن الحضور. لقد توانيت عدة مرات إلى أن عرضوا علي مبلغاً أكبر من المال». ثم انحنت إلى الأمام، عندها أنزل جين والسيد هوسوكاوا رأسيهما إلى الأسفل أيضاً. «لا تسئ فهمي. أنا قادرة كثيراً على إلقاء اللوم. إنها المناسبة الأكثر احتمالاً لرمي الملامة

فيها أنّى شئت، ولا أذكر أنني قد مررت في لحظات مشابهة في حياتي. لكني لا ألقي باللوم عليك».

لو أن أفراد العصابة عمدوا إلى فتح جميع الأبواب في هذه اللحظة وإلقاء جميع أسلحتهم خارجاً، وطلبوا من الجميع المغادرة، لما شعر السيد هوسوكاوا بهذا القدر الكبير من الراحة التي شعر بها عندما أدرك أن روكسان كوس تسامحه.

حمل العديد من الجنود الفتيان الأكياس التي جلبها مسنر على حمالة العازف، وقاموا بتوزيع السندويشات، وعلب المشروبات الغازية، والقطع المغلفة من حلوى الشوكولاته، وقوارير المياه. بدا أن الطعام وفير. وعندما أخذ كل منهما سندويشاً واحداً من الكيس، عمد الفتى إلى هز الكيس في وجههما ليحثهما، من دون التلفظ بأي كلمة، على أخذ المزيد، أو ربما سمح لهما بأخذ المزيد لأنهما كانا ببساطة يجلسان مع روكسان كوس.

قالت وهي تفتح الغلاف الأبيض كما لو أنها تفتح هدية: «يبدو أنني سأبقى على العشاء». يوجد بين شطيرتي السندويش قطعة لحم، لونها أحمر ـ برتقالي مع صلصة، أو قطع فلفل مليئة بالعصارة، سالت على الورقة التي وضعتها على حجرها. انتظرها الرجلان كي تبدأ بالأكل، لكنهما لم يضطرا إلى ذلك طويلاً. فقد بدأت سريعاً بالأكل كأنها كانت تتضور جوعاً. قالت وهي ترفع السندويش: «هناك من يتمنى التقاط صورة لي وأنا في

هذه الحال. أنا في غاية الحرص في ما يتعلق بالطعام الذي أتناوله».

قال السيد هوسوكاوا، ثم ترجم جين كلامه: «إننا نقوم ببعض الاستثناءات في الظروف غير العادية». كان يشعر بالسرور لرؤيته إياها تأكل. أسعده واقع أن حزنها لم يغلب عليها، ويهدد صحتها بأي طريقة.

بالنسبة إلى جين، دفعته قطعة اللحم الدهنية (من أي حيوان؟) الموجودة داخل الخبز المتبل أيضاً بالدهون، إلى الكف عن الأكل ليفكر في مدى شعوره بالجوع. لقد كان جائعاً. أشاح بوجهه عن روكسان كوس والسيد هوسوكاوا، محرَجاً من الدهون البرتقالية اللون التي تلطخ شفتيه. لكن قبل أن يتسنى له أكل نصف السندويش، أتى إليه واحد من الفتيان، كان يعتمر قبعة بايسبول خضراء. لقد بات بالإمكان تمييز هؤلاء الفتيان، بعضهم عن بعض. هذا الفتى يعتمر قبعة عليها صورة لتشي غيفارا، وهناك فتى آخر يضع خنجراً على صدره، وفتى ثالث يضع حول عنقه قلادة رخيصة على شكل القلب الأقدس. كان البعض من الفتيان يتسمون بضخامة البنية أو صغرها، والبعض الآخر يربّون بعض الشعيرات على ذقونهم، والبعض الآخر يملأ وجوههم حَب الشباب. أما الفتى الذي رآه جين بالقرب من روكسان، فقد كان يتمتع بوجه دقيق الملامح. قال الفتى، الذي أتى إلى جين، بلغة إسبانية رديئة بالكاد أمكنه فهمها، إن الجنرالات يودون رؤيته على الفور.

فقال جين بالإنكليزية واليابانية: «عذراً»، ثم لف ما بقي من وجبته ووضعها بكل هدوء تحت الكرسي على أمل أن تبقى في مكانها إلى حين عودته. وقد رغب بالتحديد في قطعة الحلوى.

استخدم الجنرال هكتور قلم رصاص لتدوين الملاحظات على دفتر أوراقه الصفراء اللون. كان دقيقاً للغاية بشأن كتابته.

سأل الجنرال ألفريدو رجلاً يجلس على كرسي أحمر طويل بالقرب من المدفأة: «ما اسمك؟».

«أوسكار مندوزا»، ثم أخرج الرجل منديله من جيبه ومسح به فمه. كان يتناول قطعة الحلوى.

«هل معك أي بطاقات تعريف؟».

أخرج السيد مندوزا محفظته، ووجد فيها رخصة سَوق، وبطاقة ائتمان، وصوراً لبناته الخمس. نسخ الجنرال هكتور المعلومات، ودوّن عنوانه. ثم سحب الجنرال بنجامين الصور وتفحصها، سأله: «ما هي مهنتك؟».

«مقاول». لم يعجب السيد مندوزا واقع تدوينهم عنوانه. إنه يعيش على بُعد خمسة أميال من هنا. كان يعتزم المزايدة على بناء المصنع الذي سمع أن السيد هوسوكاوا أتى إلى هنا من أجل إنشائه. وعوضاً عن ذلك، ها قد نام على الأرض، وودع زوجته وبناته الخمس إلى أجَل غير مسمى، واضطر إلى الأخذ في الاعتبار احتمال أن يُرمى بالرصاص.

«ماذا عن صحتك؟».

هز السيد مندوزا بكتفيه. «أعتقد أن صحتي جيدة بما فيه الكفاية. ها أنا ذا أمامكم».

فقال الجنرال بنجامين: «لكن من يدري؟»، محاولاً تذكر نبرة ذاك الطبيب الذي تكلم معه عندما توجه إلى المدينة قبل أعوام لتفحص أمر القوباء المنطقية المصاب بها. «هل تعاني أي حالات مرضية؟».

نظر السيد مندوزا كأنه يُسأَل عن كيفية عمل ساعة معصمه: «وما أدراني؟».

وصل جين ووقف وراءهم وانتظر إلى أن فرغوا من طرح مزيد من الأسئلة. بدت جميعها مهمة، إلا إن الأجوبة التي أتت رداً عليها، كانت غير ذات فائدة. كانوا يحاولون التخلص من مزيد من الرهائن. كانوا يحاولون التخلص من أي شخص آخر في حالة احتضار محتملة. لقد بث موت العازف التوتر في نفوسهم. وقد عاودت الحشود المتجمعة في الخارج، التي هدأت لفترة من الوقت، الضجيج من جديد، بمجرد أن رأوا الجثة المغطاة بغطاء طاولة. وصرخوا: «جريمة! جريمة!». وصدرت من الشارع الرسائل والأوامر التي أُطلقتْ عبر مكبرات الصوت. وظل الهاتف يرن ويرن ويرن، حيث هناك على الطرف الآخر من الخط مفاوضون محتملون. قريباً، يجب السماح لجميع الإرهابيين بالنوم. كان الجنرالات يتفوهون بترهات مقتضبة لم يقو جين على فهمها. ثم أوقف الجنرال هكتور النقاش عبر سحب مسدسه والتصويب على الساعة الموجودة على أعلى

المدفأة. كان عدد الأشخاص كبيراً، وبالتالي تصعب مراقبتهم جميعاً بالرغم من إطلاقهم سراح نصف المحتجزين. ثم أخذوا ينتقلون من رجل إلى آخر، ويطرحون عليهم الأسئلة، ويدونون إجاباتهم وأسماءهم. وفي حال لم يكن الضيف يجيد الإسبانية، يتدخل جين لتقديم المساعدة. على كل حال، إنهم يعلقون آمالهم على الأجانب. الحكومات الأجنبية مستعدة دائماً لدفع فديات بالعملة الأجنبية. اضطر الجنرالات إلى إعادة التفكير في مهمتهم التي فشلت. إن فشلوا في الحصول على الرئيس، فعندها لا بد من أن يحصّلوا شيئاً مقابل المأزق الذي زجّوا أنفسهم فيه. أرادوا التحدث إلى كل رهينة في الغرفة، لتقييم أوضاع رهائنهم، وتصنيفهم، ليروا مَن منهم يفيدهم أكثر في إخراج رفقائهم من السجون المُحْكَمة، واستقدام المال دعماً للقضية. لكن عملية جمع المعلومات كانت تفتقر إلى الخبرة العلمية، فقد قلل الضيوف من شأن مكانتهم الوظيفية لدى إجابتهم عن الأسئلة الموجَّهة إليهم.

«لا، أنا لا أدير الشركة بالضبط»؛

«أنا مجرد عضو في مجلس يحوي العديد من الأعضاء غيري»؛

«هذا المنصب الدبلوماسي ليس كما يبدو عليه. فقد تم ترتيبه لي من قِبل أخي زوجتي».

إن أحداً لم يكن يرغب في الكذب، لكنهم شذّبوا أطراف الحقائق. لقد أشعرتهم عملية تدوين الملاحظات بالتوتر.

ظل الجنرال ألفريدو يردد مراراً وتكراراً: «سوف يتم تفحص جميع هذه المعلومات من قِبل قومنا في الخارج». وقام جين بترجمة هذا الكلام إلى الفرنسية والألمانية واليونانية والبرتغالية. وفي كل مرة، يحرص على قول «قومهم» في الخارج، وهو أمر لا يفترض بالمترجم الإقدام عليه أبداً.

في غمرة حديث الجنرال بنجامين مع شخص دنماركي اعتُقد أنه داعم محتمل لمشروع نانساي الذي لا وجود له، التفت الجنرال الذي كان يعاني بسبب التهاب الجزء الأعلى من نصف وجهه الأيمن، إلى جين، وسأله بنبرة اتهامية: «أنّى لك هذا الذكاء كله؟»، كأن ثمة مخبأ ذكاء سرياً مخفياً في مكان ما في المنزل، ويحتفظ به جين لنفسه فحسب.

كان جين يشعر بأنه متعب، وليس ذكياً. كما كان يشعر بالجوع أيضاً، والنوم يغني له التهويدات. أحس بأنه يتوق إلى تناول ما بقي من السندويش. قال: «سيدي؟»، واستغرق في تفكير طويل. كان يرى السيد هوسوكاوا وروكسان كوس يجلسان بكل هدوء معاً، غير قادرين على تبادل الحديث، لأن مترجمهما كان مشغولاً مع الإرهابيين في عملية جمع المعلومات.

«أين تعلمتَ كل هذه اللغات؟».

لم يكن يبدي أي اهتمام في سرد قصته؟ هل كان سندويشه لا يزال تحت الكرسي؟ وماذا عن الحلوى؟ كان يتساءل إذا كان السيد هوسوكاوا سيتأهلان للمغادرة، وخشي أن يفتقرا إلى هذه

الأهلية. قال ببساطة: «من الجامعة»، ثم عاد وأدار عينيه مجدداً إلى الرجل الذي يتم سؤاله.

عندما حضّروا اللوائح التي تحوي أسماء من سيُبقون عليهم ومن سيغادرون، وجب أن يكون جين في رأس لائحة الأسماء المغادرة. لا تمكن المساومة عليه بالمال، ولا يتمتع بالثراء. كان مجرد موظف، ومجرد رجل عامل، كأولئك الذين قاموا بتقطيع البصل إلى قطع صغيرة من أجل العشاء. لكن، عندما تم تجهيز لوئح الأسماء لم يظهر اسمه بينها. كان بطريقة ما غائباً عن تفكيرهم كلياً. ليس الأمر أنه يود المغادرة من دون السيد هوسوكاوا... لكان حينها اختار البقاء مثل ذاك الكاهن الشاب، لكن يفضّل الجميع أن يُعطَوا الخيار. في وقت متأخر من العصر، فرغوا من إجراء المقابلات وأخذوا القرارات النهائية. تم تشغيل النور في جميع أرجاء الغرفة، وكُلف جين بمهمة تحضير نسخات من اللوائح. لقد بات بطريقة ما «سكرتير» هذا الحدث برمته.

تم التوصل في النهاية، إلى قرار بالإبقاء على ٣٩ رهينة بمن فيهم المترجم (وقد قام بإضافة اسمه بنفسه). وبات الرقم النهائي أربعين، بما أن الكاهن أرغيداس رفض من جديد المغادرة. ومع وجود ١٥ جندياً وثلاثة جنرالات، بات هناك تقريباً رهينتان لكل مُعتقِل، فارتأوا أنها نسبة معقولة. الخطة الأساسية تقتضي قيام ١٨ إرهابياً بخطف رئيس واحد، لذلك شعروا بأن إعادة الحسابات هذه كانت أقصى ما يسعهم تحمله. إن ما كانوا

يريدونه، وما كان الأفضل بالنسبة إليهم، لم يتجاوز المراوغة في إخراج الأشخاص الفائضين، وأن يعمدوا إلى إبقائهم لمدة أسبوع إضافي، ثم يقوموا بإخراجهم تدريجياً، على دفعات مقابل تحقيق مطالب لهم. كانت لدى الرهائن حاجات وشكاوى. لقد حملوا على عاتقهم غرفة مليئة بأطفال لا يهدؤون، وجميعهم بحاجة إلى من يسكتهم ويسليهم ويراعيهم. وأقصى ما أرادوه لهم كان المغادرة.

لم يقو نائب الرئيس على الإحجام عن التقاط الأكواب ووضعها على أوانٍ فضية كبيرة. كان يعلم بأن الخادمة تضعها في الخزانة في غرفة الطعام. عندما دخل المطبخ تم اللحاق به، وليس توقيفه. أخذ دقيقة لنفسه وأسند رأسه إلى باب الثلاجة، ثم عاد بكيس بلاستيكي كبير زيتي اللون، مخصص للنفايات، وبدأ يلتقط لفافات السندويشات. لم يجد أي بقايا لفتات الخبز في الأوراق، بل مجرد بقع صغيرة من الدهن البرتقالي اللون. بدت آثار الأسنان حتى على اللفافات نفسها. لقد كانوا جميعاً يتضورون جوعاً. جمع علب المشروبات الغازية عن الطاولات والسجاد، بالرغم من أن هذه الطاولات والسجاد التي يحسده كثيرون عليها، لم تكن ملكه فعلياً. كان يشعر بالسعادة داخل هذا المنزل. لطالما وجده مكاناً جميلاً لدى عودته إليه، حيث أولاده يضحكون، ويتراكضون في أروقته مع أصدقائهم؛ والخادمات الهنديات الجميلات يلمّعن الأرض وهن راكعات على ركبهن وأيديهن بالرغم من وجود آلة تلميع كهربائية في خزانة المكانس؛ ورائحة زوجته وهي جالسة إلى طاولة التزيين

تسرح شعرها. كان يحاول إعادة المنزل إلى حالته المألوفة حتى يُبقي الأمور ضمن إطارها المعقول.

كان يقول لضيوفه، وهو يزيل فتات الطعام عبر مسحه براحة يده: «هل تشعر بالراحة؟، هل أنت على ما يرام؟». أراد لو يضع أحذيتهم تحت الكنبات. ولو كان باستطاعته أن يجر الكرسي الأزرق الحريري إلى الطرف المقابل من الغرفة، حيث كان في الأصل، لما أحجم لحظة واحدة، لكن الظروف منعته.

دخل المطبخَ مرة أخرى لجلب قطعة قماش مبللة، لإزالة شيء ما بدا كأنه عصير عنب عالق بين قطب السجادة المميزة. من كان يراه لحظتها لما عرف أنه نائب الرئيس. لكان ظنَّ، معذوراً، أنه خادم هؤلاء القوم. شاهد في أقصى طرف الغرفة مغنية الأوبرا تجلس مع الرجل الياباني الذي كان عيد مولده البارحة. المثير للضحك أنه لم يعد يذكر اسميهما بسبب وجع رأسه. كانا ينحنيان مقابل بعضهما البعض، وتضحك المغنية من وقت إلى آخر وهو يهز برأسه بسعادة. من كان إذاً، ذلك الموسيقي الحالم الذي مات للتو؟ هل هو زوجها، أم مجرد عاشق كواه حبُّ هذه المغنية، واختار الموت قريباً منها، على الحرية من دونها. ثم يهمهم الرجل الياباني بشيء ما، فتصغي إليه وتهز برأسها، ثم تعاود غناء الكلمات له بصوت منخفض جداً. يا له من صوت شجي. بسبب ضجيج الرسائل التي كانت تُبعث من خلال النوافذ، كانت تصعب معرفة ما كانت تغنيه. لم يقوَ إلا على سماع النوتات الموسيقية، وترجيع صدى صوتها الشجي. عاد به ذلك إلى ذكرى ماضٍ سحيق، ظن أنه لن

يسترجعه أبداً، حينما كان فتى صغيراً يركض على منحدر التل بالقرب من الدير، وعندها يسمع للحظة واحدة غناء الراهبات، وكيف كان أفضل حالاً أن يمر مسرعاً بمحاذاة الدير بدلاً من التوقف والانتظار والاستماع. أن تطير الموسيقى عبره وهو يركض، وأن تصبح هذه الموسيقى الريح التي تلفح شعره إلى الوراء، وتطأ بقدميه على إسفلت الطرقات. إن سماعه لها تغني بهذا الدفء والحنين، وهو يقوم بتنظيف السجادة، بث فيه هذا الشعور من جديد. كان الأمر أشبه بسماع عصفور يجيب عصفوراً آخر، حيث لا يسعك سوى سماع الرد، وليس النداء الأصلي الحزين.

تم استدعاء مسنر من جديد. أتى على وجه السرعة. أُرسل روبن إيغليسياس نائب الرئيس والخادم الحالي لفتح الباب. بدا المسكين مسنر أكثر إرهاقاً، وأكثر إصابة بحروق الشمس مع مرور النهار. كم باتت تطول هذه الأيام؟ هل اليوم مات العازف؟ هل البارحة فحسب، كانت ثيابهم جديدة، وكانوا يتناولون قطع اللحم الصغيرة، ويستمعون إلى معزوفة دفوراك؟ أم هل كان دفوراك شيئاً ما احتسوه في كؤوس صغيرة بعد العشاء؟ وهل كانت هذه الغرفة، منذ ساعات قليلة فقط، تضج بالنساء، وبشيفون فساتينهن الجميل، وبمجوهراتهن، وزينات الشعر المرصّعة بالحلي، وحقائب الساتان المسائية الصغيرة المشغولة على شكل أزهار جميلة؟ هل البارحة فحسب، تم تنظيف المنزل، ولُمِّع زجاج النوافذ ورفوفها، وغُسلتْ الستائر الكبيرة والصغيرة، وأُعيد تعليقها، وتم ترتيب كل شيء بدقة متناهية،

وكل ذلك لأن الرئيس والسيد هوسوكاوا الشهير، الذي قد يرغب في بناء مصنع في بلدهم، سيأتيان إلى العشاء؟ حينها بالضبط، في غمرة ضجيج هذه الأسئلة، خطر في بال نائب الرئيس للمرة الأولى السؤال المحير: لمَ طلب منه ماسودا إقامة الحفلة في منزله؟ إن كان عيد الميلاد هذا مهماً جداً، فلمَ لم يُقَم في القصر الرئاسي؟ لماذا، إن كان يعرف على طول الخط، أنه لا ينوي الحضور؟ قال مسنر وهو يضع أطراف أصابعه الرفيعة على جبهة روبن المشتعلة: «أعتقد أنك مصاب بالتهاب». فتح هاتفه الخلوي، وطلب جلب مضادات حيوية باللغتين الإنكليزية والإسبانية. قال: «لستُ أدري أي نوع. أي نوع يعطونه للأشخاص المهشمي الوجه». وضع يده على أسفل الهاتف، وقال لروبن: «هل. . .»، ثم التفت إلى جين وسأله: «كيف نقول «حساسية»؟».

فأخبره جين بمرادف الكلمة بالإسبانية.

هز روبن برأسه الناعم، وقال: «من الفول السوداني».

سأل الجنرال بنجامين جين: «علامَ يتصل؟».

قال له جين إنه يتصل من أجل الحصول على دواء لنائب الرئيس.

قال الجنرال ألفريدو: «ممنوعة الأدوية. أنا لم أسمح بالإتيان بأي أدوية». ما الذي يعرفه نائب الرئيس هذا عن الالتهاب؟ الرصاصة الموجودة في معدته هي بعينها الالتهاب الحقيقي.

قال مسنر وهو يقفل هاتفه: «بالتأكيد ليس الإنسولين».

ادعى ألفريدو عدم سماعه، حيث ظلّ يقلّب أوراقه: «ها هي اللوائح. هؤلاء هم الذين سنُبقي عليهم، وهؤلاء هم الذين سنطلق سراحهم». وضع دفتر الأوراق الصفراء على الطاولة أمام مسنر: «هذه هي مطالبنا. لقد أعدنا جدولتها، ولن نطلق سراح أحد ما لم تُحقَّق بالكامل. لقد كنا كما قلتَ أنت سابقاً بمنتهى الحصافة. والآن، آن الأوان كي تتحلى الحكومة بالحصافة».

قال مسنر وهو يأخذ الأوراق ويطويها ليضعها في جيبه: «سأنقل إليهم هذا الكلام».

قال ألفريدو: «لقد تعاملنا بضمير حي في ما يخص المحافظة على حيوات الجميع».

قام جين، الذي بدا فجأة متعباً، برفع يده ليوقف الحوار، محاولاً تذكر مرادف «ضمير حي» بالإنكليزية... ثم تذكرها.

«إن كل من يحتاج إلى عناية طبية، سيتم إطلاق سراحه».

«بمن فيهم هو؟». أدار مسنر رأسه ناحية نائب الرئيس الذي لم يكن يعير الكلام الذي يُقال أي أهمية بسبب ضياعه في عالم الحمى، وغرقه فيه.

قال الجنرال ألفريدو باقتضاب: «هو سيبقى. إننا لم نحصل على الرئيس، لذا يجدر بنا الحصول على أحد ما».

كانت هناك لائحة أخرى، غير لائحة المطالب (مال، إطلاق

سراح سجناء، طائرة، وسيلة نقل إلى الطائرة. . . إلخ). كانت هذه اللائحة التي خففت من وطأة الأمور، محصورة بالحاجات الصغيرة والطارئة. لم تكن التفاصيل مثيرة للأهمية، حيث يجدر وصول أشياء معينة قبل خروج الرهائن الفائضين: وسائد (٥٨)، أغطية (٥٨)، فراشي أسنان (٥٨)، فواكه (مانجو، موز)، سجائر (٢٠ علبة مع فلتر، ٢٠ علبة من دون فلتر)، أكياس من الحلوى (من جميع الأنواع، ما عدا عرق السوس)، ألواح شوكولاته، أصابع زبدة، جرائد، غطاء للتزود بالحرارة، إضافة إلى الكثير الكثير من الأشياء. تخيلَ من في الداخل، أن الناس في الخارج سيتحركون بأقصى سرعة، ولن يناموا ليلهم، قبل تأمين الأغراض المرجوّة في عز ظلام الليل. سوف يطرق الناس على الأبواب الزجاجية، ويوقظون أصحاب المحال الذين سيُجبَرون على إشعال الأضواء الساطعة فوق رؤوسهم! لا يريد أحد الانتظار حتى الصباح، والمجازفة باحتمال تغيير أحد ما رأيه.

أُخذ جميع الضيوف الباقين إلى غرفة الطعام لسماع أسماء الذين سيبقون كرهائن، وأسماء أولئك الذين سيغادرون. اعترى الجميع حس كبير من الحماسة. كان الأمر أشبه بلعبة، حيث تتم مكافأة الناس أو معاقبتهم بشكل عشوائي، وكان كل منهم في غاية السرور لأخذ هذه المجازفة. وحتى أن السيد هوسوكاوا وسيمون تيبولت، اللذين أدركا أنهما لا يملكان فرصة للعودة إلى ديارهما، فقد وقفا مع بقية الرجال، وقلباهما يخفقان بقوة. ظن جميع الرجال أنه سيتم إطلاق سراح روكسان كوس الآن، وإلا فستصبح فكرة الإبقاء على امرأة واحدة محرجة مزعجة. سوف

يشتاقون إليها، وقد اشتاقوا إليها منذ اللحظة، لكن الجميع أرادوا لها المغادرة.

أعلنوا أسماء الجميع، وطلبوا منهم التوجه إما يميناً وإما يساراً. وبرغم أنهم لم يذكروا أي الجانبين سيتم إطلاق سراحه، إلا أن الأمر اتضح بشكل جلي للجميع. يمكن المرء أن يعرف من خلال قصّة البذلة الرسمية أيهم سيبقى. انبنى حائط عملاق من الظلامة من قِبل أولئك الذين بات بوسعهم التنبؤ بشكل عقلاني بمصيرهم، وأبعدهم كثيراً عن سرور الآخرين الأكثر حظاً. في الجهة الأولى، كان يقف الأشخاص الذين اعتُبروا أقل أهمية، وسيعودون إلى زوجاتهم، وينامون على شراشف أسرّتهم التي ألِفوها، وسيستقبلهم أولادهم وكلابهم، بحرارة حبهم غير المشروط وعبثيته؛ بينما كان الرجال التسعة والثلاثون والمرأة الواحدة، الوحيدة بينهم، الواقفون على الجهة الأخرى، قد بدأوا يستوعبون أنهم سيمكثون هنا، وأن هذا المنزل الذي يُحتجزون فيه، بات مكان سكنهم الآن... وأنهم قد اختُطفوا.

الفصل الرابع

شرح الأب أرغيداس لجين أن ما كانوا ينظرون إليه في الساعات التي أمضوها في التحديق خارج النافذة، يسمى بالإسبانية «غاروا»: عبارة عما هو أكثر من سديم وأقل من رذاذ، وقد غمرت بكثافتها ولونها الرمادي أجواء المدينة التي باتوا الآن مجبرين على المكوث فيها. قام جين بدوره بترجمة ما سمعه وشرح تفاصيله للسيد هوسوكاوا. لم يكن بمقدورهم رؤية المدينة. لم يكن بمقدورهم رؤية أي شيء. أمكنهم أن يكونوا في لندن أو باريس أو نيويورك أو طوكيو. قد يكونون ينظرون إلى حقل من العشب، أو إلى ازدحام سير خانق. لكن الرؤية قد حُجبت عنهم كلياً. ليس ثمة ملامح تحدد الثقافة أو لون البشرة المحلي. أمكنهم أن يكونوا في أي مكان حيث يمكن الطقس أن يظل سيئاً لمدة غير محددة من الوقت. من وقت إلى آخر، تصدر التعليمات من وراء الحائط، لكن حتى هذا الأمر بدا كأنه يتضاءل، كأن الأصوات لم يكن بوسعها اختراق الضباب دوماً. عادة يخيم الضباب فوق المدينة بشكل مظلم وكلي من شهر

نيسان/أبريل حتى شهر تشرين الثاني/نوفمبر. طلب الأب أرغيداس من الموجودين أن يبتهجوا لأن تشرين الأول/أكتوبر قارب على الانتهاء، وعندها ستعود الشمس لتشرق من جديد. ابتسم الكاهن الشاب في وجوههم. كان يتمتع بالوسامة نوعاً ما إلى أن ابتسم. كانت ابتسامته عريضة جداً، وأسنانه تتقاطع بطريقة غريبة، وبدا شكله فجأة كالأخرق. ظل الأب أرغيداس متفائلاً بالرغم من ظروف احتجازهم، وكان يجد دوماً الأسباب التي تدعوه إلى الضحك. لم يبدُ كرهينة، بل كشخص مكلف رفع معنويات الرهائن. كان عملاً ينفّذه بسعادة بالغة. فتح ذراعيه ووضع يداً على كتف السيد هوسوكاوا، واليد الأخرى على كتف جين، ثم حنى رأسه بعض الشيء وأغمض عينيه. لعله عمد إلى ذلك من أجل الصلاة، لكن لو صح الأمر لما كان ليجبر الآخرين على الانضمام إليه. قال من جديد: «ابتهجوا»، قبل مواصلته ما يقوم به.

قال السيد هوسوكاوا: «إنه شخص طيب»، فهز جين برأسه، ثم عادا لينظرا إلى خارج النافذة. لم يكن الكاهن مضطراً إلى الاهتمام بكيفية شعورهم حيال الطقس. لم تكن لهم أي علاقة بالطقس. فوجود الضباب أمر مبرر، لكن صفاء الجو هو الشيء غير المبرر. عندما ينظر المرء إلى خارج النافذة تستحيل عليه الرؤية إلى ما بعد الحائط الذي يفصل الحديقة عن الشارع. كان يصعب تحديد شكل الأشجار، والتمييز بين الشجرة والشجيرة. لقد جعل الضباب ضوء النهار يبدو كالغسق، مثلما حوّلت مصابيح الضوء الغامر التي وُضعت إلى الجانب الآخر من

الحائط، الليل إلى نهار تقريباً، مثل «النهار الكهربائي» المزيف خلال مباراة بايسبول مسائية. باختصار، عندما ينظر المرء إلى خارج النافذة لدى وجود الضباب، فإن جل ما يراه هو الضباب نفسه، وليس النهار أو الليل أو الموسم أو المكان. لم يعد النهار يمر بطريقته الطبيعية المعتادة، بل باتت كل ساعة أطول من دهر، وكل لحظة تكرّر نفسها مراراً وتكراراً. إن الوقت، بالطريقة التي كانوا يعهدونها من قبل، قد انتهى.

دخلت مدة احتجازهم أسبوعها الثاني. سبعة أيام طويلة كدهر مرت على انتهاء عيد مولد السيد هوسوكاوا. لم يكن ذاك الأسبوع سوى عبارة عن تفاصيل على أي حال: فترة مملة كانوا يتعلمون في خلالها عن حياتهم الجديدة. كانت الأمور صارمة كثيراً في البداية. ظلت الأسلحة مصوبة على الناس، والأوامر تُصدر وتُطاع، والناس ينامون في صفوف أفقية على سجادة غرفة الجلوس، ويطلبون الإذن بمغادرة المكان عند الضرورة القصوى. من ثم بدأت هذه التفاصيل تتضاءل ببطء شديد. بدأ الناس يقفون من تلقاء أنفسهم. ينظفون أسنانهم من دون طلب الإذن بذلك، ويتبادلون الأحاديث من دون مقاطعة من أحد. وفي النهاية، باتوا يتوجهون إلى المطبخ ويحضّرون لأنفسهم سندويشات عند شعورهم بالجوع، مستخدمين الملاعق من جهتها الخلفية لمدّ الزبدة على الخبز، لأنه تمت مصادرة جميع السكاكين. كان الجنرالات يكنّون شعوراً خاصاً لجواكيم مسنر (بالرغم من أنهم لم يعبّروا له صراحة عن شعورهم هذا)، وأصروا عليه ألا يتحمل مسؤولية التفاوض فحسب، بل يجدر به

تسلّم أمر جلب جميع المؤن إلى المنزل، وأن يُدخل كلَّ صندوق على حدة من البوابة مروراً بالممشى الطويل. لقد بات مسنر، الذي انتهت عطلته منذ أمد بعيد، من يجلب لهم الخبز والزبدة إلى المنزل.

بالكاد كان الوقت يجذب العقرب الثاني في الساعة إلى الأمام، وبرغم ذلك حصل الكثير من الإنجازات حتى الآن. هل يعقل أنه مر أسبوع فحسب؟ إن الانتقال من حالة توجيه السلاح إلى ظهور الرهائن، إلى وضع معظم الأسلحة في خزانة المكانس، أمر وجب أن يأخذ ما لا يقل عن سنة، لكن الخاطفين باتوا يفقهون أن الرهائن لن يقوموا بثورة ما، والرهائن أدركوا تقريباً أن الإرهابيين لن يطلقوا النار عليهم. بالطبع لا يزال الحراس يقومون بدورهم، حيث يجوب اثنان من الفتيان أرجاء الحديقة، وثلاثة منهم يتناوبون الحراسة في الغرف في المنزل وهم يشهرون أسلحتهم كأنها عصي قصب للعميان. وواصل الجنرالات مدّهم بالأوامر. يقوم أحد الفتيان من حين إلى آخر بلكز أحد الضيوف بماسورة بندقيته، ويطلب منه التوجه إلى الطرف المقابل من الغرفة لمجرد متعة رؤيتهم يتحركون. أثناء الليل، يقوم بعض الفتيان بالحراسة، لكن بعد منتصفه يغرقون في النوم، ولا يستيقظون عندما تفلت بنادقهم من بين أصابعهم وتقع على الأرض.

أما المدعوون إلى حفلة عيد مولد السيد هوسوكاوا، فيمضون النهار بالتنقل من نافذة إلى أخرى، أو ربما في لعب الورق، أو تصفّح مجلة، كأن العالم تحول إلى محطة قطار

عملاقة، حيث تم تأجيل كل شيء حتى إشعار آخر. إن غياب التوقيت هو ما أربك الجميع. كان الجنرال بنجامين قد وجد قلم تلوين كبيراً يعود إلى ماركو، الابن الصغير لنائب الرئيس، وعمد بواسطته كل يوم إلى رسم خط عريض أزرق على حائط غرفة الطعام، ستة خطوط أفقية ثم خط عمودي للدلالة على أن أسبوعاً قد مر. تخيل أخاه لويس في الحجز الانفرادي مجبراً على نقش خربشات على حجر الحائط بظفره كي يتذكر الأيام. وبالطبع داخل منزل، توجد طرائق تقليدية أكثر لمتابعة الوقت. كان ثمة العديد من الروزنامات: دفتر تواريخ، ودفتر تدوين للمواعيد في المطبخ بالقرب من الهاتف، كما أن العديد من الرجال يضعون على معاصمهم ساعات تعطي التاريخ إضافة إلى الوقت. وإن فشلت أي من هذه الوسائل، فإن بوسعهم اللجوء إلى تشغيل الراديو ومعرفة اليوم والتاريخ لدى سماعهم الأخبار التي تدور عنهم. لكن برغم ذلك، وجد الجنرال بنجامين أن الطريقة القديمة الطراز هي المثلى. شذّب قلم التلوين بسكين حاد، وأضاف خطاً آخر إلى مجموعة الخطوط الموجودة على الحائط. وقد أشعل هذا الأمر غضب روبن إيغليسياس كثيراً. كان ليُنزل بأولاده أقصى العقاب في حال أقدموا على فعل بربري كهذا.

كانوا جميعاً، من دون استثناء، رجالاً غير معتادين على الإطلاق على فكرة الوقت الشاغر. من هم في غاية الثراء منهم، كانوا يبقون في مكاتبهم حتى وقت متأخر من الليل، أو يجلسون في مقاعد سياراتهم الخلفية يُملون الرسائل، في الوقت الذي يقلهم سائقوهم إلى منازلهم. أما من هم صغار في السن،

وفقيرون ومعدَمون، فإنهم يكدون في العمل بقدرهم، لكن يختلف نوع عملهم. حيث يوجد خشب يجدر تقطيعه. وبطاطا حلوة عليهم الحفر واستخراجها من الأرض. كما هناك تمارين على تعلّم حمل السلاح، وكيفية الركض، وكيفية الاختباء. والآن، بات يخيّم عليهم فراغ كبير وغير معهود، فباتوا يجلسون ويحدقون في بعضهم البعض، ويطرقون من دون توقف بأصابعهم على أذرع كراسيهم.

لكن، وسط هذا المحيط الشاسع من الوقت، لم يُبدِ السيد هوسوكاوا أي اكتراث بشركة نانساي. ولدى تحديقه في الفضاء الخارجي، لمعرفة الحالة الجوية، لم يتساءل قط إذا ما أثّر احتجازه في أسعار الأسهم. لم يأبه من الذي يقوم بأخذ قراراته، ويجلس وراء مكتبه. تلك الشركة التي كانت حياته وابنه، وقد سقطت من يده كسقوط عملة نقدية. أخرج دفتر ملاحظات صغيراً لولبي الشكل من جيب بزته الرسمية. وبعدما سأل جين عن كيفية تهجئة كلمة «غاروا»، قام بإضافتها إلى لائحته. إن التحفيز هو الأساس. بالرغم من استماع السيد هوسوكاوا مرات عديدة إلى شرائط التسجيل الإيطالية في اليابان، إلا أنه لم يقو على تذكر حتى كلمة واحدة منها. وبعد سماعه كلمات جميلة مثل: ديمورا وباترونو، سرعان ما تختفي من ذاكرته. لكن بعد أسبوع واحد من احتجازه، ها قد تعلم عدداً كبيراً من الكلمات الإسبانية! فقد تعلم مفردات جديدة: الآن، اجلس، قف، نم، جيداً جداً. لكن، لطالما لُفظت هذه الكلمات بنبرات فظة ومتعالية لا تفيد المستمع بأنه أبلى حسناً،

بل فقط أنه في غاية الغباء لينتظر توقعات عالية. لم يكن أمامه تعلم اللغة فحسب، بل كان عليه تعلم الأسماء أيضاً: أسماء الرهائن والمختطِفين، وذلك عندما كان يفلح في جعل واحد منهم يخبره اسمه. كان الناس من عدة بلدان مختلفة، حيث يصعب التزامل بين بعضهم البعض. ليس ثمة منطلق يبدأ منه المرء للتواصل مع الآخر. كانت الغرفة مليئة بالرجال الذين لا يعرفهم، وحُتمت عليه معرفتهم، بالرغم من أنهم كانوا يتبادلون الابتسامات وهزات الرأس في ما بينهم. وجب عليه أن يكدّ أكثر في العمل على تقديم نفسه. كان قد سعى في نانساي إلى تعلم أسماء أكبر قدر ممكن من موظفيه. كان يذكر أسماء رجال الأعمال الذين كان يسليهم، وأسماء زوجاتهم اللواتي كان يسأل عنهن، ولم يلتق بهن قط.

لم يحيَ السيد هوسوكاوا حياة جامدة. فقد ظل يتعلم وهو يبني شركته. لكن التعلم الذي يكتسبه الآن مختلف. إنه التعلم الذي عهده أيام الطفولة: «هل لي بالجلوس؟ هل لي بالوقوف؟ شكراً لك. رجاءً. ما مرادف كلمتي تفاحة وخبز بالإسبانية؟». كان يتذكر ما يقولونه له، لأنه على عكس حاله مع شرائط التسجيل الإيطالية، فإنه لا يقوم بشيء هنا سوى التذكر. بات يشعر الآن كم كان يتكل على جين في الماضي، وكم يتكل عليه الآن، بالرغم من أن عليه الآن التمهل قبل طرحه الأسئلة، لأن جين غالباً ما يكون منشغلاً في ترجمة شيء ما للجنرالات. كان نائب الرئيس منذ يومين فد تكرّم على السيد هوسوكاوا بإعطائه دفتر الملاحظات هذا، إضافة إلى قلم، كانا موجودين في دُرج

في المطبخ. قال له: «تفضل. اعتبرهما هدية متأخرة لعيد مولدك». دوّن السيد هوسوكاوا على هذا الدفتر الأحرف الأبجدية، وطلب من جين تدوين الأرقام له، من واحد إلى عشرة، وقرر أن يضيف كل يوم كلمات جديدة بالإسبانية. كان يكرر كتابة هذه الكلمات مراراً وتكراراً، لكن بخط صغير جداً، بالكاد تمكن قراءته. فبالرغم من توافر الكثير من الصفحات، إلا أنه يخشى أن يأتي يوم يفتقر فيه إلى الأوراق. متى كانت آخر مرة دوّن فيها شيئاً ما؟ كانت أفكاره تُدخَل ضمن ذاكرة الحاسوب ثم تُسجَّل ثم تُنقل. وجد السيد هوسوكاوا في هذا التكرار البسيط، السلوى في إعادة اكتشاف خطه اليدوي. بدأ يفكر في الإيطالية من جديد. تبادر إليه أكثر من مرة، الطلب من جين تضمين كلمة واحدة أو اثنتين من اللغة الإيطالية في الدفتر أيضاً. كان هناك رجلان إيطاليان في مجموعتهم، وعندما كان يسمعهما يتكلمان، كان يجد نفسه يكد ليفهم ما يقولانه، كأنه يستمع إلى مكالمة هاتفية رديئة. إن الإيطالية لغة قريبة جداً إلى قلبه. والإنكليزية أيضاً. فما يهمه الآن، ويغبطه، هو التمكن من محادثة الآنسة كوس.

جلس ونقر بطرف قلمه على دفتره. إنها مغالاة في الطموح. إذا دوّن الكثير من الكلمات فسينتهي به الأمر بلا أي شيء. عشر كلمات إسبانية في اليوم، حيث يتعلم عشرة أسماء، وفعلاً واحداً مع تصريفه الكامل. هذا المقدار كاف، وبالكاد يقوى على تحمله إن أراد فعلاً تذكر كل كلمة مما دونه، أو حتى مما سمعه، والاحتفاظ بها من يوم إلى آخر.

غاروا. في أغلب الأحيان عندما يجلس السيد هوسوكاوا بالقرب من النافذة، يتساءل عن الناس الموجودين في الجانب الآخر من الحائط، والشرطة والجيش الذين باتوا الآن يستخدمون الهاتف أكثر من مكبرات الصوت. هل يصيبهم الملل دوماً، والبلل أحياناً؟ هل يجلسون في سياراتهم ويحتسون القهوة؟ خمّن أن الجنرالات هم الذين يجلسون في سياراتهم، في حين أن الصبيان، أي عناصر الشرطة الأدنى مرتبة والذين يحملون بنادقهم، يقفون بانتباه كامل في حين يسيل المطر على رقابهم من الخلف.

لا يختلف عناصر الشرطة هؤلاء عن الأطفال الذين يجوبون غرفة الجلوس في منزل نائب الرئيس، بالرغم من أنه يوجد حد أدنى من العمر المسموح له بالانخراط في الجيش. إلى أي مدى يُعتبر هؤلاء الأطفال صغاراً؟ إن الذين يبدون أكبر سناً، يتبين عندما يسيرون تحت نور اللمبة الساطع، أنهم ليسوا أكبر سناً، بل أكبر حجماً فحسب. كانوا يتجولون في أرجاء الغرفة ويصطدمون بالأثاث، لعدم اعتيادهم على الحجم الكبير الذي باتوا عليه مؤخراً. على الأقل، يمتلك هؤلاء الصبيان عقدة الحنجرة، وبعض الشعيرات النابتة حديثاً على ذقونهم، ممتزجة مع البثرات الغاضبة. أما الذين كانوا فعلاً الأصغر سناً، فكانوا صغاراً في السن إلى حد مريع. كان شعرهم يتسم بغزارة شعر الأطفال ولمعانه. ويتمتعون بنعومة بشرة الأطفال وأكتافهم الصغيرة. كانوا ينشرون أيديهم الصغيرة حول أكعاب البنادق،

ويحاولون إبقاء الغضب مرتسماً على وجوههم. كان الرهائن يحدقون في الإرهابيين، وكلما طال تحديقهم فيهم، أيقنوا أكثر كم هم صغار في السن. هل يُعقل أن يكون هؤلاء، هم أنفسهم الذين اقتحموا حفلة عيد الميلاد، الحيوانات المفترسة نفسها؟ ها هم ينامون على الأرض مكدسين فوق بعضهم البعض بشكل عشوائي، وأفواههم مفتوحة وأذرعتهم ملتوية. إنهم ينامون كالمراهقين. ينامون بنوع من التركيز الكامل الذي نسيه كل بالغ في الغرفة منذ عقود من الزمن. كان البعض منهم يحب واقع كونه جندياً. فلم يتركوا السلاح من أيديهم. وكانوا يهددون البالغين عبر قيامهم من حين إلى آخر بدفعهم أو رمقهم بنظرة كراهية. بدا أن الأطفال المسلحين أكثر خطورة بكثير من البالغين المدججين بالسلاح. فقد كانوا متقلبي المزاج، وغير عقلانيين، وتوّاقين إلى المواجهة. أما الآخرون فقد أمضوا وقتهم في التحديق في تفاصيل المنزل. يقفزون على الأسرّة، ويجربون الملابس الموجودة في الخزائن، ويدفقون مياه المرحاض مراراً وتكراراً لمجرد متعة مشاهدة المياه تدور لولبياً. في البداية، كانت ثمة قاعدة مهمة تقضي بوجوب عدم مخاطبتهم السجناء، لكن حتى هذه القاعدة بدأ البعض يكسرها. فقد باتوا أحياناً يتكلمون مع الرهائن، خصوصاً عندما يكون الجنرالات منشغلين في التحادث بين بعضهم البعض. كان السؤال المفضل: «من أين أنت؟»، على الرغم من أنهم نادراً ما كانوا يفهمون الإجابات. وأخيراً توجه روبن إيغليسياس إلى مكتبه، وأحضر كتاب أطلس كبيراً حتى يتمكنوا من الإشارة إلى البلد على الخريطة. وعندما

تبين أن هذه الطريقة لم توضح الأمر بالقدر المرجو، أرسل حارساً إلى غرفة ابنه ليجلب مجسَّم الكرة الأرضية الموجودة المثبتة فوق المكتب: كرة خضراء وزرقاء جميلة تدور بكل سهولة حول محور ثابت.

قال سيمون تيبولت: «باريس»، مشيراً إلى مدينته. «فرنسا».

أشار لوثار فالكين إلى ألمانيا، ووضع راسموس نيلسون إصبعه جهة الدنمارك. أما آكيرا ياماموتو، فلم يكن يُبدي اهتماماً باللعب، فاكتفى بالالتفات بعيداً، وعندها عمد جين إلى الإشارة إلى اليابان. أما روكسان كوس، فقد غطت كامل الولايات المتحدة براحة يدها، ثم نقرت بإصبع واحدة على النقطة التي تمثل شيكاغو. أخذ الصبيان الكرة الأرضية إلى المجموعة التالية من الناس، الذين لم يحل عدم فهمهم السؤال من الاندماج كثيراً في تفاصيل اللعبة. قالوا: «هذه روسيا. هذه إيطاليا. هذه الأرجنتين. هذه اليونان».

سأل الصبي المدعو إسماعيل، نائب الرئيس: «من أين أنت؟». فقد كان يَعتبرُ نائب الرئيس رهينته الخاصة لأنه هو الذي قام بجلب الثلج له من المطبخ عندما تلقّى الإصابة في وجهه. كان لا يزال يجلب الثلج لروبن، وأحياناً يقوم بالأمر بين ثلاث مرات إلى أربع مرات في اليوم، من دون أن يطلب منه أحد، فيشعر نائب الرئيس بالراحة عندئذ، فقد التهب خده وواصل التورّم.

قال نائب الرئيس مشيراً إلى الأرض: «هنا».

«أرِني»، ثم رفع إسماعيل الكرة الأرضية.

نقر روبن إيغليسياس بقدمه على السجادة، وقال: «هنا. هذا منزلي. أنا أعيش في هذه المدينة. أنا من البلد نفسه الذي أنت منه». رفع إسماعيل رأسه ونظر إلى صديقه. فقد وجد سهولة أكبر في إقناع الروسيين باللعب. «أرِني».

فجلس روبن على الأرض مع الصبي والكرة الأرضية، ودل على الدولة المضيفة التي كانت أفقية وزهرية اللون. «إننا نعيش هنا». كان إسماعيل الأصغر سناً بينهم جميعاً، وأشبه بطفل بأسنانه الصغيرة. أراد روبن لو يجذب هذا الطفل ويضعه في حجره والاحتفاظ به.

«أنتَ تعيش هناك».

فأجاب روبن: «لا، ليس أنا وحدي». أين هم أولاده؟ أين ينامون الآن؟ «كلانا نعيش هنا».

تنهد إسماعيل ونهض عن الأرض، بعد أن خاب ظنه بسبب بلادة صديقه. قال له: «أنت لا تجيد اللعب».

قال روبن وهو ينظر إلى حالة حذائه المزرية: «أنا لا أجيد اللعب». في أي دقيقة قد يقع نعل حذائه الأيمن كلياً، وهو يعيّره بأنه لا يجيد اللعب. «اسمعني الآن. اصعد إلى أكبر غرفة نوم تجدها في الطابق العلوي، وافتح جميع الأبواب إلى أن تجد خزانة مليئة بالفساتين النسائية. في تلك الخزانة تجد مئة زوج من الأحذية، وإن بحثت بينها تجد حذاءً رياضياً يناسب مقاس رجلك. قد تجد أيضاً حذاءً عالي الساق».

«لا يسعني انتعال حذاء نسائي».

هز روبن برأسه نافياً الأمر. «إن الحذاء الرياضي والحذاء العالي الساق ليسا نسائيين. إننا نضعهما هناك فحسب. أعلم أن الأمر ليس منطقياً، لكن ثق بي».

قال فرانس فون شولر: «من السخف جلوسنا هنا على هذا النحو». ترجم جين هذا الكلام إلى الفرنسية، لسيمون تيبولت وجاك ميتسيي، ثم إلى اليابانية للسيد هوسوكاوا. كان ثمة ألمانيان آخران هناك أيضاً. كانت هذه المجموعة تقف بالقرب من المدفأة الفارغة تشرب عصير العنب. يا لها من نعمة جزيلة، عصير العنب. لقد كانت أفضل من الويسكي ذي النوعية الممتازة. استقرت حدة الطعم على ألسنتهم، وجعلتهم يشعرون لأول مرة بأنهم على قيد الحياة. كان هذا اليوم الأول الذي يُجلب فيه هذا العصير إلى المنزل. «هؤلاء الناس غير محترفين. من في الدخل ومن في الخارج أيضاً».

قال سيمون تيبولت: «وماذا تقترح؟». كان تيبولت لا يزال يلف حول عنقه وشاح زوجته الأزرق الكبير، وبات يتدلى على ظهره. وقد دفع وجود هذا الوشاح بالناس إلى عدم الإصغاء إليه، والاستخفاف برأيه، في ما يخص الأمور الجدية.

مر بهم بياترو جينوفيس، وطلب من جين ترجمة الحديث له أيضاً. كان يعرف الفرنسية بشكل كاف، لكن ليس الألمانية.

قال فون شولر خافضاً صوته، بالرغم من أنه بدا أن أحداً

ليس قادراً على فهم اللغة الألمانية: «ليس الأمر كأن الأسلحة مخبأة عنا». فانتظروا حتى ترجم جين كلامه.

فقال بياترو جينوفيس: «ونغادر هذا المكان عبر إطلاق النار، كما نشاهد على التلفاز. هل هذا عصير عنب؟». بدا ضجراً من الحديث بالرغم من أنه انضم إليهم للتو. كان يعمل في مجال بناء المطارات. وعندما تتوسع صناعة بلد ما، فلا بد من أن تتوسع مطاراته.

رفع جين يده. «لحظة واحدة، رجاءً». كان لا يزال يترجم من الألمانية إلى اليابانية.

قال جاك ميتسيي: «سوف نحتاج إلى دزينة مترجمين ورجال تحكيم من الأمم المتحدة، قبل أن نتمكن من أخذ قرار بطعن مراهق واحد بسكين». لقد وجه هذا الكلام إلى نفسه بقدر ما وجهه إلى الجميع، وكان يفقه ما يقوله نظراً إلى أنه كان في ما مضى السفير الفرنسي إلى الأمم المتحدة.

«قال فون شولر: «أنا لا أقول إن على الجميع الموافقة».

ورد تيبولت: «هل ستجرب الأمر بمفردك؟».

«رويدكم أيها السادة رجاءً». كان جين يحاول ترجمة الكلام كله إلى اليابانية. إنها مسؤوليته الأولى. فهو لا يعمل لحساب عامة الناس، بالرغم من أنه بدا أن الجميع قد نسوا هذا الأمر. إنه يعمل لحساب السيد هوسوكاوا.

بدت الأحاديث المتبادلة بأكثر من لغتين، غريبة وغير

موثوقة، كمن يتكلم وفمه مليء بالقطن ودواء النوفوكاين. لم يكن بمقدور أحد لجم أفكاره لمدة كافية وانتظار دوره. هؤلاء الرجال ليسوا من النوع المعتاد على الانتظار، أو التكلم بنظام. كانوا يؤثرون التزويد بالإيضاحات والتحدث بصخب عند الضرورة. توجه بياترو جينوفيس ليرى إن كان هناك مزيد من عصير العنب في المطبخ. ملّس سيمون تيبولت وشاحه براحة يده، وسأل جاك ميتسيي إن كان يرغب في لعب الورق. قال تيبولت بالفرنسية: «قد تقتلني زوجتي إن علمت بأنني شاركت في انتفاضة ما».

تبادل الرجال الألمان الثلاثة بضع كلمات بشكل سريع في ما بينهم، ولم يحاول جين الاستماع إليهم.

قال السيد هوسوكاوا لجين، لدى عودتهما للوقوف عند النافذة: «أنا لا أسأم أبداً من الطقس». وقفا جنباً إلى جنب لفترة من الوقت ينفضون كل تلك اللغات المختلفة من رأسيهما.

سأل جين: «هل خطرت في ذهنك فكرة الانتفاض؟». كان يرى انعكاسهما على الزجاج. كانا يقفان على مسافة قريبة جداً من الزجاج. رجلان يابانيان، كل منهما يضع نظارة، وواحد أطول من الآخر ويصغره بخمس وعشرين سنة. لكن في هذه الغرفة، حيث لا يجمع بين الناس الكثير من القواسم المشتركة، أمكن جين الملاحظة للمرة الأولى كم أن الشبه بينهما كبير جداً. أبقى السيد هوسوكاوا عينيه مسلطتين على انعكاس صورتيهما، أو لعله كان يشاهد الضباب، وقال: «ستنشب انتفاضة ما في

النهاية. وعندها، لن يكون بأيدينا ما نفعله لنوقفها». وقد استحال صوته ثقيلاً لدى عرضه هذه الفكرة.

كان الجنود يمضون معظم أيامهم في استكشاف المنزل، يأكلون المكسَّرات التي يجدونها في الخزائن، ويشتمّون معطر الأيدي برائحة الخزامى في الحمام. كان المنزل يضج بالأشياء التي تثير الحشرية: خزائن بحجم بعض البيوت التي رأوها في حياتهم؛ أسرّة لا ينام عليها أحد؛ خزانات لا تحوي شيئاً، سوى لفافات أوراق ملونة وشرائط. كانت الغرفة المفضلة هي مكتب نائب الرئيس التي كانت تقع في آخر ممر طويل. توجد خلف الستائر السميكة نوافذ تنتهي مباشرة فوق مقعدين مرتبين لا ظهر لهما، حيث يمكن المرء أن يثني رجليه ويرفعهما ويواصل النظر خارجاً إلى الحديقة لساعات. في المكتب كنبتان وكرسيان من الجلد وجميع الكتب مغلَّفة بالجلد. حتى معدات المكتب، والكوب الذي يحوي الأقلام، وأطراف دفتر تسجيل المواعيد، كلها مصنوعة من الجلد. كانت الغرفة مفعمة بالرائحة التي تبعث على الراحة، والمألوفة للأبقار، وهي واقفة تحت أشعة الشمس الحارقة.

يوجد في غرفة المكتب هذه تلفاز. قلة منهم سبق لها أن رأت تلفازاً من قبل: صندوقاً خشبياً فيه قطعة زجاج متقوّسة، تعكس صورة المرء بطرائق مميزة. وعلى الدوام، كانت أجهزة التلفاز معطلة. هكذا كانت طبيعة الأجهزة التلفزيونية. كانت تدور أحاديث وقصص مبالغ فيها حول ما كان يفعله التلفاز في ما

مضى، لكن أحداً لم يصدق الأمر، لأن أحداً لم يره. قرّب الصبي المدعو سيزار وجهه من الشاشة، وشدّ شفتيه عبر وضع إصبع في طرفي فمه، وتمتع بانعكاس صورته. كان الآخرون يراقبونه. قَلَّبَ عينيه وهز بلسانه، ثم أزال أصابعه عن فمه، وكتّف ذراعيه على صدره، وبدأ يقلد أغنية سمع روكسان كوس تغنيها في الليلة الأولى حينما كانوا ينتظرون في فتحات التهوئة. لم يكن يجيد نطق الكلمات جيداً، لكنه كان يقارب أصواتها، وأدى اللحن بشكل صحيح. لم يكن يقوم بالاستهزاء، فعلياً، بل كان يغني، ثم تحسّن غناؤه رويدا أكثر فأكثر، وعندما لم يعد بوسعه تذكر البقية، توقف فجأة وانحنى حتى حدود خصره. ثم استدار عائداً إلى رسم حركات على وجهه مقابل التلفاز.

كان سيمون تيبولت هو من شغّل جهاز التلفاز أول مرة. لم يقصد بذلك أي شيء. كان قد أتى إلى الغرفة لأنه سمع صوت الغناء، حيث ظن أن أحداً ما يستمع إلى أسطوانة قديمة وغريبة، وقد ولّد ذلك الحشرية في نفسه. ثم رأى الفتى يقوم بالعرض. كان فتى ظريفاً نوعاً ما. حَسِبَ أن الفتى سيكف عما يفعله عندما تظهر الصورة فجأة مكان وجهه. أخذ سيمون جهاز التحكم عن بُعد عن ذراع كرسي مصنوع من الجلد، وكان يبدو مريحاً، ونقر على زر التشغيل.

فصرخوا. صاحوا بأعلى أصواتهم كالكلاب، ونادوا زملاءهم. «جيلبير! فرانسيسكو! يسوع!»، بنبرة تشير إلى اندلاع حريق ما، أو جريمة، أو حضور الشرطة. وقد دفع هذا الأمر

بالجميع إلى فتح صمامات الأمان في بنادقهم، إضافة إلى أن جميع الجنود الآخرين هرعوا إلى المكتب مع الجنرالات الثلاثة الذين دفعوا بسيمون تيبولت إلى عرض الحائط وجرحوا شفته.

كانت إديث قد قالت له: «إياك أن تُقدم على أي حماقة»، وقد لامست شفتاها أذنه بعض الشيء وهي تتلفظ بهذا الكلام. لكن، ما الذي يندرج تحت تعريف الحماقة: تشغيل تلفاز؟

قام أحد الفتيان الذين هرعوا إلى الغرفة، وهو فتى ضخم يدعى جيلبير، بتوجيه ماسورة بندقيته المدورة ناحية رقبة تيبولت ضاغطاً بالوشاح الأزرق الحريري على بشرته الناعمة فوق قصبته الهوائية، فثبته في مكانه كحال الفراشة عندما تلتصق على لوح من فلّين.

قال تيبولت بصعوبة بالغة: «تلفاز».

بالتأكيد تحوّل الانتباه في غرفة المكتب المزدحمة عن سيمون تيبولت. وبالسرعة نفسها التي شكّل فيها تهديداً، وبات نجماً، قاموا بتحويل بنادقهم عنه، تاركين إياه يسقط عن الحائط وهو يرتجف خوفاً. باتوا جميعاً ينظرون إلى التلفاز. شاهدوا امرأة جذابة شعرها أسود تحمل قطعاً من الملابس الوسخة أمام الكاميرا بيديها، وتهز برأسها إشارة إلى قرفها، ثم تضع القطع في الغسالة. كانت تضع أحمر شفاه فاقع اللون، والجدران التي كانت وراءها لونها أصفر فاتح. قالت بالإسبانية: «إنه لتحد كبير». ثم جلس جيلبير القرفصاء ليشاهد التلفاز.

سعل سيمون تيبولت وفرك رقبته.

سبق للجنرالات بالتأكيد أن رأوا تلفازاً من قبل، لكن ليس في الأعوام التي تلت عودتهم إلى الأدغال. إنهم في الغرفة الآن. والتلفاز كان جميلاً وحديثاً، من آخر طراز، وملوناً، وليس «بالأبيض والأسود»، يبلغ عرض شاشته ٢٨ إنشاً. كان جهاز التحكم قد سقط أرضاً، فالتقطه الجنرال ألفريدو وبدأ ينقر على الأزرار ليريهم المحطات المختلفة: مباراة في كرة القدم؛ رجل يريدي معطفاً وربطة عنق يجلس وراء مكتب ويقوم بالقراءة؛ فتاة ترتدي بنطالاً فضياً تقوم بالغناء؛ مجموعة كبيرة من الجراء في سلة. سَرَتْ بينهم حماسة شديدة، ونادوا جميعاً «آه»، مع ظهور كل صورة جديدة.

غادر سيمون تيبولت الغرفة من دون أن يلاحظه أحد. إن غناء سيزار لم يخطر في باله حتى.

كان الرهائن في معظم الأيام يتوقون إلى انتهاء هذه الحالة. اشتاقوا إلى بلدانهم، وزوجاتهم، وخصوصياتهم. وفي أيام أخرى، رغبوا، بكل صراحة، في الابتعاد فحسب عن جميع هؤلاء الأطفال: عن عدائيتهم وبلادتهم، عن ألعاب المطاردة والكر والفر التي يمارسونها، وعن شهيتهم المفتوحة. كم يبلغون من العمر؟ عندما يطرحون هذا السؤال عليهم، إما يعمدون إلى الكذب ويدّعون أنهم يبلغون الخامسة والعشرين من العمر، وإما يهزون بأكتافهم كأنهم لا يمتلكون أدنى فكرة عن معنى السؤال. كان السيد هوسوكاوا يدرك أنه من النوع الذي يسيء تقدير سنّ الأطفال. في اليابان، غالباً ما كان يرى أطفالاً يبدون في أعمار لا تتخطى العاشرة، وراء مقود السيارة. لطالما استحالت عليه

معرفة أعمار بناته، إذ لوهلة يراهنّ يتراكضن في أرجاء المنزل وهن يرتدين ملابس نوم مزركشة برسوم لكلمات مثل هيلو أو «كيتي»، ثم بعد قليل يعلنَّ أن لديهن مواعيد غرامية مع شبان سيمرون لاصطحابهن عند الساعة السابعة. كان يعتقد أن بناته لسن في أعمار مناسبة للمواعدة. وبرغم ذلك، ووفق معايير هذا البلد، يبدو جلياً أنهن يُعتبرن ناضجات بما في الكفاية لينخرطن في منظمة إرهابية. حاول تخيلهن، بربطات الشعر البلاستيكة على شكل أزهار الربيع، وجوارب بيضاء قصيرة، يقرعن على الباب بأطراف السكاكين الحاد.

لم يقو السيد هوسوكاوا على تصور بناته في أي مكان، سوى في سرير والدتهن، يبكين رجاء لعودته وهن يشاهدن البرامج على التلفاز.

لقد فوجئ الجميع بأن اثنين من الجنود الصغار السن، تبين في ما بعد أنهما فتاتان. الأولى تم اكتشاف أمرها بسهولة تامة: على الأرجح في اليوم الثاني عشر، عندما نزعت القبعة عن رأسها لتحكه، فانسدلت ضفيرة شعرها. ولم تكلف نفسها عناء إعادتها إلى مكانها بعدما فرغت من الحك. بدا أنها لا تعتبر واقع كونها فتاة بالأمر السري. كانت تدعى بياتريس. كان ليسرّها كثيراً إخبار كل من قد يطرح عليها السؤال. لم تكن تنعم بوجه جميل أو تصرفات مهذبة ولائقة وجديرة بسلوك فتاة، لذا بانت كأنها صبي بكل سهولة. كانت تحمل سلاحها بطريقة تبدو كأنها تستعد فيها لإطلاق النار مثلها مثل أي فتى آخر، والشرر

لم يفارق عينيها، حتى عندما لا يعود هناك أي ضرورة لذلك. وبرغم ذلك، وبالرغم من أنها عادية بشكل كبير، ظل الرهائن يحدقون فيها كأنها شيء مستحيل ونادر الوجود: فراشة في حقل ثلج. كيف يعقل أن تكون هناك فتاة في أوساطهم؟ كيف عجزوا جميعاً عن ملاحظة وجودها؟

أما الفتاة الأخرى، فلم يكن اكتشاف أمرها بالعسير كثيراً. المنطق يقول إنه في حال كانت هناك فتاة، فلمَ لا تكون هناك أخرى، فنظر الجميع على الفور ناحية الفتى الصامت الذي لم يجب أبداً عن الأسئلة، وبدا كيفما فعل، غير طبيعي منذ البداية، يفوق الآخرين جمالاً واضطراباً، وطرف شعره من النصف منسدل على جبهته جاعلاً وجهه يبدو أشبه بالقلب. وفمه مدوّر الشكل وناعم. وعيناه تبقيان نصف مغمضتين، كأن رموشه الثقيلة تمثّل عبئاً يثقل كثيراً على جفنيه حملها. ورائحته مختلفة عن رائحة الآخرين: رائحة دافئة. ورقبته طويلة وناعمة. كان الفتى الذي بدا أنه الأشد ولهاً بكوس، وكان يعمد إلى النوم على أرض الممر خارج غرفتها ليلاً مستخدماً جسده لدرء الهواء من دخول الغرفة من تحت عتبة الباب. نظر جين إليه، وهو الفتى الذي بعث فيه الشعور بالضيق، والقلق الذي حبسه داخل صدره خرج منه في موجة عاتية ومنخفضة في آن معاً.

قال سيمون تيبولت: «بياتريس، ذاك الفتى هناك. هل هو أختك؟».

شخرت بياتريس وهزت برأسها نافية: «كارمن؟ أختي؟ لا بد من أنك مجنون؟».

رفعت كارمن رأسها، عند سماع اسمها في الجهة المقابلة من الغرفة. تتلفظ بياتريس باسمها. ليس هناك من سر في هذا العالم. رمت كارمن المجلة التي كانت تتصفحها من يدها (كانت مجلة إيطالية تضج بالصور اللامعة لنجوم سينما وشخصيات ملكية. كانت المقالات بكل تأكيد تخوض في تفاصيل حيواتهم الشخصية، التي عجزت عن قراءتها. كان قد تم إيجاد المجلة في درج خزانة إلى جانب السرير الذي تنام عليه زوجة نائب الرئيس). أخذت كارمن مسدسها إلى المطبخ وأغلقت الباب ولم يتبعها أحد: مراهقة ساخطة بكل وضوح، تحمل سلاحاً. ليس هناك من مكان لتذهب إليه، وافترض الجميع أنها في النهاية ستخرج بنفسها. أرادوا معاودة النظر إليها من جديد: أن يروها من دون القبعة، أن يكتشفوها من جديد: أن يتسنى لهم الوقت للتأمل فيها كفتاة. لكن كانوا على أهبة الاستعداد للانتظار. إن كانت هذه محور أحداث فترة العصر، أن تعمد واحدة من الإرهابيين إلى احتجاز نفسها كرهينة لبضع ساعات، إذاً، ففي ذلك تشويق يفوق مجرد التحديق في الضباب على انفراد.

قال روبن لأوسكار مندوزا، المقاول الذي يسكن على بُعد بضعة أميال: «كان علي معرفة أنها فتاة». رفع أوسكار كتفيه وقال: «لدي خمس بنات في المنزل، ولم ألحظ أبداً وجود فتاة في هذه الغرفة». ثم توقف ليعيد التفكير في فكرته، وانحنى إلى

الأمام ناحية نائب الرئيس. «أتعلم، لقد رأيت فتاة واحدة في هذه الغرفة؛ امرأة واحدة. لا يُعقل إلا أن يكون هنالك امرأة واحدة في هذه الغرفة، ولا وجود لامرأة حقيقية غيرها»... وأشار برأسه ناحية أقصى طرف الغرفة، قاصداً بذلك المكان الذي تجلس فيه روكسان كوس.

هز روبن برأسه وقال: «بالطبع، بالطبع».

«أظن أنه ليس ثمة فرصة أفضل من هذه للبوح لها بأنني أحبها». فرك أوسكار ذقنه بيده. «لا أعني أنه يفترض بي القيام بذلك في هذه اللحظة بالتحديد، ولا حتى اليوم، بالرغم من أنه يمكن أن يكون الليلة. إن هذه الأيام طويلة جداً بحيث سيكون الوقت مع حلول فترة العشاء، مناسباً لذلك. أتعلم، لا يعرف المرء أبداً الوقت المناسب إلى أن يصل إليه؛ إلى أن تصبح في ذاك المكان بالتحديد». كان رجلاً ضخماً يفوق الستة أقدام طولاً، وعريض المنكبين. لقد ظل قوياً، لأنه بالرغم من كونه مقاولاً لم يكن يتعالى عن تقديم المساعدة وحمل الألواح وتركيز الألواح الجصّية في مكانها. وظل بهذه الطريقة مثالاً جيداً للأشخاص الذين يعملون لحسابه. احتاج أوسكار مندوزا إلى الانحناء إلى الأمام كي يتمكن من الهمس في أذن نائب الرئيس. «لكني سأُقْدم على هذا الأمر خلال وجودنا هنا. ثق بكلامي».

هز روبن برأسه. كانت روكسان كوس قد خلعت عنها ثوب السهرة منذ أيام، وباتت ترتدي بنطالاً بنياً أخذته من خزانة زوجته، وسترة مفضلة لزوجته أيضاً: زرقاء مصنوعة من صوف

الألبكة الناعم جداً، كان قد أهداها إياها في عيد زواجهما الثاني. كان قد طلب حارساً ليرافقه إلى الطابق العلوي، فتوجه إلى الخزانة بنفسه، وأنزل السترة وأعطاها لمغنية الأوبرا. سألها: «هل تشعرين بالبرد؟»، ثم ألقى بالسترة بلطف على كتفيها. هل كانت خيانة، أن يتخلى بهذه السرعة عن سترة زوجته المفضلة؟ إن هذه السترة جمعت بين المرأتين بنظره بطريقة كانت مفرحة على نحو فائق. ضيفته الجميلة ترتدي سترة زوجته التي اشتاق إليها كثيراً. رائحة عطر زوجته لا تزال تفوح من داخل خيوط السترة، وبات بوسعه اشتمام كل من المرأتين لدى مروره بالقرب منها. أي سحر يضاهي هذا. وإضافة إلى ذلك، كانت روكسان تنتعل في قدميها خفين مألوفين استعارتهما من خزانة المربية إيزميرالدا، لأن أحذية زوجته صغيرة جداً. كم وجد متعة في وضع رأسه داخل خزانة إيزميرالدا الصغيرة والمرتبة.

سأله المقاول: «هل ستخبرها أنك تحبها؟ إنه منزلك. أنا بكل تأكيد أُوليك الحق بأن تذهب إليها أولاً».

فكر روبن في دعوة ضيفه المراعية. «إنه احتمال». كان يحاول ألا يحدق في روكسان، لكنه كان يفشل في ذلك. أخذ يتخيل نفسه يأخذ بيدها مقترحاً عليها أن يريها النجوم من الشرفة الواسعة الموجودة خلف المنزل. كان ليفعل ذلك لو أنه يُسمح لهم بالتوجه إلى الخارج. ففي النهاية، هو نائب الرئيس الذي قد يثير انطباعها. على الأقل أنها ليست بامرأة طويلة القامة، بل قصيرة: إلهة حب وجمال صغيرة. وقد شعر بالامتنان لهذا الأمر. «قد لا يكون الأمر لائقاً بالنظر إلى موقعي هنا».

قال أوسكار: «وما هو اللائق؟». بدا صوته خفيفاً وغير مبال. «ففي النهاية سيعمدون إلى قتلنا: إما من في الداخل، وإما من في الخارج. سوف يندلع تبادل إطلاق النار، وسيُقترف خطأ فظيع. بوسعك المراهنة على ذلك. لا يمكن من هم في الخارج أن يجعلوا الأمر يبدو كأنه تمت إساءة معاملتنا. من المهم لهم أن ينتهي بنا الأمر موتى. فكّر في الناس، في الجموع. لا يسعك تركهم يأخذون الانطباع الخطأ. فأنت رجل الحكومة، وممثل الدولة. أنت تدري مغزى هذه الأمور أكثر مني».

«بالفعل، يحدث هذا الأمر».

«إذاً، ما الجدوى من عدم إخبارها؟ أنا بدوري أود أن أعلم بأنه في آخر أيامي بذلت بعض المجهود. سوف أتكلم مع الشاب الياباني، المترجم. وسوف أفعل ذلك عندما يحين الوقت المناسب، وعندما أعرف ما أود قوله. لا يسع المرء، كل يوم، الاقتراب من امرأة بجمال روكسان بسرعة كبيرة».

أحب روبن المقاول. وبرغم أنه لم يسبق لهما اللقاء معاً، إلا أن واقع سكنهما في المدينة نفسها جعلهما يشعران كأنهما جاران، ثم صديقان قديمان، ثم أخوان. «وما الذي تعرفه عن نساء مثلها؟».

ضحك أوسكار ووضع يده على كتف صاحبه. قال: «عزيزي نائب الرئيس، أنا أعرف الكثير من الأمور». كان كلاماً جريئاً، لكن هذه الجرأة، بدت في هذا المكان، مناسبة تماماً.

ففي حين فقد كل الحريات التي كان معتاداً عليها، ها قد بدأت حريات جديدة وأصغر تشعل ضوءاً خافتاً في داخله: حرية التفكير بهوس؛ حق التذكر بشكل تفصيلي. لم يعد هناك بوجوده بعيداً عن زوجته وبناته، من يعرضه للانتقاد، أو يدعوه إلى تصحيح الأفعال، وجد نفسه من دون تلك الأعباء، قادراً على الحلم بحرية، من دون تدقيق متواصل. لقد عاش حياته كأب صالح، لكن أوسكار مندوزا عاد الآن ليرى حياته كشاب من جديد. إن وجود الابنة في حياة كل أب، عبارة عن معركة بين الآباء والشبان، حيث يستميت الآباء في الصراع في هذه المعركة، ودوماً يخسرون. لقد أدرك أنه سيخسر بناته واحدة تلو الأخرى، إما بشكل مشرّف ضمن حفلة زواج، وإما بشكل واقعي، في سيارة تتوجه ناحية المحيط وسط عتمة الليل. كان أوسكار نفسه في أيام شبابه، قد دفع بعدة فتيات إلى تناسي تربيتهن الجيدة وغرائزهن الحميدة، عبر دغدغتهن بلطف أسفل جمجمتهن، عند منبت الشعر. وبهذه الطريقة تتحول الفتيات إلى قطط صغيرة. فلدى إحكام الإمساك بهن من مؤخر العنق يضعفن بسهولة، ويستسلمن لأهواء الرجل، ولرغباتهن الدفينة، ثم يهمس بما يريده، أي كل الأمور التي قد يفعلانها معاً، والاكتشافات الرائعة التي سيتسلم القيادة فيها. وصوته يسافر كالدواء الذي يسيل في أقنية الأذن اللولبية إلى أن ينسين كل شيء، حتى أسماءهن، ويستدرن ويسلّمن أنفسهن إليه، بأجسادهن الناعمة والطرية كالعجين.

ارتجف أوسكار لدى استرجاع هذه الفكرة. عندما كان

مستعداً لمعاودة لعب دور الشاب من جديد، خطر في باله الشبان المصطفون حول منزله بأعداد كبيرة؛ شبان على أهبة الاستعداد للتخفيف من حزن بناته بعدما وقع والدهن رهينة. وراح يتخيل ما قد يقال لهن لإغوائهن: «بيلار، لا بد من أن الوضع صعب جداً عليك. إيزابيل، لا يجدر بك أن تظلي محبوسة داخل المنزل. تيريزا، ما كان والدك ليريد لك مثل هذا العذاب. انظري، لقد جلبت لك بعض الأزهار (أو عصفوراً، أو شلّة خيوط، أو قلماً ملوّناً. ليس هناك أي فرق)». هل تخطر لزوجته فكرة إقفال الباب؟ ما كان أبداً ليخطر لها أن الشبان قد يبيّتون أي أذى للفتيات. إذ إنها ستصدق أكاذيبهم الآن مثلما صدقت أكاذيبه هو من قبل، عندما كانت شابة وأتى للتعرف إليها، في حين كان والده يُحتضر جراء إصابته بالسرطان.

ما الذي يفكر فيه: مطاردة مغنية أوبرا؟ من هما هاتان الفتاتان على أي حال، بياتريس وكارمن؟ ما الذي تفعلانه هنا؟ أين والداهما؟ ربما قُتلا رمياً بالرصاص في انتفاضة ما في الريف. ما عسى هاتين الفتاتين أن تفعلا من أجل إبعاد الشبان عنهما دونما وجود أب لحمايتهما؟ ثمة فتيان في جميع أرجاء هذا المنزل: هؤلاء الفتيان الفظيعون الذين يتمتعون بمزاج حاد، بشعرهم الزيتي الملمس، وأناملهم التي لا ينفكون يقضمونها، يحلمون بلمس ثدي فتاة.

قال نائب الرئيس: «أنت تبدو سيئاً. إن كل هذا الحديث عن الحب لا يوافقك».

سأله أوسكار: «متى سنخرج من هنا؟»، ثم جلس على الكنبة، وأنزل رأسه بين رجليه كأنه يشعر بالدوار.

«نخرج من هنا؟ وأنت من قال إننا سنُرمى بالرصاص».

«لقد غيّرتُ رأيي. سوف لن يقتلني أحد. قد أقدم على قتل أحد ما، لكن لن يقتلني أحد».

جلس روبن إلى جانبه وأسند خده غير المصاب على كتف صديقه العريض: «سوف لن أتذمر من كلامك غير المتزن. بتّ أفضّل هذا النوع من الكلام الآن. دعنا نفترضْ أننا سنبقى على قيد الحياة». ثم عاود الوقوف من جديد. «اسمع، انتظر هنا. سوف أتوجه إلى المطبخ لأجلب لك بعض الثلج. لا تتخيل كم يُشعرك الثلج بحال أفضل».

سألت روكسان كوس جين: «هل تعزف على البيانو؟».

فاجأته. لم يرها قادمة إليه. كان يدير ظهره إلى ناحية الغرفة لدى مشاهدته الضباب عبر النافذة. كان يتعلم كيفية الاسترخاء وهو يشاهدها، كي لا يُجهد عينيه. كان يظن أن بوسعه رؤية أشياء. نظر السيد هوسوكاوا إلى جين وكله أمل، راغباً في معرفة ما كانت تقوله. لوهلة من الوقت، غمر جين الارتباك. لم يعرف إذا ما وجب عليه ترجمة كلامها، أو إجابتها أولاً، بما أن السؤال كان موجهاً إليه. فقام بترجمة كلامها ثم أجابها بالنفي. وقد أسف لقوله إنه لا يجيد العزف.

قالت: «حسبتُ أنك قد تجيد العزف. يبدو أنك تجيد فعل

الكثير من الأشياء». ثم نظرت إلى رفيقه. «وماذا عن السيد هوسوكاوا».

هز السيد هوسوكاوا برأسه بحزن نافياً الأمر أيضاً. إلى حين تم احتجازهم، كان يرى حياته مليئة بالإنجازات والنجاح. لكنه الآن صُدم لدى ملاحظته ذاك الكم الكبير من الأمور التي يعجز عن فعلها: لم يكن يجيد الإنكليزية ولا الإيطالية ولا الإسبانية. لم يكن أيضاً يجيد العزف على البيانو. حتى أنه لم يعمد في حياته إلى محاولة العزف. ولم يأخذ مع جين ولا حتى درساً واحداً.

جالت روكسان كوس بنظرها في أرجاء الغرفة، كأنها تبحث عن عازفها، لكنه بات بعيداً عن هذا المكان مسافات ضوئية، وبات قبره مغطى بالجليد السويدي. «لا أنفك أقول لنفسي إن هذه المحنة ستزول قريباً، وإنني في عطلة من عملي فحسب». رفعت رأسها ونظرت إلى جين: «لا تعتقدَنَّ أنني أجدها عطلة حقيقية».

«بالطبع».

«لقد مضى على وجودنا في هذا المكان البائس حوالى الأسبوعين. لم يسبق لي أن فوّتُّ أسبوعاً واحداً من دون الغناء إلا في حالة المرض. سوف يكون علي البدء بالتمرين في وقت قريب». مالت ناحية الرجلين، فما كان منهما إلا أن مالا بدورهما ناحيتها. «أنا لا أود الغناء هنا. لا أود أن أمنحهم هذه المسرّة. هل تظنان أنه من الأفضل لو أنتظر يومين تاليين؟ هل

تظنان أنهم سيطلقون سراحنا عندئذ؟». ثم نظرت في أرجاء الغرفة من جديد لترى إن كان ثمة يدان «سحريتان»، سبق لهما أن تضوعتا بعبق الموسيقى، قد وُضعتا على حِجر ما. لم يكن جين يرغب في التعليق على الموضوع الآخر، لكنه قال: «بالتأكيد هنالك من يسعه العزف هنا».

«البيانو في حالة ممتازة. بوسعي العزف قليلاً. لكن لا يسعني العزف والغناء في آن معاً. أنا أشك نوعاً ما في أن يخرجوا ويخطفوا لي عازفا آخر». ثم توجهت بالكلام إلى السيد هوسوكاوا مباشرة: «لا أعرف ما عساي أفعل عدا عن الغناء. ليست لدي موهبة «ترف» تمضية العطلات».

فقال وصوته يخفت مع كل كلمة: «أنا أشاطرك الإحساس نفسه، عندما لا يتسنى لي سماع الأوبرا».

ابتسمت روكسان عندما سمعت هذا الكلام. يا له من رجل رقيق ولطيف. كانت ترى في الآخرين نظرة خوف، ورعشة الارتعاب في بعض الأحيان. ليس ثمة سوء في الشعور بالرعب في ظل مثل هذه الظروف، إذ كانت تبكي هي نفسها معظم الليالي إلى أن يغلب عليها النوم. لكن، لم يبد أن الوضع يؤثر في السيد هوسوكاوا، أو لعله أفلح في عدم إظهار تأثّره. وعندما كانت تقف بالقرب منه، لا تعود تشعر هي نفسها بالرعب نوعاً ما، لكنها لم تقو على تفسير هذا الأمر. كانت تشعر بالقرب منه كأنها تخرج من وسط ضوء غامر إلى مكان هادئ ومعتم، وكأنها

تلف نفسها بستائر المسرح المخملية السميكة حيث تحجب نفسها عن أعين الجميع. قالت له: «إذاً، عليك مساعدتي على إيجاد عازف، وعندها ستُحل مشكلتانا».

لم يعد ثمة مساحيق تبرج على وجهها. خلال الأيام القليلة الأولى، كانت تكلف نفسها عناء التوجه إلى الحمام، ووضع أحمر الشفاه من الأنبوب الذي كانت تحمله في حقيبتها. ثم قامت بربط شعرها إلى الخلف بواسطة رباط مطاطي، وها هي ترتدي ملابس غيرها، وما عاد همها أنها لم تكن تناسب مقاسها بشكل جيد. وجد السيد هوسوكاوا أنها تزداد جمالاً يوماً بعد يوم. أراد لو يطلب منها عدة مرات الغناء، لكنه عجز عن ذلك، لا يزال يذكر أن الغناء له كان الأمر الذي جلب عليهم كل هذه المتاعب في المقام الأول. ولم يقو على الطلب منها لعب الورق، أو حتى سؤالها عن رأيها في الضباب الذي يخيم على المكان في الخارج. لم يسعَ وراءها على الإطلاق، لذلك لم يسع جين وراءها أيضاً. في الواقع، لاحظا أن جميع الرجال (باستثناء الكاهن الذي لم تفهمه)، تجاوزوا رغبتهم في الحديث إليها، وقرروا تركها وشأنها، كأن في هذا الأمر «تواطؤاً ضمنياً»، ونوعاً من الاحترام، لذا ظلت تجلس وحدها، ساعة بعد أخرى. كانت أحياناً تبكي، وأحياناً أخرى تسافر بعينيها عبر صفحات الكتب، أو تأخذ قيلولة على الكنبة. كانت مشاهدتها وهي نائمة عبارة عن متعة للناظر. روكسان كوس الرهينة الوحيدة التي حظيت بشرف الحصول على غرفة نوم وحارس خاص بها، ينام خارج بابها. لم يكن أحد واثقاً مما إذا كان ذلك

لاحتجازها في الداخل، أم لمنع الآخرين من الدخول إلى غرفتها. والآن، بما أنهم باتوا يعلمون بأن الحارس هو كارمن، تساءلوا إن كانت تحاول فحسب أن تحافظ على سلامتها عبر النوم بالقرب من مثل هذه الشخصية المهمة.

قال السيد هوسوكاوا: «لعل نائب الرئيس يجيد العزف. إنه يمتلك بيانو ممتازاً».

توجه جين للبحث عن نائب الرئيس. وجده نائماً على كرسي، ويسند خده غير المصاب على كتفه، وخده المصاب ظاهر للعيان بلونيه الأحمر والأزرق، ولا يزال مغطى بقطب إيزميرالدا. كان الجلد ينمو فوق هذه القطب. لذا وجب نزعها. همس له جين قائلاً: «سيدي؟».

تمتم روبن وعيناه مغمضتان: «هممم؟».

«هل تجيد العزف على البيانو؟».

البيانو؟».

«ذاك الموجود في غرفة الجلوس. هل تجيد العزف عليه يا سيدي؟».

قال روبن وهو يحاول ألا يوقظ نفسه بالكامل: «لقد جلبوه من أجل الحفلة». كان يحلم بإيزميرالدا، وهي واقفة إلى جانب حوض الجلي تقشر البطاطا. قال وصوته مفعم بالنعاس: «كان هناك بيانو غيره هنا، لكنهم أخذوه لأنه لم يكن جيداً بالقدر الكافي. لقد كان جيداً بالطبع، إذ كانت ابنتاي تأخذان دروس

عزف عليه، لكنه لم يكن جيداً بالقدر الكافي بالنسبة إليهم».
«هذا البيانو ليس لي. ولا ذاك أيضاً في واقع الحال».

«لكن، هل تجيد العزف عليه؟».

«البيانو؟»، ثم نظر روبن أخيراً إليه، وقوّم رقبته.

«نعم».

قال: «لا»، ثم ابتسم، وأضاف: «أليس هذا مؤسفاً؟».

وافقه جين رأيه، وقال له: «أعتقد أنه يجدر بك نزع هذه القطب».

لمس روبن وجهه: «هل تظن أنه آن الأوان لذلك؟».

«أعتقد ذلك».

ابتسم روين كأنه حقق إنجازاً ما عبر التحام جلده من جديد. ثم توجه للبحث عن إسماعيل ليطلب منه جلب صندون تقليم الأظافر من الحمام في الطابق العلوي. أمل ألا يكون قد تمت مصادرة مقص إزالة الجلد الميت حول الأظافر باعتباره سلاحاً.

توجه جين محاولاً إيجاد عازف بنفسه. لم يحتج الأمر إلى مقدرة لغوية فائقة، فكلمة بيانو تُستخدم في العديد من اللغات. بالتأكيد، أمكن روكسان كوس إيصال الفكرة بنفسها بأقل قدر من الإشارات اليدوية، لكنها بقيت مع السيد هوسوكاوا، وأخذا يحدقان في العدم الذي وفرته لهم النافذة.

شرع جين يسأل الرهائن: «هل تجيد العزف؟»، وبدأ بطرح

السؤال على الروس الذين كانوا يدخنون في غرفة الطعام. نظروا إليه شزراً عبر الدخان المتصاعد، ثم هزوا برؤوسهم نفياً للأمر. قال فكتور فيودورف وهو يغطي قلبه بيده: «يا إلهي، قد أضحي بكل شيء لأتعلم العزف! اطلبْ من الصليب الأحمر أن يرسلوا أستاذاً، وسأتعلم العزف كرمى لها». ضحك الروسيان الآخران، ورمى كل منهما أوراق اللعب من يديه. سأل جين المجموعة التالية: «بيانو؟»، ثم جال في أرجاء المنزل يسائل جميع الضيوف، مستبعداً الخاطفين على افتراض أن تعلّم العزف على البيانو هو استحالة وسط الأدغال التي عاشوا فيها. تخيل جين وجود سحليات على دعسات الأرجل، والرطوبة تلف لوح المفاتيح، وأعناق شجر العنب المتشابكة تلتف على الأرجل الخشبية. إسباني واحد يدعى مانويل فلوريس، فرنسي واحد يدعى إيتيان بويي، وأرجنتيني واحد يدعى أليخاندرو ريفاس، قالوا إن بوسعهم العزف بعض الشيء، لكنهم لا يجيدون قراءة النوتات الموسيقية. أخبره أندرياس إيبيكتيتوس أنه كان يعزف بمهارة أيام شبابه، لكنه لم يعاود لمس البيانو منذ سنين. قال: «كانت أمي تجعلني أتمرن يومياً. ويوم مغادرتي المنزل جمعتُ جميع الأدوات الموسيقية ووضعتُها خلف المنزل وأشعلت النار فيها هناك على مرأى منها. ولم أضع إصبعاً واحدة على بيانو منذئذ». أما البقية فلا يجيدون العزف. بدأ الناس يقصون حكايات حول بضعة دروس أخذوها، أو دروس أخذها أولادهم. تداخلت أصواتهم، وباتت تتصاعد كلمة «بيانو، بيانو، بيانو»، من كل أرجاء الغرفة.

خَلُصَ جين (وقد ضمّن نفسه ضمن هذا التقويم) إلى أنه لم

يسبق قط أن أُخذت مجموعة مثل هؤلاء الرجال المنعدمي الثقافة كرهائن. ماذا كانوا يفعلون طوال تلك السنين حيث لم يكلف أي منهم نفسه عناء تعلم العزف على مثل تلك الآلة الموسيقية المهمة؟ تمنوا جميعاً لو كان بوسعهم العزف. إن لم يتمنوا ذلك من قبلُ، فبالتأكيد يتمنونه الآن: أن يتمكنوا من العزف لروكسان كوس.

ابتسم أخيراً تيتسويا كايتو، نائب رئيس في شركة نانساي. كان جين يعرفه منذ سنين. توجه ناحية البيانو من دون التلفظ بكلمة. كان رجلاً ممتلئاً بعض الشيء، وفي بداية الخمسينات من عمره، وقد اشتعل رأسه شيباً. وبحسب ما يذكر جين، بالكاد كان يتكلم. كان يُعرف عنه أنه ضليع في الأرقام. كان قد طوى كُمّي قميص البزة الرسمية إلى ما فوق مرفقيه، وقد خلع عنه سترتها منذ وقت طويل، لكنه كان يجلس على المقعد بكياسة شديدة. رآه من في غرفة الجلوس، وهو يرفع الغطاء عن لوحة المفاتيح، ثم مرّر يديه فوقها بخفة. كان البعض لا يزال يتكلم حول البيانو، حيث لا تزال تُسمع أصوات الروس من غرفة الجلوس. ثم من دون أن يطلب من الجميع الالتفات إليه، بدأ تيتسويا كاتو بالعزف. بدأ بالقطعة التاسعة من المقطوعة الحالمة لشوبان. كانت القطعة التي اعتاد سماعها في رأسه منذ مجيئه إلى هذا البلد، والتي كان يعزفها بكل هدوء على طرف الطاولة في غرفة الطعام عندما لم يكن هناك من مراقِب. كان في منزله يعمد إلى النظر إلى دفتر النوتات الموسيقية، ثم يقلّب الصفحات.

والآن، بدا واثقاً من أنه يعرف الموسيقى تماماً. بات بمقدوره رؤية النوتات نصب عينيه وقد التزم بها بإخلاص تام. لم يشعر في قلبه أبداً بمثل هذا القرب من شوبان الذي أحبه، كأنه والده. بثت أنامله فيه شعوراً بالغرابة بعد انقطاعه عن العزف لمدة أسبوعين، كأن الجلد الذي يغطي أنامله بات جديداً تماماً. كان يسمع صوت الطقطقة الناعمة لأظافره وهو يلامس المفاتيح، فالأسبوعان وقت طويل جداً. شعر في البداية كأن مطارق تنقر على الأوتار، والموسيقى أشبه بالذكرى، حتى في نظر أولئك الذين لم يسبق لهم أن سمعوا المقطوعة الموسيقية. وكل من في المنزل، من الرهائن والإهاربيين على حد سواء، التفتوا وأصغوا وشعروا بارتياح كبير يغمر قلوبهم. كانت يدا تيتسويا كايتو تتسمان بالرقة، كأنهما تستندان ببساطة في مكان معين إلى لوحة المفاتيح، ثم تنتقلان إلى مكان آخر. ثم فجأة عزفت يده اليمنى الألحان التي انسالت كشلال ماء. الصوت خفيف مرة، وصاخب أحياناً، إلى درجة أن الموجودين تمنوا لو يسعهم رفع الغطاء ليروا إن كان ثمة أجراس تحته. أغمض كايتو عينيه ليتخيل نفسه في المنزل يعزف على البيانو الخاص به. كانت زوجته نائمة. وابناه، شابان غير متزوجان لا يزالان يسكنان في المنزل معهما، كانا نائمين أيضاً. بالنسبة إليهم، باتت النوتات التي يعزفها كايتو أشبه بالهواء الذي يتنشقونه، وقد كفوا منذ أمد بعيد عن الملاحظة. والآن لدى عزفه على هذا البيانو الضخم، أمكنه تخيلهم نائمين وقد قام بإضفاء كل ذلك على عزفه: تنفُّس ولديه الرتيب، وزوجته الممسكة بالوسادة بيد واحدة. إن كل

الحنان الذي شعر به تجاههم أنزله على لوحة المفاتيح، وتصاعد ألحاناً شجية. لمس المفاتيح كأنه بيتغي عدم إيقاظهم، فعبّر عن الحب والوحدة اللذين شعر بإيحاءاتهما كل الموجودين، ولم يجرؤ أحد على ذكر الأمر. هل كان عازف روكسان كوس يعزف بهذه المهارة؟ يستحيل تذكر الأمر. وجب أن تكون موهبته خفية، ليقوم بواسطتها برفع مستوى أدء مغنية الأوبرا إلى أقصاه. لكن بات الآن الأشخاص الموجودون في غرفة الجلوس داخل قصر نائب الرئيس، يصغون إلى كايتو بشغف، ولم يسبق لهم في حياتهم أن أشبعهم شيء مثلما فعل هذا العزف.

كان معظم الرجال الموجودين هناك، لا يعرفونه. لم يذكر معظمهم أنهم لاحظوا فيه هذا القدر من المهارة والرقة، إلى درجة أنه بدا كأنه أتى من الخارج فقط ليعزف لهم. إن أحداً من الرجال الذين كانوا يعرفونه كان يجهل عنه أن يجيد العزف، وأنه كان يواصل أخذ دروس في الموسيقى، ويواصل التمرين لمدة ساعة كل صباح، قبل أن يصعد على متن القطار للتوجه إلى العمل. كان من المهم بالنسبة إلى كايتو، أن يحظى بحياة أخرى، حياة سرية. والآن، لم يبد أن سرية هذا الأمر تهمه على الإطلاق.

كانوا جميعاً بالقرب من البيانو: روكسان كوس، والسيد هوسوكاوا، وجين، وسيمون تيبولت، وإسماعيل الصغير، وبياتريس، وكارمن التي تركت مسدسها في المطبخ وأتت لتقف مع البقية. كان جميع الروس هناك، والألمان الذين سبق لهم أن

تكلموا على الانتفاضة، والإيطاليون الذين كانوا ينحبون، واليونانيان اللذان كانا أكبر سناً من البقية. كما وقف الفتيان الخاطفون هناك أيضاً، باكو وراناتو وأمبرتو وبيرناردو، وكل البقية. بدا لوهلة أن الفتيان الضخمي الجثث، والذين يمثلون تهديداً، كأنهم يلينون مع كل نوتة موسيقية. حتى الجنرالات حضروا. أتى كل واحد منهم إلى أن وصل عدد الموجودين في الغرفة إلى مجموع الثمانية والخمسين شخصاً. وعندما فرغ تيتسويا كايتو من العزف، حنى رأسه وصفق له الجميع. لو لم تكن ثمة حاجة إلى عازف بيانو، لكان الأمل ضئيلاً بأن يجلس كايتو عصر ذاك اليوم ويقوم بالعزف، ويفرغ مكنونات صدره، بالرغم من أنه كان يصب نظره على البيانو بالطريقة نفسها التي يصب فيها الرجال الآخرون نظرهم على الباب... كخلاص وحيد لعذابهم. ما كان ليختار لفت الأنظار إليه، ولو لم يعمد إلى العزف لما لاحظ أحد وجوده على الإطلاق. لكن، كان ثمة حاجة إليه، وطلب خاص، لذا لم يتأخر لحظة على تلبيته.

قال الجنرال بنجامين: «جيد، جيد»، وهو يشعر بالسرور لواقع أنه وُجد بديل للعازف الذي رحل.

قال السيد هوسوكاوا: «أحسنت»، والفخر يغمره كون رجل من شركة نانساي تقدم لأداء هذه المهمة. إنه يعرف كايتو منذ ٢٠ سنة. يعرف زوجته واسمي ولديه. كيف يعقل أنه لم يعرف شيئاً حول البيانو؟

لوهلة من الوقت، ساد الهدوء الشديد في الغرفة، ثم أقدمت

كارمن التي تبين لهم منذ وقت قريب أنها فتاة، على التلفظ بشيء ما بلغة، حتى جين نفسه لم يفهمها.

قال له الكاهن: «نريد المزيد».

وقالت كارمن: «نريد المزيد».

حنى كايتو رأسه لكارمن التي ابتسمت. كيف أمكنهم أن يحسبوها واحداً من الفتيان؟ حتى من تحت القبعة التي تعتمرها، كانت تبدو جميلة جداً. كانت تدرك أن الناس ينظرون إليها، فأغمضت عينيها غير قادرة على العودة إلى المطبخ كما كانت تريد، عاجزة عن مبارحة ذاك المكان المقوّس في جانب البيانو. عندما كان يعزف، كانت تشعر باهتزازات الأوتار لأنها كانت تسند وركها على الخشب. لم تشهد في حياتها قيام أحد بالانحناء لها أو الاستجابة لطلبها. وبالتأكيد، لم يسبق لها أن عزف أحد ما لها قطعة موسيقية. عزف كايتو قطعة أخرى، ثم أضاف واحدة جديدة، إلى أن نسي كل من في الغرفة أنهم يرغبون بشدة في التواجد في مكان مغاير. وعندما فرغ من العزف، ولم يعد قادراً على تلبية أي طلب آخر، لأن أصابعه أنهكها التعب، وبدأت ترتجف كأن مساً أصابها، صافحت روكسان كوس يده، وحنت رأسها له احتراماً لموهبته، وبدت كأنها أوحت بأنها تنتظر المستقل بشغف: ستغني، وهو سيعزف لها.

الفصل الخامس

بات جين رجلاً دائم الانشغال. كان وحده من يكسر رتابة كرَّسها واقع احتجاز الرهائن، وعزلهم عما يحيط بهم. يحتاج إليه السيد هوسوكاوا الذي يريد يومياً عشر كلمات يضيفها إلى دفتره إلى جانب تعلم طريقة لفظها؛ ويحتاج إليه الرهائن الآخرون الذين يودون معرفة كيفية قول «هل فرغت من هذه الصحيفة؟»، باليونانية أو الألمانية أو الفرنسية، ثم يلجأون إليه ليقرأ لهم الجريدة في حال كانوا لا يجيدون اللغة الإسبانية. وكل يوم يحتاج إليه مسنر من أجل ترجمة المفاوضات. وفي أغلب الأحيان، يلجأ إليه الجنرالات الذين حسبوه خطأً، وقد وافقهم الأمر جيداً، أنه سكرتير السيد هوسوكاوا، وليس مترجمه. وقد استغلوا خدماته. أعجبتهم فكرة امتلاك سكرتير، فباتوا يوقظون جين منتصف الليل طالبين منه الجلوس ووضع ورقة وقلم بين يديه، ليُملوا عليه آخر مطالبهم من أجل توجيهها إلى الحكومة. بدا لجين أن ما أرادوه غير مخطَّط له كفاية. إن كانوا يريدون خطف الرئيس من أجل خلع الحكومة عن الحكم، فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير

في ما هو أبعد من هذا الأمر. والآن، باتوا يتكلمون بالعموميات، حول المال من أجل الفقراء. كما استحضروا أسماء جميع الأشخاص المسجونين الذين يعرفونهم، فبدت لجين لائحة لا نهاية لها. وفي وقت متأخر من الليل، في غمرة انفعالهم رغبةً في المال والسلطة، طالبوا بتحرير الجميع، وقد تخطوا السجناء السياسيين. تذكروا سارقي السيارات الذين كانوا يعرفونهم من أيام الصبا، والنشالين التافهين، وأشخاصاً قاموا بسرقة دجاج، وحفنة من تجار المخدرات الذين يتبيّن أنهم ليسوا غاية في السوء حينما يتعرف المرء إليهم جيداً. قال ألفريدو: «لا تنسَه»، ثم ربّت على كتف جين بشكل مزعج. «ليس لديك أدنى فكرة كم عانى ذاك الرجل». لقد أعجبهم خط جين المصقول، وعندما وجدوا آلة طابعة في غرفة ابنة نائب الرئيس الكبرى، نالت إعجابهم أكثر قدرة جين على الطباعة. ولطالما كان يقاطعه أحياناً هكتور، في غمرة انشغاله بالطباعة، ويقول: «بالإنكليزية!»، ثم يقول ألفريدو: «بالبرتغالية!». كم كانت أمراً مذهلاً مراقبته من فوق كتفه وهو يقوم بالطباعة بلغات مختلفة! بدا الأمر أشبه بامتلاك لعبة مذهلة للغاية. أحياناً، عندما يتأخر الوقت كثيراً، يقوم جين بطباعة كل شيء بالسويدية، في محاولة منه لتسلية نفسه، لكنه ما عاد يشعر بأنه يتسلى. إلى حد علم جين، لا يوجد بين الرهائن سوى رهينتين لا يتمتعان بسلطة نافذة وثراء فاحش. هما جين نفسه والكاهن، وقد كانا الوحيدين اللذين أُجبرا على العمل. بالطبع، كان نائب الرئيس يعمل، لكن ليس لأن ثمة من طلب منه ذلك. بدا أنه يظن أن توفير الراحة لضيوفه لا يزال عبئاً يقع على كاهله،

وعليه تأديته. لذلك، تراه يعمد دوماً إلى توزيع السندويشات، وجمع الأكواب، وغسل الصحون، وكنس الأرض، ويقوم مرتين في اليوم بمسح أرض الحمامات. بدا منظره مثيراً للضحك، وقد ربط منشفة حول خصره، فبدا يشبه بوابي الفنادق المميزين. تجده يسأل الضيوف: هل تودون احتساء الشاي؟ هلاّ سمحت لي بكنس الأرض تحت كرسيك؟». كان الجميع يكنون محبة كبيرة لروبن، وبدا أنهم نسوا أنه نائب رئيس الدولة.

توجه روبن إيغليسياس ناحية جين، الذي كان ينتظر الجنرالات ليحسموا أمرهم في شأن ما يودون قوله تالياً، ونقل إليه رسالة مفادها أنه مطلوب عند البيانو. كان أمام روكسان كوس وكايتو الكثير من الأمور ليناقشاها. هل يمكن الجنرالات أن يعتقوا جين في هذه اللحظة بالذات؟ كانوا جميعاً يودون أن تبقى مغنية الأوبرا سعيدة، متشوقين إلى مجرد احتمال سماعها تغني من جديد، لذا أذِنوا لجين بالذهاب إليها. شعر جين بأنه أشبه بتلميذ استُدعي إلى خارج صفه. تذكر أيام دراسته الغابرة: صندوق أقلامه الجميل، ودفتره النظيف، وحسن حظه لجلوسه إلى طاولة بالقرب من النافذة لمجرد ترتيب اسمه الأبجدي. كان تلميذاً نجيباً. وبرغم ذلك، لا يزال يتذكر أنه في كل لحظة كان يتمنى فيها لو يغادر غرفة الصف.

أمسك روبن إيغليسياس بذراعه. ثم همس له قائلاً: «أعتقد أنه يجب على مشاكل العالم أن تنتظر»، ثم ضحك بطريقة لا يمكن أحداً سماعه فيها على الإطلاق.

بقي السيد هوسوكاوا بالقرب من البيانو إلى جانب روكسان

كوس وكايتو. كان يستمتع بسماع كل هذا الكلام حول الأوبرا يُترجم إلى اليابانية. كانت متعته أن يسمع حديث روكسان كوس باليابانية. كان يجد ما تقوله له يختلف وقعه عما تقوله لأي أحد آخر، حينما تتكلم إليه حول الموسيقى. بوسع المرء التعلم كثيراً عبر الإصغاء إلى حديث ما خفيةً. إن الكثير مما تعلمه كان قد سمعه بشكل عرضي، مثلاً سماعه مجرد نصف جملة لدى الخروج من الباب. منذ تم احتجازهم كرهائن والسيد هوسوكاوا يشعر كأنه أصم قد لحق به الارتباك. وبالرغم من مثابرته على تعلم الإسبانية، إلا أنه نادراً ما كان يسمع كلمة يعرفها. لقد ظل طوال حياته يتمنى لو يحظى بمزيد من الوقت ليصغي، وعندما حظي أخيراً بالوقت، لم يعد يجد ما يستمع إليه. ليس هناك سوى وقع أصوات لا يسعه فهمها، ونداءات الشرطة من وراء الحائط بين الفينة والأخرى. يمتلك نائب الرئيس جهاز ستريو في منزله، لكن بدا أنه لا يميل إلا إلى سماع الموسيقى المحلية. إن جميع الأقراص المدمجة لديه تعود إلى فرق تعزف على أبواق عالية الإيقاع وتقرع على الطبول. وتسبب هذه الموسيقى الصداع للسيد هوسوكاوا. أما الجنرالات فقد وجدوها موحية ومعبرة، لذا لم يطلبوا أقراصاً مدمجة جديدة.

.

جرّ السيد هوسوكاوا كرسيه إلى جانب البيانو وأخذ يستمع. بقي الجميع في غرفة الجلوس، الرهائن والإرهابيون على حد سواء، على أمل أن يتم حث كايتو على العزف من جديد، أو ما هو أفضل من ذلك: أملوا لو تغني روكسان كوس. بدت كارمن عاقدة العزم على مراقبة روكسان. اعتبرت نفسها حارستها

الشخصية، وتتحمل مسؤوليتها. فوقفت في الزاوية وأخذت تحدق في المجموعة بتركيز كبير، تتأمل كل شاردة وواردة، في حين أخذت بياتريس تقضم ذيل ضفيرتها وهي تتحدث إلى الفتيان الذين هم في مثل سنها. وعندما بدا أنه ليس ثمة موسيقى تلوح في الأفق، تسللت هي وبعض رفاقها إلى المكتب لمشاهدة التلفاز.

وحدهما، السيد هوسوكاوا وجين، دُعيا إلى الجلوس مع العازف والمغنية. قالت روكسان كوس: «أود التمرّن على أداء نوتات التخت الموسيقي في الصباح، بعد الفطور. وسأتمرن على بعض الأغاني: بيليني، توستي، شوبير. إن أفلحتَ في العزف لشوبان، فلا بد من أن تتمكن من العزف لهؤلاء». مررت روكسان أصابعها على مفاتيح البيانو، وأشارت بيدها إلى افتتاحية معزوفة: «داي فوريل».

قال كايتو: «ليت بوسعنا الحصول على النوتات الموسيقية».

«إن كان بوسعنا طلب جلب العشاء إلينا، فلا بد من أنه يسعنا الحصول على النوتات الموسيقية. سأطلب من مدير أعمالي أن يضع دفاتر النوتات في صندوق ويرسلها إلينا. بوسع أحد ما أن يرسلها بالطائرة إلى هنا. أخبِرْني ما تحتاج إليه». نظرت روكسان من حولها راغبة في ورقة ما، فقدم إليها السيد هوسوكاوا دفتر ملاحظاته وقلمه من جيب سترته الداخلي. فتح الدفتر على صفحة بيضاء من الخلف، وأعطاه لها.

قالت روكسان: «آه، سيد هوسوكاوا، إن الاحتجاز تجربة مختلفة ومثيرة جداً إلى جانبك».

فقال خجلاً من إطرائها: «بالتأكيد، سبق وقُدمت إليك هدايا أفضل بكثير من مجرد دفتر وقلم».

«إن نوعية الهدية تعتمد على صدق مقدِّمها. كما أنه من اللطيف أن تكون الهدية عبارة عن شيء يحتاج المرء إليه. حتى الآن أعطيتني منديلك، ودفتر ملاحظاتك، وقلمك. وأنا بحاجة إلى هذه الأشياء الثلاثة».

فقال بجدية لم توازِ خفة كلامها: «إن القليل الذي أملكه هنا، كله ملك لك. بوسعك أخذ حذائي وساعة يدي إن شئت».

«عليك توفير شيء للمستقبل حتى يسعك مفاجأتي». مزقت روكسان ورقة وأعادت دفتر الملاحظات إليه. «واصِل دراستك. إن بقينا هنا فترة أطول، فقد نتمكن من الاستغناء عن خدمات جين».

ترجم جين كلامها، ثم أضاف: «أنا نفسي سأنسحب».

فأجابت روكسان وهي تنظر من فوق كتفها ناحية الجنرالات الذين كانوا يمضون وقت فراغهم في مراقبتها: «بوسعك دوماً التوجه إلى الأدغال معهم. يبدو أنهم يودون منحك عملاً».

فقال السيد هوسوكاوا: «ما كنتُ أبداً لأتخلى عنه».

قالت روكسان وهي تلمس معصم السيد هوسوكاوا لمجرد ثانية من الوقت: «أحياناً، تكون هذه الأمور خارج نطاق سيطرتنا».

ابتسم السيِّد هوسوكاوا في وجهها. كان يستمتع بمدى انسياب حديثهما، وهذه السلاسة المفاجئة التي ساعدتهما على تمضية الوقت. ماذا لو لم يكن كايتو هو الذي يعزف على البيانو! ماذا لو كان أحد اليونانيين أو الروس. عندها كان ليشعر بأنه مستبعد من جديد لدى سماعه الإنكليزيةَ تُترجم إلى اليونانية، واليونانيةَ تُترجم إلى الإنكليزية، مدركاً أن جين، مترجمه، لا يمتلك الوقت لإعادة كل جملة عليه باليابانية. قال كايتو إنه يود لو يحصل على نوتات موسيقية على نحو عاجل، إن لم يكن ثمة إزعاج، فضحكت روكسان وقالت إنه ما من مشكلة في هذا الصدد. كايتو الرائع! بدا كأنه بالكاد يلاحظ وجودها. فالبيانو هو الذي سلب قلبه وروحه وعينيه. لطالما كان عاملاً نشيطاً، والآن بات بطل أبطال هذا «المعتقل» الصغير. قد يُمنح علاوة جيدة عند انتهاء هذا الأمر برمته.

أتى مسنر كالعادة عند الحادية عشرة صباحاً. فتشه جنديان يافعان عند الباب. جعلاه يخلع فردتي حذائه، ونظرا في داخلهما، بحثاً عن أسلحة صغيرة، ثم ربتا على رجليه وفتشا سريعاً تحت إبطيه. كانت عادة سخيفة باتت تنجم عن الملل وليس الريبة. لقد كافح الجنرالات لإبقاء جنودهم في حالة تركيز تحضّراً لأي مواجهة. بات الجنود المراهقون يُؤْثرون أكثر فأكثر التوجه إلى مكتب نائب الرئيس للجلوس على الكنبة الجلدية ومشاهدة التلفاز. كما كانوا يستحمون لأوقات طويلة، ويقصون شعر بعضهم البعض بواسطة مقص فضي جميل وجدوه في أحد جوارير طاولة المكتب. لذلك ضاعف الجنرالات نوبات المراقبة

الليلية ومهمات الحراسة. جعلوا جنودهم يجولون في أرجاء المنزل لحراسته بشكل ثنائي، ويرسلون اثنين آخرين إلى الخارج ليسيرا على أطراف الحديقة تحت رذاذ المطر. وعند خروجهما، كانا يحملان بندقيتيهما الملقّمتين، ويرفعانهما إلى الأعلى كأنهما يتطلعان إلى اصطياد أرنب.

كان مسنر يخضع لهذا النشاط اليومي بصبر كبير، فيفتح محفظته ويخلع حذاءه، ويفتح ذراعيه على الجانبين ويباعد بين رجليه الحافيتين، كي تجول الأيدي الغريبة في أرجاء جسده كما يحلو لها. دغدغته في إحدى المرات إحدى الأيدي، فأنزل مسنر يده بشكل سريع. قال بالإسبانية: «كفى». لم يسبق له في حياته أن رأى مثل هؤلاء الإرهابيين المفتقرين إلى الخبرة، فتعجب كثيراً لتمكنهم من الاستيلاء على المنزل.

صفع الجنرال بنجامين راناتو، الفتى الذي دغدغ مسنر، وأخذ منه سلاحه. إن جل ما كان ينشده هو فرض بعض النظام العسكري. قال بحدة: «لم يكن هناك أي داع لذلك».

جلس مسنر في كرسي، وأعاد ربط شريط حذائه. لقد أزعجه وجود هذا العدد الكبير منهم. حريٌّ أن تكون هذه الرحلة برمتها قد باتت في طي النسيان، والصور ظُهِّرت، وعُرضت على الآخرين، ووُضعت في ألبوم. ووجب عليه أن يكون قد عاد إلى شقته المكلِفة في جنيف، التي تتميز بإطلالة رائعة وبأثاث دنماركي حديث، كان قد اختاره بدقة متناهية. ويفترض أنه يأخذ رزمة من الرسائل من يدي سكرتيرته الباردتين في الصباح. وعوضاً عن ذلك، ها هو قد توجه إلى العمل، ويسأل عن حال

المجموعة. كان يتكلم بالإسبانية، وبالرغم من ذلك أبقى جين إلى جانبه، رغبة بالدعم اللغوي، ورغبة أيضاً بالشعور بالأمان بالقدر نفسه، حيث كان قادراً على إجراء معظم المحادثات الرسمية بنفسه.

قال الجنرال قبل أن يضع يديه وراء رأسه: «لقد سئمنا من هذا الوضع. نود أن نعلم لـمَ يعجز قومك عن إيجاد الحل. هل يجدر بنا البدء بقتل الرهائن حتى نلفت انتباهك؟».

«حسناً، أولاً هم ليسوا بقومي»، ثم شد مسنر شريط حذائه جيداً، وأضاف: «كما أنه ليس انتباهي الذي يجدر بكم السعي وراءه. لا تقتلوا أحداً لأجلي. إن انتباهي مشدود إليكم بالكامل. كان يُفترض بي التوجه إلى دياري منذ أسبوع».

تنهد الجنرال بنجامين، وقال: «وجب علينا جميعاً التوجه إلى ديارنا منذ أسبوع. لكن علينا أن نرى أخواننا محررين». بالنسبة إلى الجنرال بنجامين، فإن هذا بالطبع يعني رفقاءه المعنويين، وأخاه الشقيق لويس. لويس الذي اقترف جريمة توزيع منشورات في خضم انتفاضة سياسية، وها هو اليوم يُدفن حياً في سجن عليه حراسة مشدّدة. قبل اعتقال أخيه، لم يكن بنجامين جنرالاً على الإطلاق. كان يدرّس في مدرسة ابتدائية، ويعيش جنوب البلاد قرب المحيط. ولم يعانِ قط أي مشكلة في أعصابه.

قال مسنر وهو يجول بنظره في أرجاء الغرفة، ويتأكد من الموجودين بشكل سريع: «هذه هي المسألة».

«وهل ثمة تقدم؟»

«لم أسمع بأي تقدم»، ثم مد يده إلى داخل حقيبته وأخرج منها مجموعة أوراق. «لدي هذه الأوراق لك. إنها طلباتهم. إن كان ثمة شيء جديد تود مني التقدم بطلبه. . .».

قال الجنرال بنجامين: «سنيوريتة كوس»، مشيراً بإبهامه ناحيتها. «ثمة ما تريده».

«آه، أجل».

قال الجنرال: «هناك دوماً شيء ما للسنيوريتة».

«إن اختطاف النساء أمر مختلف تماماً عن اختطاف الرجال. لم يسبق لي أن فكرتُ في الأمر من قبل. بالنسبة إلى شعبنا، فإنه ينشد الحرية. أما بالنسبة إليها، فإنها تريد شيئاً مغايراً، الفساتين ربما».

قال مسنر: «سأتولى الأمر»، ثم حنى رأسه لكنه لم يهمّ بالنهوض إيذاناً بالمغادرة على الفور. «هل تريدني أن أجلب لك شيئاً؟». لم يشر إلى الأمر بشكل مباشر، لكنه كان يتساءل بشأن القوباء المنطقية التي بدا أنها تمد شبكتها الحمراء وتتمدد ملليمتراً إضافياً كل يوم على وجه الجنرال، وعما قريب ستدس جذورها في مياه عينه اليسرى الباردة.

«ليس لدي ما أطلبه».

هزّ مسنر برأسه واستأذن. كان يفضّل بنجامين على الجنرالَين الآخرين. يجده رجلاً حصيفاً وذكياً، إن أمكن القول. وبرغم ذلك، بذل جهداً كي يدرأ أي مشاعر تعاطف حقيقية تجاهه وتجاههم جميعاً، رهائنَ وخاطفين، إذ غالباً ما تمنع المحبة

المرء من القيام بعمل فاعل. كان مسنر يدرك كيف تنتهي مثل هذه القصص. لذا بدا أنه من الأفضل تجنّب أي مشاعر شخصية.

لكن، ليس ثمة قواعد عقلانية تنطبق على روكسان كوس. كانت معظم الأيام تطلب شيئاً ما، وقد كان الجنرالات يتقبّلون طلباتها بشكل سريع في حين يتجاهلون طلبات رهائن آخرين. كل مرة تطلب شيئاً جديداً، فيشعر مسنر بأن خفقان قلبه قد تزايد بعض الشيء، كأنها تود تكحيل عينيها برؤيته هو. طلبت مرة خيطاً لتنظيف الأسنان، ومرة أخرى وشاحاً، ثم طلبت مرة أخرى أقراصاً من الأعشاب لحنجرتها، وقد قال مسنر بفخر إن هذه الأقراص مستوردة من سويسرا، فأخذ الرهائن الآخرون يُملون على روكسان طلباتهم. وعندما كانت تطلب جوارب رجالية ومجلات حول الإبحار، لم يكن يطرف لها جفن.

سألت روكسان: «هل سمعتَ النبأ السار؟».

حاول مسنر أن يكون عقلانياً، وقال: «وهل ثمة نبأ سار الآن؟». كان يحاول فهم هذه المرأة. عند وقوفه بالقرب منها يتوجه بنظره نزولاً فيرى مَفْرق شعرها. إنها مثل البقية وليس أكثر، أليس كذلك؟ ربما ما عدا لون عينيها.

«السيد كايتو يعزف على البيانو».

لم يكد يسمع وقع اسمه، حتى نهض كايتو عن مقعد البيانو وانحنى لمسنر. لم يسبق لهما أن تعارفا من قبل. كان جميع الرهائن معجبين كثيراً بمسنر، لبرودة أعصابه، ولقدرته السحرية على الدخول من الباب الأمامي، والخروج منه، ساعة يشاء».

قالت روكسان: «ستتسنى لي على الأقل معاودة التمرّن من جديد. ففي حال أتيحت لنا مغادرة هذا المكان، فإنني أريد أن أبقى قادرة على الغناء».

قال مسنر إنه يأمل أن يحظى بفرصة سماع تمارين أدائها. لوهلة قصيرة ومُقلِقة، شعر بإحساس يقارب الغيرة. فالرهائن موجودون إلى جانبها طوال الوقت، لذا إن قررت الغناء في الصباح الباكر أو في منتصف الليل، فسيتمكنون من سماعها. كان قد اشترى محرك أقراص مدمجة، ومعظم تسجيلاتها التي أمكنه إيجادها. وأثناء الليل، يستلقي في غرفة الفندق ذي النجمتين، الذي يدفع له الصليب الأحمر العالمي أجرة النزول فيه، ويستمع إليها تغني نورما ولاسونامبولا. هو يستلقي وحيداً على سريره غير المريح وينظر إلى التشققات المتشابكة في السقف، أما هم فيكونون جميعاً هناك في غرفة الجلوس الرحبة في منزل نائب الرئيس، يستمعون إليها وهي تغني «كاستا ديفا».

قال مسنر لنفسه «كفى»!

قالت روكسان: «أنا معتادة على القيام بالتمارين في مكان مغلق. لا أظن أنه حري بأي أحد الإصغاء إلى أخطائي. لكنني أشك في أنه سيكون هناك جدوى من محاولة القيام بذلك هنا. لا أستطيع أن أبعث بهم جميعاً إلى العلية».

«بوسعهم سماعك في العلية».

«سأجبرهم على حشو آذانهم بالقطن». ضحكت روكسان على ما قالته، فتأثّر مسنر. بدا كل شيء في المنزل قابلاً أكثر للاحتمال منذ ظهر هذا العازف الجديد.

«إذاً، ما عساي أفعل من أجلك؟». إن كان جين قد تحول إلى سكرتير، فمسنر تحول إلى ساعٍ. كان في سويسرا عضواً في فريق تحكيم رفيع المستوى. وقد حقق في عمر الثانية والأربعين مستقبلاً مهنياً ناجحاً مع الصليب الأحمر. ولم يقم بتوضيب صندوق من المؤن، أو أوصل أغطية إلى مكان فيضان منذ ما يقارب الأعوام العشرين. والآن بات ينقّب في المدينة عن شوكولاتة بنكهة البرتقال، ويتصل بصديق له في باريس طالباً منه إرسال مَرْهَم باهظ الثمن للعيون يأتي في أنبوب أسود صغير.

قالت وهي تعطيه لائحتها: «أحتاج إلى نوتات موسيقية. فلتتصل بمدير أعمالي، واطلب منه إرسال هذه الأشياء هذه الليلة. قل له أن يرسلها بالطائرة بنفسه إن ظن أنه ستكون هنالك متاعب. أريدها في الغد».

قال مسنر: «عليك أن تكوني أكثر واقعية في ما يتعلق بمسألة جلبها في الغد. فالظلام قد حل الآن في إيطاليا».

كان مسنر وروكسان يتكلمان بالإنكليزية، وجين يقوم بترجمة كلامهما بصوت خافت إلى اليابانية. توجه الأب أرغيداس إلى جانب البيانو غير راغب في التدخل، لكنه كان يتحرّق شوقاً لمعرفة ماذا يدور من حديث.

همس قائلاً: «جين، ما الذي تريده؟».

قال جين: «إنها تحتاج إلى نوتات موسيقية»، ثم تذكر أن السؤال طُرح عليه بالإسبانية، فكرر كلامه بالإسبانية.

«هل يعرف مسنر إلى من يلجأ في هذا الأمر؟ أيعرف إلى أين يتوجه؟».

كان جين يحب الكاهن، ولم يقصد أن يبدي انزعاجاً. لكن السيد هوسوكاوا وكايتو رغبا كثيراً في متابعة ما كان يدور من حديث باللغة اليابانية، وقد كان يتخلف عن الحديث الذي يدور بالإنكليزية. «سوف يتصلون بقومها في إيطاليا». أدار جين ظهره للأب أرغيداس، وعاد إلى العمل الذي كان بين يديه.

ربّت الكاهن على كتف جين، فرفع جين يده ليطلب منه الانتظار.

أصر الكاهن على القول: «لكني أعرف مكاناً نستطيع تأمين النوتات منه. بالكاد يبعد ميلين من هنا. ثمة رجل أعرفه، أستاذ في الموسيقى، يعمل شمّاساً في كنيستنا. إنه يقرضني تسجيلات، ويمتلك كل التسجيلات الموسيقية التي تحتاجون إليها». كان صوته يعلو أكثر فأكثر. إن الأب أرغيداس الذي كرّس حياته للقيام بأعمال خيّرة، قد بات يائساً للقيام ببعض هذه الأعمال. فقد كان يساعد روبن في الغسيل، ويقوم في الصباح بطي جميع الأغطية ويكدسها فوق الوسائد في صفوف مرتبة مقابل الحائط، لكنه كان يتوق إلى توفير المساعدة والإرشاد في أمر ذي طبيعة أسمى. كان يشعر بأنه يوشك دوماً على إزعاج الآخرين بدلاً من توفير الراحة لهم، في حين كان جل ما يريده، والشيء الوحيد المهم، تقديم المساعدة.

سألت روكسان: «ما الذي يقوله؟».

سأل جين الكاهن: «ماذا تقول؟».

«الموسيقى هنا. بوسعكم الاتصال بمانويل، فيجلبها لكم، سيجلب كل ما تحتاجون إليه. وإن لم يكن لديه شيء معين وهو أمر مستبعد، فسوف يؤمّنه لكم. جل ما عليكم قوله، أنه من أجل السنيوريتة كوس. ليس عليك قول ذلك حتى. إنه رجل مؤمن. إن قلتم له إنكم تريدونها لأي سبب، أعدْكم بأنه سيساعدكم». شعت عينا كوس لدى سماعها هذا الكلام حماسة، ثم وضع الكاهن يديه على صدره كأنه يحاول عرض قلبه عليها.

سألته روكسان بعد استماعها إلى الترجمة: «هل يُعقل أنه يمتلك أعمالاً لبيلليني؟ أحتاج إلى أغنيات. أحتاج إلى نوتات أوبرا كاملة، روسيني، فيردي، موزار». ثم مالت ناحية الكاهن وطلبت المستحيل بشكل مباشر: «أوفنباخ».

«أوفنباخ! لي كونت دوفمان!»، كان لفظ الكاهن للغة الفرنسية مقبولاً إن لم يكن جيداً. كان قد رأى الكلمات مكتوبة على قرص التسجيل فحسب.

سألت جين: «هل يُعقل أنه يمتلك هذه؟».

كرر جين السؤال، وأجاب الكاهن: «سبق لي أن رأيت نوتات الأوبرا عنده. اتصلوا به. إنه يدعى مانويل. لكنتُ قمت بالاتصال بكل سرور، لو كان مسموحاً لي».

كان الجنرال بنجامين يحتجز نفسه داخل غرفة في الطابق

العلوي، وهو يحمل بيده قطعة قماش ساخنة على وجهه المتورم، ولم يشأ أن يزعجه أحد، فتقدم مسنر بطلبه إلى الجنرالين هكتور وألفريدو اللذين وافقا بعدم مبالاة تشير إلى مللهما.

قال مسنر مفسراً لهما: «من أجل السنيوريتة كوس».

هز الجنرال هكتور برأسه، ولوح له بيده طالباً منه الابتعاد من دون أن ينظر إليه حتى. وعندما بات مسنر على وشك مغادرة الغرفة، صرخ الجنرال ألفريدو قائلاً: «اتصال واحد فحسب». ظن أنهما لم يبديا تسلطاً كافياً إثر موافقتهما السريعة. كانا في غرفة المكتب يشاهدان مسلسل الرئيس المفضل. كانت البطلة ماريا تخبر حبيبها أنها لم تعد تحبه على أمل أن يدفعه اليأس إلى مغادرة البلدة، وتحميه بالتالي من أخيه الذي يسعى إلى قتله جراء حبه ماريا. وقف مسنر عند الباب لوهلة ليشاهد الفتاة على التلفاز وهي تبكي. كانت موهبتها التمثيلية مقنعة كثيراً، حيث صعب عليه لدى مشاهدة مدى الحزن الذي ألمّ بها، أن ينأى بنظره عن شاشة التلفاز.

قال وهو يعود إلى غرفة الجلوس: «فلنتصل بمانويل». توجه روبن إلى المطبخ، وعاد وبيده دليل الهاتف، ثم أعطى مسنر هاتفه الخلوي للكاهن، وعلّمه كيف يطلب الرقم.

رنتان من دون أن يسمع صوتاً، وعند الرنة الثالثة، أجاب مانويل قائلاً: «آلو».

قال الكاهن: «مانويل؟ مانويل، آلو». شعر كأن صوته قد

خنقته الدموع. إنه يتكلم مع أحد ما خارج المنزل! بدا الأمر كأنه يرى شبحاً من حياته السابقة؛ شبحاً أبيض يسير على ممشى الكنيسة في اتجاه المذبح. مانويل. لم يمضِ على أسر الكاهن أسبوعان، لكن لدى سماعه ذاك الصوت شعر كأنه بات ميتاً بنظر العالم.

بدا الصوت مشكِّكاً وقال: «من يتكلم؟».

«أنا صديقك الأب أرغيداس». امتلأت عينا الكاهن دمعاً، فرفع يده واستأذن، ثم ابتعد عن المجموعة وتوجه ناحية زاوية بالقرب من الستائر الجميلة. ساد صمت طويل على الطرف الآخر من الخط.

«هل هذه مزحة؟».

«لا يا مانويل، أنا المتصل بك».

«أبتاه؟».

قال: «أنا في...»، ثم تردد. «أنا محتَجَز».

«إننا نعرف كل شيء عن هذا الأمر. هل أنتَ بخير يا أبتاه؟ هل يحسنون معاملتك؟ أيسمحون لك بإجراء المكالمات الهاتفية هناك؟».

«أنا بخير. أنا على ما يرام. إنهم لا يسمحون لي بإجراء أي اتصال هاتفي، لكنها حالة استثنائية».

«إننا نتلو قداساً لأجلك كل يوم». ثم بات صوت صديقه

هو الذي يختنق. «لقد أتيتُ إلى المنزل لتناول الغداء فحسب. دخلت من الباب للتو. لو أنك اتصلت قبل خمس دقائق لما وجدتني. هل أنت في أمان؟ إننا نسمع أخباراً مريعة».

«يتلون قداساً لأجلي؟»، أمسك الأب أرغيداس الستائر السميكة بيده، وأسند خده على ذاك القماش الناعم. بحسب ما كان يعرف، كانوا يذكرونه في القداس إلى جانب **٢٣** كاهناً آخر نهار الأحد، قبل أن يقدم عهوده المقدسة، وهذا كان جل ما في الأمر. شعر بالغبطة لدى التفكير في هؤلاء الناس؛ الناس الذين صلى لأجلهم، يقومون بالصلاة لأجله. ولدى تفكيره في أن الله يسمع اسمه من عدة أصوات، قال «حري بهم الصلاة لأجلنا جميعاً هنا، الرهائن والخاطفين على حد سواء».

قال مانويل: «إننا نفعل. لكن القدّاس يقام على اسمك».

همس قائلاً: «لا أصدق هذا الأمر».

سألت روكسان: «هل لديه النوتات الموسيقية»، ثم وجه جين السؤال إلى الكاهن.

استفاق الأب أرغيداس على نفسه. «مانويل»، ثم سعل محاولاً تطهير صوته من العاطفة الجياشة. «أنا أتصل لأطلب منك خدمة».

«اطلبْ ما شئت يا صديقي. هل يريدون المال؟».

ابتسم الأب لفكرة أن تُعزى إليه مهمَّة طلب المال من أستاذ موسيقى بوجود جميع هؤلاء الرجال الأثرياء في المكان. «لا أبداً. أحتاج إلى نوتات موسيقية. توجد مغنية هنا...».

«روكسان كوس».

فقال، وقد بث فيه الاهتمام الذي يبديه صديقه شعوراً بالراحة: «ها أنت تعرف كل شيء. إنها تحتاج إلى الموسيقى لتتمرن».

«سمعتُ أن عازفها قد مات. قتله الإرهابيون. سمعت أنهم قطعوا يديه».

صُدم الأب أرغيداس لدى سماعه هذا الأمر. ماذا عساهم يقولون أيضاً في ظل غيابهم الآن؟ «لم يحدث أي من هذا. لقد مات وحده. كان الرجل يعاني داء البول السكري». هل كان يُفترض به الدفاع عن الناس الذين يحتجزون حريته؟ بالتأكيد لا يجدر اتهامهم زوراً بقطع يدي العازف. قال وهو يخفض صوته إلى حد الهمس: «ليس الوضع غاية في السوء هنا. في الواقع أجد أنه لا بأس به. لقد وجدنا عازفاً آخر. إنه شخص موجود هنا، ويجيد العزف جيداً على ما أعتقد. لعله أفضل من العازف الأول حتى. إنها تريد مختلف المقطوعات الموسيقية، نوتات أوبرا، أغاني لبيلليني، وشوبان للعازف. لدي لائحة بما تريده».

قال مانويل بثقة: «لدي كل ما تحتاج إليه».

سمع الكاهن صديقه يستمهله ليفتش على ورقة وقلم. «لقد أخبرتها بذلك».

«هل كلمتَ روكسان كوس عني؟».

«بالطبع، لهذا السبب أتصل بك».

«أسمعتْكَ تنطق باسمي؟».

قال الكاهن: «تود الغناء على موسيقاك».

قال مانويل: «حتى عند احتجازك، تفلح في عمل الخير». ثم تنهد وأضاف: «يا له من شرف. سوف أحضِر كل شيء حالاً. سأترك الغداء كلياً».

تباحث الرجلان في شأن اللائحة، ثم تفحصها الأب أرغيداس مرة ثانية مع جين. عندما تم تجهيز كل شيء، طلب الكاهن من صديقه البقاء على الخط. تردد في البداية، ثم أعطى الهاتف لروكسان كوس. قال لجين: «اطلب منها أن تقول شيئاً».

«ماذا؟».

«أي شيء. لا يهم. أطلب منها أن تقول أسماء معزوفات الأوبرا. هلا فعلت ذلك؟».

طلب منها جين ذلك، فأخذت روكسان كوس الهاتف الصغير من يد الكاهن، وقرّبته من أذنها، وقالت: «آلو؟».

فتمتم مانويل قائلاً: «آلو؟».

نظرت إلى الكاهن وابتسمت، ثم ظلت تنظر مباشرة إليه وهي تتلفظ بأسماء معزوفات الأوبرا على الهاتف. قالت: «لا بوهيم. كوسي فان توتي».

همس مانويل قائلاً: «يا للهول»!

«لا جيوكوندا، كابوليتي ومونتيشي، مدام باترفلاي».

بدا كأن نوراً أبيض غمر صدر الكاهن. نوع دافئ من الأشعة دفع بعينيه إلى أن تدمعا، وقلبه إلى الخفقان بسرعة، وباتت حالته كحالة رجل يائس يقرع على باب الكنيسة ليلاً. لو أنه كان قادراً على رفع يده ولمسها، فإنه ليس واثقاً من قدرته على الإحجام عن ذلك. لكن، ليس للأمر أي أهمية. فقد شلّه صوتها، موسيقى الكلام، النطق المتناغم للأسماء وهي تخرج من بين شفتيها وتنساب عبر سماعة الهاتف، ثم إلى أذن مانويل على بُعد ميلين من المكان. عندها أدرك الكاهن على وجه التأكيد، أنه سينجو من هذه المحنة؛ وأنه سيأتي يوم يجلس فيه حول طاولة مانويل في المطبخ في شقته الصغيرة المليئة بالموسيقى، وسيقصان بفرح على بعضهما البعض متعة هذه اللحظات بالذات. حري به أن يعيش، وإن كان لمجرد ارتشاف هذا الكوب من القهوة مع صديقه. ولدى تذكرهما هذا الأمر معاً، ومحاولتهما ترتيب الأسماء التي تلفظتْ بها، سيدرك الأب أرغيداس أنه كان الأكثر حظاً بين الاثنين، لأنها كانت تنظر إليه هو عندما كانت تتكلم.

قال سيمون تيبولت لمسنر عندما فرغا من المكالمة: «أعطني الهاتف».

«قال لنا ألا نجري إلا اتصالاً واحداً».

«لا يهمني ما قاله. أعطني الهاتف اللعين».

«سيمون».

«إنهم يشاهدون التلفاز. أعطني الهاتف». كان الخاطفون قد قطعوا جميع الخطوط الهاتفية في المنزل.

تنهد مسنر وأعطاه الهاتف: «دقيقة واحدة فحسب».

قال سيمون: «أقسم لك بذلك»، وأخذ سريعاً يطلب الرقم. رن الهاتف خمس مرات، ثم أجابت الآلة. كان تسجيلاً لصوته هو، يقول بالإسبانية ثم بالفرنسية، إنهما خرجا من المنزل، وسيعاودان الاتصال. لمَ لم تسجل إديث الرسالة؟ ما الذي خطر في باله حينها؟ وضع يده على عينيه وبدأ بالبكاء. بالكاد أمكنه تحمل سماع صوته. وعندما كف صوته عن الكلام، ساد صوت طويل ورتيب من الآلة. فقال سيمون بالفرنسية: «أعشقك، أحبك وأعشقك».

أخذ الجميع يتفرقون في أرجاء المكان: منهم من يتوجه إلى كرسيه لأخذ قيلولة، ومنهم من يتوجه للعب الورق. ابتعدت روكسان عن الحشد، وعاد كايتو إلى الرسالة التي كان يكتبها لابنيه (بات لديه الكثير ليخبرهما عنه الآن). لاحظ جين حينها أن كارمن لا تزال في مكانها في الجانب المقابل من الغرفة، ولم تعد تراقب المغنية أو العازف، بل كانت تراقبه هو. شعر بالضيق نفسه الذي شعر به عندما نظَرتْ إليه سابقاً. ذاك الوجه الذي بدا جميلاً عندما اختلط الأمر على الجميع، وحسبوها فتى، لم يكن يرمش أو يتحرك، وبدا أنه لا يتنفس حتى. لم تكن كارمن تعتمر قبعتها، فبدت عيناها واسعتين وداكنتين ومسلطتين على جين، كأنه في حال أشاحت بنظرها بعيداً سيكون الأمر بمثابة اعتراف منها بأنها كانت تنظر إليه.

غالباً ما يشعر جين عندما يُترك له الكلام، بحالة ضياع، فلا

يجد ما يقوله بالرغم من عبقريته اللغوية. لو أن السيد هوسوكاوا كان لا يزال جالساً هناك، لكان قال لجين اذهب وتقصَّ ما تريده تلك الفتاة، فترى جين يذهب مباشرة إليها، ويسألها من دون أي تردد. خطر له مرة أنه يمتلك روح آلة، ولا يقدر على الحركة إلا حينما يدير شخص ما المفتاح. كان ماهراً في العمل، وماهراً في البقاء وحيداً. عندما يجلس وحده في شقته مع الكتب وشرائط التسجيل، ينتقي اللغات بالطريقة نفسها التي ينتقي فيها رجال آخرون النساء: بكلام معسول، ثم لاحقاً بشغف. يبعثر الكتب على الأرض، ثم يلتقطها بعشوائية. لقد قرأ لتشيزلو ميلوس بالبولندية، وفلوبير بالفرنسية، وتشيكوف بالروسية، ونابوكوف بالإنكليزية، ومان بالألمانية، ثم بدّلهم: ميلوس بالفرنسية، فلوبير بالروسية، ومان بالإنكليزية. كان الأمر بمثابة لعبة بالنسبة إليه؛ خدعة مبهرجة يؤديها لنفسه فحسب، حيث يحافظ على حدة ذكائه عبر التبديل المتواصل. لكن هذا الأمر مغاير كثيراً لفكرة الاقتراب من شخص يصب نظره عليك من الطرف المقابل من الغرفة. لعل الجنرالات كانوا محقين في شأنه في النهاية.

كانت كارمن تلف حول خصرها حزاماً جلدياً عريضاً، وقد دست على الجانب الأيمن مسدساً. لم يكن سروالها متسخاً كحال سراويل زملائها، وقد تمت خياطة الشق الموجود على ركبة سروالها بالإبرة والخيط نفسيهما اللذين استخدمتهما إيزميرالدا لتقطيب الجرح في وجه نائب الرئيس. كانت إيزميرالدا قد تركت الإبرة مغروزة في مكب الخيطان على الطاولة الجانبية

عندما أتمتْ عملها، فوضعتهما كارمن على الفور في جيبها في أول فرصة سنحت لها. كانت تأمل أن تتكلم مع المترجم مذ أدركت ماهية العمل الذي يقوم به، لكنها لم تقو على إيجاد طريقة.لذلك من دون أن يلحظ أنها فتاة. ثم تولت بياتريس هذا الأمر، والآن لم يعد ثمة سر، لذا لم تعد هناك ضرورة للانتظار، ما عدا واقع أنها تبدو عالقة في مكانها مقابل الحائط. لقد رآها، وبات ينظر إليها. كان هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه الأمور. لم يكن بوسعها الابتعاد، ولم تكن بالقدر نفسه قادرة على التوجه إليه. يمكن المرء أن يمضي حياته بأكملها في ذاك الموقف. حاولت تذكّر عدوانيتها، وكل تلك الأمور التي علمها إياها الجنرالات خلال التدريب، لكن قيام المرء بما يتحتم عليه القيام به من أجل مصلحة الشعب، كان أمراً مختلفاً تماماً عن قيامه بطلب شيء ما لنفسه. لم تكن تعرف شيئاً على الإطلاق حول الطلب.

قال مسنر وهو يربت بيده على كتف جين: «عزيزي جين»، لم يسبق لي أبداً أن رأيتك جالساً وحدك. لا بد من أنك تشعر في بعض الأحيان بأن لدى الجميع ما يقولونه، لكن لا يدركون كيف».

قال جين وهو غارق في التفكير: «في بعض الأحيان». شعر بأنه لو نفخ في الهواء في اتجاهها، لكانت لترتفع في الهواء، وبكل بساطة تطير بعيداً كالريشة.

«أنت وأنا مجرد «خادمتين» للظروف الحالية». كان مسنر

يتحدث إلى جين بالفرنسية، اللغة التي كان ينطق بها في دياره في سويسرا.

«ما هو مذكر خادمة؟».

أجابه جين: «خادم».

أجل، خادم بالطبع، لكن وقع هذه الكلمة ليس أجمل. أظنني سأظل على كلمة خادمة. فأنا لا أمانع في ذلك. جلس مسنر إلى جانب جين على مقعد البيانو، وجعل عينيه تذهبان في الاتجاه الذي يحدق فيه جين.

قال بهدوء: «يا إلهي. أليست هذه فتاة، الموجودة هناك؟».

أكد له جين أنها فتاة. «من أين أتت؟ لم تكن ثمة فتيات هنا. لا تقل لي إنهم وجدوا طريقة لإدخال مزيد من عناصرهم إلى هنا».

فقال جين: «لقد كانت هنا منذ البداية. هناك اثنتان، لكننا لم نلاحظ وجودهما فحسب. هذه كارمن. وبياتريس هي الفتاة الأخرى، وهي تشاهد التلفاز».

«لم نلاحظها؟».

فقال جين وهو يشعر بأنه لاحظ وجودها: «لم نفعل على ما يبدو».

«لقد كنت في المكتب لتوي».

«إذاً، فقد أغفلت بياتريس من جديد».

قال مسنر وهو يقف: «بياتريس. وهذه كارمن. حسناً. إذاً، ثمة سوء في العديد منا. فلتترجم كلامي. أود التحدث إليها».

«إن لغتك الإسبانية لا بأس بها».

«إنني أتلعثم بالإسبانية، ولا أجيد تصريف الأفعال كما يجب. انهض. انظر إليها يا جين. إنها تحدق فيك مباشرة». كان هذا صحيحاً. شعرت كارمن بخوف شديد عندما لاحظت أن جين يتقدم ناحيتها إلى درجة أنها فقدت قدرتها على الرمش بعينيها. باتت الآن تحدق بعينيها مذهولةً وجامدة، كما لو أنها صورة شخص مرسومة على لوحة. رجت قديسة ليما، «روز»، أن تمنحها أثمن المنن: أن تصبح غير مرئية. «إما أنها أُمرت بمراقبتك، وإن تخلفت يُصَر إلى إعدامها، وإما أن لديها ما تقوله».

نهض جين. إنه مترجم في النهاية، وبوسعه الذهاب وترجمة حديث مسنر. وبرغم ذلك شعر بانقباض في صدره، إحساس لم يكن مختلفاً كثيراً عن الشعور بالحكاك، لكنه شعر به تحت أضلعه.

قال مسنر: «يا له من أمر لافت، ولم يأت أحد على ذكره حتى».

قال جين وهو يشعر بأن ركبتيه تنحلان أكثر مع كل خطوة: «كنا جميعاً نفكر في العازف، وقد نسينا أمر الفتاتين كلياً».

«أفترض أنه كان تعصباً جنسياً من قِبلي، بافتراضي أن جميع الخاطفين ذكور. إننا نعيش في عصر الحداثة في النهاية. يجدر

بالمرء الإدراك أن بوسع الفتاة أن تكبر وتصبح إرهابية كحال الفتى بالضبط».

قال جين: «لا أتخيل ذلك».

عندما باتا على بُعد ٣ أقدام، استجمعت كارمن القوة لتضع يدها اليمنى على مسدسها، لكنها حاذرت أن تتقدم أي خطوة أخرى.

قال مسنر بالفرنسية: «هل تنوين إطلاق النار علينا؟»، وهي جملة بسيطة عجز عن قولها بالإسبانية، لأنه لم يكن يعرف مرادف «إطلاق النار» بالإسبانية، وهي عبارة افترض أن عليه تعلمها. ترجم جين كلامه وبدا صوته مشكِّكاً. فلم تنبس كارمن، التي جحظت عيناها وتعرقت جبهتها، ببنت شفة.

سأل مسنر جين: «هل نحن واثقان من أنها تتكلم الإسبانية؟ هل نحن أكيدان من أنها تتكلم في الأصل؟».

سألها جين إن كانت تجيد تكلم الإسبانية.

فهمست قائلة: «قليلاً».

قال مسنر بحسن نية، وأشار إلى المسدس: «لا تطلقي النار».

أبعدت كارمن يدها وكتفت يديها، وقالت: «لست أدري».

«كم تبلغين من العمر؟».

قالت إنها تبلغ السابعة عشرة من العمر، فافترضا أنها تقول الحقيقة.

سألها مسنر: «ما هي لغتك الأم».

وعاجلها جين أيضاً بسؤالها عن اللغة التي تنطق بها في ديارها.

أجابت: «الكتشوا. إننا جميعاً نتكلم لغة الكتشوا، لكننا نعرف اللغة الإسبانية». ثم قالت في أولى محاولاتها البوح بما تريده؛ «يفترض بي تحسين لغتي الإسبانية». خرجت الكلمات من فمها بنبرة بائسة.

قال جين: «لغتك الإسبانية لا بأس بها».

تغير تعبير وجهها عندما صدرت منه هذه المجاملة. لا يمكن أحداً المبالغة في الحقيقة، والقول إنها تبسمت، لكن ارتفع حاجباها وقرّبت وجهها ناحيتهما سنتيمتراً واحداً أو ما شابه، كأنها مدته ناحية ضوء الشمس: «أنا أحاول التعلم أكثر».

سألها مسنر: «كيف حصل لفتاة مثلك أن انخرطت مع مجموعة مثل هؤلاء؟». وجد جين السؤال مباشراً بشكل مبالغ فيه، لكن مسنر يجيد الإسبانية، وبالتالي سيكشِفُ أمره في حال حاول تغيير السؤال.

قالت: «أنا أعمل لأجل تحرير الشعب».

حك مسنر عنقه من الخلف. «إنهم دوماً يحملون شعار «تحرير الشعب». لم أعرف أبداً عن أي شعب يتحدثون، أو ما يريدون تحريره. أنا بكل تأكيد أدرك أن هناك مشاكل، لكن ثمة غموضاً شديداً في مسألة «تحرير الشعب». في الواقع، التفاوض

مع سارقي المصارف أكثر سهولة. إنهم لا يريدون سوى المال. يودون أخذ المال وتحرير أنفسهم، ولتحلّ اللعنة على الشعب. إنهم واضحون في هذا الشأن، أليس كذلك؟

«هل توجه سؤالك إليّ، أم إليها؟»

نظر مسنر إلى كارمن واعتذر منها بالإسبانية. وقال لجين: «إنها فظاظة مني». ثم قال لكارمن: «إن لغتي الإسبانية ضعيفة جداً، لكنني أسعى إلى تحسينها أنا أيضاً».

قالت بالإسبانية: «نعم». ما كان يجدر بها التحدث إليهما بهذه الطريقة، إذ يمكن الجنرالات أن يحضروا. ويمكن أي أحد أن يراها. كان وضعها مكشوفاً كثيراً.

«هل يعاملونك بشكل جيد؟ هل تتمتعين بصحة جيدة».

فعادت لتقول: «نعم»، على الرغم من أنها لم تكن واثقة لمَ كان يطرح عليها مثل هذه الأسئلة.

قال لجين بالفرنسية: «إنها حقاً فتاة جميلة. لديها وجه جميل، وقلبها تقريباً في غاية النقاوة. لكن لا تقل لها ذلك. إنها تبدو كذاك النوع من الفتيات اللواتي قد يمتن نتيجة الإحراج». ثم التفت إلى كارمن. «إن كنت تحتاجين إلى أي شيء، فلتُعلِمي واحداً منا».

قالت: «نعم»، وهي بالكاد قادرة على إخراج الكلمة من بين شفتيها.

قال مسنر بالفرنسية: «لا تتسنى للمرء رؤية الكثير من

الإرهابيين الخجولين»، ثم وقف الثلاثة في مكانهم كأنها لحظة مؤلمة قد طال أمدها في خلال حفلة كوكتيل مملة.

سألها جين: «هل أحببتِ الموسيقى؟».

فهمست قائلة: «إنها جميلة جداً».

«كانت معزوفة لشوبان».

سأله مسنر: «هل عزف كايتو لشوبان؟ المقطوعات الحالمة؟ يؤسفني أنني فوّتُّ ذلك».

سألت كارمن: «هل عزف شوبان؟».

فقال جين: «لا، الذي قام بالعزف كان السينيور كايتو. أما الموسيقى التي عزفها فهي من تأليف السينيور شوبان».

فقالت من جديد: «إنها جميلة جداً». ثم امتلأت عيناها فجأة دمعاً، وباعدت بين شفتيها بعض الشيء ليس لتتكلم، بل لتتنفس.

سأل مسنر: «ما الأمر؟». كان يوشك على لمس كتفها، ثم عدل عن الفكرة. ناداها الفتى الضخم المدعو جيلبير من الجانب المقابل من الغرفة. ولدى سماعها اسمها، بدا كأنها استعادت قدرتها على الحركة. فركت عينيها بسرعة، ومشت من أمام الرجلين على الفور. استدارا وشاهداها تسير في أرجاء غرفة الجلوس الرحبة، ثم اختفت في الرواق برفقة الفتى.

قال مسنر: «لعل الموسيقى أثرت فيها».

وقف جين يراقب المكان الفارغ حيث كانت تقف. وقال: «لا بد من أن مثل هذا الوضع، يصعب على فتاة».

وعندما هم مسنر بالقول إن الوضع صعب عليهم جميعاً، فهم قصد جين، ووافقه بصراحة القول.

كلما غادر مسنر المنزل، يسود جو من الحزن قد يطول لساعات. كان داخل المنزل هادئاً جداً. لم يكن أحد يستمع إلى الرسائل المملة التي تُبعث من وراء الحائط: «لا رجاء لكم، استسلموا، لن نقوم بالتفاوض». ظلوا يكررون هذه الكلمات إلى أن تكسّرت وباتت أشبه بطنين ممل، كصوت الدبابير الغاضبة وهي تطوف حول خلية النحل. لقد تخيلوا ماهية شعور السجناء لدى انتهاء ساعة الزيارة حيث لا يعود عندهم ما يفعلونه عدا الجلوس في زنزاناتهم، والتساؤل إن حل الظلام في الخارج أم بعد. كانوا لا يزالون غارقين في اكتئاب فترة العصر، وهم لا يزالون يفكرون في أقاربهم المسنين الذين لم يذهبوا لزيارتهم قط، عندما عاود مسنر قرع الباب من جديد. رفع سيمون تيبولت وجهه عن الوشاح الأزرق الذي لفه حول عنقه، وأشار الجنرال بنجامين إلى نائب الرئيس ليفتح الباب. أخذ روبن دقيقة لينزع المنشفة عن خصره. فأشار له الأشخاص الحاملون السلاح بالإسراع. كان مسنر الطارق وقد أدركوا ذلك. وحده مسنر هو الذي يقرع الباب.

قال نائب الرئيس: «يا لها من مفاجأة سارة».

كان مسنر واقفاً على السلالم الأمامية وهو يكافح لحمل صندوق ثقيل بيديه. بحسب الجنرالات، فإن هذا التغيير في مواعيد الدخول يشير إلى تطور ما في الأحداث: فرصة لإنهاء هذا الوضع. لقد كانوا يائسين إلى هذه الدرجة، وشديدي الأمل إلى هذه الدرجة أيضاً. عندما وجدوا أن الأمر ليس سوى إيصال لغرض آخر، شعروا بخيبة الأمل. ما كانوا يرغبون في أي منها. قال الجنرال ألفريدو لجين: «هذا ليس موعده. إنه يعرف المواعيد التي يُسمح له الدخول فيها». كان الجنرال ألفريدو قد غفا في كرسيه. منذ وصوله إلى منزل نائب الرئيس، وهو يعاني الأرق. ومن يوقظْه من الغفوات القليلة التي تتسنى له، يندمْ طوال حياته على ذلك. لطالما كان يحلم برصاصات تمر بمحاذاة أذنيه. وعندما يستفيق يجد أن البلل قد لحق بكنزته، وقلبه يخفق بسرعة، ولا يبارحه شعور دائم بإرهاق يفوق ما كان يشعر به قبل النوم.

قال مسنر: «بدا لي أن هذا ظرف خاص. لقد وصلت الموسيقى».

قال ألفريدو بحدة: «إننا جيش. وليس معهد موسيقي. تعال في وقتك في الغد، وعندها نناقش مسألة السماح بالموسيقى».

سألت روكسان كوس جين إن كانت هذه موسيقاها، وعندما أكد لها هذا الأمر، نهضت على الفور. كما اقترب الكاهن من الباب أيضاً.

«أهذه من مانويل؟».

فأجابه مسنر: «إنه في الجانب المقابل من الحائط. لقد أرسل إليكم هذا كله».

ضغط الأب أرغيداس بيديه على شفتيه. أيها الرب الرحيم والقوي، إننا نبلي حسناً دوماً، وفي كل مكان في شكرك وتسبيحك.

قال الجنرال ألفريدو: «اجلسا، كليكما».

وقال مسنر، وقد بدأ بالانحناء نزولاً: «سأضع هذا الصندوق عند الباب». بدا مفاجئاً كم يمكن الموسيقى أن تزن.

قال ألفريدو: «لا». كان يعاني الصداع، ويمتعض كثيراً في حال تعاطى مع الأمور بسلاسة. وجب أن يكون هناك بعض النظام بما يقومون به، وبعض الاحترام للسلطة. أليس هو بالرجل الحامل السلاح؟ أليس لهذا الأمر وقع ما؟ في حال قال إن الصندوق لن يدخل، إذاً فلن يدخل. همس الجنرال بنجامين ببضع كلمات في أذن ألفريدو، لكن ألفريدو عمد ببساطة إلى تكرار موقفه: «لا».

جذبت روكسان ذراع جين. «أليس هذا الصندوق لي؟ قل لهم ذلك». سأل جين إن كان الصندوق يعود إلى الآنسة كوس.

«لا شيء يعود إلى السنيوريته كوس! إنها سجينة كحال البقية. هذا ليس منزلها. ليس هناك خدمة بريد خاصة تمتاز بها وحدها. سوف لن تستلم الطرود البريدية». دفعت نبرة صوت الجنرال ألفريدو بجميع الخاطفين المراهقين المدججين بالسلاح،

إلى أن يهبوا على أقدامهم، وارتسمت على وجوههم ملامح التهديد. بالنسبة إلى العديد منهم، استدعى ما يجري أن يضعوا أيديهم على بنادقهم.

تنهد مسنر وزحزح الحمل الذي بين يديه. «إذاً، سأعود في الغد». بات يتكلم باللغة الإنكليزية، وتوجه بكلامه إلى روكسان وترك جين يترجم للجنرالات.

لم يغادر، بل بالكاد ابتعد قليلاً عن المنزل، فأغمضت روكسان كوس عينيها وفتحت فمها. إن رد فعل كهذا يُعتبر أمراً محفوفاً بالخطر، بالنسبة إلى الجنرال ألفريدو الذي قد ينظر إلى الأمر كحالة تمرد، وبالنسبة إلى الصوت نفسه. كان قد مضى أسبوعان لم تعمد خلالهما إلى الغناء ولم تؤد النوتات الأساسية حتى كنوع من التحمية. وقفت روكسان كوس، وهي ترتدي سروال زوجة نائب الرئيس وسترتها البيضاء، وسط غرفة الجلوس الرحبة وبدأت تغني «أو ميو بابينو كارو»، من جياني شيشي لبوتشيني. وجب أن تكونَ وراءها أوركسترا، لكن لم يلحظ أحد غيابها. ما كان أحد ليقول إن صوتها كان أفضل بوجود أوركسترا، أو إنه كان أفضل حينما كانت الغرفة أنظف ومضاءة بالشموع. لم يلحظوا غياب الورود والشامبانيا. لقد أدركوا الآن أن الورود والشامبانيا كانت مجرد إضافات لا ضرورة لها. هل كانت حقاً لا تغني طوال الوقت؟ إن صوتها ليس أقل جمالاً عندما يصبح لدناً ودافئاً أكثر. اغرورقت عيونهم بالدموع لعدة أسباب يستحيل عرضها جميعاً. لقد بكوا لجمال

الموسيقى بالتأكيد، لكن لفشل مخططاتهم أيضاً. باتوا يفكرون في آخر مرة سمعوها فيها تغني، وتاقوا إلى المرأة التي كانت إلى جانبهم حينها. إن كل الحب والتوق هذين، اللذين قد يتمكن الجسد من احتوائهما، انسكبا في أغنية لم تستمر أكثر من دقيقتين ونصف الدقيقة. وعندما وصلت إلى النوتات الأعلى بدا أن كل ما مُنحوا في حياتهم وكل ما فقدوه، قد اندمجا معاً، وصنعا ثقلاً استحال حمله. وعندما فرغتْ من الغناء، وقف الناس من حولها في حالة صمت وصدمة ورجفة. اتكأ مسنر على الحائط كأنه تلقى ضربة ما. لم تتم دعوته أصلاً إلى الحفلة. وعلى عكس الآخرين، لم يسبق له أن سمعها من قبل.

أخذت روكسان نَفَساً عميقاً، وهزت بكتفيها. قالت لجين: «قل له إن هذا يكفي. إما أن يعطيني ذاك الصندوق في الحال، وإما فلن تسمعوا مني أو من البيانو نوتة واحدة طوال مدة هذه المناسبة الاجتماعية الفاشلة».

سألها جين: «حقاً؟».

فأجابت مغنية الأوبرا: «أنا لا أكذب».

قام جين بإيصال الرسالة، وعندها تحولت الأعين كلها إلى الجنرال ألفريدو الذي قرص أنفه وحاول إزالة الألم من رأسه لكنه لم يفلح. لقد أربكته الموسيقى إلى حد أنها شلّته عن التفكير. لم يعد قادراً على التمسك بمواقفه. بات الآن يفكر في أخته التي ماتت جراء إصابتها بالحمى القرمزية عندما كان صغيراً. لقد كان هؤلاء الرهائن أشبه بالأطفال الفظيعين حيث

يريدون دوماً المزيد لأنفسهم. لم يعرفوا شيئاً عن معنى المعاناة. كان ليسرّه الخروج من المنزل في تلك اللحظة، وتلقي أي مصير محضَّر له على الجانب الآخر من الحائط، أكان ذلك سجناً مؤبداً، أم رصاصة في رأسه. فمع ذاك القسط القليل جداً من النوم الذي حظي به، لم يكن في وضع يسمح له بأخذ القرارات. بدا كأن كل استنتاج محتمل أشبه بضرب من الجنون. استدار ألفريدو وترك الغرفة، ومشى في الرواق الطويل ناحية مكتب نائب الرئيس. وبعد وهلة، سُمع الصوت الخافت للأخبار في التلفاز. طلب الجنرال بنجامين من مسنر الدخول، وأمر جنوده بحدة بأن يتفقدوا محتويات الصندوق بدقة بحثاً عن أي شيء لا يتعلق بالموسيقى. حاول أن يجعل الأمر كأنه قراره. إنه الشخص المتربع على سدة المسؤولية. لكن، حتى هو لم يخفَ عليه أن هذا الأمر عارٍ عن الصحة.

أخذ الجنود الصندوق من مسنر وأفرغوه على الأرض. كان هناك نصوص أوبرا منفصلة وكتب مجمّعة، ومئات من الأوراق المملوءة بالكتابات الموسيقية. نقبوا فيها، وفصلوها عن بعضها البعض، وقاموا بهز كومات من الأوراق كأنه يوجد مال بين طياتها.

قال مسنر: «يا للذهول! لقد رأيت الشرطة تنقب فيها في الخارج، وها أنتم تعاودون الكرّة من جديد».

اقترب كايتو وركع بالقرب من الفتيان. وبمجرد أن يتفقدوا ورقة يأخذها كايتو منهم على الفور، فيعمد بحذر إلى فصل

موسيقى روسيني عن فيردي، ويضع مقطوعات شوبان وحدها. أحياناً يتوقف لقراءة ورقة كأنها رسالة بُعثت إليه من المنزل، ورأسه يترنح مع النوتة الموقتة.

عندما يجد شيئاً ذا أهمية خاصة، يحمله إلى روكسان ويعطيها إياه، وينحني أمامها حتى حدود خصره. لم يطلب من جين الترجمة. إن جل ما تحتاج إلى معرفته موجود هناك.

قال مسنر للأب أرغيداس: «يرسل إليك مانويل أجمل تحياته. وقال إن احتجت إلى شيء آخر سيؤمنه لك».

أدرك الكاهن أنه اقترف خطيئة الشعور بالغرور حينها، وبرغم ذلك ظل يشعر بفرح غامر كونه أفلح في لعب دور في مسألة جلب الموسيقى. كان لا يزال يشعر بالدوار نتيجة صوت روكسان كوس، ولم يقوَ على التعبير عن نفسه بشكل جيد. نظر ليرى إن كانت النوافذ مفتوحة. أمِل أن يكون مانويل قد أفلح في سماع جملة أو نوتة واحدة من المكان الذي يقف فيه على الرصيف. يا لها من نعمة أُنزلت عليه وهو في الأسر. إن أسرار حب المسيح لم تكن أبداً بهذا القرب منه، ليس عندما كان يتلو القداس، أو يتلقى اللقمة المقدسة، ليس حتى يوم أخذ على نفسه العهود الدينية. أدرك الآن أنه قد بدأ يرى المدى الأقصى لما كان مقدراً له اتباعه: السير بشكل أعمى إلى أقدار ما كان أبداً ليفهمها. في القدر ثمة مكافأة، وفي فتح المرء قلبه أمام الله، ثمة روعة تفوق الوصف. في اللحظة التي يثق فيها المرء بأنه خسر كل شيء، انظروا كم كسب!

لم تعاود روكسان كوس الغناء ذاك اليوم. أدى صوته ما فيه الكفاية. والآن باتت تمنّي النفس بالنظر إلى نوتات الأوبرا وهي جالسة على الكنبة الصغيرة بالقرب من النافذة مع السيد هوسوكاوا. عندما يكون لدى أي منهما ما يقوله يستدعيان جين، لكن المثير للمفاجأة أنهما نادراً ما احتاجا إليه. لقد كان مبعث راحة لها. في غياب اللغة وجدت أنه يوافقها الرأي تماماً. كانت تتمتم قليلاً من النوتات الموسيقية بصوت منخفض حتى يعرف إلامَ تنظر، ثم ينظران إلى الصفحات معاً. إن السيد هوسوكاوا لا يجيد قراءة النوتات الموسيقية، لكنه يتقبل هذا الأمر. لم يكن يعرف لغة نصوص الأوبرا، ولا لغة المغنية، ولا لغة المُضيف. كان قد بدأ يشعر بارتياح أكبر في ما يخص كل ما خسره، وما لا يعرفه. وعوضاً عن ذلك، أذهله ما كان يملكه: فرصة الجلوس بالقرب من هذه المرأة تحت شعاع ضوء العصر وهي تقرأ. مسّتْ كفها كفه وهي تضع الأوراق على الكنبة بينهما، ثم ألقت بيدها على يده وهي تواصل القراءة.

اقترب كايتو منهما بعد قليل. انحنى لروكسان ثم للسيد هوسوكاوا. سأل كايتو رب عمله: «ألديك مانع إن قمتُ بالعزف؟».

أجاب السيد هوسوكاوا: «أعتقد أنه لا بأس بذلك».

«ألا تعتقد أن في ذلك إزعاجاً لها وهي تقرأ؟».

رأت روكسان السيد هوسوكاوا يومئ بيديه مشيراً إلى العزف على البيانو، فهزت برأسها لكايتو.

قالت: «نعم»، وهي لا تزال تهز برأسها. مدت يدها راغبة في أخذ النوتات الموسيقية منه.

أعطاها إياها كايتو، وقال: «ساتي».

«ساتي». ثم ابتسمت له وهزت برأسها من جديد. توجه كايتو إلى البيانو وشرع بالعزف. لم يكن الأمر أشبه بآخر مرة عزف فيها عندما عجز الجميع عن التصديق أن مثل هذه الموهبة كانت موجودة بينهم من دون أن يدركوا. ولم يكن الأمر يشبه غناء روكسان على الإطلاق، حيث بدا أن قلوب الجميع اضطرت إلى التوقف عن الخفقان إلى أن تنتهي من الغناء لتعاود الخفقان من جديد. كانت «ساتي» مجرد موسيقى. بوسعهم سماع جمالها من دون أن تصيبهم بالشلل. ظل الرجال قادرين على مواصلة قراءة كتبهم أو النظر عبر النافذة في خلال عزف كايتو. وواصلت روكسان تصفح أوراق النوتات، وبين الحين والآخر تتوقف وتغمض عينيها. وحدهما السيد هوسوكاوا والكاهن كانا يفهمان ملياً أهمية الموسيقى.

كانت كل نوتة من النوتات متميزة. إن ما أفلت من بين أيديهم هو قياس الوقت. كانت تفسيراً لحياتهما في اللحظة نفسها التي يعيشانها.

كان ثمة فتاة أيضاً هناك تفهم الموسيقى، لكنها لم تكن ضيفة. إنها كارمن التي كانت واقفة في الرواق تنظر من الزاوية ناحية غرفة الجلوس. وبالرغم من أنها لم تكن تفهم كلمات الأوبرا، إلا أنها فهمت كل شيء جيداً. كانت هذه أسعد أوقات

حياتها، ويعود السبب في ذلك إلى الموسيقى. عندما كانت طفلة تحلم على فراشها ليلاً، لم تحلم أبداً بمتع مثل هذه. ما كان أحد من أفراد عائلتها الذين خلّفتهم وراءها في الجبال، ليستوعب أن هناك وجوداً لمنزل مشيّد من الحجر وله نوافذ من الزجاج، حيث لا تشتد الحرارة فيه ولا البرودة. ما كانت لتتخيل أن في العالم قطعة سجاد كبيرة جداً ومشغولة على شكل باقة من الأزهار، أو سقفاً مزداناً باللون الذهبي، أو تمثالين لامرأتين إلى جانبي المدفأة تحملان الطاولة فوق المدفأة على رأسيهما. إن الموسيقى واللوحات والحديقة التي كانت تتجول في أرجائها لحراستها، حاملة بندقيتها، كانت لتكون كافية، لكن بالإضافة إلى ذلك كان هناك الطعام الذي يأتي يومياً، بكميات كبيرة إلى درجة أنه يتم هدر الكثير منه بالرغم من محاولة الجميع أكله كله. كان هناك أحواض استحمام بيضاء عميقة، ومياه ساخنة متوفرة دونما انقطاع تنسكب من الصنابير الفضية. وكانت هناك أرتال من المناشف والوسائد والأغطية البيضاء المزينة بالساتان، ومساحات رحبة داخل المنزل حيث بوسع المرء أن يهيم على وجهه فيها ولا يعرف أحد مكانه. بلى، أراد الجنرالات شيئاً أفضل للشعب، لكن أليسوا هم من الشعب؟ أسيكون أسوأ شيء في العالم إن لم يحدث شيء على الإطلاق، إن بقوا جميعاً معاً في هذا المنزل المعطاء؟ صلت كارمن من كل قلبها. صلت وهي واقفة بالقرب من الكاهن أملاً منها أن يصبح لطلبها مصداقية أكبر. ما الذي كانت تصلي لأجله؟ لا شيء. كانت ترجو أن ينظر إليهم الله، ويرى جمال وجودهم معاً، ويتركهم وشأنهم.

كان دور كارمن للحراسة تلك الليلة. أخذ الجميع وقتاً طويلاً قبل خلودهم إلى النوم. كان البعض منهم يقرأ على ضوء المصابيح، وآخرون يتقلّبون ويتمددون داخل تلك الغرفة الرحبة حيث ينامون جميعاً. كانوا أشبه بالأطفال، يقومون ويقعدون بغية شرب الماء ثم دخول الحمام. لكن بمجرد أن هدأ الجميع، مشت بين أجسادهم متوجهة للبحث عن جين. كان في مكانه المعتاد نائماً على ظهره على الأرض بالقرب من الكنبة، حيث ينام رب عمله. كان جين قد خلع نظارته وحملها كالعادة خلال نومه بيد واحدة. يتمتع بوجه جميل: وجه يختزن عالماً من المعرفة. رأت عينيه تتحركان بسرعة رواحاً وجيئة تحت جلد جفنيه الناعم الرقيق، لكن لو أنه كان يحلم لكان هدأ كل ما فيه. كان تنفسه هادئاً ومتراتباً. تمنت كارمن لو كان بوسعها النظر إلى داخل عقله. تساءلت إن كانت ستجده مزدحماً بالكلمات، وأجزاء من اللغات مكدسة بترتيب فوق بعضها البعض. أما دماغها هي فليس سوى خزانة فارغة مقارنة مع دماغه. قد يعمد إلى رفضها، وما عسى أن يكون الضير في ذلك؟ ما كانت لتحظى بأقل مما تملكه الآن. جل ما عليها فعله هو سؤاله. جل ما عليها فعله هو النطق بالكلمات، لكن مجرد التفكير في ذلك أصاب حنجرتها بالشلل التام. أي خبرة تمتلك عن موسيقى البيانو أو لوحات العذراء؟ أي خبرة تمتلك عن التقدم بطلب من أحد ما؟ حبست كارمن أنفاسها وتمددت على الأرض بالقرب من جين. كانت صامتة بقدر صمت الضوء على أوراق الأشجار. استلقت على جنبها، ووضعت فمها بالقرب من أذنه النائمة. لم

تكن تمتلك موهبة التقدم بكلب إلى أحد ما، لكنها كانت نابغة في الصمت. عندما كانوا يؤدون تمارينهم في الغابة، كانت كارمن التي بوسعها الركض مسافة ميل من دون أن تكسر غصناً واحداً. كانت كارمن التي بوسعها السير وراءك والتربيت على كتفك من دون أن تحدث صوتاً. إنها من أرسلوها أولاً لتفك براغي الأغطية عن فتحات التهوئة، لأن أحداً لن يلاحظها. لن يسمع أحد شيئاً.

أدت صلاة لقديسة ليما «روز»، وطلبت منها أن تمن عليها بالشجاعة. ها إنها بعد أدائها العديد من الصلوات من أجل نعمة الصمت، بدأت الآن تطلب نعمة التكلم.

ثم همست قائلة: «جين».

كان جين يحلم بأنه واقف على شاطئ في اليونان ينظر إلى المياه، وثمة أحد ما خلفه على الكثبان الرملية يتلفظ باسمه.

كان قلبها يخفق بسرعة في صدرها. وأحدثت سرعة تدفق دمها هديراً في أذنيها. إن ما سمعته عندما ركزت سمعها كان صوت القديسة. قالت لها القديسة روز: «إما الآن وإما أبداً، أنا إلى جانبك في هذه اللحظة فحسب».

«جين».

الآن، بات الصوت الذي ينادي يبتعد، وغادر جين الشاطئ ليتبعه. لحق بالصوت من النوم إلى الصحو. لطالما وجد الأمر مربكاً، الصحو في منزل نائب الرئيس. أي غرفة فندق هذه؟ لمَ

هو على الأرض؟ ثم يتذكر، ويفتح عينيه سريعاً ظناً منه أن السيد هوسوكاوا يحتاج إليه. نظر عالياً إلى الكنبة ثم شعر بيد، ناعمة تُلقى على كتفه. عندما أدار رأسه وجد الفتى الجميل هناك. ليس الفتى، بل كارمن، وأنفها يوشك على لمس أنفه. أصابته الدهشة، لكنه لم يخف. يا لغرابة استلقائها على الأرض، لم يخطر له سوى هذه الفكرة.

كان الجيش قد تخلى عن استخدام المصابيح القوية التي ظلوا يشعلونها لمدة طويلة خارج النوافذ، والآن عاد الليل ليبدو ليلاً من جديد. قال: «كارمن؟». يجدر بمسنر رؤيتها على هذا الشكل تحت ضوء القمر. لقد كان محقاً جداً في شأن وجهها، الذي له شكل القلب.

قالت في أذنه مباشرة: «التزم الصمت الشديد. اسمع». لكن أين هي الكلمات؟ كانت ممتنة جداً لاستلقائها على الأرض. كان تسارع خفقان قلبها لا يُحتمل. هل بوسعه رؤيتها ترتجف على هذا الشكل في العتم؟ هل بوسعه الشعور بارتدادات اهتزازاتها الغائرة في عمق خشب الأرضية؟ هل بوسعه سماع الحفيف الذي يصدره جسدها داخل الملابس التي ترتديها؟

قالت لها القديسة روز: «أَغمضي عينيك. واتلي صلاة لي».

وفجأة، بات هناك ما يكفي من الهوء ليملأ رئتيها. قالت له بسرعة: «علمني القراءة. علمني الأحرف الإسبانية».

نظر جين إليها. كانت عيناها مغمضتين. بدا الأمر كأنه هو الذي أتى واستلقى إلى جانبها، وليس العكس. كانت رموشها كثيفة وغامقة اللون فوق حمرة خديها. هل كانت نائمة؟ هل

كانت تهذي أثناء نومها؟ كان بوسعه تقبيلها من دون التحرك إنشاً واحداً. . . ثم أبعد الفكرة عن رأسه.

كرر جين بصوت منخفض جداً بقدر صوتها: «تودين القراءة بالإسبانية».

فقالت في نفسها: حمداً لله أنه يجيد البقاء هادئاً. أخذت نَفَساً، ثم فتحت عينيها السوداوين. وهمست قائلة: «والإنكليزية»، ثم ابتسمت. لم تقدر على الإحجام عن ذلك. فقد أفلحت في طلب كل ما تريده منه.

كارمن الخجولة، التي تنأى دوماً عن البقية، من كان ليتخيل أنها تجيد الابتسام؟ لكن، بعد رؤيته هذه الابتسامة، كان ليعدها بأي شيء. بالكاد كان صاحياً، أو ربما لم يكن صاحياً على الإطلاق. هل كان يريدها ولم يعرف ذلك؟ هل كان يرغب فيها إلى درجة أنه بات يحلم بأنها مستلقية بالقرب منه؟ أخذ جين يفكر: أهي الأمور التي يُبقيها العقل بعيداً عنا. والأسرار التي نخفيها عن أنفسنا حتى. فقال: «نعم، والإنكليزية».

كانت متهورة وشجاعة، وسعادتها بلغت ذروتها. ثم مدّت يدها ووضعتها فوق عينيه وأغمضتهما برفق ليعاود النوم من جديد. كانت يدها باردة وناعمة، وتفوح منها رائحة المعدن. ثم قالت: «عد إلى النوم. عد إلى النوم».

الفصل السادس

بعد مرور السنين، عندما يتذكر الناس الذين كانوا رهائن هنا طوال فترة الاحتجاز هذه، سيرونها مقسمة إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل الصندوق؛ ومرحلة ما بعده.

كان الخاطفون قبل الصندوق يفرضون سيطرتهم على منزل نائب الرئيس، وكان الرهائن يخشون احتمال تعرضهم للقتل حتى عندما لا يُوجَّه إليهم أي تهديد. وحتى لو حالفهم الحظ، ولم تُطلق عليهم النار أثناء نومهم، باتوا الآن يفقهون ما يُضمر لهم، سواء أكان قبل إطلاق سراحهم أم بعده. سوف يلقى كل واحد منهم حتفه. لطالما كانوا يدركون هذا الأمر بكل تأكيد، لكن الآن، بات الموت يربض على صدورهم ليلاً، أمام أعينهم بارداً وجائعاً. إن العالم مكان خطر. وما كان يدور من كلام حول السلامة الشخصية، لم يعد سوى قصص خرافية تُروى للأطفال وقت النوم. ليس على المرء إلا اقتراف خطأ صغير، وبعدها يغيب عن الوجود. كانوا يفكرون في موت العازف السابق الذي ذهبت حياته سدى. لقد اشتاقوا إليه، وبرغم ذلك،

ها هو قد استُبدل بكل بساطة وروعة. لقد اشتاقوا إلى بناتهم وزوجاتهم. إنهم ما زالوا أحياء في هذا المنزل، لكن ما جدوى ذلك؟ الموت يسحب الهواء من قعر رئاتهم، تاركاً إياهم ضعفاء ومنهكين. لقد انهار رؤساء الشركات الأقوياء، وخرّوا ساجدين، متكورين على كراسي بالقرب من النوافذ، وأخذوا يحدقون إلى الخارج، وشرع الدبلوماسيون يتصفّحون المجلات من دون التنبه إلى الصور. لقد مرت أيام بالكاد تحلّوا فيها بالقوة الكافية لقلب الصفحات، وطيّها.

لكن، بعد أن جلب مسنر الصندوق إلى المنزل، تغيّر كل شيء. واصل الإرهابيون حراسة الأبواب وحمل السلاح، لكن روكسان كوس باتت الآن هي المتربعة على عرش المسؤولية. كانت تبدأ صباحها عند السادسة صباحاً، بعدما تستيقظ عندما يتسلل الضوء من نافذتها. وعندما تصحو ترغب في التوجه إلى العمل، فتستحم وتتناول قطعتين من الخبز المحمص وكوباً من الشاي الذي تحضّره كارمن وتجلب لها الفطور على صينية خشبية صفراء اختارها نائب الرئيس لهذا الغرض بالتحديد. والآن، بعد أن علمت روكسان حقيقة بأن كارمن هي أنثى، باتت تسمح لها بالجلوس على السرير معها والشرب من كوبها. كانت تهوى تجديل شعر هذه المراهقة الذي يتشح بالسواد الداكن اللمعان كبحيرة من الزيت. وتجد في صباحات بعض الأيام، أن ثقل شعر كارمن على أصابعها هو الشيء الوحيد الذي يشكل معنى بالنسبة إليها. كانت تجد العزاء في الادعاء أنه تم احتجازها كي تجدل شعر هذه الشابة. إنها سوزانا بطلة أوبرا موزار. وكارمن

هي الكونتيسة روزينا، حيث تقسّم شعرها وتجدله كضفائر سوداء سميكة على نحو جميل. ليس ثمة ما يسعهما قوله لبعضهما البعض. وعندما تفرغ روكسان تتوجه كارمن للوقوف وراءها، وتسرح شعرها إلى أن يلمع، ثم تجدله. بهذه الطريقة، ولهذه الفترة الزمنية القصيرة التي تحظيان بها في فترات الصباح، كانتا أختين وصديقتين ومتشابهتين. إنهما تشعران بالسعادة عندما تكونان معاً وحدهما. لم تفكرا قط في بياتريس التي كانت تلعب بالنرد مع الفتيان إلى جانب حجرة المؤن في المطبخ.

عند الساعة السابعة، يكون كايتو بانتظار روكسان عند البيانو، وأصابعه تنهمر بخفة كمطر ربيعي على المفاتيح، رواحاً وجيئة. لقد تعلمتْ كيف تقول «صباح الخير» باليابانية، وتعلم كايتو بضع عبارات بالإنكليزية: «صباح الخير، شكراً، إلى اللقاء». هذا أقصى ما أمكنهما تعلمه كل من لغة الآخر، لذا تراهما يقولان «صباح الخير» من جديد عندما يحين الوقت للاستراحة، أو حينما يمران أحدهما بمحاذاة الآخر في الممر ليلاً لدى التوجه إلى النوم. كانا يتخاطبان عبر تبادل أوراق النوتات الموسيقية. العلاقة بينهما لم تكن ديموقراطية قط. كان كايتو يعمد إلى قراءة النوتات التي أرسلها صديق الكاهن لدى استلقائه على كومة من المعاطف ليلاً، وأحياناً يختار منها قطعاً يود سماعها، أو قطعاً يشعر بأنها تناسب صوت روكسان. شعر بأنه يبالغ في الجرأة بتقديم اقتراحاته، لكن ما المشكلة في ذلك؟ فقد كان نائب رئيس لشركة عملاقة، ورجل حسابات،

وقد ترقى فجأة ليصبح عازفاً. لم يعد الرجل الذي كان عليه. بات إنساناً لم يتخيل أنه سيصبح عليه قط.

عند السابعة والربع، تبدأ التدرّب على نوتات التخت الموسيقي. كان في ساعات الصباح الأولى، لا يزال بعض الناس يغطّون في النوم. لا يشعر بياترو جينوفيس بالراحة إلا بالنوم تحت البيانو، وحين يُنقر على الأوتار يحسب نفسه يسمع أجراس كنيسة سان بطرس. لم يعد أي من هذا مهماً. فقد آن الأوان للعمل. لقد ذهب الكثير من الوقت سُدى في الجلوس على الكنبة والنحيب، وفي التحديق من النافذة. والآن، بات هناك موسيقى وعازف. لقد خاطرت روكسان كوس بصوتها في أداء معزوفة جياني سكيكي، فوجدت أن صوتها لا يزال قوياً. كانت في اليوم السابق قد قالت للسيد هوسوكاوا بواسطة جين: «إننا نذبل. جميعنا نذبل. لقد ضقتُ ذرعاً. إن أراد أحد ما رميي بالرصاص فسيتحتم عليه قتلي وأنا أغني». بهذه الطريقة أدرك السيد هوسوكاوا أنها ستكون في أمان، إذ إنه لا يمكن أحداً أن يطلق النار عليها وهي تغني. وبالتالي، باتوا جميعاً في أمان، لذا اقتربوا من البيانو كثيراً، وكادوا يلتصقون بها، كي يصغوا إليها.

قالت روكسان وقد أبعدتهم بإشارة من يدها: «ابتعدوا. سوف أحتاج إلى هذا الهواء».

أول ما غنته ذاك الصباح، كان قطعة من روسالكا. تذكرت أن السيد هوسوكاوا كان قد طلب أن تغنيها يوم عيد مولده، قبل أن تتعرف إليه، وقبل أن تعرف أي شيء. كم تحب تلك القصة:

روح الماء التي تتوق إلى أن تصبح امرأة تقوى على احتضان حبيبها بذراعين حقيقيتين عوضاً عن الأمواج الباردة. لقد غنت هذه القطعة في جميع حفلاتها تقريباً، لكنها لم تضمّنها أبداً هذا القدر من التعاطف والتفهم مثلما فعلت هذا الصباح. وعندما سمع السيد هوسوكاوا الاختلاف في صوتها، اغرورقت عيناه بالدموع.

همس لجين قائلاً: «إنها تغني بالتشيكية كأنها وُلدت وهي تتكلم هذه اللغة».

هز جين برأسه. ما كان أبداً ليدحض جمال غنائها، ودفء صوتها، وسلاسته التي تتوافق كثيراً مع سلاسة روسالكا. لكن، لم يكن ثمة جدوى من إخبار السيد هوسوكاوا أن هذه المرأة لا تجيد ولا حتى كلمة واحدة من التشيكية. كانت تغني كل عبارة بشغف، لكن لم تفلح أي من هذه العبارات في الظهور بشكل كلمات مألوفة من تلك اللغة. بدا واضحاً أنها حفظت كيفية لفظ تلك الكلمات، وأنها غنت حبها لدفوراك وحبها للقصة المترجَمة، لكن اللغة التشيكية نفسها هي لغة غريبة لا تعرف منها شيئاً. لكن هذا لا يشكل جرماً في أي حال من الأحوال. إذ من سواه يدرك هذه الحقيقة؟ ليس ثمة تشيكيون في ما بينهم.

ظلت روكسان كوس تبدع في الغناء على مدى ثلاث ساعات كل صباح، وأحياناً تعاود الغناء ظهراً قبل موعد الغداء، إن شعرت بأن صوتها لا يزال قوياً. ولم تخطر في بال أحد، في

غضون تلك الساعات، فكرة التعرّض للموت. كان غناؤها بمثابة تعويذة تمدّ صباحاتهم بالحياة. كانوا يفكرون في غنائها، وفي الأغنية، وفي تألق قدراتها الصوتية. وسرعان ما تم تقسيم الأيام إلى ثلاثة أقسام: توقع قيامها بالغناء؛ والتمتع بغنائها؛ والتفكّر في غنائها.

إن تسللت السلطة من بين أيدي الجنرالات، فقد بدا أنهم لا يمانعون في ذلك على الإطلاق. وقد باتت خيبة أملهم جراء فشل مهمتهم تبدو أخف وطأة الآن، كما مرت عليهم عدة ليال ناموا فيها بسلام تقريباً. واصل الجنرال بنجامين تحديد الأيام على حائط غرفة الطعام. وبات لديهم المزيد من الوقت للتركيز على المفاوضات. كانوا يتبادلون الكلام في ما بينهم، كأن الغناء بات جزءاً من خطتهم. إنه يُحدث تأثيراً مهدئاً في الرهائن، ويدفع الجنود إلى التركيز. كما أنه أحدث تأثيراً ملحوظاً، حيث وضع حداً للإزعاج الصادر من الجانب الآخر من الحائط. لم يسعهم إلا الافتراض أنه بوجود النوافذ مفتوحة فإن الناس في الشوارع يصلهم صوت غنائها، لأن الضجيج الصادر عن مكبرات الصوت بشكل متواصل، لا يلبث أن يتوقف بمجرد أن تفتح فمها وتصدح بالغناء. ثم بعد بضعة أيام، كفّت مكبرات الصوت عن إطلاق الأصوات كلياً، فأخذوا يتخيلون الشوارع في الخارج، تعج بالناس، ولا واحد منهم يأكل رقاقات البطاطا أو يسعل، بل جميعهم يصبون تركيزهم للإصغاء إلى الصوت الذي لم يسمعوه إلا على الأسطونات وفي أحلامهم. كان الأمر أشبه

بحفلات يومية رتب لها الجنرالات، أو هكذا باتوا يعتقدون. هدية للناس، وتسلية للجيش. لقد اختطفوها لسبب في النهاية.

قال الجنرال هكتور في جناح الضيوف في الطابق السفلي الذي استولوا عليه وجعلوه مكتباً خاصاً بهم: «سنجعلها تغني أكثر». كان ممدداً على السرير المغطى بفراش، وحذاؤه فوق الفراش العاجي المطرز، ويجلس الجنرالان ألفريدو وبنجامين على كرسيين متطابقين مغطيين بقماش مزركش بأزهار الفاوانيا الزهرية الضخمة. «ليس هناك سبب يمنعها من الغناء بضع ساعات أخرى في اليوم. وسوف نعيد ترتيب مواقيتها حتى نُبقيهم مستعدين لأي هجوم».

قال الجنرال ألفريدو: «سوف نملي عليها ما تغنيه أيضاً. يجدر بها الغناء بالإسبانية. فهذه اللغة الإيطالية لا تعنينا. كما أنه من يدري إن كانت توجه بغنائها رسائل معينة إلى الخارج».

لكن الجنرال بنجامين أدرك بالرغم من ندرة مشاركاته في المواضيع الراهنة، أنهم مهما حصلوا عليه من غناء روكسان كوس، فإنه لا يسعهم إلا الشعور بالامتنان لها. «لا أعتقد أنه يجدر بنا أن نطلب منها شيئاً».

قال الجنرال هكتور، وهو يمد يده ليسحب الوسادة إلى تحت رأسه: «لن نطلب منها. سنُملي عليها ما نريده». بدا صوته يتسم بالرتابة والبرودة.

انتظر الجنرال بنجامين لوهلة. كانت روكسان تغني، فترك صوتها ينهمر على كيانه، في الوقت الذي أخذ يفكر فيه في

طريقة لشرح وجهة نظره. أليس الأمر جلياً؟ هذا ما أراد قوله لصديقيه. ألا تسمعان هذا؟ «أعتقد أن الموسيقى أمر مختلف. هذا ما أفهمه. لقد دبرنا الأمور بشكل صحيح، لكن إن ضغطنا...». فهز بنجامين بكتفيه. رفع يده ليلمس وجهه، ثم عزف عن الأمر. «قد ينتهي بنا الأمر أن نخسر كل شيء».

«إن صوّبنا مسدساً إلى رأسها فستظل تغني طوال النهار».

قال الجنرال بنجامين بلطف لألفريدو: «جرب الأمر أولاً مع عصفور».

«إن العصافير مثل مغنيتنا، تعجز عن فهم السلطة. العصفور لا يعرف كيف يخاف، وسيبدو الشخص الحامل المسدس كالمعتوه».

عندما فرغت روكسان من الغناء، توجه السيد هوسوكاوا لجلب كأس من الماء لها، بارد ومن دون ثلج، كما تحبه تماماً. كان روبن إيغليسياس قد مسح أرض المطبخ منذ آونة قريبة، ولمّعه إلى أن بات يشع ككؤوس بلورية ينعكس عليها شعاع الضوء، أو كانعكاس ضياء الصباح على سطح البحيرة. هل يمكن السيد هوسوكاوا القول إن هذه أسعد لحظات حياته إثر قيامه بغلي كوب من الماء وتبريده لهذه الغاية بالذات؟ بالتأكيد لا يعقل ذلك. إنه محتجز غصباً عنه في بلد لا يعرفه، وكل يوم يجد نفسه فيه ينظر إلى ماسورة سلاح يحمله طفل بين يديه. كان يقتات يومياً على طعام مؤلف من سندويشات لحم قاس ومشروب غازي، وينام في غرفة مع أكثر من ٥٠ شخصاً.

وبالرغم من أنه توجد أفضليات لأشخاص من دون آخرين في ما يخص استعمال الغسالة، كان يفكر في الطلب من نائب الرئيس لو يمن عليه بلباس داخلي آخر من خزانته الخاصة. إذاً، لمَ هذا الإحساس المفاجئ بالراحة، وهذا الشعور بالمحبة الذي يخالجه تجاه الجميع؟ نظر إلى الخارج عبر النافذة الكبيرة فوق حوض الجلي محدقاً في الضباب الذي يغمر الفضاء الخارجي، ويفرض سطوته عليه. في طفولته، لم يعانِ في حياته الفقر، لكنه واجه كماً كبيراً من الصراعات: وفاة والدته عندما كان في العاشرة من عمره، وتماسك والده، وإفلاسه إلى أن وافته المنية ولحق بها عندما كان كاتسومي هوسوكاوا في التاسعة عشرة من عمره، واختفاء أختيه في حياتهما الزوجية النائية. لا، تلك العائلة لم تكن على قدر أكبر من السعادة. لقد كانت الأعوام الأولى التي أمضاها في تأسيس شركة نانساي أشبه بالإعصار في ذاكرته: رياح عاتية هوجاء امتصت كل شيء غير ثابت. كان يغفو ورأسه على طاولة المكتب معظم الليالي، ويفتقد العطلات وأعياد الميلاد، وفصول السنة كلها. ونجم عن عمله المضني شركة ضخمة، ومكسب شخصي كبير. لكن السعادة؟ كانت كلمة تربكه، ويعجز عن فهم أهميتها بالرغم من وضوح معناها.

لم يظل له، بعد فقده أبويه وأحبته، سوى عائلته: زوجته وابنتيه. كانت هذه العائلة محط التساؤل. إن لم يسعه الحصول على السعادة من خلال عائلته، إذاً فالذنب ذنبه بالكامل. زوجته هي ابنة صديق عمه. كانت البلاد قد تخطت عهد الزواج المدبر. وبرغم ذلك تم تدبير زوجة له لأنه لم يكن يملك الوقت للتفتيش

عن زوجة لنفسه. كانا خلال تعارفهما يجلسان في غرفة الجلوس داخل منزل والديها ويأكلان الحلوى، ولا يتبادلان الحديث إلا نادراً. كان يشعر بالإنهاك الشديد حينها، إذ إنه يعمل على الدوام. وحتى بعدما تزوج، فإنه أحياناً ينسى كلياً أن لديه زوجة. كان يعود إلى منزله عند الساعة الرابعة فجراً، ويُصعق عندما يراها نائمة في فراشه، وشعرها الأسود الطويل منسدل على وسادته. فيقول لنفسه: «إذاً، هذه زوجتي»، ويغفو بالقرب منها. لكن الأمور لم تظل على هذا المنوال، إذ باتا يعتمدان على بعضهما البعض. كانا يشكلان ثنائياً هادئاً وعائلة جميلة. كانت زوجة ممتازة وأماً مميزة، وبالتأكيد أحبها بطريقته الخاصة. لكن السعادة؟ لم تكن أمراً يخطر في باله عندما يتذكر زوجته. حتى حينما يتصورها تنتظر عودته من عمله إلى المنزل، وقد قامت بسكب الشراب له وفتح البريد وتصنيفه، يجد أنها ليست السعادة بالنسبة إلى أي منهما، وإنما نوع من الاكتفاء الذي جعل حياتهما تسير بسلاسة. كانت امرأة لبقة وزوجة مطيعة. كان يراها تقرأ روايات تشويق، لكنها لم تتكلم أبداً حولها. كانت تكتب بطاقات جميلة. ولطالما اعتبرها مبعث راحة لابنتيه. ثم فجأة تساءل إن كان يعرفها أصلاً. تساءل إن سبق له في حياته أن قام بإسعادها. كان يجد السعادة عندما يعود إلى منزله من اجتماعات العشاء، ويتسنى له الوقت للجلوس إلى جانب الستريو. السعادة، إن صح له استخدام هذه الكلمة، لم يختبرها حتى الآن سوى في الموسيقى. ولا يزال يختبرها في الموسيقى. لكن الفارق يكمن في أن الموسيقى باتت الآن تتمثل

في شخص كوس، تجلس بالقرب منه على الكنبة وتقرأ. طلبت منه الجلوس قربها عند البيانو. وفي بعض الأحيان تمسك بيده، وهي حركة غاية في الروعة والدهشة، إلى درجة بالكاد يقوى على التنفس. تسأله: هل تحب هذه القطعة؟ وتتدلل عليه: ماذا تود مني أن أغني؟ إنها أمور ما كان أبداً ليتصورها: دفء إنسانة والموسيقى في آن معاً. نعم صوتها، صوتها أكثر من أي شيء آخر، لكن هناك أيضاً يديها الناعمتين للتفكير فيهما، وضفيرة شعرها الفاتح اللون منسدلة على كتفها، وبشرة عنقها الناعمة والبيضاء. كما هناك سلطتها الهائلة. هل سبق له في حياته أن التقى برجل أعمال صنع لنفسه كل هذا الاحترام؟ وفوق كل شيء، هناك السبب الغامض وراء اختيارها له للجلوس بقربه. هل يُعقل أن مثل هذه السعادة كانت موجودة في العالم طوال الوقت، ولم يسمع عنها قط؟

استفاق السيد هوسوكاوا على نفسه، فملأ الكوب. وعندما عاد، كانت روكسان تجلس عند البيانو مع جين. فاعتذر منها لتأخره: «لقد جعلتك تنتظرين طويلاً».

أخذت الكوب واستمعت إلى الترجمة، وقالت: «المياه ممتازة، وهذا يتطلب وقتاً».

كان جين يبادل العبارات في ما بينهما كحال مصرفيّ يبادل رزمات العملات المصرفية رواحاً وجيئة فوق منضد رخامي ناعم. ولم يكن يستمع ملياً إلى ما يقولانه. لا يزال يحاول فك لغز ما حدث معه ليلاً. لم يكن حلماً. لم يكن يراوده أصلاً مثل

ذاك النوع من الأحلام. لقد طلبتْ منه الفتاة التي كان يراقبها، تلك المدعوة كارمن، أمراً وقد وافق عليه، لكن أين هي الآن؟ لم يرها طوال الصباح. حاول أن يفتش عنها بسرية تامة في الأروقة، لكن الفتيان الذين يحملون الأسلحة، ظلوا يدفعونه للعودة إلى غرفة الجلوس. كانوا في بعض الأيام يسمحون للرهائن بالتجول في أرجاء المنزل، لكن في أيام أخرى يبدو أنهم يظنون أن أروع متع الحياة تنحصر في لكز الناس بالأسلحة في ظهورهم. أين يُفترض به اللقاء بها، ومتى؟ لم يطرح عليها أي أسئلة. وبالرغم من وضوح كلامها، عجز عن العودة إلى النوم إثر مغادرتها في الليلة الفائتة. لم يقو على الكف عن التساؤل كيف أمكن فتاة مثلها الدخول إلى المنزل عبر فتحات التهوئة كالمجرمين؟ لكن، ما أدراه؟ لعله سبق لها أن اقترفت جريمة قتل من قبل. ربما أقدمت على السطو على المصارف، ورمي قنابل يدوية عبر نوافذ السفارات. لعل مسنر على حق، فهذا عصر الحداثة.

أتت بياتريس وربّتت على كتف جين مرتين بقساوة، قاطعةً حديث السيد هوسوكاوا مع روكسان، ومشتتة حبل أفكاره أيضاً. قالت غير راغبة في التأخر على المسلسل التلفزيوني: «هل حان وقت عرض حلقة المسلسل؟». وبمجرد أن أنهت جملتها عادت لتدس طرف ضفيرتها الرطب في فمها، وبدأت بقضمها من جديد. فتخيل جين أن ورماً من الشعر المليء بالعقد قد بدأ يتنامى في معدتها.

قال لها وهو ينظر إلى ساعته: «بعد ١٥ دقيقة». لقد بات تحديد موعد بدء عرض البرنامج يقع على عاتقه هو أيضاً، كالعديد من الأمور الأخرى.

«تعال إلي وأخبرني حين يحين وقته».

سألته روكسان: «هل تتكلم حول برنامجها؟».

هز جين برأسه لها، ثم قال لبياتريس بالإسبانية: «سأدلك على الساعة».

قالت بياتريس: «لا يهمني أمر الساعة».

«إنك تسألينني يومياً. تسألينني خمس مرات».

فقالت له بحدة: «إنني أسأل أشخاصاً آخرين أيضاً، ولا أسألك وحدك». باتت عيناها الصغيرتان أصغر حجماً وهي تتفكر إن كانت تتلقى إهانة أم لا.

خلع جين الساعة من معصمه، وقال لها: «مدّي يدك».

سأله السيد هوسوكاوا: «هل ستعطيها إياها؟».

وسألته بياتريس مشككة: «لماذا؟».

قال جين باليابانية: «أنا في حال أفضل بدون الساعة». ثم قال لبياتريس: «سوف أقدم إليك هدية».

كانت تحب فكرة الهدايا، بالرغم من أنها لم تختبر هذا الأمر على المستوى الشخصي. في المسلسل قدّم حبيب ماريا إليها هدية، مُدلاة على شكل قلب تحوي صورته بداخلها. وضعتها حول عنقها قبل أن تبعث به بعيداً. لكن بمجرد رحيله،

رفعتها ووضعتها بين شفتيها وأخذت تبكي. هدية بدت كمبادرة رائعة. مدت بياتريس يدها، ووضع جين الساعة حول معصمها.

قال وهو ينقر على الساعة بيده: «انظري إلى العقرب الكبير. عندما يصل إلى الثانية عشرة هنا في الأعلى، فاعلمي أنه حان الوقت».

تفحصت الساعة عن كثب. كانت جميلة فعلاً: الزجاج المدوّر، الرباط الجلدي البني الناعم، والعقرب الذي يماثل الشعرة في حجمه، يسير في حركة بطيئة ومتواصلة. وجدت أن هذه الهدية هي أفضل الهدايا، ربما أفضل من المدلاة، لأن الساعة لها وظيفة فعلية. قالت وهي تشير إلى أحد العقارب الثلاثة: «هذا». ثلاثة عقارب يا للغرابة!

«عقرب الدقائق عند الثانية عشرة، وعقرب الساعات، ذاك الصغير عند الواحدة. هذا سهل جداً».

لكنه لم يكن سهلاً كفاية، وقد خشيت بياتريس أن تنسى. خشيت أن تخطئ في قراءة الساعة، ومن ثم تفوّت عليها مشاهدة الحلقة. خشيت أن تفهم الأمر بشكل خاطئ، وتضطر إلى معاودة السؤال. وفي كلتا الحالتين، من المؤكد أن جين سيهزأ بها.

وجدت أنه من الأفضل لها أن يخبرها بالوقت فحسب. كانت هذه وظيفته. كان أمامها الكثير من الأعمال لتقوم بها، وجميع الرهائن كسالى. قالت وهي تحاول فك الرباط: «لا يهمني أمر هذه الساعة».

سأل السيد هوسوكاوا: «ما المشكلة؟ ألم تعجبها؟».

«تظن أن الأمر معقد كثيراً».

«هذا هراء». وضع السيد هوسوكاوا يده فوق يد بياتريس ليوقفها. «انظري إلى هذا. الأمر في غاية البساطة». مد معصمه إليها، وأراها ساعة يده التي كانت فائقة الروعة مقارنة مع ساعة جين، مصنوعة من الذهب الوردي اللون. قال وهو يمسك بيديها الاثنتين: «عقربان، كيديكِ أنت. الأمر بسيط جداً». ثم ترجم لها جين كلامه.

قالت بياتريس وهي تشير إلى العقرب الذي يبدو أنه الوحيد الذي يتحرك: «توجد ثلاثة عقارب».

«هذا عقرب الثواني. ٦٠ ثانية في الدقيقة، دقيقة واحدة، دائرة واحدة. وعندها يندفع العقرب الكبير إلى الأمام دقيقة واحدة». شرح لها السيد هوسوكاوا مبدأ الوقت، الثواني والدقائق والساعات. لم يذكر متى كانت آخر مرة نظر فيها إلى ساعته، أو تساءل فيها عن الوقت.

هزت بياتريس برأسها، ومررت إصبعها حول ميناء ساعة جين. وقالت: «لقد حان الوقت تقريباً».

قال جين: «بعد سبع دقائق».

«سأذهب وأنتظر». فكرت في شكره، لكنها لم تكن واثقة من مدى صواب هذا الأمر. إذ أمكنها أن تأخذ منه الساعة عنوة. أمكنها أن تأمره بإعطائها إياها.

سألها جين: «هل تشاهد كارمن المسلسل؟».

قالت بياتريس: «أحياناً، من ثم تنساه. إنها لا تتابعه بإخلاص مثلي. لديها مناوبة حراسة في الخارج اليوم، لذا لن تتمكن من مشاهدته إلا إذا وقفت على النافذة. عندما يكون لدي مناوبة حراسة في الخارج، أقف عند النافذة».

نظر جين ناحية الأبواب الفرنسية الطويلة في طرف الغرفة، والتي تؤدي إلى الحديقة. لم يكن ثمة شيء هناك ما عدا الضباب والأزهار التي بدأت تنمو فوق مسكبتها.

أدركت بياتريس عمن يبحث، وقد أغضبها الأمر. كانت تحب جين بعض الشيء، ولا بد من أنه يحبها لأنه قدّم إليها هدية. قالت له بمرارة: «خذ دوراً. إن جميع الفتيان ينتظرون عند النوافذ المختلفة، وكلهم يبتغونها أيضاً. ربما يجدر بك الذهاب والوقوف معهم». بالطبع، كان كلامها عارياً عن الصحة. إن الغراميات ممنوعة في صفوف الجنود، وهذه القاعدة لم يُعمد أبداً إلى كسرها.

بدأ جين بالقول: «لقد طرحتْ عليّ سؤالاً»، لكن لم يبدُ صوته طبيعياً، فقرر تناسي الأمر. فهو لا يدين لبياتريس بأي تفسير.

«سأخبرها أنكَ اعطيتني ساعتك». ثم نظرت إلى معصمها وأضافت: «لا تزال هناك أربع دقائق».

قال جين: «يجدر بكِ الإسراع. وإلا فستخسرين مكانك المعتاد على الكنبة».

غادرت بياتريس، لكنها لم تركض مسرعة، بل مشت كفتاة صغيرة تدرك جيداً كم بقي لها من وقت.

سأل السيد هوسوكاوا جين: «ماذا قالتْ؟ هل فرحتْ بالساعة؟».

ترجم جين السؤال إلى الإنكليزية من أجل روكسان، ثم أجابهما بأنه ما من طريقة لمعرفة إذا ما كانت مسرورة أم لا.

قالت روكسان: «أعتقد أنه ذكاء منك إعطاؤها الساعة. من غير المرجح أن تطلق النار على شخص قدّم إليها مثل هذه الهدية اللطيفة».

لكن، من عساه يعرف ما الذي يمنع الآخر من إطلاق النار؟ «هلا سمحتما لي بالمغادرة؟».

سمح السيد هوسوكاوا لجين بالذهاب. كان في السابق يود من جين ملازمته على الدوام، وذلك في حال فكر في قول شيء ما، لكنه بات يتعلم إيجاد بعض الراحة في الالتزام بالصمت. وضعت روكسان يديها على البيانو وعزفت مطلع مقطوعة «كلير دو لون». ثم أخذت يد السيد هوسوكاوا وعزفت النوتات من جديد، بوتيرة بطيئة جداً، وجميلة وحزينة. ظل يتابع معها العزف مراراً وتكراراً إلى أن أفلح في العزف وحده.

توجه جين إلى النافذة، ونظر عبرها. كان رذاذ المطر قد

توقف عن الهطول، لكن لا يزال الهواء عاصفاً، والجو غائماً، كأنهم في فترة الغسق. نظر جين إلى معصمه علماً منه بأن الوقت لا يزال مبكراً جداً على المغيب، فوجد أن الساعة ليست بيده. لمَ كان ينتظرها؟ هل لأنه أراد تعليمها القراءة؟ كان لديه الكثير من المهام الملقاة على عاتقه، لمَ عساه يأخذ هذه المهمّة الجديدة أيضاً؟ كان لدى كل من في الغرفة فكرة تحتاج إلى الترجمة. لذا، حالفه الحظ كونه حظي بدقيقة لنفسه على انفراد: دقيقة لينظر خلالها عبر النافذة. لم يكن بحاجة إلى مهمّة جديدة.

قال له رجل واقف بالقرب منه بالروسية: «لقد وقفتُ أنظر عبر هذه النافذة لساعات. لا يأتي شيء منها صدقني».

قال جين وهو يُبقي عينيه مشدودتين إلى الأمام: «أحياناً يكفيك مجرد النظر». لم تسنح لجين تقريباً فرصة التحدث بالروسية قبل هذه اللحظة. وقد استخدم هذه اللغة لدى قراءته لبوشكين وتورجينيف. ووجد متعة في سماع صوته ينطق العديد من الأحرف الساكنة القوية بالرغم من إدراكه أن لكنته ضعيفة. يجدر به التدرب على لفظها. لقد كانت فرصة متاحة أمامه إن اختار المرء النظر إليها بهذه الطريقة. العديد من الأشخاص من مختلف الجنسيات ينطقون بلغات مختلفة، وموجودون في غرفة واحدة. يتمتع فكتور فيودورف بقامة فارعة وكفين كبيرتين وصدر عارم. في أغلب الأحيان، كان الروس الثلاثة فيودورف وليدبيد وبيريزوفسكي، يبقون في حالهم، يلعبون الورق أو يدخنون سيجارة من مؤونة من السجائر بدت كأنها لا تنفد، كما لم يكن

أحد واثقاً من مصدر هذه المؤونة، في حين أن الفرنسيين بوسعهم فهم بعض الكلمات من اللغة الإسبانية، والإيطاليين يتذكرون بعض الكلمات من اللغة الفرنسية التي كانوا قد تعلموها في المدارس. إلا أن الروسية، على غرار اليابانية، لغة يصعب فهمها. حتى أبسط العبارات تلقى من المتلقي تعابير عدم فهم لها. قال فيودورف: «أنت تبقى دائم الانشغال. أحياناً أحسدك. إننا نراقبك، دوماً تتجه صعوداً ثم نزولاً، ثم صعوداً ثم نزولاً. يحتاج الجميع إلى انتباهك. لا شك في أنك تحسدنا على الفراغ الذي نعيش فيه. بالتأكيد تود لو تحظى ببعض الوقت لنفسك، صحيح؟ بعض الوقت لتنظر عبر النافذة إلى الخارج؟». إن الروسي لا يعبر إلا عن أسفه كونه مصدر إزعاج آخر، جملة أخرى بحاجة إلى الترجمة، وأنه ما كان ليطلب منه هذا الأمر لو أن المسألة لم تكن مهمة.

ابتسم جين. كان قد تخلى عن عادة حلق الذقن. ونبتت لديه، في أكثر من أسبوعين، لحية طويلة. عندما يحين موعد إخلاء سبيلهم من هذا المكان، سيكون شكله مشابهاً لتولستوي. «لدي الكثير من الوقت حتى عندما أكون مشغولاً. فكما تعلم، هذه الأيام هي الأطول في التاريخ. انظر، لقد تخليتُ عن ساعتي. وجدت أنني أفضل حالاً من دون معرفة الوقت».

قال الروسي وهو يحدق في معصم جين الخالي من الساعة: «يعجبني هذا فيك». لكزه بسبابته بقوة. «إن هذا يبرهن عن ذكاء في التفكير».

«لذا، لا تظن أنكَ تستهلك وقتي».

خلع فيودورف ساعته ووضعها في جيبه كتعبير عن تضامن في الموقف. وحرك يده بشكل دائري للاستمتاع بالحرية الجديدة. «الآن، بات في وسعنا التحدث، بعد أن تخلصنا من عامل الوقت».

قال جين: «بكل تأكيد». لكن بمجرد تلفظه بهذه الكلمة، مر أمامه شخصان يحملان سلاحاً بالقرب من جدار الحديقة. كانت سترتاهما وقبعتاهما مبللة جراء المطر، كما أبقيا رأسيهما إلى الأسفل بدلاً من الاستدارة في جميع الاتجاهات، كما تصور جين أنه يجدر بهما فعله إن كانا يُفترض أنهما يبحثان عن شيء ما. كانت تصعب معرفة أيهما كارمن. من هذه المسافة البعيدة، عادت لتبدو صبياً من جديد. أمل أن ترفع رأسها وتراه؛ أن يخطر لها أنه ينتظرها بالرغم من أنه يدرك حماقة ذلك. وبرغم ذلك، كان ينتظر ليراها، وقد شعر بحال أفضل نوعاً ما في افتراض أنها هي التي في الخارج، وليس أي مراهق غاضب آخر. راقب فيودورف جين والشخصين الموجودين خارج النافذة إلى أن غابا عن النظر. قال بصوت منخفض: «فلتُبقِ عينيك عليهما. إنه تفكير ذكي. أنا أصاب بالكسل. في البداية ظللتُ أعدّهم، لكنهم منتشرون في كل مكان مثل الأرانب. أظنهم يستقدمون المزيد منهم ليلاً».

أراد جين لو يشير بيده ويقول، هذه كارمن. لكنه لا يدري

ما الذي سيود إيصاله بهذا الكلام. وعوضاً عن ذلك، هز رأسه موافقاً على كلامه.

«لكن، دعنا لا نُضع وقتنا عليهم. لدي طرائق أفضل لتضييع وقتك». ثم سأله: «هل تدخن؟»، وأخرج علبة سجائر فرنسية زرقاء صغيرة. «لا تدخن؟ إذاً، هل تمانع إن قمتُ أنا بالتدخين؟».

بمجرد أن أشعل عود الثقاب، وصل نائب الرئيس حاملاً مرمدة سجائر ووضعها على طاولة صغيرة أمامهما. قال: «جين»، وهز برأسه بأدب. «فكتور»، ثم انحنى أمامهما، وهو تصرف محترم أخذه من اليابانيين، ثم مشى غير راغب في مقاطعة الحديث الذي لا يسعه فهمه.

«يا له من رجل رائع، روبن إيغليسياس. أكاد أتمنى لو أنني مواطن في هذا البلد المزري حتى أتمكن من التصويت له على كرسي الرئاسة». سحب فيودورف نَفَساً من السيجارة ثم أطلقه بتمهل. كان يحاول إيجاد الطريقة المناسبة لطرح طلبه. وقال: «كما يسعك التصور، كنا نفكر كثيراً في الأوبرا».

قال جين: «بالطبع».

«من كان ليدري أن الحياة يمكنها أن تكون مفاجئة إلى هذا الحد؟ ظننا أننا سنكون في عداد الموتى الآن، أو إن لم نكن موتى فسنكون نتذلل للإبقاء على حيواتنا، وعوضاً عن ذلك، ها أنا جالس أفكر في الأوبرا».

«ما كان أحد ليتنبأ بما قد يحدث». انحنى جين إلى الأمام بعض الشيء ليرى إن كان سيفلح في رؤية كارمن قبل أن تغرب كلياً عن النظر، لكن قد فات الأوان.

«لطالما كنتُ أبدي اهتماماً بالموسيقى. للأوبرا في روسيا أهمية بالغة. أنت تعلم ذلك. إنها تقريباً طقس مقدس».

«أتخيل ذلك». تمنى الآن جين لو أن الساعة معه. لو كانت معه لكان تمكن من توقيت مرورها، ليرى كم دقيقة ستأخذها إلى أن تعاود المرور بمحاذاة النافذة من جديد. بوسعها أن تصنع التوقيت الخاص بها. فكر في سؤال فيودورف، لكن بدا واضحاً أن فيودورف يصب تفكيره على أمور مغايرة.

«لقد وصلتْ الأوبرا إلى روسيا منذ آونة ليست ببعيدة. في إيطاليا، سلمت اللغة الإيطالية نفسها لهذا النوع من الغناء، لكن بالنسبة إلينا أخذت وقتاً أطول. إنها، كما تعلم، لغة معقدة. إن المغنين لدينا الآن في روسيا عظماء كثيراً. أنا لا أتذمر من المواهب التي تمتلكها بلادنا، لكن في زماننا هذا لا توجد إلا عبقرية حقيقية واحدة. ثمة الكثير من المغنين العظماء والأصوات اللامعة، لكن لا توجد سوى عبقرية واحدة. وعلى حد علمي، لم تذهب قط إلى روسيا. ألا تعتقد أن فرصة أن يجد المرء نفسه محتجزاً في منزل واحد مع عبقرية حقيقية، ضئيلة جداً؟».

قال جين: «أوافقك الرأي».

«أن أجد نفسي هنا معها، وعاجزاً عن التلفظ بكلمة، لهو أمر مؤسف حقيقة. لا، بصراحة، إنه أمر محبط. ماذا لو أطلقوا

سراحنا في الغد؟ هذا ما أصلّي من أجله، لكن برغم ذلك لن ألوم نفسي لبقية حياتي قائلاً، لمَ لم أتكلم معها؟ كانت هناك في الغرفة معك ولم تكلف نفسك عناء الترتيب لقول شيء ما؟ ماذا يعني أن تعيش وكل هذا الندم يلازمك؟ أعتقد أن الأمر لم يضايقني كثيراً قبل عودتها إلى الغناء. كنتُ منشغلاً بأفكاري الخاصة وبالظروف الراهنة، لكن الآن مع سماعنا الموسيقى بشكل منتظم، تغير كل شيء. ألا تجد هذا صحيحاً؟».

ما كان على جين إلا موافقته الرأي. لم يسبق له أن فكر في الأمر من هذا المنطلق، لكن كلامه صحيح. كان ثمة بعض الفرق.

«ما هي الفرص التي أمتلكها، علماً بأنني رهينة في بلد لا أعرفه مع امرأة أكنّ لها إعجاباً كبيراً، ويوجد أيضاً رجل مثلك يمتلك قلباً طيباً ويجيد اللغتين، لغتي ولغتها؟ أخبرني ما هي هذه الفرص؟ ثمة الملايين من هذه الفرص! لهذا السبب بالطبع أتيتُ إليك. أود أن أستفيد من خدماتك في الترجمة».

قال جين: «ليس الأمر رسمياً إلى هذه الدرجة. يسعدني التكلم مع الآنسة كوس. بوسعنا التوجه إليها الآن. سأقول لها كل ما تود قوله».

استحال عندئذ لون وجه الروسي شاحباً، وأخذ ثلاثة أنفاس من سيجارته بتوتر. كم أن رئتَي هذا الرجل كبيرتان، إلى حد أن السيجارة الصغيرة ذابت كلها على الفور لدى توتره المفاجئ. «لا داعي للعجلة يا صديقي».

«إلا إذا أُطلق سراحنا في الغد».

هز برأسه وابتسم. «أنت لا تدعني أهرب من شيء». أشار بسيجارته المنتهية إلى جين. «أنت تفكر. أنت تقول لي إنه آن الأوان للتعبير عن نفسي».

ظن جين أنه ربما أساء فهم كلمة «تعبير». قد تكون لها معان أخرى. إن جين يجيد تكلم الروسية، لكن أحياناً يواجه صعوبة في فهم الفروقات الدقيقة في معاني الكلمات. «أنا لا أقول لك شيئاً عدا أن الآنسة كوس موجودة هناك، إن أردت التحدث معها».

«دعنا نؤجلْ ذلك إلى الغد. سأتكلم في الصباح»، ثم ربت بيده على كتف جين، «في حال حالفنا الحظ. هل هذا التوقيت يناسبك؟».

«سأكون هنا».

قال: «بعد أن تغني مباشرة»، ثم هز برأسه، «لكن من دون استعجالها».

أخبره جين أن ما يقوله يبدو معقولاً.

«جيد جيد. هذا سيمنحني وقتاً كي أحضّر أفكاري. سوف أظل صاحياً طوال الليل. أنت طيب كثيراً. ولغتك الروسية جيدة جداً».

قال جين: «شكراً لك». كان قد أمل لو أمكنهما ربما التحدث حول بوشكين لبعض الوقت. كان هناك بعض الأشياء

التي ودّ معرفتها حول يوجين أونجين وملكة إسبارطة. لكن فيودورف انسحب، عائداً إلى زاويته كمحارب جاهز للجولة الثانية. كان الروسيان الآخران ينتظرانه ويدخنان.

كان نائب الرئيس واقفاً في المطبخ ينظر إلى صندوق من الخضار، فيه قرع معقوف وباذنجان لونه أرجواني قاتم، وبندورة، وبصل حلو. اعتبر الأمر إشارة سيئة تنبئ بأن الناس الذين يحيطون بالمنزل قد أصابهم الضجر من مسألة الخطف هذه. كم سبق لمثل هذه الأزمات أن طالت؟ لست ساعات؟ ليومين؟ وبعد مرور هذه المدة يقذفون إلى الداخل قنبلة مسيلة للدموع ويستسلم الجميع. لكن بطريقة ما، أفلح هؤلاء الإرهابيون المعوّزون في النفاذ بجلدهم. ربما يعود السبب إلى وجود عدد كبير من الرهائن. ربما يعود السبب إلى الجدار الذي يحيط بمنزل نائب الرئيس، أو خشيتهم من قتل روكسان كوس عن طريق الخطأ. مهما تكن الأسباب، فإن وضعهم قد تخطى أسبوعه الثاني. بات مفهوماً بالكامل أنهم ما عادوا يحتلون صفحات الجرائد الأولى، أو أنهم باتوا يشكلون الخبر الثاني أو حتى الثالث في نشرات الأخبار المسائية. لقد واصل الناس حياتهم. ويبدو أنه أُخذ موقف أكثر عملانية، كما يشير إليه الطعام الموجود أمامه. تخيل نائب الرئيس ضيوفه أشبه بناجين من تحطم سفينة ينتظرون، من دون حول أو قوة، آخرَ طائرة تقصٍّ وإنقاذ لتطير شمالاً ناحية البر. كان الدليل في الطعام. في البداية، كانوا يجلبون لهم طعاماً جاهزاً، سندويشات أو يخنة من الدجاج المسحّب والأرز. ثم عمدوا إلى إرسال طعام بحاجة

إلى بعض التجميع، خبز ولحم وجبنة، كل منها مغلف في أوان منفصلة. أما هذا الطعام فإنه أمر مختلف تماماً. ١٥ دجاجة نيئة، باردة ووردية اللون، وبطونها تزيّت المنضد، وصناديق من الخضار، وأكياس من الفاصولياء المجففة، وعلب قصديرية من السمن. بكل تأكيد، تعتبر كمية الطعام كافية، وبدا الدجاج دسماً. لكن السؤال يكمن في كيفية تمكن المرء من إحداث التحويل؟ كيف يعقل أن يتحول هذا إلى عشاء؟ ظن روبن أن الإجابة عن هذا السؤال تقع على عاتقه، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن مطبخه. لا يعرف مكان المصفاة. ولا يميّز بين الصعتر والمردقوش. فتساءل إذا ما كانت زوجته لتميز بينهما. في الحقيقة، كان ثمة من يولي العناية بهم لفترة طويلة من الوقت. وقد أدرك هذا الأمر جيداً على مدى الأسبوعين الماضيين عندما كان يكنس الأرض ويطوي الأغطية. لعله كان إنساناً فاعلاً في المجتمع، لكن في ما يخص شؤون التدبير المنزلي، فقد تحوّل إلى نوع من الكلب المدلل. عندما كان صبياً، لم يتلق أي تدريب في شؤون الاهتمام بالمنزل، أو بكيفية تحضير الطعام. لم يُطلب منه ولا مرة واحدة أن يجهّز طاولة أو يقشر جزرة. كانت أخته ترتب له سريره وتطوي ثيابه. أخذه الأمر إلى الارتماء في براثن الاعتقال حتى اضطر إلى معرفة كيفية تشغيل غسالته ونشافته. كل يوم يجلب معه عدداً لا يُحصى من المهام التي يجب القيام بها. حتى لو عمل دونما توقف من لحظة استيقاظه صباحاً حتى اللحظة التي يرتمي فيها غافياً فوق كومة من الأغطية جراء التعب، ما كان بمقدروه أن يبقي المنزل في الحالة التي اعتاد على رؤيته عليها. كم كان هذا المنزل رائعاً

منذ فترة ليست ببعيدة! لا يمكن تحديد عدد الفتيات اللواتي أتين إلى هذا المنزل وغادرنه، ينظفن الغبار ويلمعن أثاثه، يكوين القمصان والفوط، ويزلن خيوط العنكبوت الصغيرة جداً من زوايا السقف. كن يقمن بتلميع ألواح النحاس أسفل الباب الأمامي، ويُبقين الخزانة مليئة بالحلوى والشمندر المخلل، ويخلّفن العبق الغامض لذرور الاستحمام خاصتهن (تشتري زوجته لكل واحدة منهن في أعياد ميلادهن كل سنة، علبة مدورة كبيرة وعلى رأسها قطيفة سميكة) وراءهن في الغرف، لذا بدت رائحة كل شيء أشبه برائحة حفنة من رائحة ذرور الطَّلْق الذي يفوح منه عبير زهرة الياقوتية. لم يسترعِ أي شيء في المنزل انتباهه، ولم يتطلب أي غرض تدخله. حتى أولاده كان يتم تحميمهم وتسريح شعرهم ووضعهم في السرير من قِبل الأيدي العاملة الرقيقة. كانت الحال مميزة، لطالما كانت مميزة جداً.

وضيوفه! من هم هؤلاء الرجال الذين لم يأخذوا أبداً صحونهم إلى حوض الجلي؟ على الأقل بوسعه أن يعذر الخاطفين. إذ إن أغلبهم أطفال، كما أنهم نشأوا وسط الأدغال (عند هذه النقطة، فكر في والدته التي تقول له عندما ينسى إقفال باب المدخل، «يجدر بي إرسالك لتعيش وسط الأدغال حيث لن تزعجك أشياء كالأبواب!»). كان الرهائن معتادين على البوابين والسكرتيرات، كما كان لديهم طهاة وخدم، ربما لم تنظرهم أعينهم من قبل. لم تكن شؤون منازلهم تُدار نيابة عنهم فحسب، بل كانت تُدار بهدوء وبفعالية عالية، حيث لم يضطروا يوماً إلى أن تقع أعينهم على سير العمل.

بالطبع أمكن روبن تناسي الأمر برمته، ففي النهاية هذا ليس منزله. بوسعه أن يشاهد السجاد يتعفن جراء بحيرات من المشروبات الغازية التي انسكبت عليه. كما بوسعه أن يسير ويخلّف وراءه النفايات الملقاة على الأرض بعد أن فاضت عن سلال المهملات، لكنه في البداية والنهاية، المضيف. لذا، فإنه يشعر ببعض المسؤولة التي تقتضي منه أن يُبقي بعضاً من جو الاحتفال حاضراً في المنزل. لكنه سرعان ما اكتشف أنه يستمتع بالأمر. ووجد أنه لم يستمتع به فحسب، بل يتمتع بكل تواضع بمهارة معينة في هذا الصدد. عندما كان ينزل على يديه وركبتيه من أجل تلميع الأرض، فإن الأرض تشع لمعاناً نتيجة للجهد الذي يبذله. ومن بين جميع المهام المنزلية التي كان يقوم بها، وجد أن كيّ الملابس أفضلها. دُهش كثيراً لكونهم لم يصادروا المكواة. كان واثقاً من أنه في حال تمت تحميتها بشكل مناسب، فإنها ستصبح فتاكة بقدر الأسلحة لكونها في غاية الثقل والسخونة. حينما كان يكوي قمصان الرجال الذين يقفون بانتظاره عراة الصدور، أخذ يفكر في الأذى الذي يمكنه إحداثه. بالتأكيد ليس بوسعه القضاء عليهم جميعاً (تساءل: هل يمكن المكواة أن تتغلب على الرصاص؟). لكن بوسعه إسقاط اثنين أو ثلاثة منهم قبل أن يطلقوا النار عليه. أن يتوجه روبن إلى القتال باستخدام مكواة، فكرة جعلته يشعر بأنه أقل استسلاماً وأكثر رجولة. جعل يدس طرف المكواة الفضي المقوس في داخل الجيب ثم يجره إلى ناحية الكم. وأخذ ينفخ بالمكواة غيوماً من البخار دفعت به

إلى التصبب عرقاً. وقد توصل سريعاً إلى ملاحظة أن الياقة هي سر كل شيء.

كيّ الملابس كان أمراً مختلفاً، إذ أحكم السيطرة عليه. لكن في ما يخص الطعام النيء، فإن ذلك يتركه في حالة ضياع، لذا وقف وأخذ يحدق في كل الأغراض الموجودة أمامه. قرر وضع الدجاج في الثلاجة. يتحتم تجنب اللحم غير المثلج، على الأقل هذا ما كان واثقاً منه. ثم توجه للبحث عن المساعدة.

قال: «جين، أحتاج إلى التحدث مع السنيوريتة كوس».

فسأله جين: «أنتَ أيضاً؟».

قال نائب الرئيس: «أنا أيضاً. لماذا؟ أهناك صف من المنتظرين لمحادثتها؟ هل يجدر بي أن آخذ رقماً؟».

هز جين رأسه نافياً، ومشيا معاً ناحية روكسان. قالت: «جين»، ثم مدت يدها كأنه مضى عليها يومان من دون أن تراهما. «السيد نائب الرئيس». كانت قد تغيرت مذ وصول الموسيقى، أو عادت إلى طبيعتها. باتت الآن تشبه أكثر مغنية الأوبرا الشهيرة التي استُحضرت إلى الحفلة بتكاليف باهظة لتغني ست أغان فقط. ومن جديد أضفت نوعاً من الإشراق الذي يضفيه المشاهير وحدهم. لطالما شعر روبن ببعض الضعف لدى وقوفه بهذا القرب منها. كانت ترتدي سترة زوجته، وتلف حول عنقها وشاحها الحريري الأسود المطرز بعصافير ذهبية (آه، كم كانت زوجته تحب هذا الوشاح، الذي جلبته من باريس. لم تكن

ترتديه أكثر من مرة أو مرتين في السنة، وقد أبقته مطوياً بعناية في صندوقه الأساسي. كم تخلى روبن سريعاً عن هذا الكنز الثمين وقدمه إلى روكسان!). لقد تغلبت عليه حاجته المفاجئة إلى إخبارها عن ماهية شعوره ناحيتها. كم تعني له موسيقاها. لكن، ما لبث أن تحكّم في نفسه عبر إعادة استحضار تلك الدجاجات النيئة إلى ذهنه. قال نائب الرئيس وصوته يتكسر جراء العاطفة الجياشة: «اعذريني. إنكِ تقدمين إلينا الكثير بما تقومين به. لقد كانت تمارين أدائك بمثابة نعمة علينا. لذا، كيف أمكنك تسميتها تمارين لستُ أدري. فهذا يعني أن غناءك قد يتحسن أكثر». وضع أصابعه على عينيه وهز برأسه نافياً. لقد كان متعباً.

«هذا ليس ما جئت من أجل قوله لك. هل لي بطلب خدمة منك بعد إذنكِ؟».

لمست روكسان أطراف الوشاح وسألته: «هل ثمة أغنية تود مني غناءها؟»

«لا يسعني أبداً القول إنني أعرف. أي أغنية تختارين تجدينني أتحرق شوقاً إلى سماعها».

قال له جين بالإسبانية: «هذا مؤثر جداً».

وجه إليه روبن نظرة يوحي له فيها بأن لا شأن له بالتعليقات. «أحتاج إلى بعض النصح في المطبخ، إلى بعض المساعدة. لا تسيئي فهمي، فأنا لا أطلب منكِ أبداً القيام بعمل ما، لكن إن أمكنك تقديم بعض الإرشاد إلي بخصوص كيفية تحضير عشائنا، فسأكون في غاية الامتنان».

نظرت روكسان إلى جين، ورمشت بعينيها: «لقد أسأت فهمه».

«لا أعتقد ذلك».

«حاول من جديد».

إن الإسبانية بالنسبة إلى اللغويين، أشبه بلعبة الحجلة بالنسبة إلى الرياضيين المحترفين. إن كان يتدبر أمره في الروسية واليونانية، فمن المستحيل أن يسيء فهم جملة بالإسبانية؛ جملة تخص تحضير طعام وليس حالة الروح الإنسانية. إن الإسبانية في النهاية هي اللغة التي يترجم منها وإليها طوال النهار. كانت أقرب ما تكون إلى اللغة العامية. قال جين لروبن: «عذراً».

«قل لها إنني أحتاج إلى بعض المساعدة في تحضير العشاء».

سألت روكسان: «تحضير العشاء؟».

فكر روبن في هذا الأمر لوهلة، مفترضاً أنه لا يطلب المساعدة في تقديم العشاء أو تناوله، ثم نعم، لم يبق سوى تحضير العشاء. «الطهو».

سألت روكسان جين: «لم عساه يظن أنني أجيد الطهو؟».

أشار روبن الذي كانت إنكليزيته ضعيفة، لكن ليست معدومة، إلى كونها امرأة. فقال عبر جين: «أفترض أن الفتاتين لا تجيدان طهو أي أطباق ما عدا الأطباق المحلية، وقد لا تناسب أذواق الآخرين».

قالت لجين: «هذا نوع من التصرف اللاتيني. أليس كذلك؟ لا يعقل أنني أتعرض لإهانة ما. من المهم أن نُبقي في الاعتبار الفروقات الثقافية». توجهت إلى روبن بابتسامة نمّت عن لطف، لكنها لم تقدم أي معلومات.

قال جين: «أعتقد أن ثمة حكمة في ذلك»، ثم قال لروبن: «إنها لا تجيد الطهو».

قال روبن: «لعلها تجيد الطهو بعض الشيء».

هز جين برأسه نافياً. «أعتقد أنها لا تجيد الطهو بتاتاً».

قال نائب الرئيس: «إنها لم تولد وهي تغني أغاني الأوبرا. لا بد من أنها عاشت طفولتها». حتى زوجته التي ترعرعت في وسط عائلة ثرية، وكاتن فتاة مدللة وحظيت بكافة وسائل الترف، تم تعليمها كيفية الطهو.

«ممكن، لكني أتصور أن أحداً ما كان يطهو لها طعامها».

رجعت روكسان بظهرها إلى الوراء، بعد أن باتت خارج إطار الحديث، وأسندته إلى وسائد الكنبة الحريرية الذهبية، ورفعت يديها وهزت بكتفيها. كانت حركة ساحرة. هاتان اليدان الناعمتان اللتان لم تغسلا طبقاً أو تفتحا عود بازيلاء. قالت لجين: «قل له إن جرحه بات في حال أفضل. أود أن أقول أمراً لطيفاً. حمداً لله أن تلك الفتاة العاملة لديه كانت لا تزال موجودة عند حصول الأمر. وإلا لكان طلب مني تقطيب وجهه أيضاً».

سألها جين: «هل أخبره أنك لا تجيدين التقطيب؟».

«يستحسن أن يعرف الأمر الآن». عاودت مغنية الأوبرا الابتسام، ولوحت بيدها مودعة نائب الرئيس.

سأل روبن جين: «هل تجيد أنت الطهو؟».

تجاهل جين السؤال. «لقد سمعت سيمون تيبولت يتذمر كثيراً بشأن الطعام. يبدو أنه يدرك ما يقوله. على أي حال، إنه فرنسي. والفرنسيون يجيدون الطهو».

قال روبن: «منذ دقيقتين كنت لأقول الأمر نفسه حول النساء».

لكن سيمون تيبولت برهن أن الرهان عليه مُربح أكثر. فقد شع وجهه نوراً لدى ذكر الدجاج النيء. وسأل: «ماذا عن الخضار؟ حمداً لله، ثمة شيء لم يتم إفساده».

قال جين: «إنه رجل المهمة».

مشى الرجال الثلاثة معاً إلى المطبخ، قاطعين الطريق بين جميع الرجال والفتيان الذين يتجمعون وسط غرفة الجلوس الرحبة. توجه تيبولت مباشرة ناحية الخضار. أخذ من الصندوق حبة باذنجان وقلّبها بين يديه. أمكنه تقريباً رؤية انعكاس صورته عليها لكثرة لمعانها. وضع أنفه على قشرتها الأرجوانية الداكنة والناعمة. لم تكن رائحتها مميزة، لكن لونها الداكن وشعوره بأنها مزروعة في تربة خصبة، ولّدا فيه الرغبة في القضم. ثم قال: «إنه مطبخ جيد. دعني أرَ أواني الطبخ».

فتح روبن عندها الأدراج والخزائن، وبدأ سيمون بتجميع الأغراض: خفاقات سلكية، أوعية للمزج، عصارات ليمون، أوراق البرشمان، طناجر غلي مزدوجة. كل الطناجر التي يمكن تصورها من كافة الأحجام، وصولاً إلى طنجرة تتسع لثلاثين باونداً، أي لطفل صغير الحجم بعمر السنتين. إنه مطبخ معتاد على تحضير الوجبات لحفلات عشاء تضم خمسمئة مدعو. مطبخ مؤهل لإطعام جموع محتشدة من الناس. سأل سيمون: «أين السكاكين؟».

قال نائب الرئيس: «السكاكين قي أحزمة أفراد العصابة. إنهم ينوون إما تقطيعنا إرباً بواسطة ساطور اللحم، وإما جرحنا حتى الموت بواسطة سكين الخبز».

طرق تيبولت بظفره على المناضد الفولاذية. إنها جميلة المنظر، لكن في منزله في باريس لديه هو وإديث مناضد رخامية. يا للعجين الرائع الذي يمكن المرء صنعه على الرخام! قال: «ليست فكرة سيئة. ليست سيئة. قد يقدمون على ذلك إن أبقوا السكاكين معهم. جين، اذهب إلى عند الجنرالات وقل لهم إن علينا أن نطهو طعامنا، وإلا فسنأكل الدجاج نيئاً، لا أحسبهم سيرتضون تناول الدجاج نيئاً. قل لهم إننا نتفهم أننا غير مؤهلين باعتبارهم لتسلم أمر أدوات التقطيع، ونحتاج إلى بعض الحراس، اثنين أو ثلاثة، كي يقوموا بالتقطيع. اطلب منهم إرسال الفتاتين وربما ذاك الفتى الصغير».

قال روبن: «إسماعيل».

قال تيبولت: «إنه فتى يستطيع تحمل المسؤولية».

كان الحراس قد بدلوا مناوباتهم، أو على الأقل شاهد جين جنديين أصغر سناً يعتمران قبعتيهما، ويتوجهان إلى الخارج، لكنه لم ير كارمن. إن كانت قد دخلت، فلا بد من أنها في مكان ما في الداخل لا يُسمح للرهائن بالتوجه إليه. لقد قام بالبحث عنها في كل مكان يُسمح له بالتوجه إليه، بسرية تامة، لكن الحظ لم يحالفه. نادى: «جنرال بنجامين»، عندما وجده جالساً في غرفة الطعام يتصفح الجريدة، ويحمل بين يديه مقصاً. كان يقص المقالات التي تهمهم، كأن بوسعه التعتيم عليها عبر قصها من الجريدة. كان التلفاز يبقى مفتوحاً على مدار الساعة، لكن دوماً يُساق الضيوف إلى خارج الغرفة عند بدء نشرات الأخبار. وبرغم ذلك، كانت تصلهم بعض الأخبار من الرواق. «لقد طرأ تغير على الطعام سيدي». وبالرغم من أن تيبولت كان الدبلوماسي، إلا أن جين اعتقد أنه يمتلك على الأرجح فرصة أفضل للحصول على ما يريدونه. يعود السبب إلى الفارق بين طبيعتيهما. للفرنسيين خبرة ضئيلة جداً في مراعاة الآخرين.

سأله الجنرال من دون أن يرفع رأسه وينظر إليه: «وما هو هذا التغيير؟».

«الطعام ليس مطهواً سيدي. لقد أرسلوا إلينا صناديق من الخضار وبعض الدجاج». على الأقل تم تنظيف الدجاج. على الأقل كانت مذبوحة. إنها على الأرجح مسألة وقت فحسب،

وبعدها يسير العشاء إلى داخل المنزل على رجليه، ويأتي إليهم الحليب وهو لا يزال محبوساً داخل العنزة.

«إذاً، قوموا بطهوه»، ثم رسم خطاً مستقيماً وسط الصفحة الثالثة.

«ينوي نائب الرئيس والسفير تيبولت فعل ذلك، لكنهما بحاجة إلى طلب بعض السكاكين منكم».

قال الجنرال بتجاهل: «ممنوع السكاكين».

انتظر جين لوهلة. جعّد الجنرال بنجامين المقالات التي قصّها ووضعها فوق كدسة من الطابات الورقية الصغيرة. «لسوء الحظ هذه مشكلة. أنا لا أعرف سوى القليل عن الطهو، لكني أعرف أن السكاكين معدات أساسية من أجل تحضير الطعام».

«ممنوع السكاكين».

«ربما إن أرسلت السكاكين مع بعض الأشخاص. لو تطلب من بعض الجنود القيام بالتقطيع، عندها ستتم السيطرة على السكاكين. إن كمية الطعام كبيرة. ففي النهاية هناك ٥٨ شخصاً».

تنهد الجنرال بنجامين. «أنا أعرف عدد الأشخاص الموجودين هنا. أقدّر لك عدم سماع العدد منك». ملّس على ما بقي من الجريدة وطواها من جديد. قل لي يا جين، هل تلعب الشطرنج؟».

«الشطرنج سيدي؟ أنا أجيد لعبها. لا يسعني القول إنني كنتُ لاعباً ماهراً».

طوى الجنرال أصابعه وضغط بها على شفتيه، ثم قال: «سأرسل إليكم الفتاتين لتساعداكم في المطبخ». كانت القوباء المنطقية قد بدأت تقترب من عينه. بدا واضحاً حتى في هذه المرحلة المبكرة، أن النتائج ستكون كارثية.

«لو يسعنا الحصول على مساعدة شخص ثالث: ربما إسماعيل. إنه فتى جيد جداً».

«يكفيكم اثنان».

قال جين: «السيد هوسوكاوا يلعب الشطرنج». ما كان يجدر به عرض رب عمله لأداء أي خدمات مقابل الحصول على فتى إضافي ليقوم بالتقطيع، لكن في الواقع يتمتع السيد هوسوكاوا بمهارة بالغة في لعب الشطرنج. لطالما كان يطلب من جين مشاطرته اللعب خلال الرحلات الطويلة، ولطالما خاب ظنه عندما يجد أن جين لا يصمد لأكثر من ٢٠ نقلة. وقد حَسِبَ أن السيد هوسوكاوا قد يستمتع باللعب بقدر الجنرال بنجامين.

رفع بنجامين رأسه وبدا أن وجهه الأحمر المتورم يبدي سعادة. «لقد وجدتُ عدة شطرنج في غرفة الفتى الصغير. من الجيد التفكير في أنهم يعلمون لعبة الشطرنج لفتى بهذه السن الصغيرة. أنا أجدها وسيلة مفيدة للشخصية. لقد علمتُ جميع أولادي لعب الشطرنج».

كان هذا أمراً لم يخطر في بال جين قط، أن لدى الجنرال بنجامين أولاداً، وأن لديه منزلاً وزوجة، أو أي نوع من الوجود

والحياة الأسرية خارج المجموعة المتواجدة في المنزل. لم يكف جين أبداً عن التفكير في المكان الذي كانوا يعيشون فيه، لكن ألا يعقل أنهم كانوا يعيشون في خيمة في مكان ما، بأسرّة معلقة بين جذوع الأشجار؟ أو هل هي وظيفة عادية أن يكون المرء ثورياً؟ هل يقبّل زوجته مودعاً إياها لدى مغادرته في الصباح، تاركاً إياها جالسة حول الطاولة مرتدية روب الحمام وتشرب الشاي؟ هل يعود إلى المنزل في المساء ويرتب لوح الشطرنج وهو يمدد رجليه ويدخن سيجارة؟ «أتمنى لو أنني كنتُ أجيد هذه اللعبة بشكل أفضل».

«حسناً، ربما بوسعي تعليمك شيئاً ما. لا يسعني تخيل نفسي أعلمك شيئاً ما». كان الجنرال بنجامين، كحال جميع الجنود، يكنُّ احتراماً كبيراً لقدرات جين اللغوية. لقد تصوروا أنه إن أمكنه تكلم الروسية والإنكليزية والفرنسية، فبوسعه على الأرجح القيام بأي شيء.

قال جين: «أقدّر لك هذا».

هز بنجامين برأسه. «أرجو أن تسأل السيد هوسوكاوا إن كان يرتضي المجيء. لن تكون ثمة حاجة إلى الترجمة. هاك، دوّن معنى «الشاه في خطر»، و«مات الشاه» باليابانية. قد أكلف نفسي عناء تعلّم هاتين العبارتين إن وافق على المجيء للعب». أخذ الجنرال بنجامين واحدة من الأوراق المجعدة وأعاد تمليسها. أعطى جين قلم رصاص، وكتب فوق العناوين الرئيسية العبارتين. كان العنوان الرئيسي يقول بالإسبانية «الأمل ضئيل».

قال الجنرال: «سأرسل إليكم من يساعدكم في تحضير العشاء. سيتوجهون إلى هناك على الفور».

حنى جين رأسه. لعله كان يبالغ في إبداء الاحترام، لكن لم يكن ثمة أحد آخر في الغرفة ليراه.

قد يبدو أن جميع الخيارات قد سُلبت منهم وهم محتجزون داخل منزل مع فتيان مسلحين في سن المراهقة، واقفين عند كل باب ولا يتزحزحون عنه. لا توجد حرية ولا ثقة، ولا حتى حرية أو ثقة كافية ليستحقوا سكيناً يقطّعون بواسطته دجاجة. وأبسط الأمور التي كانوا يرونها، أي أن لهم الحق في فتح باب، أو التوجه إلى خارج المنزل، لم تعد مباحة. لكن عوضاً عن ذلك، حصل أن لم يتوجه جين أولاً إلى السيد هوسوكاوا. لم يذهب إليه جين ويخبره حول الشطرنج. وإن آثر الانتظار حتى حلول الليل فما عسى الضير يكون؟ يستحيل أن يكتشف السيد هوسوكاوا أن جين أخّر الأمر. وبالتأكيد ليس هناك من يتكلم اليابانية والإسبانية ليخبره. كان السيد هوسوكاوا يجلس في آخر الغرفة إلى جانب روكسان كوس على مقعد البيانو المصنوع من خشب الورد. دعه هناك. كان يشعر بالسرور لدى التواجد قربها. كانت تعلمه بعض العزف على البيانو، حيث تضع يديها فوق لوحة المفاتيح ثم يضع يديه هو، فتملأ النوتات المتكررة والصارخة جو الغرفة. كان من المبكر جداً التنبؤ بشيء، لكن بدا أنه يتقبل تعلم الموسيقى أكثر من اللغة الإسبانية. دعه هناك

الآن. حتى من هذه المسافة البعيدة، أمكن جين رؤية الطريقة التي تنحني فيها روكسان عليهِ عندما تمد نفسها لتصل إلى المفاتيح الدنيا. كان السيد هوسوكاوا مسروراً. لم يحتج جين إلى رؤية وجهه حتى يدرك ذلك. كان يعرف عن رب عمله أنه ذكي ومندفع وحصيف، ولم يخطر لجين أنه رجل تعيس، لكنه يعتقد أنه حظي بمتعة معينة في حياته. إذاً، لمَ لا يترك له هذه المتعة من دون أن يعكر عليه صفوها؟ بوسع جين بكل بساطة أن يأخذ القرار بنفسه، وعندها يمضي السيد هوسوكاوا قدماً في التمرين من دون أي مقاطعة، ويعود جين إلى المطبخ حيث كان نائب الرئيس إيغليسياس والسفير تيبولت يناقشان أمر الصلصات.

«سأرسل إليكم الفتاتين لتساعداكم في المطبخ»، قال الجنرال بنجامين.

أخذت الكلمات تتقلّب في رأس جين كلازمة أغنية «كلير دو لون». توجه إلى المطبخ. وعندما دفع بجسمه الباب المتأرجح رفع كلتا يديه، كمصارع فاز بعد معركة ضارية.

صرخ نائب الرئيس قائلاً: «انظروا إلى هذا، لقد عاد الفتى العبقري منتصراً».

قال تيبولت بلغة إسبانية جيدة كان قد اكتسبها عندما حسب أنه سيُرسَل كسفير إلى إسبانيا: «إننا نهدر طاقاته على مساعدتنا في المطبخ والسكاكين. يجدر بنا إرسال هذا الشاب إلى شمال أيرلندا. يجدر بنا إرساله إلى قطاع غزة».

«يجدر بنا تكليفه بمهام مسنر. عندها، ربما يسعنا الخروج من هنا».

قال جين بتواضع: «ليس الأمر سوى مجرد سكاكين».

سأله روبن: «هل تسنى لك التكلم مع بنجامين؟».

«بالطبع تسنى له التكلم مع بنجامين». كان تيبولت يقلّب صفحات كتاب طهو من كومة الكتب الموجودة أمامه. من خلال الطريقة التي تتحرك فيها أصابعها رواحاً وجيئة، وبشكل سريع بين السطور، يتبين أنه يلقي نظرة سريعة إلى محتويات الكتاب. «لقد وافق على الأمر، أليس كذلك؟ أتعلم، ألفريدو وهكتور كانا ليصرا على إبقاء الدجاج نيئاً. حجتهما أنه من الأحسن أن يقسو عود الرجال. ماذا قال الرفيق الطيب؟».

«قال إنه سيرسل الفتاتين، ورفض حضور إسماعيل، لكن لا يفاجئني إن حضر». أخذ جين جزرة من الصندوق وغسلها فوق الحوض.

قال نائب الرئيس عن طريق المزاح: «أنا يضربونني على وجهي بالبندقية. أما أنت فيذعنون لطلبك».

قال تيبولت: «ماذا لو نحضّر طبقاً بسيطاً: الدجاج بالنبيذ؟».

قال روبن: «لقد صادروا جميع زجاجات النبيذ. بوسعنا دوماً إرسال جين للتقدم بطلب آخر. إن النبيذ على الأرجح محتجز هنا في مكان ما، إلا في حال شربوه كله».

قال سيمون تيبولت بحزن: «ما من نبيذ»، كأن الأمر خطير،

كأنه سكين. لا يعقل هذا. في باريس، بوسع المرء أن يكون مستهتراً، إذ من الممكن أن ينفد لديه النبيذ بشكل كامل، لأن كل ما يريدونه لا يبعد سوى أمتار قليلة عن المنزل، سواء أكان صندوقاً أم قارورة أم كأساً. كأس من خمر البُرغندية في الخريف على طاولة خلفية في براسيري ليب؛ الضوء الأصفر والدافئ الذي ينعكس على الدرابزون النحاسي الذي يحيط بالمشرب. وإديث بسترتها الزرقاء وشعرها مربوط إلى الوراء في عقدة عادية، ويداها البيضاوان تمسكان بالكأس. كم يمكنه رؤية هذا المشهد بوضوح: الضوء، السترة، اللون الأحمر القاتم للخمر تحت أصابع إديث. وعندما انتقلا إلى قلب الظلام شحنا معهما صندوقين عارمين في آن معاً، وهي كمية كبيرة من النبيذ تكفي لإغراق مدينة بكاملها تعاني الجفاف. حاول تيبولت أن يجعل من القبو الرطب والوسخ مخزناً للخمر. إن النبيذ الفرنسي هو حجر الزاوية للدبلوماسية الفرنسية. كان يقدمه كأنه حلوى منكَّهة بالنعناع. كان الضيوف يمكثون بعد الحفلات لوقت متأخر، ويطيلون كثيراً الوقوف على الممشى الذي يؤدي إلى البوابة وهم يقولون «عمتم مساءً» مراراً وتكراراً، لكنهم لا يغادرون أبداً. وعندها تتوجه إديث أخيراً إلى داخل المنزل وتجلب لكل منهم قارورة، وتدسها في أيديهم المقاوِمة. ثم يتبعثرون وسط حلكة الظلام، حيث يعود كل منهم إلى سيارته وسائقه حاملين بأيديهم الجائزة.

«إنه دمي». رفع تيبولت كأسه أمام زوجته بعد مغادرة

ضيوفهما أخيراً. «لن يُهدر لأي مخلوق سواك». ويتوجهان معاً إلى غرفة الجلوس، ويلتقطان المناديل المجعدة ويكدسان الصحون فوق بعضها البعض. كانا قد بعثا بمديرة المنزل إلى منزلها قبل وقت طويل. إن هذا تصرف ينمّ عن الحميمية: تعبير خالص عن الحب. لقد عادا ليكونا وحدهما من جديد. إنهما يقوّمان الفوضى التي عمت في منزلهما.

«أليس ثمة طبق يدعى دجاج من دون نبيذ؟». انحنى روبن إلى الأمام لينظر في الكتاب. يا لكل هذه الكتب الموجودة في منزله، التي لم يسبق له أن رآها! تساءل إن كانت خاصته، أو خاصة المنزل.

دفع تيبولت بوشاح إديث فوق كتفه. قال شيئاً حول الشوي، ثم أدار رأسه كي يقرأ. وبمجرد أن نظر إلى الصفحة، فُتح الباب من جديد ودخل منه الثلاثة: بياتريس الطويلة، وكارمن الجميلة، ثم إسماعيل، وكل منهم يحمل سكينين أو ثلاثاً.

قالت بياتريس لجين: «أنتَ بعثتَ وراءنا، أليس كذلك؟ لم أكن مكلّفة بأي مهمة على الإطلاق في هذا الوقت. كنت أبتغي مشاهدة التلفاز».

نظر جين إلى الساعة المعلقة على الحائط، وقال: «لقد فات وقت عرض مسلسلك»، محاولاً إبقاء عينيه منصبتين عليها.

قالت: «ثمة برامج أخرى. يوجد الكثير من البرامج الجميلة. أرسلوا الفتيات للقيام بالطهو. هذا واقع الحال دوماً».

انبرى إسماعيل دفاعاً عن نفسه: «لم يرسلوا الفتيات فحسب».

فقالت بياتريس: «بل عملياً فعلوا».

احمر وجه إسماعيل، وقلّب يد السكين الخشبي بين يديه.

قالت كارمن: «طلب منا الجنرال المجيء للمساعدة في تحضير العشاء». توجهت بكلامها إلى نائب الرئيس. لم تلتفت بنظرها ناحية جين الذي لم ينظر بدوره إليها. إذاً، كيف بدا أنهما يحدقان في بعضهما البعض؟

قال سيمون تيبولت: «إننا ممتنون كثيراً لمجيئكم. إننا لا نعرف شيئاً عن كيفية التعامل مع السكاكين. إذا ائتُمِنا على شيء بقدر خطورة السكاكين فقد يحدث حمام دم هنا في غضون دقائق. ليس أننا سنقدم على القتل، إطلاقاً، بل قد نقطع أصابع أيدينا، وننزف حتى الموت هنا على الأرض».

قال إسماعيل وقهقه: «كفاك»! كان قد حصل عما قريب على واحدة من قصات الشعر التي كان الفتيان يقومون بها لبعضهم البعض. كان رأسه من قبل مغطى بخصلات ملتفة من الشعر، أما الآن فبات أجرد نوعاً ما. في أماكن معينة ينتصب شعره بخشونة وفي أماكن أخرى ينسدل بترتيب. وفي بضعة أماكن لم يكن ثمة شعر على الإطلاق، وبالتالي بانت بقع صغيرة من جلده الزهري كأنها أشبه بجلد فأر حديث الولادة. قيل له إن القَصَّة ستجعله يبدو أكبر سناً، لكنها في الواقع جعلته يبدو مريضاً.

سألهم روبن: «هل يجيد أي منكم الطهو؟».

فأجابت كارمن: «بعض الشيء»، وهي تتفحص موقع رجليها على الأرض البيضاء والسوداء، التي لها شكل رقعة الداما.

ثم ردت بياتريس بنزق: «بالطبع بوسعنا الطهو. من الذي يطبخ لنا برأيك؟».

فقال نائب الرئيس: «والداكم. هذا احتمال».

«إننا بالغون، ونعتني بأنفسنا. ليس لدينا أهل يعتنون بنا كالأطفال». كانت بياتريس مغتاظة لتفويتها مشاهدة التلفاز فحسب. كانت قد أنجزت عملها كله، حيث جالت في أرجاء الطابق العلوي لحراسته، ووقفت للمراقبة عند النافذة لساعتين. كما نظفت أسلحة الجنرالات وقامت بتزييتها إضافة إلى بندقيتها هي. لم يكن عدلاً أن يتم استدعاؤها إلى المطبخ. كان ثمة برنامج رائع يُعرض في فترة العصر: فتاة ترتدي سترة مغطاة بالنجوم وتنورة طويلة، تغني أغاني رعاة البقر وترقص منتعلة حذاءً عالي الساق والكعب.

تنهد إسماعيل ووضع سكاكينه الثلاث على المنضدة أمامه. كان والداه ميتين. عمدت مجموعة من الرجال إلى اقتياد والده من المنزل في إحدى الليالي، ولم يعاود أحد رؤيته من جديد. وتوفيت والدته جراء الإصابة بإنفلونزا بسيطة منذ ١١ شهراً. بالكاد كان إسماعيل يبلغ الخامسة عشرة من عمره، بالرغم من أن جسده الضخم لم يترك أي دليل يشير إلى هذه السن. لم

يكن طفلاً، إن كان معنى الطفولة يشير إلى امتلاك والدين يحضّران عشاءك.

قال تيبولت وهو يحمل بصلة: «إذاً، تعرفون البصل؟».

فقالت بياتريس: «نعرفه أفضل منك».

«إذاً، خذي السكاكين الخطيرة وقطعي لي بعض البصل». أعطاهم تيبولت ألواح تقطيع وزبديات. لمَ لمْ تُعتبر ألواح التقطيع في عداد الأسلحة؟ ففي حال حمل المرء طرفي اللوح بيديه، يتبادر إلى ذهنه جلياً أن هذه القطع الخشبية الكبيرة هي بالحجم المناسب لضرب أحد ما على مؤخرة رأسه. ولمَ لا تُستخدم الزبديات لهذا الغرض؟ زجاج السيراميك السميك بألوانه الزاهية يبدو غير مؤذ البتة، وهو يحوي الموز، لكن بمجرد أن يتم كسره فإنه لا يختلف كثيراً عن السكين. ألا يمكن المرء أن يغرز قطعة من زجاج السيراميك في قلب إنسان بكل سهولة؟ ثم طلب تيبولت من كارمن فرم الثوم وتقطيع الفلفل الحلو، وأعطى إسماعيل حبة باذنجان: «قشرها، وانزع البذور منها، ثم قطّعها».

كانت سكين إسماعيل ثقيلة وطويلة. من منهم يحمل سكيناً صغيرة دفاعاً عن النفس؟ من الذي أخذ سكين الكريب فروت؟ لدى محاولة إسماعيل نزع القشرة لم يلبث أن قطع معه ثلاثة إنشات من الداخل الأصفر الاسفنجي. أخذ تيبولت يراقبه لبعض الوقت: ثم مد له يديه. قال له: «ليس هكذا، وإلا فلن يبقى لنا ما نأكله. هاك أعطني إياهما».

توقف إسماعيل، وتفحص عمله، ثم أعطاه حبة الباذنجان المشوهة والسكين. مد السكين من ناحية شفرتها لتيبولت. ما الذي يعرفه عن آداب المطبخ؟ ثم أخذ تيبولت كلاً من السكين وحبة الباذنجان بكلتا يديه. وبدأ بسرعة ومهارة بتقشيرها.

صرخت بياتريس قائلة: «ضع السكين من يدك». أوقعت لدى صراخها سكينها الخاصة، والبصل ملتصق على الشفرة، فانهمر شلال من البصل المقطع على الأرض كالثلج الكثيف الرطب. ثم سحبت مسدسها من حزامها ورفعته في وجه السفير.

قال روبن: «يا إلهي!».

لم يفقه تيبولت ما الذي أقدم عليه. حسب في البداية أنها غضبت لأنه يصحّح للفتى فكرته عن التقشير. ظن أن المشكلة تكمن في حبة الباذنجان، فرماها من يده أولاً ثم رمى السكين.

قالت كارمن لبياتريس بلغة الكتشوا: «اخفضي صوتك. ستوقعينا في المتاعب».

«لقد أخذ السكين».

رفع تيبولت يديه الفارغتين، ووجّه راحتي يديه الناعمتين ناحية المسدس.

قال إسماعيل: «أنا أعطيته السكين. أنا أعطيته إياها».

قال جين: «أراد أن يقوم بالتقشير بواسطتها ليس إلا». لم يقو على فهم كلمة واحدة من اللغة التي كانتا تتكلمان بها.

قالت بياتريس بالإسبانية: «لا يُفترض به حمل سكين. هذا ما قاله لنا الجنرال. ألا يسمع أي منكما الكلام؟». أبقت مسدسها مصوباً ناحيته، وحاجباها السميكان متوجهان نزولاً. كانت عيناها قد بدأتا تدمعان جراء رائحة البصل، وسريعاً ما انهمرت الدموع على وجنتيها، الأمر الذي أساء الجميع تقديره.

بدأ تيبولت بالقول بروية وهو يحرص على رفع يديه في الهواء: «ما رأيكم في الآتي: يمكن الجميع أن يقف بعيداً عني، فأقوم أنا بتعليم إسماعيل كيفية تقشير حبة الباذنجان. أنت تبقين مسدسك مصوباً ناحيتي، وإن بدا لك أنني أقوم بأمر غريب، فعندها بوسعك إطلاق النار علي. بوسعك إطلاق النار على جين أيضاً إن اقترفت أمراً فظيعاً».

تركت كارمن السكين من يدها.

شرع جين يقول: «لا أظن. . .»، لكن لم يكن أحد يبدي انتباهاً إليه. شعر بانقباضة بسيطة باردة في صدره، كأن قطعة كرز صغيرة انزلقت إلى قلبه. لم يشأ أن يتعرض لإطلاق نار، كما لم يشأ أيضاً أن يقدّمه أحد كهدف للقتل.

قالت بياتريس: «بوسعي إطلاق النار عليك؟». لم يكن الشخص المخول إعطاء الإذن، أليس كذلك؟ لم تكن تنوي إطلاق النار على أحد على أي حال.

قال إسماعيل شاهراً مسدسه في وجه السفير: «هيا، ابدأ». كان يحاول أن يبقي ملامح وجهه جدية، لكن الحظ لم يحالفه في ذلك. «أنا أيضاً سأطلق النار عليك إن اضطررت إلى ذلك.

أرني كيف أقشر حبة الباذنجان. لقد أطلقت النار على رجال لسبب أقل من حبة باذنجان». «بيرينجينا»، تعني حبة باذنجان بالإسبانية. يا لها من كلمة جميلة. يمكنه أن يطلق اسماً على فتاة.

التقط تيبولت السكين وبدأ بعمله. بقيت يداه ثابتتين بشكل ملحوظ، وهو يقوم بالتقشير، في الوقت الذي يُصوَّب ناحيته مسدسان. لم تشارك كارمن معهما. عادت إلى فرم الثوم وهي تضرب بسكينها على اللوح بطريقة غاضبة وقوية. أبقى تيبولت عينيه على القشرة الأرجوانية اللامعة. «يصعب التقشير بسكين كبيرة إلى هذه الدرجة. يجدر بالسكين أن تُزلق تحت القشرة مباشرة. تخيل أنك تزيل الجلد عن سمكة. أترى هذا. في غاية السلاسة. إنه عمل دقيق». كان جميلاً منظر حبة الباذنجان وهي تُقشَّر ويسقط منها القشر على شكل أشرطة على الأرض.

إن الطريقة التي انقلبت إليها الأمور، أوحت بجو من الهدوء. قال إسماعيل: «حسناً، لقد فهمت. أعطني السكين الآن». وضع المسدس من يده ومد يديه إليه. أدار تيبولت السكين إلى الناحية الأخرى، وأعطاه إياها من المسكة الخشبية الناعمة إضافة إلى حبة باذنجان أخرى. ماذا عسى إديث تقول إن سمعت أنه تعرض لإطلاق نار بسبب حبة باذنجان أو تشغيل تلفاز؟ إن كان مقدراً له أن يموت، فأمل أن يكون موته مشرفاً بعض الشيء.

قال روبن: «حسناً»، وهو يمسح وجهه بمنشفة. «أي حدث يطرأ هنا هو حدث صغير».

مسحت بياتريس دموعها بكم سترتها الزيتية. وقالت: «يا للبصل!»، وهي تعاود دس المسدس الذي قامت بتزييته منذ آونة ليست ببعيدة، في حزامها.

قال تيبولت: «يسعدني أن أقوم بالتقشير نيابة عنكِ في أي وقت تجدينني قادراً على ذلك»، ثم توجه لغسل يديه.

وقف جين إلى جانب حوض الجلي محاولاً التوصل إلى أفضل طريقة لصياغة سؤاله. بدا أنه إن ابتغى بأي طريقة طرح هذا السؤال، فإنه سيبدو مفتقراً إلى التهذيب. فخاطب تيبولت بالفرنسية. همس له قائلاً: «لمَ قلت لها إن بوسعها إطلاق النار عليّ؟».

«لأنهم لن يُقْدموا على قتلك. إنهم جميعاً يحبونك كثيراً. لم أنوِ أي ضير بكلامي. حسبتُ أنني أُضفي بذلك مصداقية كبيرة على كلامي. لو أنني قلتُ لها إن بوسعها إطلاق النار عليّ، فإنني أعرّض حياتي لخطر داهم. إنهم لا يأبهون لأمري بتاتاً، في حين يكنّون لك تقديراً كبيراً. ليس الأمر كأنني قلت لهم إن بوسعهم إطلاق النار على روبن المسكين. قد تود تلك الفتاة أن تقتل روبن».

قال جين: «برغم ذلك، لم يفترض بكَ قول ما قلته». أراد أن يكون حازماً في وجهة نظره، لكنه شعر بأن حزمه يتضاءل. في بعض الأحيان كان يشعر بأنه أضعف إنسان تحت الأسر.

«سمعتُ أنك أعطيتَها ساعتك».

«من قال لكَ هذا؟».

«الجميع يعرفون ذلك. إنها تعرضها أمام الجميع في كل فرصة تسنح لها. هل تراها تُقدم على قتل رجل أعطاها ساعته؟».

«حسناً، إننا لا نعلم ذلك».

نشّف تيبولت يديه ولف يده حول عنق جين. «ما كنتُ أبداً لأسمح لهم بقتلك، فأنت أشبه بأخ لي. اسمع يا جين، حينما ينتهي هذا الوضع برمته، أود منك أن تأتي إلى باريس لزيارتي. في اللحظة التي ينتهي فيها هذا الأمر، سأستقيل من منصبي، وسأعود أنا وإديث إلى باريس. عندما تشعر برغبة في معاودة السفر، اجلب معك السيد هوسوكاوا وروكسان. بوسعك الزواج بواحدة من ابنتيّ، وعندها ستكون صهري». ثم انحنى إلى الأمام وهمس في أذن جين قائلاً: «عندئذ، ستبدو هذه الحال كلها مضحكة بالنسبة إلينا».

تنشق جين نَفَس تيبولت. حاول أن يستمد منه بعض الشجاعة، وبعض اللامبالاة. حاول التصديق أنه يوماً ما سيكونون جميعاً في باريس في شقة آل تيبولت، لكنه عجز عن تصور ذلك. قبّل تيبولت جين إلى جانب عينه اليسرى، ثم تركه. وتوجه للبحث عن مقلاة للتحمير.

قال روبن لجين: «أنتما تتحدثان بالفرنسية. إنه أمر يعوزه التهذيب».

«كيف عسى الفرنسية تكون قلة تهذيب؟».

«لأن جميع الموجودين هنا يتكلمون الإسبانية. لم يحصل أن كنتُ في غرفة يتكلم فيها الجميع اللغة نفسها، فعمدتَ أنت إلى التكلم بلغة كنتُ قد رسبتُ فيها في دراستي الثانوية». قد كان هذا صحيحاً. عندما كانوا يتكلمون بالإسبانية لم يكن أحد في المطبخ ينتظر تفسير أي شيء، لم يكن أحد مضطراً إلى التحديق لعدم قدرته على فهم ما يقوله الآخرون بلغة غريبة. ولم يتساءل أحد مشككاً إن كان ما يُقال يحمل في طياته كلاماً مروّعاً عنهم. من بين الأشخاص الستة الموجودين في المطبخ، كانت الإسبانية اللغة الأم لروبن وحده. فجين يتكلم اليابانية، وتيبولت الفرنسية، والثلاثة الحاملون السكاكين تعلموا لغة الكتشوا في قراهم، ثم تعلموا مزيجاً من الكتشوا والإسبانية، ومنها يفهمون الإسبانية بدرجات متفاوتة من النجاح.

قال إسماعيل للمترجم: «بوسعكَ المغادرة وأخذ إجازة هذا اليوم»، في حين كانت قشرة لولبية قاسية ومطاطية من حبة الباذنجان تتدلى من سكينه. «لستَ مضطراً إلى البقاء».

قامت عندئذ كارمن، برفع رأسها. كانت تُبقي عينيها مصبوبتين على الثوم الذي كانت تفرمه. إن الجرأة التي أفلحت في التحلي بها في الليلة الماضية قد جافتها طوال النهار، وبات جل ما بوسعها فعله هو تجنّب جين، لكن هذا لم يعنِ أنها أرادت له المغادرة. لقد اعتقدت أنها أُرسلت إلى المطبخ لسبب.

رجت للقديسة روز أن ترفع عنها الخجل الذي انهمر عليها كالضباب الكثيف بسرعة.

لم يكن جين ينوي المغادرة. فقال: «بوسعي القيام بما هو أكثر من الترجمة. بوسعي غسل الخضار، وبوسعي خفق أي شيء في حال لزم الأمر».

عاد تيبولت حاملاً بكل يد مقلاة معدنية ضخمة. وضع كلاً منهما على حدة عند أعلى الفرن، حيث كل مقلاة تغطي ثلاثة مَضارم. «هل سمعت كلمة مغادرة؟ هل يخطر لجين المغادرة؟».

«كنتُ أفكر في البقاء».

«لن يغادر أحد! عشاء لـ ٥٨ شخصاً، أهذا ما يتوقعون منا تحضيره؟ سوف لن أخسر يد عون واحدة حتى لو كانت هذه اليد تعود إلى المترجم العالي القيمة. هل يحسبون أننا سنقوم بهذا العمل كل ليلة، وكل وجبة؟ هل يحسبونني متعهد تقديم وجبات؟ هل فرغت من تقطيع البصل، أم ليس بعد؟ هل لي بسؤالكِ عن وضع البصل، أم ستهددين بإطلاق النار عليّ؟».

لوحت بياتريس بسكينها في وجه تيبولت. كان وجهها أحمر ورطباً نتيجة البكاء. «لكنتُ أطلقت النار عليك إن اضطررت إلى ذلك، لكنني لم أفعل، يجدر بكَ أن تكون ممتناً. ها قد قمت بتقطيع بصلك السخيف. هل فرغتَ مني الآن؟».

قال تيبولت وهو يصب الزيت في المقلاتين ويشعل النار التي لها لهيب أزرق فاتح: «وهل يبدو لك أن العشاء بات

جاهزاً؟ اذهبي واغسلي الدجاج. جين، أحضر لي البصل. حمّر هذا البصل».

قالت بياتريس: «لمَ تسنى له هو طهو البصل؟ أنا من قمت بتقطيعه، ولن أقوم بغسل الدجاج لأنه ليس ثمة استخدام للسكين في هذا الأمر. لقد أُرسِلت إلى هنا لاستخدام السكاكين فحسب».

قال تيبولت بالفرنسية بصوت منهك: «سوف أقتلها».

أخذ جين زبدية البصل وضمها إلى صدره. القُوْت كان دوماً غير مناسب، أو ربما كان دوماً مناسباً، فهذا الأمر رهن بكيفية نظر المرء إليه. قد يطول وقوفهما هناك ساعات، حيث يبعد كل منهما ستة مربعات من البلاط عن بعضهما البعض، ولا ينطق أي منهما بكلمة، أو يقوم أحدهما، أي منهما، بالتقدم إلى الأمام والبدء بالحديث. أمل جين أن تبادر كارمن إلى ذلك، لكنه كان حينها يأمل أيضاً أن يتم إطلاق سراحهم جميعاً، فبدا له أن أياً من هذين الاحتمالين غير وارد الحدوث. أعطى جين البصل لتيبولت الذي وضعه في المقلاتين، فأخذوا يطلقون هسيساً ويبقبقون كحال بياتريس نفسها. قام جين مستخدماً كمية الشجاعة الضئيلة جداً التي بقيت له، بالتوجه ناحية الدرج بالقرب من الهاتف الذي كان معلقاً على الحائط من دون شريطه. وجد هناك دفتراً صغيراً وقلماً، فدوّن عليه ثلاث كلمات بالإسبانية، كل منها على ورقة، وأخذها إلى كارمن، في الوقت الذي كان تيبولت يتجادل فيه مع بياتريس حول من يجدر به

تحريك البصل. حاول أن يُبقي في ذهنه جميع اللغات التي نطق بها، وجميع المدن التي زارها، وجميع الكلمات المهمة التي نطق بها الرجال الآخرون والتي خرجت من فمه. ما يطلبه من نفسه ليس إلا أمراً بسيطاً، وبرغم ذلك، شعر برجفة تسري في يديه. قال: «سكين»، ثم وضع الورقة الأولى من يده. «ثوم» ووضع الورقة فوق الثوم. «فتاة»، وسلم الورقة الأخيرة إلى كارمن. وبعد أن نظرت إليها لدقيقة وضعتها في جيبها. هزت كارمن برأسها وأصدرت صوتاً يشبه صوت «آه»، أي ليس كلمة كاملة.

تنهد جين. لقد تحسنت الحال الآن، لكن ليس كثيراً: «هل تودين التعلم؟».

هزت كارمن برأسها من جديد وعيناها مثبتتان على مشجب دُرج. حاولت أن ترى القديسة روز على المسكة، امرأة صغيرة ترتدي لباساً أزرق تقف على قضيب فضي مقوس. حاولت أن تجد صوتها عبر الصلاة. فكرت في روكسان كوس التي جذلت لها شعرها بيديها. ألا يجدر بذلك أن يمدها بالقوة؟

«لا أدري إن كنتُ معلماً جيداً. أنا أحاول تعليم السيد هوسوكاوا الإسبانية. إنه يدوّن كلمات على دفتر ملاحظات ويحفظها. ربما نفعل الأمر نفسه معك».

أصدرت كارمن بعد دقيقة من الصمت الصوت نفسه: «آه» خفيفة لا تحمل في طياتها أي معلومات فعلية عدا عن واقع إعلامه بأنها سمعته. كانت غبية. حمقاء.

نظر جين من حوله. كان إسماعيل يراقبهما، لكن بدا أنه لا يكترث للأمر.

قال روبن: «إن الباذنجان ممتاز! تيبولت، هل رأيت الباذنجان؟ كل قطعة مساوية لأختها في الحجم».

قال إسماعيل: «لقد نسيت أن أنزع البذور».

قال روبن: «البذور ليست مهمة. إن البذور تنفعك بقدر أي شيء آخر».

قال تيبولت: «جين، هل ستقوم بالتحمير؟».

قال جين وهو يرفع يده: «دقيقة واحدة». همس لكارمن قائلاً: «هل غيرتِ رأيك؟ هل تودين مني مساعدتك؟».

ثم بدا أن القديسة سددت لكارمن ضربة قوية بين كتفيها، فخرجت الكلمة التي كانت محبوسة في حنجرتها كقطعة لحم كبيرة عالقة في القصبة الهوائية.

قالت وهي تأخذ نَفَساً: «بلى، بلى».

إذاً، هل سنبدأ بالتمرين؟»».

«كل يوم». التقطت كارمن الورقتين المكتوب عليهما «سكين» و«ثوم»، ووضعتهما في جيبها إلى جانب ورقة «الفتاة». «لقد تعلمتُ الحروف، لكني لم أتمرن منذ فترة. اعتدت على التمرّن عليها يومياً، ثم بدأنا التدرب لهذا الأمر».

تخيلها جين على أعلى الجبال، حيث يسود البرد القارس ليلاً، جالسة بالقرب من النار ووجهها أحمر نتيجة الحرارة

والتركيز، وخصلة شعر سوداء تسقط من خلف أذنها كحالها الآن. تحمل دفتراً رخيصاً وقلم رصاص قصيراً. ارتسم في خياله أنه واقف بالقرب منها يرجوها لكتابة الأحرف بخط مرتب. في الخارج يسعه سماع آخر زقزقات العصافير وهي تتوجه ناحية أعشاشها قبل حلول الظلام. لقد حسبها في السابق فتىً، وقد أرعبه ذاك الشعور. قال: «سوف نراجع الأحرف. سنبدأ من هناك».

نادت بياتريس بصوت عال: «هل أنا وحدي من يُفترض بها العمل؟»

تمتمت كارمن بكلمة واحدة: «متى؟».

أجابها جين: «الليلة». لقد أراد منها حينئذ شيئاً عجز عن تصديقه. أراد ضمها بين ذراعيه. أراد أن يقبّل فرق شعرها. أراد أن يلامس شفتيها بأصابعه. أراد أن يهمس في أذنها كلمات باليابانية. ربما إن كان ثمة وقت، فبوسعه تعليمها اليابانية أيضاً.

قالت كارمن: «الليلة في مخزن الخزف. ستعلمني الليلة»!

الفصل السابع

كان الكاهن محقاً في شأن حالة الطقس، برغم أن الانفراج تأخر حدوثه عما توقع. انتهى في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر الضباب. لم ينجرف، ولم يخفّ، بل توقف بكل بساطة، حيث كان الجو في أحد الأيام كئيباً، وفي اليوم التالي بات الهواء نقياً ومنعشاً والسماء زرقاء صافية. ذكّر ذلك السيد هوسوكاوا بموسم الكرز في كيوتو، وذكّر روكسان كوس بشهر تشرين الأول/أكتوبر في بحيرة ميتشيغن. وقفا معاً في الصباح الباكر قبل أن تبدأ غناءها. أشار لها إلى عصفورين أصفرين، لونهما مشع كألوان الزهر، يقفان على غصن شجرة لم تكن مرئية من قبل. أخذا ينقران لبعض الوقت في لحاء الشجر الاسفنجي، ثم طارا واحداً تلو الآخر، إلى ما فوق الجدار ووراءه. توجه كل من الرهائن والخاطفين، واحداً تلو الآخر، ناحية النوافذ المنتشرة في المنزل، وأخذوا يحدقون بأعينهم، ثم يطرفون، ثم يحدقون من جديد. وضع العديد من الأشخاص أيديهم وأنوفهم على الزجاج ما اضطر بنائب الرئيس إلى المجيء بخرقة وقارورة من ماء

النشادر، ومسح كل ألواح الزجاج. قال ولم يتوجه بكلامه إلى أحد محدد: «انظروا إلى الحديقة. الحشائش الضارة باتت بطول الأزهار». قد يحسبنّ المرء أنه بهطول هذه الكمية الكبيرة من المطر، وقلة الضوء، ستخفّ سرعة نمو الزرع، لكن واقع الحال يشير إلى أن سرعة النمو هذه قد تزايدت. إن الحشائش الضارة الموجودة إلى جانبي النباتات المزروعة ضمن مسكبات، اشتمت رائحة الأدغال البعيدة في الهواء، وغرزت جذورها عميقاً، ورفعت أوراقها عالياً في محاولة منها لتحويل حديقة نائب الرئيس إلى مكان بري. لقد تشرَّبت النباتات كل قطرات المطر. لكان بوسعها تحمّل سنة ماطرة أخرى. وإن تُركت تنمو على حالها، فإنها ستستولي على المنزل وتقتلع جدار الحديقة من مكانه. ففي النهاية، كانت هذه الحديقة في ما مضى امتداداً للطبيعة، حيث يمتد نبات الكرمة المعترش والكثيف حتى شواطئ المحيط الرملية. والوحيد الذي منعها من الاستيلاء على المنزل كان البستاني، الذي كان يقتلع كل ما يرى أن لا لزوم له، ويحرقه، ثم يشذّب البقية. لكن البستاني الآن في إجازة غير محدودة الأمد.

لم يمض أكثر من ساعة على طلوع الشمس وإشراقها في كبد السماء، وبرغم ذلك نمت العديد من النباتات حوالى النصف سنتيمتر.

تنهد روبن وقال: «يجب عليّ فعل شيء ما في شأن الحديقة»، لكنه لا يعرف من أين سيأتي بالوقت نظراً إلى وجود

الكثير من الأعمال التي تنتظره في المنزل. كما أنهم لن يسمحوا له بالتوجه إلى الخارج في المقام الأول. إضافة إلى أنهم لن يمدوه بالأغراض التي يحتاج إليها: مِجَزّ لسياج الشجيرات، أدوات للحفر، وسكاكين التشذيب. كل ما تحويه غرفة البستنة من عدة وأدوات، يعتبر أسلحة فتاكة.

عندما فتح الأب أرغيداس النوافذ في غرفة الجلوس، شكر الله على الهواء العليل وخفته. وبرغم أنه موجود داخل المنزل، أمكنه سماع الضجيج الذي يعم الشارع، والصادر من وراء جدار حديقة بشكل أكثر وضوحاً بعد أن كف المطر عن التشويش عليه. لم تعد ثمة رسائل تُبعث من وراء الجدار. لكن، لا يزال بوسعه تخيل وجود حشود كبيرة من الرجال الذين يحملون الأسلحة. خامر الكاهن شعور بأنه إما انتفت من عندهم خطة التحرّك، وإما لديهم خطة غاية في التعقيد إلى درجة أنها لم تعد تتضمنهم تحديداً، في حين واصل الجنرال بنجامين اقتطاع كل الأخبار التي تدور عنهم من الصحف، إلا أنهم أفلحوا في التقاط طرف حديث عن التلفاز يقول إن ثمة نفقاً يتم حفره في الأرض، وإن الشرطة تنوي أن تشق طريقها وصولاً إلى المنزل، وستنتهي بالتالي الأزمة بالطريقة نفسها التي بدأت بها؛ أي اقتحام غرباء الغرفة وإعادة توجيه مجرى حياتهم، لكن أحداً لم يصدق هذا الأمر. إن تنفيذه غاية في التعقيد، ويشبه فيلماً تجسسياً أكثر من كونه يطابق الواقع. حدق الأب أرغيداس في قدميه، ناظراً إلى حذائه الأسود الرخيص ذي الرباط الذي يدوس به على مثل هذه السجادة الباهظة الثمن. وتساءل عما

يجري في باطن الأرض. دعا أن يمنّ الله على كل منهم بالسلامة، لكنه لم يرجُ أن يتم إنقاذه عبر نفق. لم يرجُ أصلاً أن يتم إنقاذه. صلى فحسب لحدوث مشيئة الله، ولنيل محبته وحمايته. حاول أن ينقّي قلبه من الأفكار الأنانية، وفي الوقت نفسه أن يظل يشعر بالامتنان لكل ما منّ الله عليه به. هاكم القداس على سبيل المثال لا الحصر. في حياته السابقة (إذ هكذا بات يراها)، لم يكن يُسمح له بإقامة شعائر القداس، إلا مع أبناء رعيته عندما يكون الباقون في عطلة أو مرضى، ويعطونه قداس الساعة السادسة صباحاً أو قداس نهار الثلاثاء. كانت مسؤولياته في الكنيسة بالإجمال هي نفسها التي كان يقوم بها قبل أن يصبح كاهناً: حيث يقوم بتوزيع الخبز الذي لم يباركه على الموجودين في أقصى الجانب الأيسر من ممشى الكنيسة أو يشعل الشموع أو يطفئها. أما هنا، وبعد مداولات طويلة، فقد وافق الجنرالات على السماح لمسنر بجلب معدات قداس التلقيم. وفي الأحد الماضي في غرفة الطعام، أقام الأب أرغيداس قداساً مع جميع أصدقائه. حضره الأشخاص غير الكاثوليكيين، والأشخاص الذين لا يفهموا ما يقولونه، وركعوا على ركبهم. فالمرء حينما يبتغي أمراً معيناً، تراه يتحول إلى الصلاة. أغمض الإرهابيون الشبان أعينهم، وحنوا ذقونهم ناحية صدورهم، في حين بقي الجنرالات في آخر الغرفة. كان يمكن الأمر أن يكون مختلفاً تماماً. تسعى العديد من المنظمات الإرهابية اليوم إلى نفي الدِّين، خصوصاً الكاثوليكية. لو أن عصابة «لا ديريكسيون أوتينتيكا» («ل.د.أ.»)، هي التي قامت

باختطافهم، وليس عصابة «لا فاميليا دو مارتن سواريز» الأكثر حصافة، لما سُمح لهم أبداً بأداء الصلاة. لكانت عصابة «ل.د.أ.»، قامت بجر إحدى الرهائن إلى السطح كل يوم، لتضعه أمام أعين الصحافة، ثم تعمد إلى تسديد رصاصة في رأسه في محاولة منها لتسريع المفاوضات. كان الأب أرغيداس يفكر في مثل هذه الأمور لدى استلقائه على سجادة غرفة الجلوس ليلاً. إنهم حقاً محظوظون. ليس ثمة طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. أوليسوا فعلاً يتمتعون بالحرية، إن كان ثمة حرية لأداء الصلاة؟ في قداسه، غنت روكسان كوس «السلام المريمي»، وكان ذلك غاية في الروعة (لم يشأ أن يشعر بالتنافسية)، إلى درجة أنه لا يمكن أي كنيسة في أي مكان من العالم مضاهاته، حتى في روما. كان صوتها غاية في النقاء، إلى حد أنه اخترق السقف وحمل التماساتهم ورجاءهم إلى الله مباشرة. مر صوتها عليهم كخفقان الأجنحة، ونتيجة لذلك حتى أتباع الكنيسة الكاثوليكية الذين انقطعوا عن ممارسة شعائر الدين، والأشخاص الذين لا ينتمون إلى الكاثوليكية والذين حضروا القداس لأنه لم يكن لديهم ما يفعلونه، وجميع من لم يمتلك فكرة عما يقوله، والملحدون القساة القلوب الذين لا يعبأون لأمر القداس برمته، تأثروا جميعاً بسبب غنائها، وخالجهم شعور بالراحة، ولعلهم شعروا على الأرجح برعشات بسيطة من الإيمان. أخذ الكاهن يحدق في الجدار المزخرف بالجص، ويميل لونه إلى الأصفر، وكان يحميهم من أي أمر مفاجئ ينتظرهم في الخارج. لا بد من أن ارتفاعه يبلغ ١٠ أقدام، وثمة أقسام منه مغطاة بنبات العَشَقة

المعترش. إنه جدار جميل، يشبه إلى حد ما الجدار الذي يحيط بجبل الزيتون. ربما لم يتضح له الأمر في البداية، لكنه بات الآن يرى كيف ينظر المرء إلى هذا الجدار كنعمة. غنت روكسان لروسيني ذاك الصباح، مجاراة لحالة الطقس. غنت أغنية واحدة «بيللا كروديل»، وكررتها سبع مرات. بدا واضحاً أنها تحاول إتقان شيء ما، تحاول إيجاد شيء عالق في قلب النوتة الموسيقية، شعرت بأنها لم تصل إليه. كانت هي وكايتو يتواصلان بطريقتهما الخاصة. حيث تشير إلى سطر من النوتات، فيقوم هو بعزفه. وتنقر بأظافرها بطريقة ناعمة على أعلى البيانو، فيكرر العزف من جديد. وتغني السطر من دون مرافقة العزف لها، وهو يعزفه من دون غنائها. ثم تغني على وقع عزفه. كانا يحومان حول بعضهما البعض، كل منهما مجرد من المشاعر الخارجية، ولا يأبه إلا للموسيقى فحسب. أغمضت عينيها في الوقت الذي عزف فيه المقدمة، فهزت رأسها بعض الشيء موافقة على العزف. لقد عزف النوتات الموسيقية بطريقة سلسة. لم يعمد إلى التصنّع بحركات يديه، بل أبقى حركاته بسيطة وخفيفة، بما يتناسب وصوتها. ثمة اختلاف في طريقة عزفه لنفسه وطريقة عزفه لها. فهو حينما يعزف لها، يعزف كرجل يحاول ألا يوقظ الجيران.

كانت روكسان واقفة بكامل نشاطها، إلى درجة أن المرء ينسى مدى قصرها الشديد. أسندت يدها فوق البيانو، ثم وضعت راحتي يديها فوق قلبها، وطفقت تغني. لقد أخذت تحذو حذو اليابانيين في تخليهم عن انتعال الحذاء. كان السيد هوسوكاوا قد

التزم بعادات مضيفه، وأبقى الحذاء في قدميه طوال الأسبوع الأول من الاحتجاز، لكن مع مرور الوقت شعر بأنه لم يعد قادراً على تحمله. إن انتعال الحذاء داخل المنزل عمل بربري. في انتعال الحذاء مهانة بقدر ما في الوقوع رهن الاختطاف. عندما خلع حذاءه، قام جين أيضاً بخلع حذائه، ثم كايتو، ثم ياماموتو، ثم أيوا، ثم أوغاوا، ثم روكسان. كانت تسير في المكان منتعلة جوربين رياضيين استعارتهما من خزانة نائب الرئيس. لكأن الخط يبتسم لها، لم يكن مقاس رجليه أكبر بكثير من مقاس رجليها. ظلت تغني حتى النهاية من دون لحظة تردد واحدة. يستحيل القول إن غناءها قد تحسن، لكنّ ثمة شيئاً في طريقة لفظها مقاطع الأغنية قد تغير بعض الشيء. لقد غنت كأنها تنقذ حياة كل من في الغرفة. هبت نسمة هواء دفعت بستائر النافذة إلى الاهتزاز بعض الشيء، لكن عدا عن ذلك كان كل شيء ساكناً جداً. لم يصدر أي صوت من الشارع. حتى العصفوران الصغيران الأصفران، لم يصدرا صوتاً على الإطلاق.

في الصباح الذي كفت فيه الأمطار عن الهطول، انتظر جين حتى انتهاء غناء النوتة الأخيرة، ثم توجه للوقوف إلى جانب كارمن. كان وقتاً مناسباً كثيراً للتكلم معها من دون لفت انتباه أحد. كان الجميع يتجولون في المكان في حالة ارتباك شديد إثر انتهاء روكسان من الغناء. إن فكر أحد في الخروج من الباب بكل بساطة، فربما ما كان أحد ليوقفه، لكن أحداً لم يكن يفكر في المغادرة. عندما توجه السيد هوسوكاوا لجلب الماء لها، وقفت روكسان وتبعته، ثم تأبطت ذراعه.

همست كارمن لجين قائلة: «إنها مغرمة به». أساء فهمها لوهلة قصيرة، بعد أن سمع كلمة مغرمة فحسب. ثم توقف وراجع الجملة بأكملها. كان بمقدوره القيام بذلك. كأن ثمة أداة تسجيل في رأسه.

«آنسة كوس؟ الآنسة كوس مغرمة بالسيد هوسوكاوا؟».

هزت كارمن برأسها بطريقة طفيفة جداً، لكنه تعلّم كيف يقرأ حركاتها: حب؟

إن ما رآه وبذل أقصى جهده للتغاضي عنه، هو حقيقة وقوع السيد هوسوكاوا في غرام روكسان. لم يخطر في باله قط أن العكس قد يكون صحيحاً، فسأل كارمن عما تراه منهما.

همست كارمن: «كل شيء. الطريقة التي تنظر فيها إليه، الطريقة التي تنتقيه فيها. إنها دوماً تجلس معه برغم أنهما يعجزان عن التخاطب حتى. إنه مسالم جداً. إنها تحبذ التواجد معه».

«هل أخبرتكِ بذلك؟».

ابتسمت كارمن، وقالت: «ربما. أحياناً تحدثني في الصباح، لكنني لا أعرف ما الذي تقوله».

قال جين لنفسه: «بالطبع». شاهدَهما يمران، المغنية ورب عمله. «برأيي، الجميع مغرم بها. كيف يمكنها انتقاء أحد ما من بينهم؟».

سألته كارمن: «هل أنتَ مغرم بها؟». نظرت إليه بطريقة استحال عليها النظر بها منذ أسبوع مضى. فما كان من جين إلا أن يشيح بنظره بعيداً.

أجابها: «لا، لا». كان جين مغرماً بكارمن. وبالرغم من أنه كان يلتقي بها ليلياً في مخزن الخزف، حيث يساعدها على القراءة والكتابة، إلا أنه لم يُظهر هذا الحب. كانا يتكلمان حول الأحرف الساكنة والمتحركة وحول الإدغام وأحرف المِلكية. كانت تنسخ الأحرف على دفتر ملاحظات. وبالرغم من كل الكلمات التي كان يعطيها لها، إلا أنه يجدها دوماً تطلب المزيد. كان ليسرّها إبقاؤه صاحياً طوال الليل يكرر لها المعلومات ويمرنها عليها ويمتحنها فيها. لقد أمضى حياته بطولها في حالة حلم، حيث لم يكن صاحياً تماماً، ولا نائماً تماماً. ساوره في بعض الأحيان تساؤل إن كان هذا حباً، أم مجرد نقص في الراحة ولّد في قلبه كل هذا الشوق. فبات يتعثر. حينما يجلس على الكراسي المجنحة، وفي غضون الدقائق التي يغفو فيها، يحلم بكارمن. نعم، إنها خجولة. صحيح أنها إرهابية من الأدغال، لكنها تتمتع بالذكاء بقدر أي فتاة التقى بها في الجامعة. أمكنه معرفة ذلك من خلال الطريقة التي تلتقط فيها المعلومات. جل ما كانت تحتاج إليه هو القليل من الإرشاد. لقد أخذت تلتقط المعلومات بسرعة انتشار النار في الهشيم، ودوماً تطلب المزيد. كانت تنزع مسدسها كل ليلة وتضعه في الخزانة ذات الدرف الزجاجية إلى جانب السلطانية الزرقاء التي لها شكل الشختورة والمخصصة للصلصات. وتجلس على الأرض وتضع دفتر الملاحظات في حجرها، وقلمها الرصاص في حال طوارئ. لم تكن ثمة فتيات مثل كارمن في الجامعة. لم تكن ثمة فتاة مثل كارمن على الإطلاق. أي حس فكاهة سيحتاج المرء

إليه كي يصدق أن الفتاة التي تحب ليست في طوكيو أو باريس أو نيويورك أو أثينا، وأن الفتاة التي تحب ترتدي ملابس كالصبيان وتعيش في قرية في الأدغال، ولا يُسمح لك بمعرفة اسم هذه القرية، حتى كأن معرفة الاسم سيساعد كثيراً في محاولة إيجاد هذه البلدة. إن المرأة التي تحب، تضع مسدسها إلى جانب سلطانية صلصات زرقاء اللون حتى تعلمها كيف تقرأ. لقد دخلتْ حياتك عبر فتحة تهوئة، وكيف ستغادر حياتك هو السؤال الذي يقض مضجعك في اللحظات القليلة التي تتسنى لك لتنام.

قالت كارمن: «إن السيد هوسوكاوا والآنسة كوس، وجدا بعضهما البعض من بين كل البشر في العالم. ما هي فرص حدوث ذلك؟».

سأل جين: «ماذا عن السيدة هوسوكاوا؟». لم يكن يعرف زوجة رب عمله جيداً، لكنه رآها بضع مرات. وجدها امرأة لبقة، تمتلك يدين باردتين وصوتاً لطيفاً. كانت تناديه بالسيد واتاناب.

قالت كارمن وهي تشيح بنظرها ناحية المطبخ: «السيدة هوسوكاوا تعيش في اليابان التي تبعد حوالى مليون كيلومتر من هنا. كما أنه لن يعود إلى دياره. وبرغم أسفي على السيدة هوسوكاوا، إلا أنني أعتقد أنه لا يفترض بالسيد هوسوكاوا البقاء وحيداً».

«ماذا تقصدين بقولك إنه لن يعود إلى دياره؟».

ابتسمت كارمن في وجه جين ابتسامة صغيرة. رفعت رأسها كي يتمكن من رؤية وجهها من تحت قبعتها. «إننا نعيش في هذا المكان الآن».

فقال جين: «ليس إلى الأبد».

قالت كارمن وهي تتمتم الكلمات كي لا تُحدث ضجة: «بل أحسبنا كذلك». تساءلت إن كانت أفصحت عن الكثير. كانت تدرك أن وفاءها يجب أن يكون للجنرالات بالكامل، لكن البوح لجين ليس كالبوح لأي شخص سواه. بوسع جين حفظ السر، لأن كل ما يفعلانه كان سرياً: مخزن الخزف والقراءة. كانت تُوليه ثقة عمياء. نقرت على جانب يده بإصبعين، ثم مشت بعيداً عنه. انتظر دقيقة قبل لحاقه بها. سارت كارمن بهدوء، بخطى بطيئة ومرتاحة. لم يلحظ أحد مرورها. توجهت إلى الحمام الصغير في الرواق. لقد نفدت كل قطع الصابون الجميلة المعطرة بروائح الأزهار، وباتت المناشف وسخة، لكن البطة الذهبية لا تزال موجودة فوق حوض المغسلة، وعندما تفتح الصنبورين اللذين لهما شكل الجناح، تجد أن المياه لا تزال تتدفق من عنقها الطويل. نزعت كارمن قبعتها وغسلت وجهها. حاولت تسريح شعرها بأصابع يدها. بدا وجهها في المرآة قاتماً وجلفاً للغاية. في ديارها، كان يعتبرها البعض جميلة، لكنها رأت الآن الجمال الحقيقي، فباتت تدرك أنه شيء تفتقر إليه. في بعض الأيام، لكنْ قلة هي هذه الأيام، عندما تدخل كارمن صباحاً غرفة روكسان جالبة لها طعام الفطور، تجدها لا تزال نائمة، فتضع الصينية من يدها وتتحسَّس كتفها. وعندما تفتح روكسان

عينيها الزرقاوين الكبيرتين، تبتسم في وجه كارمن، وترفع الغطاء وتومئ لها بالاستلقاء بقربها على الشرشف المطرز الدافئ، فتحرص كارمن على أن تدلّي حذاءها على طرف السرير، وتغمض بعدها كل منهما عينيها، وتأخذان خمس دقائق إضافية من النوم بعد أن ترفع روكسان الغطاء حتى حدود عنق كارمن، وسريعاً ما تحلم كارمن بأخواتها وبوالدتها! وفي غضون بضع دقائق من النوم يأتين جميعهن إليها. يتمنين جميعاً لو يرينها هناك مسندة برأسها على وسائد هذا السرير المريح إلى جانب امرأة خيالية مثل هذه. شعرها أشقر، وعيناها زرقاوان، وبشرتها بيضاء كبياض الزهور المزدانة باللون الزهري. إذاً، من عساه لا يغرم بروكسان كوس؟

نادى فيكتور فيودورف، وهو يقترب من باب الحمام: «جين! لمَ يصعب إيجادك إلى هذه الدرجة، علماً بأنه ما من مكان لك لتذهب إليه؟».

«لم أنتبه».

«ألم تجد صوتها هذا الصباح، الكمالَ بعينه؟».

وافقه جين الرأي.

«إذاً، هذا هو الوقت المناسب لمخاطبتها».

«الآن؟».

«الآن، برأيي، هو الوقت الأنسب».

«ما فتئتُ أطلب منك ذلك على مدى جميع أيام هذا الأسبوع».

«لم أكن جاهزاً، هذا صحيح، لكن هذا الصباح عندما اخذتْ تنشد أغنية روسيني مراراً وتكراراً، أدركت أنها ستتفهم عدم لباقتي. إنها امرأة متعاطفة. اليوم تأكدت من ذلك». كان فيودورف يفتل يديه الضخمتين ببعضها البعض كأنه يغسلهما تحت مجرى الماء. وبالرغم من أن صوته كان هادئاً، إلا أنه ارتسمت في عينيه نظرة رعب شديد، وفاحت من بشرته رائحة الرعب القوية.

«بالنسبة إلي، هذا الوقت ليس بالـ...».

قاطعه فيودورف: «بالنسبة إليّ»، ثم أضاف: «سوف أفقد جرأتي على الكلام». كان فيودورف قد حلق ذقنه الطويلة، وهي عملية أخذت منه وقتاً، وآلمته أيضاً، بسبب سوء نوعية الشفرات، وبالتالي بانتْ مساحات أكبر من جلد وجهه الزهري الخالي من الشعر. كما جعل نائب الرئيس يغسل له ملابسه ويكويها وهو واقف بالقرب من الغسالة، يرتجف ويلف منشفة حول خصره. كان قد استحم وقص شعر أنفه وأذنيه بواسطة مقص يُستخدم لقص اللحم الميت حول الأظافر، حصل عليه بعدما رشا جيلبير بعلبة سجائر. ولأن الفرصة سنحت له قص أظافره، وحاول أن يفعل شيئاً ما بشأن شعره، لكن ثبت له أنها مهمة شاقة على مثل هذا المقص. إن هذا اليوم هو بكل تأكيد اليوم المرجو.

أومأ جين برأسه ناحية باب الحمام: «لقد كنتُ في طريقي إلى الحمام».

نظر فيودورف من فوق كتفه، ثم مد يده كأنه يقود جين إلى الداخل. «بالطبع، بالطبع ما من مشكلة. بوسعي الانتظار هذه المدة القصيرة، مهما طال الوقت. خذ وقتك. سأكون بانتظارك عند الباب. سأحرص على أن أكون أول المصطفين للحصول على مساعدة المترجم عندما يفرغ». كان العرق يتصبب من جانبي قميص فيودورف، تاركاً بقعة داكنة جديدة فوق الكثير من البقع الداكنة. فتساءل جين إن كان هذا قصده بقوله إنه غير قادر على الانتظار فترة أطول.

قال بهدوء: «دقيقة واحدة»، ثم دخل من دون أن يقرع الباب.

«أتمنى لو أنني فهمتُ ما كنتَ تقوله»، ثم ضحكت كارمن. حاولتْ أن تقلد الكلمات وتفوهت بترهات روسية بدت أشبه بـ «أنا لا أكسر طاولة أبداً».

وضع جين إصبعاً على شفتيه. كانت الغرفة صغيرة ومعتمة جداً، ببلاط رخامي أسود، وأرضية رخامية سوداء أيضاً. وقد احترقت واحدة من اللمبات المحاذية للمرآة. على جين أن يتذكر الطلب من روبن إبدال اللمبة.

جلستْ كارمن على المغسلة. «بدا أمراً مهماً جداً. أهو ليدبيد، الروسي؟». كانت تتكلم بهمس.

قال لها جين إنه فيودورف.

«آه، الرجل الضخم. وهل تجيد الروسية أيضاً؟ أنَّى لك معرفة كل هذه اللغات؟».

«إنها وظيفتي».

«لا، لا. هذا لأنك تفهم شيئاً ما، وأنا أود أن أعرفه أيضاً».

همس لها: «لدي دقيقة واحدة فحسب». كان قريباً جداً من شعرها الذي كان أكثر سواداً من الرخام. «عليّ القيام بالترجمة له. إنه ينتظرني وراء الباب مباشرة».

«بوسعنا التكلم الليلة».

هز جين رأسه نافياً. «أود التكلم حول ما قلته. ماذا تقصدين بقولك إن هذا هو المكان الذي نعيش فيه الآن؟».

تنهدت كارمن. «تعلم أنني لا أستطيع التكلم. لكن سل نفسك، هل سيكون من المريع كثيراً لو بقينا جميعاً في هذا المنزل الجميل؟». يبلغ حجم هذه الغرفة ثلث حجم مخزن الخزف. وبالتالي تلامس ركبتاها رجليه. وإن رجع نصف خطوة إلى الوراء يلامس المنضدة. تمنت لو تمسك بيده. لمَ عساه يود تركها، وترك هذا المكان؟

قال: «لا بد من أن ينتهي هذا الأمر عاجلاً أو آجلاً. مثل هذه الأحوال لا تتواصل إلى ما لا نهاية. على أحد ما أن يضع حداً لها».

«هذا فقط في حال اقترف الناس أعمالاً مريعة. ونحن لم نؤذ أحداً. كما أن أحداً ليس تعيساً هنا».

«الجميع تعساء هنا». عند تفوّه جين بهذا الكلام، لم يكن صادقاً بالكامل. أنزلت كارمن وجهها متفحصة يديها الموجودتين في حجرها.

«قالت له: «اذهب وترجم له».

«هل ثمة شيء يجدر بكِ إخباري به».

اغرورقت عينا كارمن بالدموع، ورمشت بعينيها بقوة. بكاؤها سيكون أمراً سخيفاً جداً. هل سيكون البقاء في هذا المكان مريعاً جداً؟ أن يظلا معاً مدة تكفيها لتتقن تعلم الإسبانية، وقراءتها وكتابتها، كي تتعلم الإنكليزية ثم اليابانية ربما؟ لكن هذا أنانية من قِبلها. وقد أدركت ذلك جيداً. إن جين محق في رغبته في الابتعاد عنها، ولا سيما أنها لا تقدم إليه شيئاً، بل تستهلك وقته فحسب. «أنا لا أعرف شيئاً».

قرع فيودورف على الباب. لم يسمح له توتره المتزايد بالقيام بأي شيء آخر. «أيها المـ ـ تر ـ جم؟»... غنّى الكلمة غناءً. فنادى جين عبر الباب قائلاً: «دقيقة واحدة».

لقد نفد الوقت، وذرفت كارمن بضع دموع. إنهما يحتاجان إلى تمضية أيام بطولها معاً. يحتاجان إلى أسابيع وشهور من دون مقاطعة، ليقولا كل ما يتحتم عليهما قوله. ثم قال لها أخيراً: «لعلكِ محقة». إن جلوسها على المغسلة ذات الرخام الأسود أمام المرآة، مكّنه من رؤية كلّ من وجهها وظهرها النحيف في آن معاً. وعلى هذه المرآة الضخمة البيضوية الشكل، ذات الإطار المزين بأوراق مطلية باللون الذهبي، كان يرى

وجهه فوق كتفها وهو ينظر إليها. وقد رأى في وجهه حباً ظاهراً بشكل جلي إلى درجة أنها فهمته كلياً. كان قريباً جداً منها إلى درجة أنهما تشاطرا كل ذرة من ذرات الهواء في تلك الغرفة الضيقة، وقد ثقل الهواء بالرغبة التي تسكنهما، فعمل على تفرقتهما عن بعضهما البعض. تقدم خطوة صغيرة إلى الأمام فأصبح وجهه في شعرها، ثم لفت يديها حول ظهره واحتضنا بعضهما البعض. بدا الوصول إلى هذه الحالة أمراً بسيطاً جداً؛ حالة تبعث على راحة مذهلة. لذا، لم يعرف سبب امتناعه عن احتضانها في كل دقيقة منذ التقيا.

ناداه فيودورف: «أيها المترجم؟». بدا في صوته بعض القلق هذه المرة. انحنت كارمن إلى الأمام وقبّلته. لم يكن ثمة وقت لتبادل القبل، لكنها أرادته أن يعلم بأنه في المستقبل سيتسنى لهما الوقت للقيام بذلك. إن قبلة وسط هذه الوحشة الشديدة، أشبه بيد تنتشلك من تحت الماء صوب مكان وفير الهواء. قبلة، ثم قبلة أخرى. همست له قائلة: «اذهب».

قام جين الذي لم يرغب في أحد في هذا العالم سوى هذه الفتاة وجدران هذا الحمام، بتقبيلها. كان مخطوف الأنفاس ومصاباً بالدوار، ما اضطره إلى الانحناء لوهلة مقابل كتفها حتى يتمكن من المغادرة. نزلت كارمن عن المغسلة ووقفت وراء الباب، وفتحته، ثم أرسلته خارجاً ليعود إلى العالم.

سأله فيودورف بطريقة توحي بالغضب أكثر منها بالقلق: «هل أصابكَ سوء ما؟». الآن باتت قميصه من الخلف ملتصقة بكتفيه

نتيجة العرق. ألا يعرف المترجم أن هذا الأمر ليس باليسير عليه؟ كل هذا الوقت الذي أمضاه، أولاً يفكر إذا وجب عليه التكلم أم لا، ثم أخذه القرار بالتكلم، ثم بعد أخذ القرار تحتم عليه أخذ قرار في شأن ما عليه التكلم به. إن المشاعر في قلبه واضحة، لكن ترجمة هذه المشاعر إلى كلمات هي الأمر الصعب. كان ليدبيد وبيريزوفسكي متعاطفين معه، لكنهما روسيان. لقد تفهما الألم الناجم عن حب فيودورف. في الحقيقة، هما أيضاً اختبرا مثل هذه الآلام. لم يكن مستبعداً أن يستجمعا قوتهما في النهاية ويتوجها إلى المترجم كي يتكلما مع مغنية الأوبرا. كلما أفاض فيودورف في كلامه حول رغبة قلبه، ازدادا ثقة بأن الأمر عبارة عن مرض أصابهم جميعاً.

قال جين: «أعتذر عن التأخير». لقد ذابت الغرفة خلفه، ونأت كالطيف في الصحراء. استند إلى الوراء إلى باب الحمام المغلق. إنها هناك، على بعد أقل من سنتيمترين ونصف السنتيمتر من الخشب وراءه.

قال الروسي: «إنك لا تبدو على ما يرام». بات الآن مهتماً لحاله. كان يكنّ محبة للمترجم. «يبدو صوتكَ ضعيفاً».

«أنا واثق من أنني سأصبح على ما يرام».

«أعتقد أنكَ شاحب اللون، وها إن عينيك دامعتان. ربما إن كنتَ مريضاً جداً سيسمح لك الجنرالات بالخروج. فبعد ما حدث مع العازف باتوا يدعون أنهم متعاطفون كثيراً مع المرضى».

رمش جين بعينيه في محاولة منه لتثبيت الأثاث المتأرجح، لكن تقليمات القماش الناصعة اللون ظلت تنقر على وتر دمه. وقف باستقامة ونفض رأسه. قال بطريقة مشككة: «انظر إلي. بتُّ بخير. أنا لا أنوي المغادرة البتة». نظر إلى الشمس التي ترسل أشعتها عبر النوافذ الطويلة، وإلى ظلال الأوراق التي تتهادى على السجادة. وأخيراً، عندما بات جين واقفاً هنا إلى جانب الروسي، فهم ما كانت كارمن تقوله. انظر إلى هذه الغرفة! السجاد والنجف، وسائد الكنبات الناعمة والكبيرة، الألوان، الذهبي والأخضر والأزرق، كل شيء جوهرة من الجواهر.

من عساه يرفض التواجد في هذه الغرفة؟

ابتسم فيودورف وربّت على ظهر المترجم: «يا لكَ من رجل! أنت رجل الشعب. آه كم أنا معجب بك».

كرر جين قائلاً: «كله من أجل الشعب». كانت اللغة السلافية أشبه بعصير إجاص على لسانه.

«إذاً، سنتوجه للتحدث إلى روكسان كوس! ليس لدي وقت لأغتسل فيه ثانية. إن توقفتُ الآن فقد أخسر شجاعتي إلى الأبد».

مشى جين أمامه إلى المطبخ، لكن بدا كأنه يمشي وحده. لم يكن يفكر بتاتاً في فيودورف، في ما يشعر به، وفي ما قد يود قوله. كان رأس جين ممتلئاً بكارمن. كارمن الجالسة إلى المغسلة. سوف يتذكر جلستها هذه طوال العمر. بعد أعوام من الآن، عندما تخطر في باله، سيفكر فيها كما كانت عليه هذا

اليوم، جالسة إلى جانب الرخام الأسود العالي، وحذاء العمل العالي الساق الذي تنتعله مربوط بسلك كهربائي، وراحتا يديها مبسوطتان على البلاط الرخامي البارد، وشعرها متدل بشكل مستقيم، ومفروق من النصف، ومدسوس وراء أذنين صغيرتين. فكر في القبلة، وفي ذراعيها اللتين أحاطتا بظهره، لكن المتعة الكبرى كانت في رؤيته وجهها، المرتسم على شكل قلب، وعينيها البنيتين الداكنتين، وحاجبيها غير المرتبين، وفمها المدوّر الذي تمنى تقبيله. كان يسهل كثيراً تشتيت انتباه السيد هوسوكاوا عن دراسته. إن تقل له كلمة يوماً ينسَها على الفور في اليوم التالي. كان يضحك على أخطائه، ويضع علامة «صح» صغيرة إلى جانب الكلمات التي أخطأ في لفظها. لكن ليس كارمن. إن تقل كلمة ما لكارمن، فكأنك قمت بخياطتها وتثبيتها إلى الأبد في طيات دماغها الحريرية. فتراها تغمض عينيها وتكرر الكلمة، وتلفظها بصوت عال وتكتبها على الورقة، ثم تمتلكها. لم يكن بحاجة إلى سؤالها ثانية. ويواصلان الدرس ويمضيان قدماً في الدرس طوال الليل، كأن الذئاب تطاردهما. كانت تريد المزيد من كل شيء: المزيد من المفردات، المزيد من الأفعال. أرادت منه تفسير القواعد اللغوية وقواعد التحريك. أرادت تعلم أسماء الأفعال، صيغ المصدر الأساسية، وأسماء الفاعل والمفعول. وعند نهاية الدرس، بعد أن ينال التعب منهما، ترجع بظهرها إلى الوراء، وتستند إلى الخزائن في مخزن الخزف وتتثاءب، وتقول له: «أخبرني عن علامات الوقف»، والصحون مكدسة فوق رأسها، حيث يوجد طقم مذهّب يكفي أربعة وعشرين

شخصاً، وطقم على طرفه خط عريض فضي وأزرق يكفي لستين شخصاً، وكل فنجان معلق على عقيفته لا يتزحزح.

«لقد تأخر الوقت كثيراً. لا تقولي لي إنك تودين أن تعرفي عن علامات الوقف الليلة».

فإذ بها تكتف ذراعيها على صدرها الصغير، وتجعل ظهرها ينزلق على الأرض، فتتعمد الخطأ، وتقول: «الفواصل تنهي الجملة»، مُجبِرة إياه على تصحيح معلوماتها بهدف الشرح لها.

فيغمض جين عينيه وينحني إلى الأمام ويضع رأسه على ركبتيه. كان النوم عبارة عن بلد لا يقوى على أخذ جواز بالدخول إليه. فيقول وهو يتثاءب: «الفواصل أدوات للوقف القصير في الجملة، وللفصل بين الأفكار».

قال فيودورف: «آه، إنها برفقة رب عملك».

رفع جين رأسه ونظر، فغابت كارمن وبات هو في المطبخ مع فيودورف. يبعد مخزن الخزف خمس أقدام فحسب. وإلى حد علمه كان هو وكارمن الوحيدين اللذين يدخلانه. كان السيد هوسوكاوا وروكسان واقفين عند حوض الجلي. بدا غريباً أنه برغم عجزهما عن تبادل الحديث، إلا أنهما يبدوان دوماً كأنهما منخرطان في حديث ما. كان إيغناسيو وأمبرتو وغوادالوبي جالسين حول طاولة الفطور يقومون بتنظيف الأسلحة، حيث ينشرون على جرائد وضعوها أمامهم مجموعة من المعادن التي فكوها من الأسلحة ويقومون بتزييت كل قطعة. وتيبولت جالس إلى الطاولة معهم يقرأ في كتب الطهو.

قال فيودورف بحزن: «أعتقد أنه تجب علي محاولة التكلم معها لاحقاً. عندما لا تكون مشغولة إلى هذا الحد».

لم يبد على روكسان أنها مشغولة على الإطلاق. كانت واقفة هناك بكل بساطة، وتمرر إصبعها على حافة كوب، ورأسها مرفوع تجاه الضوء. فقال له جين: «يجدر بنا على الأقل سؤالها». أراد أن يفرغ من هذا الأمر، كي لا يظل فيودورف يلحق به من مكان إلى آخر، مدعياً أنه بات الآن قادراً على الكلام، ثم يدعي بعد دقيقتين أنه عجز عن ذلك.

أخرج فيودورف منديلاً كبيراً من جيبه ومسح به وجهه كأنه يحاول إزالة بقعة وسخة. «ليس هناك داع للقيام بهذا الآن. سوف لن نذهب إلى أي مكان. سوف لن يُطلق سراحنا أبداً. ألا يكفيني أنه تتسنى لي رؤيتها يومياً؟ إن هذا لهو الترف الأعظم بعينه. والباقي كله أنانية من قِبلي. ماذا أحسبني سأقول لها؟».

لكن جين لم يكن يستمع إليه. لم تكن الروسية لغته المفضلة على الإطلاق. وإن أضاع تركيزه على الكلام لوهلة واحدة، فإن هذا الكلام يصبح مجرد مزيج من الأحرف الساكنة، حروف سلافية صعبة تنقر كحبات البَرَد على سقف قصديري. ابتسم في وجه فيودورف وهز برأسه، وهو نوع من الكسل ما كان أبداً ليسمح لنفسه به في العالم الواقعي.

قال السيد هوسوكاوا لجين عندما لاحظ وقوفه في ذاك المكان: «أليس ضوء الشمس جميلاً؟ بت فجأة أشعر بالجوع، والشيء الوحيد الذي من شأنه إشباعي هو أشعة الشمس. وجل

ما أود فعله هو الوقوف بمحاذاة النوافذ. أتمنى ألا يكون مرد ذلك إلى وجود ضعف في الفيتامينات عندي».

قال جين: «أعتقد أننا بتنا جميعاً نفتقر إلى شيء ما. أنت تعرف السيد فيودورف».

انحنى السيد هوسوكاوا له. شعر فيودورف بالارتباك نحوه، فانحنى بدوره له ثم لروكسان، التي انحنت له، لكن ليس كثيراً. كانوا واقفين على شكل دائرة، ويشبهون إلى حد كبير النعامات وهي تدس أعناقها الطويلة في المياه. «إنه يود التحدث إلى روكسان حول الموسيقى». تفوه جين بهذه الجملة باليابانية أولاً، ثم كررها بالإنكليزية. فابتسم كل من السيد هوسوكاوا وروكسان في وجه فيودورف الذي ضغط بالمنديل على فمه كأنه على وشك البدء بقضمه.

«إذاً، سأتوجه أنا للعب الشطرنج». نظر السيد هوسوكاوا إلى ساعته. «يفترض بنا اللعب عند الساعة الحادية عشرة. لكني لن أكون مبكراً جداً بالوصول».

قال جين: «أنا واثق من أنه ليس ثمة داع كي تذهب».

«لكن ليس هناك داع أيضاً للبقاء». نظر السيد هوسوكاوا إلى روكسان وبدا أنه يوصل جمع أفكاره بكل صمت عبر رسم تعابير حنونة على وجهه: إنه ذاهب، وسوف يلعب الشطرنج، وبوسعها لاحقاً اللحاق به والجلوس معهما إن شاءت. تبادل كل منهما الابتسامات لوهلة قصيرة، ثم غادر السيد هوسوكاوا عبر الباب المتأرجح. ثمة رشاقة في خطواته لم يلحظها جين من قبل. فقد

مشى ورأسه مرفوع. كان يرتدي بنطال البزة الرسمية الرث، وقميصه البالية، ولا يشعر برغم ذلك.

قالت بصوت خفيض ناظرة إلى المكان الفارغ الذي خلّفه السيد هوسوكاوا: «إن صديقكَ رجل رائع».

فقال جين: «لطالما كان هذا رأيي فيه». كان لا يزال يساوره بعض الارتباك بالرغم مما أفصحت كارمن عنه. كانت النظرة التي تبادلاها لا تزال آثارها ظاهرة في عينيه. كان جين مغرماً، وقد وجد هذا الشعور غريباً عليه، بحيث وجد صعوبة في التصديق أن الآخرين يختبرون هذا الشعور نفسه. ما عدا بالطبع سيمون تيبولت الذي كان جالساً هناك مع كتب الطبخ خاصته، وهو يلف حول عنقه وشاح زوجته الأزرق كالعَلَم. كان الجميع يدركون أن تيبولت غارق في الغرام.

رفعت روكسان وجهها عالياً بقدر طول فيودورف الفارع. وعندما تحولّت إلى فيودورف للنظر إليه، نظرت إليه بطريقة مختلفة. أبدت استعداداً للإصغاء، باتت جاهزة لجعل المتكلم يشعر بأن ما يقوله له معنى فعلي بالنسبة إليها. «سيد فيودورف، هل تجد راحة أكبر إن جلسنا في غرفة الجلوس؟».

انهار فيودورف تحت ثقل سؤال مباشر. بدا أن الترجمة سببت له الارتباك. وعندما بات جين جاهزاً لترجمة كلامه، قال: «أنا أشعر بالراحة حيثما ترتاحين أنت. يسعدني كثيراً البقاء في المطبخ. أجدها غرفة جيدة وأنا شخصياً لم أمض فيها الكثير من وقتي». في الواقع، بقدر ما يثق فيودورف بليدبيد

وبيريزوفسكي، إلا أنه يفضل أن يكون في غرفة حيث لا يستطيع أحد أن يسترق السمع بالروسية أو الإنكليزية. إن الأصوات الصادرة بين الفينة والأخرى عن اصطكاك مواسير البنادق لدى اصطدامها بالطاولة، أو قيام تيبولت بلعق شفتيه بلسانه عندما يجد وصفة لذيذة، بدت أنها تصد عنهم أسماع الغير.

قالت روكسان: «بكل تأكيد يناسبني هذا المكان»، ثم ارتشفت رشفة من كوب الماء. ولدى مشاهدة فيودورف منظر المياه وشفتيها، سرت الرجفة في أركانه، ما اضطره إلى أن يشيح بنظره بعيداً. ما الذي أراد قوله؟ كان الأحرى به كتابة رسالة. أما كان هذا ليكون مناسباً أكثر؟ وبوسع المترجم ترجمتها. فالكلمة تظل كلمة، سواء أُلفظتْ أم كُتبت.

قال فيودورف: «أظنني بحاجة إلى كرسي».

أحسَّ جين بالضعف في صوته وهرع لجلب كرسي. كان الروسي ينهار حتى قبل وصول الكرسي، وبالكاد أفلح جين في دس الكرسي تحته في الوقت المناسب، ثم أطلق الرجل الضخم زفيراً كبيراً أمكن أن يمثل نهاية كل شيء، وأنزل رأسه إلى الأسفل ناحية الأرض.

قالت روكسان وهي تنحني فوقه: «يا إلهي، هل هو مريض؟». سحبت منشفة عن مسكة البراد وبللتها في المياه التي كانت تشربها. ثم وضعتْ المشفة الوبرية الباردة على رقبته الطويلة الزهرية اللون. أنّ قليلاً عندما أسندت يدها فوق المنشفة.

سألت روكسان جين: «هل تعلم ما يشكو منه؟ لقد بدا على

خير ما يرام عندما دخل هنا. حالته أشبه بحالة كريستوف، من حيث لونه وفقدانه الوعي. أيعقل أن يكون مصاباً بداء البول السكري؟ المسه، إنه بارد!».

همس فيودورف من بين ركبتيه: «أخبرني ما الذي تقوله».

فقال له جين: «إنها تريد أن تعرف ماذا أصابك».

ساد صمت طويل، ووضعت روكسان أصابعها فوق رقبته لتطمئن إلى نبضه. استقرت اثنتان من أصابعها الرفيعة تحت شحمة أذنه الكبيرة. وقال: «قل لها إنه الحب».

«الحب؟».

هز فيودورف برأسه. كان شعره كثيفاً ومموجاً وليس نظيفاً كثيراً. غمر الشيب جانبي رأسه، أما تاج رأسه حيث كان جين وروكسان يحدقان فيه، فلا يزال أسود كتاج رأس شاب.

قال جين وهو يشعر بأنه خُدع ووُضع في وضع غريب: «أنتَ لم تذكر لي شيئاً عن الحب».

فقال فيودورف «أنا لستُ واقعاً في حبكَ أنت. لمَ عساي أكلمكَ أنت عن الحب؟».

«هذا ليس ما كنتُ أعتقد أنني هنا لترجمته».

أفلح فيودورف، بجهد كبير، في رفع نفسه إلى الأعلى. لم تكن بشرته رطبة فحسب، لكن لها لون البطلينوس وقوامه. «إذاً، ما الذي جئتَ لترجمته، ما تراه مناسباً؟ هل يُفترض بنا التحدث

عن حالة الطقس فحسب؟ منذ متى يعود إليك الأمر في أخذ القرار بشأن ما يُفترض بالناس قوله لبعضهم البعض؟».

كان فيودورف محقاً. اضطر جين إلى الاعتراف بذلك. لم تكن مشاعر المترجم الشخصية محط السؤال هنا. لم يكن من واجب جين القيام بتحرير الحديث، كما يحصل في أي مقابلة صحافية. بالكاد تحتم عليه الإصغاء. فقال: «حسناً». من السهل جداً أن يعبّر المرء عن التعب بالروسية. «حسناً إذاً».

سألت روكسان: «ما الذي يقوله؟»، وقد نقلت المنشفة إلى جبينه بعدما بات جالساً الآن.

قال جين لفيودورف: «تود أن تعرف ما الذي تقوله. هل أقول لها إنه الحب؟».

ارتسمت على وجه فيودورف ابتسامة وهن. بوسعه تجاهل الأمر برمته. لم يحدث ضرر كبير حتى الآن، بل مجرد شعور بسيط بالإغماء. كان أمله الوحيد أن يبدأ من البداية، أن يبدأ الحديث بالطريقة التي تمرّن عليها مئة مرة أمام ليدبيد وبيريزوفسكي. فتنحنح منظفاً حنجرته، ثم افتتح كلامه بصوت خفيض: «في بلادي، أنا وزير التجارة. وهو منصب يتم تعييني فيه، ومن الممكن أن أفقده بلمحة بصر». طقطق إصبعيه، لكنه لم يفلح في إصدار صوت منهما، فقد كانا متعرقين ما جعلهما ينزلقان عن بعضهما البعض من دون إحداث أي صوت. «لكن في الوقت الراهن، إنها وظيفة ممتازة وأنا ممتن لذلك. أن يقدّر المرء ما يمتلكه في الوقت الذي يمتلكه فيه، فإن ذلك يجعل منه

رجلاً محظوظاً». حاول النظر في عينيها، لكن الأمر فاق قدرته. كان يشعر بامتعاض في أسفل أمعائه.

كان جين يترجم كلامه ويحاول ألا يفكر في المنحى الذي تسير إليه الأمور. قالت روكسان: «سَلْهُ إن كان يشعر بحال أفضل. أعتقد أن لون وجهه قد تحسّن». أخذت المنشفة عن رأسه، فبدت عليه خيبة الأمل.

«تريد أن تعلم كيف تشعر الآن».

«هل هي تصغي إلى القصة؟».

«أنت تراها بعينيك كحالي أنا».

«قل لها إنني بخير. قل لها الآتي: لم تكن روسيا تنوي أبداً أن تستثمر أموالاً في هذا البلد الفقير». وأبقى عينيه أطول مدة ممكنة في عيني روكسان كوس، لكن عندما بدأت عيناه ترهقانه جداً التفت إلى جين. «إن لدينا دولتنا التي هي فقيرة بحد ذاتها، إضافة إلى العديد من الدول المجاورة الفقيرة التي تستلزم الدعم. عندما وصلتني الدعوة إلى حضور هذه الحفلة، كان صديقي السيد بيريزوفسكي، وهو رجل أعمال مهم موجود هنا، وقال إنه يجدر بي المجيء، أخبرني أنكِ ستحيين الحفلة. لقد جمعتنا مقاعد الدراسة، أنا وبيريزوفسكي وليدبيد. كنا من أعز الأصدقاء. وبت أنا اليوم في الحكومة، وبيريزوفسكي في مجال الأعمال، وليدبيد، بوسعك أن تقولي إنه يعمل في مجال القروض. لقد درسنا في سان بطرسبرغ معاً. وكنا نتوجه دوماً لحضور الأوبرا. عندما كنا شباناً، كنا نقف في مؤخر القاعة مقابل بضعة

روبلات، لأننا لم نكن نمتلك المال حينها. ومن ثم شغلنا وظائف، وصرنا نجلس في مقاعد. وعندما شغلنا مناصب أفضل صرنا نجلس في مقاعد أفضل. بوسعك معرفة تقدّمنا المهني في هذا العالم عبر المكان الذي كنا نجلس فيه في دار الأوبرا، مقابل ما كنا ندفعه من مال، ثم لاحقاً، ما كنا نتقاضاه. لقد شاهدنا جميع مغني الأوبرا الروس: تشايكوفسكي، ماسورغسكي، رمسكي - كورساكوف، بروكوفييف».

كانت الترجمة بطيئة، لذا وجب على الطرفين الانتظار مطوّلاً. قالت روكسان: «روسيا تمتلك أوبرا جميلة». وضعت المنشفة في حوض الجلي وتوجهت لتجلب كرسي لنفسها، بما أنه بدا أن أحداً لن يجلب لها كرسياً، كما وقد بدت هذه القصة كأنها ستطول. عندما وضعت يدها على كرسي، قفز الفتى المدعو سيزار عن الكرسي، حيث كان ينظف سلاحه وحمل الكرسي لها.

قالت له بالإسبانية: «شكراً». كانت هذه الكلمة الوحيدة التي تعرفها.

قال جين وهو نفسه لا يزال واقفاً: «أنا آسف. لستُ أدري بما كنت أفكر».

فقالت روكسان: «أظنكَ كنت تفكر في اللغة الروسية، فإنها كفيلة بشغل البال. هل لكَ علم إلى أين ستصل هذه القصة؟».

ابتسم فيودورف بكل هدوء، وبات لون خديه وردياً الآن.

«لدي فكرة مبهمة».

«حسناً لا تخبرني، لا أود أن أفقد عنصر المفاجأة. أظن أن هذه تسلية اليوم». أسندت ظهرها إلى الوراء ووضعت رجلاً فوق أخرى، ثم مدت يدها إشارة إلى فيودورف لإكمال كلامه.

انتظر فيودورف لوهلة. كان يعيد التفكير في موقعه برمته. بعد أسبوعين من التخطيط، ها هو يدرك الآن أن المسار الذي انتقاه ليس صحيحاً البتة. ما أراد قوله لها لم يبدأ في المدرسة. لم يبدأ في الأوبرا حتى لو كانت العامل الذي دفعه إلى المجيء إلى هذا المكان. إن القصة التي يجدر به أن يرويها بدأت في وقت أبكر بكثير من هذا. ثم بدأ من جديد، واضعاً تفكيره في روسيا وفي طفولته، بين السلم المفتول الداكن الذي يؤدي إلى الشقة التي كانت عائلته تسكن فيها. حنى كتفيه إلى الأمام ناحية روكسان، وتساءل في أي اتجاه تقع روسيا بالنسبة إلى المكان الذي يجلس فيه. «عندما كنت فتى صغيراً، كانت مدينتنا تدعى لينينغراد. لكن كما تعلمين، أُطلق على المدينة لمدة قصيرة اسم بتروغراد، لكن أحداً لم يعجبه هذا الاسم. حري بالمدينة، إما أن تحظى باسمها القديم، وإما باسم جديد، لكن ليس اسماً مهجناً من الاسمين. كنا في تلك الأيام، نعيش جميعاً معاً، أبي وأمي، وأخويّ، وجدتي لأمي. كانت جدتي تمتلك كتاب اللوحات. كان كتاباً كبير الحجم». رفع فيودورف يديه في الهواء ليشير إلى حجم الكتاب. إن صَدُقَ كلامه، فالكتاب ذو حجم هائل. «لقد أخبرَتْنا أن معجباً بها من أوروبا أعطاها

الكتاب عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت تدعو هذا الرجل بجوليان. لا أدري إن كان ذلك صحيحاً. فقد كان يُعرَف عن جدتي ميلها إلى سرد القصص. ما هو أهم من كيفية حصولها على الكتاب، هو كيف أفلحت في الاحتفاظ به طوال فترة الحرب، وهذا يبقى لغزاً كبيراً في نظري. من اللافت كثيراً، والغريب أكثر، أنها لم تحاول بيعه أو حرقه مقابل الوقود، لأنه أتى زمان كان الناس يحرقون فيه أي شيء، ولم يؤخذ منها نظراً إلى صعوبة تخبئته. لكن، عندما كنتُ صبياً، كانت قد مرت أعوام كثيرة على الحرب، وباتت هي امرأة مسنة. لم نكن نذهب إلى المتاحف لمشاهدة اللوحات في تلك الأيام. كنا نمر بمحاذاة قصر الشتاء، وهو مكان رائع، لكن لا ندخله. أتصور أنه لم يكن معنا مال يكفينا لدخول تلك الأمكنة. لكن في فترات المساء، تجلب جدتي كتابها، وتطلب مني ومن أخويّ الذهاب لغسل أيدينا. لم يكن مسموحاً لي حتى لمس الأوراق إلى أن بلغت العاشرة من عمري، لكن ظللتُ أغسل يديّ لمجرد نيل شرف مشاهدته. كانت تحفظه في قطعة قماش تحت الكنبة في غرفة الجلوس، حيث كانت تنام. كانت تأنّ لدى حمله، لكنها لا تسمح لأي كان بمساعدتها. وعندما تتأكد من نظافة الطاولة تضع القماش والكتاب في داخلها عليها، ثم تفتح القماش، ثم لا تلبث أن تجلس. كانت امرأة صغيرة الحجم، وكنا نقف إلى جانبها. كانت شديدة الحرص في ما يتعلق بالإنارة فوق الطاولة. لا يجدر بها أن تكون ساطعة كثيراً لأنها كانت تخشى أن تبهت الألوان، كما لا يجدر بها أن تكون

خافتة جداً لأنها تشعر حينها بأن اللوحات لن تُفهم جيداً. كانت تضع في يديها قفازين بيضاوين من القطن، كانا نظيفين جداً ومخصصين لهذا الغرض، وتقلب الصفحات ونحن نشاهد. هل يسعك تصور هذا؟ لا يسعني القول إننا كنا مدقعي الفقر لأن حالنا كانت تشبه حال الجميع. كانت شقتنا صغيرة، وكنتُ أنا وأخواي نتشاطر سريراً واحداً. لم تكن عائلتنا تتميز عن العائلات الأخرى التي تسكن المبنى، إلا في ما يتعلق بامتلاكنا هذا الكتاب. كم كان هذا الكتاب مميزاً. كان اسمه «نخبة أعمال المرحلة الانطباعية». لم يكن أحد يعلم بامتلاكنا إياه. لم يكن مسموحاً لنا أن نأتي على ذكره، لأن جدتي كانت تخشى أن يأتي أحد ويحاول انتزاعه منها. كانت اللوحات تعود إلى بيسارو، وبونار، وفان غوغ، ومونيه، ومانيه، وسيزان، ومئات من اللوحات الأخرى. رائعة هي الألوان التي كنا نراها ليلاً وهي تقلّب الصفحات. كنا نتفحص كل لوحة. كانت تقول إن كل لوحة تستحق تقديراً بالغاً. كانت تمر ليالٍ لا تقلّب فيها سوى صفحتين. أنا واثق من أن ذلك كان قبل سنة من مشاهدتي الكتاب برمته. كان كتاباً مميزاً، على ما أعتقد، حيث تم إنجازه بحِرَفية. بالتأكيد لم أشاهد النسخات الأصلية لكل اللوحات، لكن اللوحات التي شاهدتها في الأعوام التالية وجدتها تماماً كما كنتُ أذكرها. قالت لنا جدتي إنها كانت تتكلم الفرنسية في صباها، لذا كانت تقرأ لنا بقدر ما كانت تذكر النصوص المكتوبة تحت اللوحات. بالطبع كانت تختلق الكلام لأن كلامها كان يتغير كل مرة. لكن لم يكن للأمر أهمية. لقد كانت قصصاً

جميلة. كانت تقول: هذا هو الحقل الذي رسم فيه فان غوغ زهرات دوّار الشمس. ظل طوال النهار جالساً تحت السماء الزرقاء يتعرض لأشعة الشمس الحارقة. وعندما تمر الغيوم البيضاء فوق رأسه يُبقيها في ذهنه من أجل لوحات مستقبلية. وهنا على هذه الكنفا وضع هذه الغيوم. هكذا كانت تتكلم معنا، مدعية أنها كانت تقرأ. أحياناً تظل تقرأ لمدة ٢٠ دقيقة في حين أن النص لا يتعدى بضعة أسطر. فتقول إن السبب في ذلك يعود إلى أن اللغة الفرنسية لغة أكثر تعقيداً من الروسية، وأن كل كلمة تحمل في طياتها معاني جُمَل عدة. كان ثمة الكثير من اللوحات للكلام عليها. كان ذلك قبل أعوام عديدة جداً من حفظي كل هذه اللوحات. حتى هذه اللحظة، بوسعي إخبارك بعدد كومات القش الموجودة في الحقل، ومن أي اتجاه يصدر الضوء».

توقف فيودورف عن الكلام ليسنح لجين فرصة اللحاق به. وانتهز الفرصة للنظر إلى الأشخاص الجالسين حول الطاولة: لقد ماتت جدته، ووالده ووالدته ماتا، وأخوه الأصغر ديمتري غرق في حادثة صيد في عمر الحادية والعشرين. لم يبق من العائلة سوى شخصين. فتساءل عن أخيه ميكال الذي لا بد من أنه يتابع قصة اختطافه في نشرات الأخبار في المنزل. فكر فيودورف في أنه لو قُدّر له أن يموت هنا، فسيبقى ميكال وحده في هذا العالم من دون وجود أي فرد من العائلة ليواسيه. «في بعض الأحيان، ترفض إخراج الكتاب رفضاً قاطعاً. تقول إنها تشعر بالتعب. تقول إن هذا القدر من الجمال يؤذيها. وأحياناً يمر أسبوع بطوله أو ربما أسبوعان، والكتاب ممنوع! أذكر أنني كنت أشعر

بالغضب الشديد، فقد أصبحتُ مدمناً على تلك اللوحات. لكن، كان ثمة شيء عدا الكتاب جعلنا نحبه بهذا الجنون، هو الانتظار والتشويق اللذان كانت جدتي تجيد صناعتهما». ثم أضاف وقد بات صوته أكثر انخفاضاً: «كان يمكنني أن أحظى بحياة واحدة، لكنني حظيت باثنتين بسبب هذا الكتاب الذي كانت جدتي تحتفظ به. أي معجزة هذه؟ لقد تم تعليمي حب الأشياء الجميلة. كانت لدي لغة أعبر فيها عن الجمال. امتد ذلك لاحقاً إلى الأوبرا، ثم إلى الباليه، ثم إلى الهندسة المعمارية التي كنت أراها، ثم لاحقاً أدركت أن ما كنت أراه في اللوحات بوسعي رؤيته في الأنهر وفي الحقول. بوسعي رؤيته في الناس. كل ذلك أعزوه إلى ذاك الكتاب. في سنيّ حياتها الأخيرة، لم تعد قادرة على حمله، فكانت ترسلني أنا لجلبه. كانت يداها ترتجفان أيضاً، لذا كانت تخشى أن تمزق الأوراق، فصارت تسمح لنا بتقليب الصفحات. كانت يداي كبيرتين كثيراً نسبه إلى كفيها، لكنها علمتني كيف أضعهما بين أصابعي كقطعة قماش حتى أُبقي كل شيء نظيفاً». تنهد فيودورف، كأن هذه الذكرى هي أكثر ما أثّر فيه. «الكتاب موجود مع أخي الآن. إنه طبيب وهو خارج موسكو. إننا نتبادله في ما بيننا كل بضع سنين. لا يسع أياً منا البقاءُ من دونه. لقد حاولتُ إيجاد نسخة أخرى، لكن لم يحالفني الحظ. أعتقد أنه ليس ثمة كتاب مثله في العالم أجمع». كان فيودورف قادراً على الاسترخاء خلال قيامه بالتكلم. إن الكلام هو ما يبرع فيه. شعر بأنه يتنفس بسهولة. لم يعمد قبل هذه اللحظة إلى الربط بين الكتاب وجدوى قصته،

فتساءل الآن كيف لم يسبق له أن لاحظ هذا الأمر من قبل. «أسِفتْ جدتي جداً كون أحد منا لم يمتلك موهبة الرسم. حتى في نهاية حياتها، عندما كنتُ في الجامعة أدرس إدارة الأعمال، كانت تخبرني بوجوب معاودة محاولة الرسم. لكنه لم يكن أمراً أقدر على تعلّمه. كانت تحب قول إن أخي ديمتري كان ليصبح رساماً عظيماً، لكن هذا لأن ديمتري كان ميتاً ليس إلا. بوسعنا أن نتخيل الموتى كيفما نشاء. لطالما كنتُ أنا وأخواي مشاهدين ممتازين. هناك بعض الناس وُلدوا لصنع فن جميل، وهناك آخرون ولدوا لتقديره. ألا تعتقدين ذلك؟ إنه نوع من الموهبة، أن تكون مشاهداً، سواء أكنتَ مشاهداً في صالة عرض للوحات، أم مستمعاً إلى صوت أعظم مغنية أوبرا في العالم. لا يمكن أي شخص أن يكون فناناً. يجب أن يكون هناك من يشهد على الفن، ويحب ويقدّر ما حظي بشرف مشاهدته». كان فيودورف يتكلم ببطء، ويتوقف مطولاً بين الجمل، حتى لا يصعب على جين مجاراته. لهذا السبب، كان يصعب الجزم إن كان قد أنهى كلامه.

قالت روكسان أخيراً: «إنها قصة جميلة».

«لكن هناك خلاصة لها».

أرجعت روكسان ظهرها إلى الوراء لسماع الخلاصة.

«قد لا يبدو جلياً من الوهلة الأولى أنني رجل يفهم الفن إلى أبعد الحدود، وأنا أريدكِ أن تعلمي أنني كذلك. وزير التجارة في روسيا، ماذا يعني لك هذا؟ وبرغم ذلك، وبسبب نشأتي، أشعر بأنني مؤهل كثيراً».

انتظرت روكسان من جديد لترى إن كان ثمة مزيد من العبارات المختارة بعناية صائغ مجوهرات. وعندما وجدت أنه ما من بوادر إلى ذلك، سألته: «مؤهل لماذا؟».

فأجابها فيودورف: «مؤهل لحبكِ. أنا أحبك».

نظر جين إلى فيودورف ورمش بعينيه. شعر بأن الدم ما عاد يسري في وجهه.

فسألته روكسان: «ماذا قال؟».

قال فيودورف: «هيا أخبرها».

كان شعر روكسان مرفوعاً عن وجهها ومربوطاً برباط مطاطي زهري اللون، أُعطي لها من غرفة الابنة الكبرى لنائب الرئيس. من دون مساحيق التبرج أو المجوهرات، ومن دون حلّ شعرها لينسدل حول وجهها، قد يحسبها المرء عادية وغير فائقة الجمال، لو أنه لا يعرف قدراتها. تبدّى لجين أنها تتحلى بالصبر لانتظارها طوال هذه المدة والإصغاء إليه، وقد أبقت عينيها على فيودورف من دون أن تسهو وتحدق إلى خارج النافذة. وجد أن اختيارها للبقاء برفقة السيد هوسوكاوا ينم عن قوة شخصيتها، حيث إن هناك سواه من الرجال الأقل شأناً ويتكلمون الإنكليزية. كان جين معجباً كثيراً بغنائها، ولم يكن هناك داع لقول ذلك. وفي كل يوم تغني فيه، يشعر بالتأثر الشديد، لكنه لم يكن مغرماً بها. ليس الأمر أنه طُلب منه ذلك، وليس أنها قد تحسب أن هذا ما يقصده، وأنه، أي جين، يحبها. وبرغم ذلك، وجد صعوبة في الكلام. لم يسبق له من

قبل أن فكر في الأمر، لكنه بات واثقاً الآن من أنه لم يفكر فيه يوماً، ولم يسبق له أن تلفظ بالكلمات أو كتبها لا لشخص ما، ولا نيابة عن أي أحد. كانت بطاقات المعايدة والرسائل تُختم دوماً بـ «اعتنِ بنفسك جيداً». لم يقل أبداً كلمة أحبك لوالديه أو لأخواته. ولم يقلها لأي من النساء الثلاث اللواتي مررن في حياته، وشاركهنّ السرير، أو للفتيات في المدرسة اللواتي كان يسير برفقتهن في بعض الأحيان إلى الصف. إن قول هذه الكلمة لم يخطر بكل بساطة في خياله، حتى خياله الجامح أحياناً. والآن في أول يوم في حياته عندما بات هناك أحتمال قول هذه الكلمة لفتاة، ها هو يصرّح بها نيابة عن رجل إلى امرأة أخرى.

قالت روكسان: «هل ستخبرني؟». في المرة الثانية التي تطلب منه ذلك كان ثمة قدر أكبر من الاهتمام في صوتها. انتظر فيودورف وهو يشبك يديه ببعضهما البعض، ونظرة ارتياح كبيرة تعلو وجهه. لقد قال ما لديه، وأخذ الأمور إلى أبعد نقطة يسعه أخذها إليها.

ابتلع جين لعابه الذي تجمّع على لسانه، وحاول النظر إلى روكسان بطريقة عملية. «إنه مؤهل لحبكِ. إنه يقول، إنه يحبك». شكّل جين ترجمته بطريقة تبدو فيها مناسبة قدر الإمكان.

«أهو يحب غنائي؟».

فأجابها جين تحديداً: «بل يحبكِ أنت». لم ير أنه في حاجة إلى استشارة فيودورف في هذا الشأن، فابتسم الروسي.

أشاحت الآن روكسان بنظرها بعيداً. أخذت نَفَساً عميقاً

وحدقت إلى خارج النافذة لفترة من الوقت، كأنه قُدّم إليها عرض معين وهي تفكر فيه الآن. وعندما عاودت النظر ابتسمت لفيودورف. كانت النظرة التي تعلو وجهها مسالمة جداً، وفي غاية الحنان، إلى حد أن جين ظن لوهلة أنها بدورها تبادل هذا الروسي الحب وأكثر. هل يُعقل أن مثل هذا الاعتراف من شأنه أن يحقق النتيجة المرجوة؟ أنه يمكنها أن تحبه بكل بساطة لأنه أحبها؟

قالت: «فيكتور فيودورف. يا لها من قصة رائعة».

فقال: «شكراً لك»، ثم حنى رأسه لها.

«أتساءل ما الذي حصل للشاب الأوروبي الذي يدعى جوليان».

عبّرت عن هذا التساؤل كأنها توجهه إلى نفسها. «إن إعطاء امرأة عقداً هو أمر عادي. إنه يأتي في صندوق صغير. حتى العقد الباهظ الثمن لا يشكل له عناءً كبيراً. لكن أن تعطي امرأة مثل هذا الكتاب، أن تتحمل مشقة نقله من بلد آخر، فأعتقد أن هذا أمر غير عادي البتة. أتخيله كيف يحمله على متن القطار وهو يلفّه بالورق».

«هذا إن كنا صدقنا أن ثمة جوليان من أصله».

«ليس هناك سبب يدعونا إلى عدم التصديق. بالتأكيد، ليس هناك أي ضرر من تصديق القصة التي قصّتها عليكم».

«أنا واثق من أنك محقة. من الآن فصاعداً، سأظل أعتبر هذه القصة كونها الحقيقة الوحيدة».

عاد رأس جين ليمتلئ بكارمن من جديد. أمل أن تكون بانتظاره، أن تكون لا تزال جالسة إلى المغسلة الرخامية السوداء، لكنه أدرك أن هذا غير ممكن. إنها على الأرجح تقوم بالحراسة الآن. تسير في الأروقة رواحاً وجيئة في الطابق الثاني حاملة بندقية، وتصرّف أفعال اللغة في سرّها.

ثم قالت روكسان أخيراً: «أما بالنسبة إلى الحب».

قاطعها فيودورف قائلاً: «ليس هناك ثمة ما تقولينه. إنه هدية. هاكِ. هدية مني إليك. وإن كان لدي العقد أو كتاب اللوحات لكنتُ أعطيتك إياهما بدلاً من ذلك. قد أعطيك إياهما إضافة إلى حبي».

«إذاً، فأنت في غاية الكرم في ما يتعلق بالهدايا».

هز فيودورف بكتفيه: «لعلكِ على حق. في مكان آخر قد يبدو الأمر سخيفاً، ومبالغاً فيه. وفي مكان آخر، قد لا يحدث الأمر لأنك امرأة مشهورة، وفي أفضل الأحوال تتسنى لي فحسب مصافحة يدك الشهيرة لثانية واحدة وأنت تصعدين إلى سيارتك إثر انتهاء حفلك. لكن في هذا المكان، أنا أسمعك تغنين كل يوم. في هذا المكان أشاهدك تأكلين طعام الغداء، وما أشعر به في قلبي هو الحب. ليس هناك جدوى من عدم قول ذلك لك. إن هؤلاء الناس الذين يحتجزوننا برأفة، قد يقررون إطلاق النار علينا في النهاية. إنه احتمال وارد الحدوث. وإن حصل ذلك، إذاً لم عساي أحمل معي هذا الحب إلى العالم الآخر؟ لمَ لا أعطيك ما هو لك؟».

«وماذا لو لم يكن لدي ما أعطيك إياه؟»، بدت مهتمة في جدال فيودورف.

فهز برأسه نافياً: «يا له من كلام، بعد كل الذي أعطيتنيه. لكن الأمر لا يتعلق بقيام أحد ما بإعطاء شيء ما. إنها ليست الطريقة الصحيحة للتفكير في الهدايا. إننا لا نتمّم صفقة هنا. هل كنت لأشعر بالسرور لو أنكِ قلت لي إنكِ بدورك تحبينني؟ وإن ما تريدينه هو المجيء إلى روسيا والعيش مع وزير التجارة، وحضور حفلات العشاء الرسمية، واحتساء القهوة في سريري؟ يا لها من فكرة جميلة، بالتأكيد، لكن ما كان ليسرّ زوجتي هذا الأمر. أنتِ عندما تفكرين في الحب فإنك تفكرين كالأميركيين. لكن، يجدر بك التفكير فيه كالروس. فإن نظرتهم أوسع.

قالت روكسان بلطف: «لدى الأميركيين عادة سيئة، هي التفكير كالأميركيين». وبعدئذ، ابتسمت في وجه فيودورف، وصمت الجميع لبعض الوقت. لقد وصلت المقابلة إلى ختامها، ولم يعد ثمة ما يُقال.

وقف أخيراً فيودورف عن كرسيه وصفق يديه ببعضهما البعض. «أنا عن نفسي أشعر بحال أفضل بكثير. كم كان هذا حملاً ثقيلاً علي! والآن بات في وسعي الحصول على بعض الراحة. لقد كنتِ في غاية اللطف للإصغاء إلى كلامي». مد يده لروكسان، وعندما وقفتْ وأعطته يدها قام بتقبيلها، ولوهلة رفعها ووضعها على خده. «سوف أظل أذكر هذا اليوم إلى الأبد، وهذه اللحظة، يدك. لا يودّن أي رجل أكثر من هذا». ثم ابتسم

وترك يدها. «يا له من يوم رائع. لقد منحتني شيئاً رائعاً في المقابل». ثم استدار وغادر المطبخ من دون أن يتوجه بكلمة واحدة إلى جين. نسي في غمرة حماسته الشديدة أن جين كان موجوداً طوال الوقت، كما ينسى المرء عندما تنساب الترجمة بسلاسة.

جلست روكسان في كرسيها، وجلس جين في الكرسي الذي كان فيودورف جالساً فيه. قالت: «حسناً، كان هذا مرهقاً كثيراً».

«كنت أفكر في الأمر نفسه».

«مسكين جين». حنت روكسان رأسها إلى جانب واحد. «يا لكل الكلام المضجر الذي تضطر إلى سماعه».

«لقد كان الأمر غريباً، لكنه غير مضجر».

«غريب؟».

«ألا تجدين اعتراف الغرباء بحبهم لك أمراً غريباً؟». لكن، لم عساها تفعل؟ لا بد من أن الناس يقعون في حبها على مدار الساعة. لا بد من أن لديها طاقماً كاملاً من المترجمين لترجمة طلبات الحب والزواج.

قالت روكسان: «من الأسهل أن يحب الرجل امرأة لا يفهم كلمة مما تقوله».

صاح تيبولت قائلاً لجين بالفرنسية: «أتمنى لو أنهم يجلبون لنا بعض الأرانب». «أرانب». كان يطرق بأصابعه على كتب

«وماذا لو لم يكن لدي ما أعطيك إياه؟»، بدت مهتمة في جدال فيودورف.

فهز برأسه نافياً: «يا له من كلام، بعد كل الذي أعطيتنيه. لكن الأمر لا يتعلق بقيام أحد ما بإعطاء شيء ما. إنها ليست الطريقة الصحيحة للتفكير في الهدايا. إننا لا نتمّم صفقة هنا. هل كنت لأشعر بالسرور لو أنكِ قلت لي إنكِ بدورك تحبينني؟ وإن ما تريدينه هو المجيء إلى روسيا والعيش مع وزير التجارة، وحضور حفلات العشاء الرسمية، واحتساء القهوة في سريري؟ يا لها من فكرة جميلة، بالتأكيد، لكن ما كان ليسرّ زوجتي هذا الأمر. أنتِ عندما تفكرين في الحب فإنك تفكرين كالأميركيين. لكن، يجدر بك التفكير فيه كالروس. فإن نظرتهم أوسع.

قالت روكسان بلطف: «لدى الأميركيين عادة سيئة، هي التفكير كالأميركيين». وبعدئذ، ابتسمت في وجه فيودورف، وصمت الجميع لبعض الوقت. لقد وصلت المقابلة إلى ختامها، ولم يعد ثمة ما يُقال.

وقف أخيراً فيودورف عن كرسيه وصفق يديه ببعضهما البعض. «أنا عن نفسي أشعر بحال أفضل بكثير. كم كان هذا حملاً ثقيلاً علي! والآن بات في وسعي الحصول على بعض الراحة. لقد كنتِ في غاية اللطف للإصغاء إلى كلامي». مد يده لروكسان، وعندما وقفتْ وأعطته يدها قام بتقبيلها، ولوهلة رفعها ووضعها على خده. «سوف أظل أذكر هذا اليوم إلى الأبد، وهذه اللحظة، يدك. لا يودّن أي رجل أكثر من هذا!». ثم ابتسم

وترك يدها. «يا له من يوم رائع. لقد منحتني شيئاً رائعاً في المقابل». ثم استدار وغادر المطبخ من دون أن يتوجه بكلمة واحدة إلى جين. نسي في غمرة حماسته الشديدة أن جين كان موجوداً طوال الوقت، كما ينسى المرء عندما تنساب الترجمة بسلاسة.

جلست روكسان في كرسيها، وجلس جين في الكرسي الذي كان فيودورف جالساً فيه. قالت: «حسناً، كان هذا مرهقاً كثيراً».

«كنت أفكر في الأمر نفسه».

«مسكين جين». حنت روكسان رأسها إلى جانب واحد. «يا لكل الكلام المضجر الذي تضطر إلى سماعه».

«لقد كان الأمر غريباً، لكنه غير مضجر».

«غريب؟».

«ألا تجدين اعتراف الغرباء بحبهم لك أمراً غريباً؟». لكن، لم عساها تفعل؟ لا بد من أن الناس يقعون في حبها على مدار الساعة. لا بد من أن لديها طاقماً كاملاً من المترجمين لترجمة طلبات الحب والزواج.

قالت روكسان: «من الأسهل أن يحب الرجل امرأة لا يفهم كلمة مما تقوله».

صاح تيبولت قائلاً لجين بالفرنسية: «أتمنى لو أنهم يجلبون لنا بعض الأرانب». «أرانب». كان يطرق بأصابعه على كتب

الطبخ. «أيها الفتيان، هل تحبون الأرانب؟»، ثم توجه إليهم بالإسبانية: «أرانب؟».

رفع الفتيان رؤوسهم ونظروا إليه. كانوا قد أتموا تقريباً إعادة تجميع الأسلحة التي كانت نظيفة في البداية، وباتت الآن أنظف. عندما يعتاد المرء على الأسلحة، وعندما لا توجَّه إليه، بوسعه أن يراها أدوات مثيرة للاهتمام تقريباً: أدوات زينة توضع على طرف طاولة. قال الفتى الطويل الذي يدعى جيلبير، وفكر في إطلاق النار على تيبولت منذ آونة ليست ببعيدة في غمرة ارتباكه الناجم عن جهاز التلفاز: «كابايو».

فكرر سيمون الكلمة الإسبانية: «كابايو؟ جين ما هو الكابايو؟».

فكر جين في الكلمة لوهلة. كان ذهنه لا يزال عالقاً بالروسية. «تلك الحيونات ذات الفراء، ليس همستر»... ثم قرع إصبعيه: «خنزير هندي!».

فقال جيلبير: «إن ما تود أكله هو خنزير بري، وليس أرنباً. يا للحنان البالغ».

قال سيزار وهو يضع يده فوق سلاحه: «آه، كم أتمنى تناول خنزير هندي الآن». ثم عض أصابعه برفق لدى التفكير في مدى روعة هذه المتعة. كانت بشرة سيزار متعبة، وقد بدا أنها تصفو خلال فترة الاحتجاز.

أقفل تيبولت الكتاب. في باريس، كانت إحدى ابنتيه تحتفظ

بخنزير هندي سمين في حوض زجاجي كبير عندما كانت صغيرة في السن. كان يدعى «ميلو»، وهو عبارة عن بديل متواضع المكلب الذي كانت تتمناه. وانتهى الأمر بإديث بإطعام هذا الحيوان. فقد أسفت لحاله. كان يمضي يوماً تلو الآخر وحيداً، ينظر عبر الزجاج إلى حياة عائلتهم. كانت إديث أحياناً تسمح للخنزير الهندي بالجلوس في حجرها خلال قيامها بالقراءة. فإذ بـ «ميلو» يتكوّر على شكل طابة مقابل طرف سترة إديث، يحك بأنفه باستمتاع. كان هذا الجنزير الهندي بمثابة أخ لتيبولت، وكل ما يريده الآن هو الترف الذي كان يعيش فيه ذاك الحيوان، أن يتسنى له وضع رأسه في حضن زوجته، ورأسه مرفوع عند أسفل سترتها. هل يجدر بتيبولت تخيل الحيوان (الذي نفق منذ أمد بعيد، لكنه لم يكن يدري كيف، ومتى؟ لم يسعه التذكر) مسلوخاً ومطهواً؟ «ميلو» طعام عشاء! بمجرد أن يتم إطلاق اسم على أي شيء، لا يعود بالإمكان أكله. بمجرد أن تنعته أخاً في ذهنك، يجب أن يتمتع بحريات الأخ. «كيف تطهوه؟».

دار الحديث حول أفضل طريقة لطهو الخنزير الهندي، وكيف يسعك أن تعرف حظك جراء فتح أحشائه وهو لا يزال حياً. فدفع هذا الحديث بجين إلى الالتفات بعيداً.

قالت روكسان: «إن الناس يحبون بعضهم البعض لأسباب عديدة ومختلفة». جعلها عجزها عن فهم اللغة الإسبانية بمنأى عن ذاك الحديث الدائر: خنازير هندية مشوية على نار هادئة. «معظم الأحيان يحبنا الآخرون لأجل ما نقوم به، وليس لأجل

ما نحن عليه. إنه ليس بالأمر السيئ، أن يحبك الآخرون لأجل ما تقوم به».

قال جين: «لكن الأمر الآخر أفضل».

رفعت روكسان ساقيها ووضعتهما على الكرسي وقرّبت ركبتيها من صدرها. «أفضل. أكره القول إنه أفضل، لكنه كذلك، إن أحبك أحد ما لأجل ما تقوم به، فإن ذلك من شأنه أن يُشعرك بالإطراء، لكن لمَ عساكَ تحبهم؟ إن أحبك أحد ما لأجل ما أنت عليه، إذاً عليهم أن يعرفوك، ما يعني أن عليك أن تعرفهم». ثم ابتسمت روكسان في وجه جين.

بمجرد أن غادروا المطبخ، أولاً الفتيان، ثم جين وروكسان وتيبولت، الذين مال سيزار إلى اعتبارهم راشدين وليس رهائن، بدأ سيزار بالغناء لروسيني وهو يُتمّ عمله. لقد خلا له المطبخ لبعض الوقت، فأراد أن يستفيد من هذا الوقت الذي نادراً ما يحظى به للانفراد بنفسه. كانت أشعة الشمس تتخلل إلى المطبخ عبر النوافذ فانعكست أشعتها على بندقيته النظيفة. آه، كم كان يحب سماع الكلمات تنساب من بين شفتيها. لقد رددتْ الأغنية عدة مرات هذا الصباح، فتسنى له حفظ جميع الكلمات. إن عدم فهمه اللغة، لم يكن بالأمر المهم، فقد كان يعرف معناها. لقد انصهرت الكلمات واللحن معاً، وباتت جزءاً منه. وأخذ يردد مراراً وتكراراً المطلع، بطريقة الهمس تقريباً، خشية أن يسمعه أحد، ويسخر منه ويعاقبه. كان يخشى جداً افتضاح أمره. منعه هذا الخوف من التفكير في أنه قد ينفذ بجلده. وبرغم ذلك،

أمل لو يسعه الغناء على العلن كحالها هي، ويطلق العنان لصوته أمام الملأ، ويحفر بداخلها ليرى ما الموجود فيها. كان يشعر بسرور بالغ عندما يسمعها تغني بطبقات عالية. لو أنه لا يحمل البندقية أمامه لكان أحرج نفسه كل مرة. إن غناءها يُحدث فيه شغفاً مؤلماً وساخطاً، إلى درجة أنه يثار قبل أن تنهي سطرها الأول، ويدخل اللعبة كأنها ممارسة حقيقية، مستعيناً بمقبض بندقيته حتى يبلغ النشوة فيتكئ على الحائط وقد أصابه الدوار. إن كل فرط الإثارة هذا هو لأجلها. كان كل فتى في ذاك المكان يحلم بأن يجثم فوقها، ويدس لسانه في فمها وهو يطارحها الغرام. إنهم يحبونها. وفي خضم هذه الهوامات التي يصابون بها أثناء نومهم وصحوهم، يتخيلون أنها تبادلهم هذا الحب، وأنها مهووسة بهم، وأكثر منهم. لكن، بالنسبة إلى سيزار، كان الأمر يتخطى ذلك. إنه يدرك أن الموسيقى هي التي تثير شهوته الجنسية. كأن الموسيقى شيء منفصل، بوسعك أن تدس نفسك فيها، وتمارس الجنس معها.

الفصل الثامن

ثمة غرفة جلوس متفرعة من غرفة نوم الضيوف، حيث كان الجنرالات يعقدون اجتماعاتهم. كان السيد هوسوكاوا يلعب في تلك الغرفة مع الجنرال بنجامين الشطرنج لساعات. بدا أن هذا الأمر الوحيد الذي يشغل بال بنجامين، ويُلهيه عن الوجع الذي تسببه له القوباء المنطقية. مذ امتدت حتى حدود عينه، أصابها الالتهاب، وخلَّفت له الإصابة بالتهاب الملتحِمة. باتت الآن عينه حمراء، كما لو أنها بركة دم، ونمت حولها البثور. كلما ركز أكثر على لعب الشطرنج، أمكنه تناسي الأمل. لم ينسَ الألم كلياً، لكنه خلال اللعب لم يكن يعيش في خضمه.

لم يكن يُسمح للضيوف بالتوجه لمدة طويلة من الوقت، سوى إلى أماكن محدودة في المنزل، لكن الآن بما أن الأمور باتت أكثر طراوة، أصبح في مقدورهم الذهاب إلى أماكن أخرى، لم يطأها بعضهم من قبل. لم يكن السيد هوسوكاوا يعلم بوجود هذه الغرفة إلى أن دُعي إلى اللعب فيها. كانت صغيرة، فيها طاولة للعب وكرسيان بالقرب من النافذة، وكنبة

صغيرة، وطاولة للكتابة، وواجهة زجاجية مملوءة بكتب مغلفة بالجلد. وعلى النافذة ستائر صفراء، وتتمدد فوق الأرض سجادة مزينة بالورود الزرقاء، وتزين الحائط صورة لسفينة جميلة داخل إطار لها. لم تكن غرفة استثنائية بأي حال من الأحوال، لكنها كانت صغيرة، وكانت كافية، بعد تمضية ثلاثة أشهر وسط غرفة الجلوس الشاسعة، أن تمد السيد هوسوكاوا بإحساس كبير من الراحة، أشبه بشعور الدفء والراحة الذي يختبره الطفل عندما يلف نفسه بالكنزات والمعطف. لم يخطر في باله إلا في المرة الثالثة التي لعبا فيها، أن في اليابان لا يعيش المرء في مثل هذه الغرفة الرحبة إلا إذا كانت مدخل فندق أو قاعة أوبرا. أحب واقع أنه في وسعه، في هذه الغرفة، لمس السقف بأطراف أصابعه إن وقف على كرسي. كان يشعر بامتنان كبير لأي شيء يجعل العالم يبدو حميمياً ومألوفاً. إن كل شيء عرفه السيد هوسوكاوا، أو ساوره شك فيه حول كيفية سير الحياة، ثبت له عدم صحته في هذه الشهور الماضية. كان من قبلُ، يُمضي ساعاتٍ طوالاً في العمل والمفاوضات والتسويات، والآن باتت هناك مباريات شطرنج مع إرهابي شعر تجاهه بمحبة لم يفهم كنهَها. كان لديه من قبل عائلة محترمة تتصرف بإتيكيت مبالغ فيه، أما الآن فهناك أناس يحبهم ولا يسعه التحدث إليهم. كان يسمع في ما مضى معزوفات الأوبرا لبضع دقائق على جهاز الستريو قبل الخلود إلى النوم، والآن يعيش ساعات من الموسيقى يومياً: صوت دافئ حي بكل كماله وهفواته، وامرأة ساحرة تمتلك هذا الصوت تجلس قربه وتضحك، وتمسك بيده.

كانت بقية العالم تعتقد أن السيد هوسوكاوا يواجه المشقات، لكنه لن يتمكن أبداً من التفسير لهم عدم صحة هذا الأمر. «بقية العالم». لم يقدر على إبعاد هذه الفكرة من ذهنه تماماً. إن إدراكه واقع أنه سيخسر في النهاية كل فرحة حظي بها، جعله يتشبث بها أكثر، ويقربّها إلى صدره.

كان الجنرال بنجامين لاعب شطرنج ماهراً، لكنه لم يكن أفضل من السيد هوسوكاوا. لم يكن أي منهما من النوع الذي يسرع في اللعب، فتراهما يقومان بكل نقلة كأن الوقت يجب أن يُخترع. ولأن كلاً منهما يتمتع بالموهبة والبطء بالقدر نفسه، لم ينفد صبر أي منهما من الآخر. توجه السيد هوسوكاوا في إحدى المرات إلى الكنبة الصغيرة وأغمض عينيه انتظاراً لدوره، وعندما استفاق كان الجنرال بنجامين لا يزال يحرك حجر الرّخ إلى الأمام، ثم إلى الوراء، على المربعات الثلاثة نفسها، ويصر على عدم إزاحة أصابعه عن رأس الحصان. لديهما استراتيجيات مختلفة، حيث يحاول الجنرال بنجامين السيطرة على وسط اللوحة. أما السيد هوسوكاوا فإنه يلعب بطريقة الدفاع: بيدق هنا، ثم لاحقاً الفارس. قد يربح أحدهما، ثم يربح الآخر، لكن أحداً منهما لم يكن يصدر تعليقات على هذا الأمر. لقد جعل غياب اللغة اللعبة أكثر مسالمة، حيث لا تحتاج الحركات البارعة إلى تهنئة، ولا يتم التحسّر على أي خطر محتمل الحدوث. تراهما يعمدان إلى النقر بملكة، ثم بملك، مرة للدلالة على وجود خطر على الشاه، ومرتين للدلالة على إماتته، وذلك نظراً إلى عجزهما عن حفظ الكلمات التي قام جين

بكتابتها لهما. حتى لدى انتهاء المباريات، تراهما يتصرفان بكل هدوء: هزة صغيرة بالرأس اعترافاً بفوز الآخر، ثم يتوجهان لإعادة تجهيز اللوحة تحضيراً لمعاودة اللعب في اليوم التالي. لم يخطر في بال أي منهما، مغادرة الغرفة وأحجار اللعب مبعثرة على الطاولة على جانبي اللوحة.

كان منزل نائب الرئيس رحباً جداً بكل المقاييس، لكن الناس الذين يعيشون فيه افتقروا إلى الخصوصية، ما عدا كارمن وجين اللذين كانا يلتقيان في مخزن الخزف بعد الساعة الثانية فجراً حفاظاً على سرية دروسهما. كانت الأوبرا والشطرنج والطبخ في متناول يد الجميع. تقع غرفة الضيوف في الجزء نفسه من المنزل الذي تتواجد فيه غرفة المكتب، حيث يظل التلفاز يصدح على مدار الساعة، لذا فإن كان أحد الإرهابيين الشبان يبحث عن الترفيه يترك مشاهدة الشطرنج.

يميل الرهائن، عندما يُسمح لهم بالتوجه إلى الرواق وفق مزاج من يصادف أنه يحمل السلاح عند الباب، إلى المكوث لمدة ١٠ دقائق أو حتى ١٥ دقيقة من مدة اللعبة، لكنهم يُعتبرون محظوظين إن تسنت لهم رؤية نقلة واحدة. كانوا معتاذين على مباريات كرة القدم. وحاولوا اعتبار الشطرنج نوعاً من الرياضة. بالتأكيد كانت مباراة، لكنهم يرغبون في رؤية بعض الحركة. كانت الغرفة تُحدث في المشاهدين تأثير الطقوس الدينية المطوّلة، ومحاضرات علم الجبر، وعقار الهالسيون المنوّم.

إن المشاهدَين اللذين أفلحا في البقاء من دون أن يغفوا، هما إسماعيل وروكسان. تحضر روكسان لتشاهد أداء السيد

هوسوكاوا، الذي يمضي في النهاية الكثير من وقته في التفرج عليها، وإسماعيل يبقى لأنه يود في النهاية أن يتمكن من لعب الشطرنج مع الجنرال بنجامين والسيد هوسوكاوا، لكنه لم يكن واثقاً إن كان مثل هذا الأمر مسموحاً به. كان جميع الإرهابيين الأصغر سناً يحاولون إدراك حدودهم جيداً، وعدم طلب أكثر مما يسعهم الحصول عليه. لعلهم، كحال جميع الأطفال، لجّوا على الجنرالات من وقت إلى آخر، لكنهم كانوا يكنون احتراماً شديداً لهم، ويدركون أن عليهم عدم الإكثار من الطلب. بوسعهم مشاهدة التلفاز لوقت طويل، لكنهم لا يفوتون أبداً مناوباتهم في الحراسة. ولم يطلبوا من مسنر أن يجلب لهم غالونات من المثلجات. وحدهم الجنرالات بوسعهم طلب ذلك، وحتى الآن لم يقدموا على ذلك سوى مرتين. لم يفتعلوا شجارات في ما بينهم، على الرغم من أنهم مالوا إلى فعل ذلك عدة مرات. فالجنرالات يعاقبونهم بقسوة في حال نشوب مثل هذه الشجارات، وآلَ الجنرال هكتور على نفسه، إذا حصلت، مهمّة ضرب الفتيان مدة أطول، وبشكل أقسى، مما يمكنهم أن يضربوا بعضهم البعض، لتعليمهم وجوب التعاون معاً. وإن كان ثمة حاجة ملحة، وجدال لا تمكن تسويته إلا بطريقة واحدة: يلتقون في القبو، ويخلعون كنزاتهم، ويحتاطون لعدم تسديد الضربات لبعضهم البعض في منطقة الوجه.

كانت ثمة أمور مخالفة للقواعد، تلك القواعد التي حفظوها وكرروها خلال التدريب. ظل بعضها راسخاً ولم يُكسر (مثل التكلم باحترام مع شخص أعلى مرتبة). أما بعض القواعد

الأخرى (عدم التوجه إلى رهينة بالكلام إلا في حال تصحيح وضع معين)، فقد خفَّ واضمحل. ما كان الجنرالات يسمحون به، وما كانوا يعارضونه، لم يكونا دوماً بالأمور الواضحة.

حفظ إسماعيل بكل صمت لوحة الشطرنج. لكنه لم يعرف أسماء الأحجار، لأن أحداً في الغرفة لم يكن يتكلم. تمرّن في رأسه على أنسب طريقة لطرح الموضوع. فكر في الطلب من جين أن يطرح له السؤال. فجين يمتلك طريقة يجعل فيها كل شيء ذا أهمية. أو في وسعه سؤال جين أن يطلب من مسنر، الذي كان مسؤولاً عن إجراء المفاوضات. لكن بدا أن جين غاية في الانشغال هذه الأيام، ومسنر، بصراحة، لا يقوم بعمل ممتاز، ويحمّله الجنرالات بعض المسؤولية لأنهم لا يزالون جميعاً في هذا المكان. تمنى أكثر من كل شيء، لو يطلب من نائب الرئيس، هذا الرجل الذي يكنّ له تقديراً كبيراً ويعتبره صديقاً له. لكن لطالما سعى الجنرالات إلى تسخيف روبن، وأي شيء يطلبه يقابلونه بالرفض.

ما العمل إذاً. إن أراد إسماعيل شيئاً ما، فإن الشخص الوحيد الذي من المنطقي أن يلجأ إليه، هو نفسه. وبعد الانتظار لبضعة أيام أخرى، استجمع شجاعته لطرح السؤال. كان كل يوم مماثلاً لليوم الذي يليه، لذا وجد أنه لن يكون هناك وقت مناسب، أو وقت غير مناسب، لطرح السؤال. كان الجنرال بنجامين قد أتمّ لتوه حركته، والسيد هوسوكاوا في أولى مراحل التفكير في حركته التالية، وروكسان جالسة على الكنبة الصغيرة،

حانية رأسها إلى الأمام، وواضعة كوعيها فوق ركبتيها، وتسند صدغها بيديها، وتقوم بمراقبة اللوحة كأنها شيء قد يحاول الهرب بعيداً. تمنى إسماعيل لو تسعه مخاطبتها. وكان يتساءل إن كانت هي الأخرى تتعلم كيفية اللعب.

بدأ إسماعيل بالقول: «سيدي»، وقد علقت قطعة ثلج كبيرة جداً في حلقه.

رفع الجنرال بنجامين رأسه ونظر إليه ثم رمش بعينيه. لم يكن قد لحظ وجود الفتى في الغرفة. يا له من فتى صغير. لقد كان يتيماً، جنّده عمه في القضية قبل بضعة أشهر فقط من الهجوم، قائلاً إن جميع فتيان العائلة يبدون صغاراً في السن، ثم ما يلبثون أن ينموا بسرعة. لكن بنجامين بدأ يشكك في صحة هذا الكلام. إن جسم إسماعيل لم يبدُ كذاك الجسم الذي ينوي أن ينمو بطريقة مثيرة للإعجاب. وبرغم ذلك، كان يبذل أقصى جهده كي يحاول مجاراة الآخرين وتحمل سخريتهم. وكان من المفيد أن يحظوا على الأقل بشخص واحد صغير الحجم؛ شخص يمكن رفعه ودفعه عبر النوافذ. «ما الأمر؟»، أجاب الجنرال.

«كنتُ اتساءل يا سيدي إن كنتَ تقبل»، ثم كف عن الكلام وأخذ يستجمع قواه، وبدأ من جديد. «كنتُ أتساءل إن كان ثمة وقت لاحقاً كي ألعب مع الرابح». ثم خطر له لحظتها أن هناك فرصة خمسين في المئة أن يربح السيد هوسوكاوا، وقد يكون هذا الطلب غير مناسب. . . «أو مع الخاسر».

سأله الجنرال بنجامين: «هل تجيد لعب الشطرنج؟».

أبقى السيد هوسوكاوا وروكسان رأسيهما فوق اللوحة. في السابق، كان من دواعي الأدب أن ينظرا على الأقل إلى الشخص المتحدث حتى لو أنهما لا يفقهان ما يقوله. أما الآن فإن كلاهما يعرف بعض الإسبانية، فلم يكلفا نفسيهما عناء رفع رأسيهما والنظر. كان السيد هوسوكاوا يحاول الالتفاف للوصول إلى فيل الجنرال. لقد أمكن روكسان فهم ما ينوي فعله.

«أظنني أجيدها. لقد كنتُ أراقبكما. وأعتقد أنني بت أفهم اللعبة».

ضحك الجنرال بنجامين، لكنها لم تكن ضحكة يعوزها اللطف. ثم ربّت على ذراع السيد هوسوكاوا، الذي رفع رأسه، وثبّت نظارته على قصبة أنفه، وأخذ ينظر إلى الجنرال بنجامين وهو يمسك بإحدى يدي إسماعيل الصغيرتين، ووضعها على بيدق ضعيف، ثم نقل هذا البيدق من مكان إلى آخر على اللوحة. أومأ بيده مشيراً إلى الثلاثة منهم. كان ذلك كافياً لهم. فابتسم السيد هوسوكاوا وربت على كتف الصبي.

قال الجنرال بنجامين: «إذاً، سوف تلعب مع الرابح. تم التوافق على ذلك».

قام إسماعيل الذي شعر بأنه محظوظ للغاية بالجلوس عند قدمي روكسان، وأخذ يحدق في اللوحة كحالها هي، كأن اللوحة شيء حي. لم يبق لديه سوى نصف مباراة ليتعلم كل شيء متعلق بالشطرنج.

قرع جين بخفة على إطار باب الغرفة. كان مسنر واقفاً خلفه.

بدا مظهر مسنر يشير إلى إنهاكه ما عدا شعره، الذي كان لامعاً كضوء النهار. كان لا يزال يرتدي قميصه البيضاء، وسرواله الأسود، وربطة العنق السوداء. وكحال الرهائن والإرهابيين على حد سواء، بدأت ملابسه تبلى. كتّف ذراعيه وأخذ يراقب المباراة. كان عضواً في فريق الشطرنج أيام الدراسة الجامعية، حيث كان يستقل الباص متوجهاً للعب ضد الفرنسيين أو الإيطاليين. يتمنى لو يتسنى له اللعب الآن. لكن، في حال بقي داخل المنزل لثلاث ساعات متواصلة، سيُتوقع منه أن يقدم أمراً ملحوظاً لدى خروجه.

رفع الجنرال بنجامين يده من دون أن ينظر. بدأ يشعر بأن بيدق الفيل خاصته يتعرض للخطر.

نظر مسنر إلى اتجاه عينيه. فكر في إخبار الجنرال أن بيدق الفيل خاصته ليس مشكلته الحقيقية، لكن، والله وحده العليم، ما كان بنجامين ليستمع إليه. قال لجين بالفرنسية: «قل له إنني جلبتُ صحف اليوم». كان بوسعه أن يقول هذه الجملة بالإسبانية، لكنه أدرك أن الجنرال سيحملق به، لقيامه بالتكلم وسط النقلة.

«سأقول له ذلك».

رفعت روكسان كوس يدها ولوحت لمسنر، لكنها أبقت عينيها على اللوحة، كحال إسماعيل، الذي كان يشعر بأن الخوف بدأ يدب في أعماقه. ربما لا يجيد لعب الشطرنج في النهاية.

سألت روكسان: «هل تنوي الهجوم علينا في أي وقت قريب؟».

قال مسنر محاولاً إبداء خفة ظل: «لا يتحركنّ أحد. لم أر في حياتي مباراة شطرنج يتعرض فيها الشاه لهذا القدر من الإحراج». شعر على نحو غريب، بالغيرة من إسماعيل لجلوسه بالقرب من قدميها. ما عليه إلا أن يقرّب يده إنشين فقط فيلمس كاحلها.

قالت روكسان: «قد يتسببون لنا في التضور جوعاً». بدا صوتها رتيباً وهادئاً، كأنها لا تود مقاطعة اللعبة. «الطعام ليس فظيعاً جداً، ليس بقدر السوء الذي يجب أن يكون عليه إن كانوا حقاً مهتمين بتحريك عجلة الأمور. لا يعقل أن يكونوا عاقدين العزم على تحريرنا في الوقت الذي يمدوننا فيه بكل ما نحتاج إليه».

حك مسنر مؤخر رأسه. «آه، أعتقد أن هذا خطؤك. إن ظننتِ أنك كنت مشهورة قبل مجيئك إلى هذا المكان، فيجدر بك قراءة ما يُكتب عنك الآن. إنكِ تجعلين كالاس يبدو نكرة. إن حاولوا تجويعك فقد يتم خلع الحكومة من منصبها عصر اليوم نفسه».

نظرت روكسان إليه، ورمشت بعينيها بطريقة ساحرة كما تفعل على المسرح مشيرة إلى سرورها. «إذاً، إن تسنى لي الخروج من هنا على قيد الحياة، فهل سأتمكن من مضاعفة الأجر الذي أتقاضاه؟».

«في وسعك جعله ثلاثة أضعاف».

قالت روكسان: «يا إلهي»، وإذ بأسنانها تظهر، فانفطر لمنظرها قلب مسنر. «هل تدرك أنك أخبرته كيف يخلع الحكومة من منصبها من دون أن يلحظ الأمر؟ فهذا جل ما أراده، وقد عجز عن تحقيقه».

كان الجنرال بنجامين يضع يده على بيدق الفيل خاصته، ويهزه من جنب إلى آخر. مرت الكلمات من فوقه ومن حوله من دون أن يفهمها، ولم يعلق في ذهنه أثر منها، كانسياب الماء فوق صخرة ما.

راقب مسنر إسماعيل. بدا الصبي كأنه يحبس أنفاسه إلى أن يتوصل الجنرال إلى قرار بشأن النقلة. دوناً عن كل المفاوضات التي انخرط فيها مسنر في حياته، وجد أنه لا يأبه كثيراً لمن يكسب هذه المفاوضات. لكن هذا لم يكن واقع الحال، إذ إن الحكومات هي التي تكسب دوماً في النهاية. لكنه لا يمانع لو يرى هؤلاء الناس ينفذون بجلدهم، كلهم. تمنى لو أنهم يستخدمون النفق الذي تحفره الحكومة. تمنى لو يعاودون الزحف داخل فتحات التهوئة، ويتوجهون نزولاً إلى ذاك النفق ويعودون إلى الأماكن المليئة بالخضرة التي أتوا منها. إنهم ليسوا عبارة عن مجموعة ذكية، لكن ربما لهذا السبب بالتحديد لا يستحقون العقاب الذي سيلمُّ بهم في نهاية المطاف. إنه يأسف لحالهم، وهذا جل ما في الأمر. لم يسبق له من قبل أن شعر بالأسف على خاطفين.

تنفس إسماعيل الصعداء عندما رفع الجنرال بنجامين يده عن بيدق الفيل واختار تحريك الفارس عوضاً عنه. كانت حركة سيئة، حتى إسماعيل أمكنه إدراك ذلك. رجع بظهره إلى الوراء وأسنده إلى الكنبة، وألقت روكسان بيدها على كتفه وضعت يدها الأخرى على رأسه وأخذت تلامس شعره بطريقة عرضية كما لو أنها تلامس شعرها هي. لكن، بالكاد أحس إسماعيل بذلك. فقد أبقى عينيه منصبتين على مباراة الشطرنج التي ستنتهي بعد ٦ نقلات إضافية.

قال الجنرال بنجامين من دون أن يتوجه بكلامه إلى أحد معين: «حسناً، هذا يكفي». بمجرد انتهاء المباراة، عادت بوابة الدم للتدفق من جديد، وحركت الألم. صافح يد السيد هوسوكاوا بالطريقة الرسمية والسريعة التي اعتادا القيام بها بعد كل مباراة. انحنى السيد هوسوكاوا له عدة مرات، فانحنى له بنجامين في المقابل، وهي عادة غريبة التقطها كالتقاط التقلصات العصبية اللاإرادية من أحد ما. بعد كل الانحناءات التي قام بها، تمدد، ثم أشار إلى إسماعيل ليأخذ مكانه. «هذا في حال أراد السيد معاودة اللعب من جديد. لا تفرض نفسك عليه. جين، سل السيد هوسوكاوا إن كان يفضل الانتظار واللعب في الغد».

كان السيد هوسوكاوا مسروراً للعب مع إسماعيل الذي كان يتموضع على الكرسي الدافئ، حيث كان يجلس الجنرال بنجامين. وبدأ بتجهيز لوحة اللعب.

توجه الجنرال إلى مسنر بالسؤال: «ماذا تحمل لي؟».

«في الحقيقة، الأمور نفسها»، ثم قدم مسنر الجرائد إليه. «رسالة من الرئيس تأمركم بالاستسلام. ورسالة مثلها من رئيس قوى الشرطة. سوف لن يرضخوا. يتحتم علي القول لك إنهم يبدون أشد تصميماً من ذي قبل. الحكومة ليست مرتاحة كثيراً إلى سير الأمور. لقد بدأ الناس يألفون هذا الأمر برمته. باتوا يمشون في الشارع المحاذي ولا يتوقفون لإلقاء نظرة». سلمه لائحة المطالب اليومية من الجيش لدى قيام جين بالترجمة. في بعض الأيام، لا يكلفون أنفسهم حتى عناء إعادة صياغة مطالبهم. فيعمدون ببساطة إلى تحضير نسخة منها، وتغيير التاريخ بقلم رصاص.

«حسناً سيكتشفون أننا عباقرة في الانتظار. في وسعنا انتظارهم إلى الأبد». هز الجنرال بنجامين برأسه بطريقة عدم رضا وهو ينظر إلى الجرائد، ثم فتح طاولة الكتابة الفرنسية الصغيرة وأخرج منها مجموعة أوراقه التي قام جين بطباعتها في الليلة الفائتة. «أعطِهم هذه الأوراق».

أخذ مسنر الأوراق من دون النظر إليها. لا بد من أنها نفسها. فالأمور التي كانوا يطلبونها بات يُنظر إليها بعين الإهمال منذ الشهر الفائت: إطلاق سراح سجناء سياسيين من دول أخرى، رجال لا يعرفونهم حتى؛ توزيع الطعام على الفقراء؛ تغيير في قوانين الانتخاب. كان الجنرال فكتور قد جاء بهذا الشرط إثر قراءته بعض كتب القانون الخاصة بنائب الرئيس. وعوضاً عن التخفيف من مطالبهم، فإن عدم الاستجابة لها دفعهم إلى الرغبة في المزيد. وكالعادة، أصدروا تهديدات،

وتوعداً بالبدء بقتل الرهائن، لكن التهديد والتوعد والأمر باتت كلمات تُستخدم للزينة. لم تكن أكثر من مجرد طوابع وأختام كتلك التي تضعها الحكومة على أوراقها الرسمية.

سمح السيد هوسوكاوا لإسماعيل بالبدء في اللعب. افتتح الفتى اللعب ببيدقه الثالث الضعيف. وجلس الجنرال بنجامين لمشاهدة المباراة.

قال مسنر: «يجدر بنا التحدث عن الأمر».

«ليس هناك ما نتحدث في شأنه».

شرع مسنر بالقول: «أعتقد». يشعر بوجود مسؤولية كبيرة على عاتقه. كان قد بدأ يفكر في أنه لو كان أكثر ذكاءً، لكان أنهى الوضع عبر المفاوضات الآن. «هناك أمور يجدر بكم التفكير فيها».

قال الجنرال بنجامين: «شش»، ووضع إصبعه على شفتيه، ثم أشار إلى لوحة الشطرنج. «لقد بدأ اللعب».

اتكأ مسنر على الحائط، بعد أن شعر فجأة بالتعب. ثم أزاح إسماعيل طرف إصبعه عن البيدق الضعيف.

قالت روكسان لمسنر: «دعني أرافقك إلى الباب».

قال الجنرال بنجامين: «ماذا؟».

«قالت إنها سترافق السيد مسنر إلى الباب».

لم يأبه الجنرال بنجامين لأمر مرافقته. كان مهتماً برؤية إن كان الفتى يجيد فعلاً اللعب.

قالت روكسان وهما يسيران في الرواق: «أخبرني ما الذي سيفعلونه». كان جين قد رافقهما، لذا تجاذب الثلاثة أطراف الحديث بالإنكليزية.

«ليس لدي أدنى فكرة».

قالت روكسان: «بل لديكَ بعض العلم بما يجري».

نظر إليها. كلما ينظر إليها يُفاجأ مرة أخرى بمدى قصر قامتها. ففي مخيلته، عندما يفكر فيها، يجدها غاية في الطول. لكن لدى وقوفه إلى جانبها، وجدها صغيرة الحجم إلى درجة أن في وسعه دسّها تحت معطفه لو كان يرتدي معطفاً. إنها قصيرة إلى درجة أنه يمكنه أن يتسلل بها إلى خارج المنزل خفية تحت ذراع واحدة. كان لديه في منزله في جنيف المعطف الشتوي الأمثل لهذه المهمّة، وهو ذكرى من والده الذي كان أضخم منه جثةً. لكن، بالرغم من ذلك، كان مسنر يرتديه بحكم عاملين اثنين: محبته والده، والعملانية. وقد كان ينتفخ المعطف وراءه حينما يمشي، بينما يغرق هو فيه «أنا مجرد عامل توصيلات. أجلب أوراقاً وأُخرج أوراقاً، وأحرص على وجود فائض من الزبدة من أجل السندويشات. إنهم لا يطلعونني على أي شيء».

دست روكسان ذراعها في ذراعه، لكن ليس بطريقة مغرضة، بل كما تفعل بطلة رواية إنكليزية في القرن الثامن عشر متوجهة في نزهة برفقة سيد نبيل. شعر مسنر بدفء يدها يتسلل عبر كمّ قميصه. لم يشأ أن يتركها في الداخل. همست له قائلة:

«أخبرني. لقد فقدت الحس بالوقت. أشعر في بعض الأيام كأنني أعيش هنا، وأنني سأظل أعيش هنا. إن تأكد لي هذا الأمر، فلعلّي أشعر باستقرار أكبر. هل تفهمني؟ إن كان الوقت سيطول، فأنا أود أن أعلم».

أليست أمراً مذهلاً رؤيتُها يومياً، والوقوف بين الحشود في الخارج على الرصيف في الصباح للاستماع إلى غنائها؟ قال مسنر بصوت خافت: «أتصور أن الوقت سيطول كثيراً».

تبعهما جين وهما يسيران كأنه كبير خدم على قدر كبير من التدريب: كتوم وحاضر في الوقت عينه في حال احتاجا إليه. أخذ يستمع إلى الحديث. لقد قالها مسنر: سيطول الأمر كثيراً. ففكر في كارمن، وفي كل اللغات التي قد يتسنى لفتاة ذكية تعلمها. قد يحتاجان إلى وقت طويل جداً.

شاهد روبن الثلاثة يسيرون معاً. قطع الرواق بخطى سريعة حتى لا يقع نظر أي من الجنود عليه فيردعه. فقال: «مسنر! إنها معجزة! لقد كنتُ أنتظرك، وإذ بك تظهر فجأة أمامي. كيف حال حكومتنا؟ هل استبدلوني أم ليس بعد؟».

قال مسنر: «مستحيل»! وتنحت روكسان، راجعة إلى الوراء إلى جانب جين، فشعر مسنر بالهواء يبرد من حوله.

قال نائب الرئيس: «إننا في حاجة إلى الصابون. جميع أنواع الصابون: قطع صابون، صابون للجلي، وصابون للغسيل».

كان مسنر مشتت الذهن. وجب أن يطول حديثه مع روكسان أكثر. لم يكونا في حاجة إلى جين، ولا إلى تأفف روبن. غالباً

ما كان مسنر يحلم باللغة الإنكليزية. لم يكن يحظى بدقيقة واحدة من دون مقاطعة من أحد. «سأرى ما يسعني فعله».

استحال وجه روبن قاتماً: «أنا لا أطلب شيئاً معقداً».

قال وصوته يصبح أكثر نعومة: «سأجلب الصابون في الغد». لِمَ هذا الحنان المفاجئ؟ أراد مسنر لو يعود إلى سويسرا حيث يقوم ساعي البريد، الذي لم يتعرف إلى مسنر قط لدى مرورهما بمحاذاة بعضهما البعض في الرواق، بوضع البريد في علبته الصحيحة دوماً من دون أن يخطئها. أراد أن يكون شخصاً مجهولاً، لا حاجة إليه. «لقد شُفي وجهك أخيراً».

لمس نائب الرئيس خده بعد إحساسه بسخف غضبه والعبء الذي يحمله صديقه. «لم أتصور أنه سيشفى. كان جرحاً عميقاً، أليس كذلك؟».

قال مسنر: «سوف يجعل منك بطلاً شعبياً».

قال روبن بعد أن رفع عينيه ونظر في عيني مسنر الزرقاوين: «سأقول لهم إنك أنت من تسبّب لي في هذا الجرح، إثر شجار ليلي في حانة.

توجه مسنر إلى الباب، ومد ذراعيه، فقام كل من بياتريس ويسوع، الحارسين الموجودين عند الباب، بتفتيشه، إلى أن شعر بالإحراج جراء مبالغة بياتريس في تلمّسه بيديها. كان مفهوماً منهم أن يعمدوا إلى تفتيشه لدى دخوله. لكن ما لم يفهمه، هو سبب تكرار هذه العملية لدى مغادرته. ماذا عساه يهرّب إلى الخارج؟ هل يخبىء إحدى الرهائن في جيبه!

قال نائب الرئيس كأنه يقرأ ما يدور في ذهن صديقه: «إنهم يظنون أنك قد تهرّب الصابون. فهم يتساءلون أين ذهب كل هذا الصابون، علماً بأنهم لم يستخدموا أياً منه».

قال يسوع: «عد إلى الكنبة»، موجهاً إصبعين في اتجاه الكنبة من فوق بندقيته. كان نائب الرئيس جاهزاً لأخذ قيلولة على كل حال، فذهب في طريقه من دون أي تعليمات إضافية، وخرج مسنر من الباب من دون أن يلقي تحية الوداع.

ظلت روكسان تفكر طوال الوقت. فكرت في مسنر، وكيف بدا لها أنه يفضل لو يكون رهينة على تحمّل عبء كونه الشخص الوحيد في العالم الذي يحق له الدخول إلى المنزل والخروج منه. فكرت في اللِّيْدة التي ألفها شوبير، وفي ألحان بوتشيني، والحفلات التي فوّتتها في الأرجنتين، والحفلات التي تفوتها الآن في نيويورك، والتي أخذت وقتاً طويلاً جداً للتفاوض بشأنها. كانت في غاية الأهمية بالنسبة إليها برغم أنها لم تعترف بذلك حينئذ. فكرت في ما ستغنيه في الغد في غرفة الجلوس: مزيد من أغنيات روسيني؟ أكثر ما شغل تفكيرها هو السيد هوسوكاوا، وكيف باتت تعتمد كثيراً عليه. ظنتْ أنه لو لم يكن موجوداً لكانت فقدت عقلها منذ الأسبوع الأول، لكن بالطبع لو أنه لم يكن هناك لما أتت في الأصل إلى هذا البلد، ولما طُلب منها المجيء أبداً. لكانت تواصلت حياتها كالقطار، وفقاً لمواعيد دقيقة: الأرجنتين، نيويورك، زيارة إلى شيكاغو، ثم تعود إلى إيطاليا. والآن توقفت كلياً. فكرت في كاتسومي

هوسوكاوا الجالس قرب النافذة، والذي يستمع إليها وهي تغني. وتساءلت كيف يُعقل للمرء أن يحب شخصاً لا يقوى على التحدث إليه حتى. باتت تعتقد الآن أن ثمة سبباً لحدوث هذا كله، عيد مولده، ودعوتها، كي تكون هدية عيد مولده، وسبب احتجازهم هنا طوال هذه المدة. كيف كانا ليلتقيا؟ بأي طريقة أخرى يمكن المرء أن يتعرف إلى شخص لا يستطيع التحدث إليه، شخص يعيش في الجانب الآخر من العالم، إلا إذا أُعطي وقت فراغ طويلاً جداً كي يجلسا وينتظرا معاً بكل بساطة؟ عليها الاعتناء بكارمن، كان هذا في سلم الأولويات.

قالت روكسان لجين: «أنت تعرف كارمن». كانا في طريق عودتهما لرؤية تطورات مباراة الشطرنج، لكنها أوقفته في منتصف الرواق حيث كانا بعيدين عن الباب .

«كارمن؟».

«أعلم بأنك تعرفها، لكنكَ لا تعرفها كثيراً، أليس كذلك؟ لقد رأيتكما تتبادلان الحديث؟».

«بالطبع». شعر جين بفورة دم تتصاعد في صدره، وأراد لها ألا تمتد أكثر، كأن المرء في وسعه السيطرة على مثل هذا الأمر.

لكن روكسان لم تكن تنظر إليه. بدت عيناها تائهتين وتفتقران إلى التركيز بعض الشيء، كأنها تشعر بالتعب. لم يكن الوقت قد تخطى فترة الظهر، لكنها غالباً ما تشعر بالتعب بعد الغناء في الصباح، فيسمح لها الحراس بالتوجه إلى الطابق

العلوي وحدها لتعاود النوم. أحياناً، عندما لا تكون كارمن مكلفة بالحراسة، تفتش عنها وتأخذها من معصمها فتتبعها. كانت تجد سهولة أكبر بالنوم وكارمن إلى جانبها. غريب هذا الأمر، فهي تصغرها بعشرين سنة على الأرجح، لكن ثمة شيئاً فيها يبعث في قلب روكسان على الراحة. قالت موجهة حديثها إلى جين: «إنها فتاة طيبة. تجلب لي الفطور في الصباح. أحياناً أفتح باب غرفتي ليلاً وأجدها نائمة في الرواق. لكن ليس دوماً».

ليس دوماً، ليس حينما تكون معه.

رجعت روكسان برأسها إلى الوراء، ونظرت إليه، وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها. «مسكين جين. أنت دوماً عالق في وسط كل شيء. إن كل من لديه سر يجب عليه أن يمرره عبرك».

«أنا واثق من أنني أفوتُّ الكثير».

«أحتاج منكَ إلى أن تسدي إلي خدمة، كحال الجميع. أريدك أن تفعل شيئاً لي». في حال صح كلام مسنر، وطالت فترة احتجازهم، فإنها تستحق الحصول على ما يدور في خلدها. وفي حال تم قتلهم في نهاية تلك الفترة الطويلة، لأن هذا دوماً كان مدار الحديث، بأن الجيش سيطلق النار عليهم ويتهم الإرهابيين بذلك، أو أن الإرهابيين سيقتلونهم في لحظة يأس (برغم أنها وجدت أن هذا الاحتمال أصعب على التصديق)، إذاً فهي تستحق ما تريده أكثر. وإن كان السيناريو الثالث صحيحاً،

أي أنه سيتم إطلاق سراحهم سريعاً من دون أن يتعرضوا لأي أذى، وسيعودون جميعاً إلى حياتهم الطبيعية ويخلّفون ما حصل وراءهم، إذاً فسوف تستحقه أكثر فأكثر، لأنها بالتأكيد لن تستطيع بعدها رؤية كاتسومي هوسوكاوا من جديد. «جِدْ كارمن الليلة، واطلب منها أن تنام في مكان آخر. أَخبرها ألا تجلب لي طعام الفطور صباح الغد. هلا فعلتَ ذلك من أجلي؟».

هز جين برأسه موافقاً.

لكنها لم تطلب الكثير بعد. لم تطلب كل شيء، لأنها لا تمتلك سبيلاً إلى الطلب من السيد هوسوكاوا أن يأتي إليها الليلة. أرادت أن تطلب منه المجيء إلى غرفتها، لكن ليس هناك سوى طريقة واحدة للقيام بذلك: أن تطلب من جين الذهاب إليه وإخباره بذلك باليابانية، وبما تود قوله بالضبط؟

إنها تود منه المكوث معها الليلة؟ ثم على جين أن يطلب من كارمن إيجاد وسيلة لاصطحاب السيد هوسوكاوا إلى الطابق العلوي. وماذا لو اكتُشف أمرهم. ما الذي سيحدث للسيد هوسوكاوا عندها، ولكارمن؟ في العادة، إذا التقى المرء بأحد ما، ويود التعرف إليه، فقد يخرجان معاً على العشاء، ويحتسيان المشروب. أسندت ظهرها إلى الحائط. مر إلى جانبهما صبيان يحملان بندقيتين، لكنهما ما كانا ليقدما على مضايقتهما أو لكزهما بالسلاح، والسبب هو وجود روكسان. بمجرد أن ابتعدا أخذت روكسان نَفَساً عميقاً، وأخبرت جين بكل ما تريده. لم يقل لها إن هذا الأمر برمته ضرب من الجنون. أخذ يستمع

إليها، كأنه لا يستمع إلى أمر غير عادي البتة، ثم راح يهز برأسه وهي تتكلم. لعل المترجم لا يختلف عن الطبيب، أو المحامي، أو الكاهن حتى. لا بد من أنه يجمع بينهم جميعاً نوع من الأخلاقيات التي تمنعهم عن الثرثرة. وحتى لو لم تكن واثقة من وفائه لها، فقد أدركت أنه سيفعل كل ما في وسعه لحماية السيد هوسوكاوا.

توجه روبن إيغليسياس إلى الغرفة التي لا يزال يعتقد أنها غرفة الضيوف، والتي تحوّلت الآن إلى مكتب للجنرالات، من أجل إفراغ سلل النفايات. كان يتنقل من غرفة إلى أخرى حاملاً بيده كيس نفايات كبيراً وأخضر، واضعاً فيه ما تم رميه في السلل، إضافة إلى ما يوجد على الأرض: قوارير مشروبات غازية، قشور موز، القصاصات التي مُزقت من الصحف. لكن روبن قام بدس هذه القصاصات سراً في جيبه ليقرأها في وقت متأخر من الليل مستخدماً مصباحه. كان السيد هوسوكاوا وإسماعيل يلعبان الشطرنج حينها، فوقف عند الباب دقيقة مراقباً اللعب. كان فخوراً جداً بإسماعيل الذي يتسم بذكاء يفوق ذكاء الفتيان الآخرين. اشترى روبن عدّة الشطرنج ليعلمها لابنه ماركو، لكنه شعر بأن الفتى لا يزال صغيراً جداً على تعلمها. كان الجنرال بنجامين جالساً على الكنبة، وبعد وهلة رفع عينيه ناظراً إلى روبن، الذي خُطفتْ أنفاسه عند وقع نظره على عين الجنرال الملتهبة جداً.

قال بنجامين: «إن إسماعيل هذا سريع التعلم. أتعلم، لم يعلمه أحد كيفية اللعب. لكنه التقط أصول اللعبة من مجرد

المراقبة». وضع إنجازُ الفتى الجنرال في مزاج جيد. ذكّره ذلك بأيام عمله كمدرّس.

قال له روبن بصوت خفيض: «فلتأتِ إلى الرواق لوهلة. أريد التحدث إليك حول أمر خاص».

«إذاً، فلتتكلم هنا».

وجّه روبن نظره ناحية الصبي، مشيراً إلى أن ما يريد قوله مسألة خاصة بين الرجال. فتنهد بنجامين ورفع نفسه عن الكنبة قائلاً: «الكل لديهم مشاكل».

وضع روبن كيس النفايات من يده خارج الباب. لم يكن يحب التحدث إلى الجنرالات. أول تعاملٍ له معهم شكّل لديه سابقة طُبِعت في ذهنه، ولم تبارح ذاكرته، ولا يبدو أنها ستفعل. لكن لا يمكن رجلاً محترماً ادعاء أنه لم يلحظ مثل هذا الأمر.

قال بنجامين بنبرة تثاقل: «ما الذي تريده؟».

فقال روبن: «ما تريده أنت». فتش في جيبه وأخرج قارورة من أقراص الدواء مكتوباً عليها اسمه. «مضادات حيوية. انظر، لقد أعطوني كمية تفيض عن حاجتي. وقد وضعتْ حداً للالتهاب الذي أصابني في وجهي».

فقال الجنرال بنجامين: «هذا جيد لك».

«ولك. ثمة الكثير منها هنا. خذها. ستُفاجَأ للفارق الذي تحدثه».

«وهل أنت طبيب؟».

«لستَ بحاجة إلى أن تكون طبيباً كي تعرف الالتهاب. صدقني».

ابتسم له بنجامين. «كيف أعرف أنك لا تنوي تسميمي يا نائب الرئيس الصغير».

فتنهد روبن قائلاً: «أجل، أجل. أنا أنوي تسميمك. أنوي أن نموت معاً»، ثم فتح القارورة ووضع قرصاً في فمه. وبعد أن حرص على أن يرى بنجامين القرص على لسانه، ابتلعه. ثم أعطى القارورة للجنرال. «لن أسألك ماذا تنوي فعله بها، لكن هاكَ، إنها لك».

عاد بنجامين بعد ذلك إلى مباراة الشطرنج، وحمل روبن كيس النفايات وتوجه إلى الغرفة التالية في الرواق.

كان ذلك نهار السبت، لكن بما أن الأيام كانت جميعها متشابهة، فالشخصان الوحيدان اللذان كانا يأبهان لأيام الأسبوع، هما الأب أرغيداس الذي اعتاد الإصغاء إلى الاعترافات نهار السبت والتحضير لقداس نهار الأحد، وبياتريس التي تجد عطلة الأسبوع مضيعة للوقت ولا تطاق، لأن المسلسل الذي كانت تتابعه، «قصة ماريا»، يُعرض من الاثنين حتى الجمعة فحسب.

قال لها الجنرال ألفريدو: «الانتظار أمر مفيد»، لأنه هو نفسه يستمتع بمشاهدة المسلسل. «فمن شأن ذلك أن يولّد فيكِ نزعة إلى التوقع».

قالت: «لا أود الانتظار». خطر لها فجأة أنها قد تعمد إلى البكاء نتيجة الإحباط، إن فترة العصر الطويلة تأخذها في شتى الاتجاهات. فقد أتمت تنظيف سلاحها، وفرغت من التفتيش، ولا يتحتم عليها القيام بالحراسة حتى حلول الليل. كان في وسعها أن تأخذ قيلولة، أو تتصفح المجلات التي رأتها حوالى ألف مرة من قبلُ، ولم تفهمها، لكنها وجدت أن ذلك كله أمر لا يُطاق. أرادت الخروج من هذا المكان. أن تجوب شوارع المدينة كأي فتاة عادية، وينقر الرجال على أبواق سياراتهم لدى مرورهم بمحاذاتها. أرادت أن تفعل شيئاً ما. قالت لألفريدو: «سوف أذهب لرؤية الكاهن». ثم أدارت وجهها سريعاً. فالبكاء أمر ممنوع بتاتاً. وقد وجدته أسوأ أمر تُقْدِم عليه.

تبنى الأب أرغيداس سياسة «الوجود الاختياري للمترجم» في ما يتعلق بالاعتراف. إن اختار الناس الاعتراف بلغة غير الإسبانية، فعندها يسعده أن يجلس ويصغي إليهم، ويفترض أن خطاياهم تصفّى عبره، ويمحوها الله تماماً، كما لو أنه يفهم ما يقولونه. وإن شاء الناس أن يعترفوا بالطريقة التقليدية، إذاً يُرحب بهم أن يجلبوا معهم جين إن تسنى له الوقت. يُعتبر جين الشخص الأمثل لهذه المهمّة، فهو يتمتع بقدرة هائلة على عدم الإصغاء إلى الكلام الذي يخرج من ثغره هو نفسه. لكن ليس لهذا الأمر أي أهمية، لأن أوسكار مندوزا يقوم اليوم بالاعتراف باللغة التي شبّ عليها كل منهما. جلسا وجهاً لوجه في زاوية على كرسيين من كراسي طاولة الطعام. كان الناس يحترمون هذا التقليد، ويتفادون الدخول إلى غرفة الطعام عندما يرون الكاهن

جالساً مع أحد ما فيها. في البداية، طرح الأب أرغيداس فكرة الترتيب لعملية اعتراف لائقة داخل مخزن المعاطف، لكن لم يسمح الجنرالات بذلك. يجب أن يكون جميع الرهائن موجودين في مكان علني، حيث تمكن رؤيتهم بوضوح طوال الوقت.

قال أوسكار مندوزا: «سامحني يا أبتاه، فلقد أثمت. لقد مرت ٣ أسابيع على اعترافي الأخير. أتوجه في دياري كل أسبوع للاعتراف، صدقني، لكن في ظل وضعنا الراهن، ليس ثمة مجال كبير لارتكاب الآثام. ليس ثمة شرب للمسكرات، ولا مقامرة، كما لا يوجد سوى ٣ نساء. حتى محاولة ارتكاب الإثم مع نفسك أمر مستحيل تقريباً. يوجد قدر ضئيل جداً من الخصوصية».

«ثمة حسنات لطريقة عيشنا».

هز مندوزا برأسه، برغم أنه بالكاد يرى الأمور من هذه الزاوية. «لكن، يراودني بعض الأحلام. هل يُعقل أن تشكل أنواع معينة من الأحلام إثماً يا أبتاه؟».

هز الكاهن بكتفيه. كان يستمتع بالاعتراف، وفرصة التكلم إلى الناس، واحتمال إراحتهم من العبء الذي يحملونه. كان يمكنه أن يعدّ على يد واحدة عدد المرات التي سُمح له فيها بالإصغاء إلى الاعترافات قبل الاختطاف. لكن منذ ذلك الوقت، مر عليه عدة مرات انتظر فيها العديد من الأشخاص دورهم للتكلم إليه. كان لتمنى لو يرتكب الأشخاص آثاماً أكثر بقليل، لو كان ذلك يُبقيهم معه فترة أطول. «الأحلام مسألة تتعلق

باللاوعي. إنها مساحة غير واضحة. وبرغم ذلك، أظن أنه من الأفضل لو تخبرني عنها، عندها ربما تسعني مساعدتك».

أقحمت بياتريس رأسها من الباب، فتدلت ضفيرتها السميكة وسط الضوء: «هل انتهيتما؟».

فقال الكاهن: «لا، ليس بعد».

«هل ستنتهيان قريباً؟».

«اذهبي والعبي لبعض الوقت، ثم سأراك لاحقاً».

«العبي». هل يحسبها طفلة؟ نظرت إلى ساعة جين الكبيرة حول معصمها. كانت الساعة الواحدة وسبع عشرة دقيقة. باتت تفهم الساعة جيدة الآن، على الرغم من أنها تسبب لها الإرباك بعض الشيء. لم تكن تستطيع تفويت ٣ دقائق من دون تفقُّد الوقت بالرغم من بذل جهدها للامتناع عن ذلك. استلقت بياتريس على سجادة شرقية حمراء صغيرة خارج الباب، حيث لا يستطيع الأب أرغيداس رؤيتها، في حين يسعها سماع الاعتراف بكل سهولة، ثم دست طرف ضفيرتها في فمها. كان صوت أوسكار مندوزا بضخامة منكبيه، وبالتالي يتناهى إلى أسماع الآخرين بكل سهولة حتى عندما يهمس همساً.

«هذا الحلم لا ينفك يراودني كل ليلة». ثم كف أوسكار مندوزا عن الكلام، غير واثق إن كان يجدر به البوح بشيء فظيع جداً لمثل هذا الكاهن الشاب: «أحلام عنيفة جداً».

قال الكاهن بصوت منخفض: «ضد من يحتجزوننا».

فرفعت بياتريس الموجودة خارجاً في الرواق رأسها.

«آه، لا، لا شيء من هذا القبيل. أتمنى لو يُخلون سبيلنا، لكنني لا أتمنى لهم التعرض لأي عنف، على الأقل ليس على الدوام. لا، الأحلام التي تراودني تدور حول بناتي، حيث أعود إلى منزلي من هذا المكان. إما أهرب، وإما يخلون سبيلي، فالأمر يختلف على اختلاف الأحلام. وعندما أصل إلى المنزل أجده مليئاً بالفتيان. كأن المنزل أشبه بحضانة للصبيان. صبيان من شتى الأحجام، ذوو بشرة بيضاء وبشرة سوداء البعض منهم يتسم بالسمنة، والبعض الآخر بالنحافة. وهم منتشرون في كل مكان، ويأكلون كل ما في ثلاجتي، ويدخنون سجائري على شرفة المدخل. إنهم في حمامي، يستخدمون شفرة الحلاقة خاصتي. وعندما أمر بمحاذاتهم يرفعون رؤوسهم وينظرون إلي، ثم يرمقونني بنظرة غريبة، كأنهم لا يودون أي إزعاج، ثم يعودون إلى ما كانوا يقومون به. وهذا ليس الجزء الفظيع. إن أكثر ما يقوم به هؤلاء الصبيان... إنهم، يتقربون من بناتي، يصطفون خارج غرف نومهن، حتى خارج غرفتي ابنتيّ الطفلتين. يا له من أمر فظيع يا أبتاه. أسمع من بعض الأبواب أصوات ضحك، ومن أبواب أخرى أسمع أصوات نحيب، ثم أبدأ بقتل الصبيان، واحداً تلو الآخر. أسير وسط الرواق وأقوم بتكسيرهم كأعواد الثقاب. حتى أنهم لا يبتعدون عن طريقي. تبدو على وجه كل منهم المفاجأة الشديدة مباشرة قبل أن أمد يدي وأدق عنقه».

كانت يدا أوسكار ترتجفان، فضمهما إلى بعضهما البعض، وضغط عليهما بين ركبتيه.

حاولت بياتريس أن تنظر بسرية تامة من وراء الزاوية لترى إن كان الرجل الضخم يبكي. اعتقدت أنها أحست برجفة تشوب صوته. هل هذه هي الأمور التي يحلم بها الآخرون؟ أهذا ما يعترفون به؟ تفقدت الساعة، فكانت الواحدة وعشرين دقيقة.

«آه، أوسكار، أوسكار». ربّت الأب أرغيداس على كتفه. «إنه مجرد الضغط. إنه ليس بإثم. إننا نصلي كي لا تتوجه عقولنا إلى الأمور الفظيعة، لكنها أحياناً تفعل، وهذا خارج عن نطاق سيطرتنا».

قال أوسكار: «إن الأمر يبدو حقيقياً كثيراً عندئذ»، ثم أضاف بتردد، «أنا لا أشعر بالتعاسة الشديدة في الأحلام. ينتابني غضب، لكني أشعر بالسرور لكوني أوقعهم قتلى».

كانت هذه المعلومة هي الأكثر إشكالية على الأرجح. «ما عليك فعله إذاً، هو التعلم. صلِّ ليمن الله عليك بالقوة والعدل. لذا، حينما يحين وقت عودتك إلى ديارك، سيكون ثمة سلام في قلبك».

«أفترض ذلك». هز أوسكار برأسه بهدوء وهو يشعر بعدم الاقتناع. أدرك الآن أن ما كان يريد من الكاهن فعله، ليس إعفاءه من الذنب، بل التأكيد له أن هذه الأمور التي يحلم بها مستحيلة. إن بناته في أمان، ولا يتم التحرش بهن في المنزل.

نظر الأب أرغيداس إليه بتمعن. انحنى صوبه وصوته يبدو مبشراً: «صلِّ للعذراء. ثلاث سبحات. هل تفهمني؟». أخرج سبحته من جيبه ودسها في يديّ أوسكار الكبيرتين.

قال أوسكار: «ثلاث سبحات»، ثم شعر بأن الضغط بدأ يخف في صدره، وأخذ يحرك الخرزات بأصابعه. غادر الغرفة وهو يشكر الأب. على الأقل إن قام بالصلاة فإنه يفعل شيئاً ما.

أخذ الكاهن بضع دقائق للدعاء من أجل مغفرة خطايا أوسكار مندوزا، وعندما فرغ تنحنح ونادى: «بياتريس، هل استمتعتِ بذلك؟».

انتظرت وجففت ضفيرتها بكمها، وقلبت على بطنها حتى باتت في وضعية مواجهة للغرفة: «لا أفهم قصدك».

«لا يجدر بك التنصت».

قالت، لكن من دون اقتناع شديد: «أنت سجين». ما كانت أبداً لتفكر حتى في شهر سلاحها في وجه كاهن، فوجهت إصبعها في اتجاهه عوضاً عن ذلك: «لدي كامل الحق في الإصغاء إلى ما تقولانه».

رجع الأب أرغيداس بظهره على الكرسي.

«لتحرصي على أننا لا نجلس هنا للتآمر على قتلكم وأنتم نيام».

«بالضبط».

«هيا ادخلي وقدمي اعترافك. بات لديكِ ما تعترفين به. وهذا يسهل الأمر».

كان الأب أرغيداس يتفوه بالترهات. لم يكن أي من

الخاطفين يقوم بالاعتراف، على الرغم من أن العديد منهم يحضرون القداس، ويسمح لهم بتناول اللقمة المقدسة كغيرهم. ظن أن الجنرالات أمروا بذلك: ممنوع الاعتراف.

لكن، لم يسبق لبياتريس في حياتها أن أقدمت على الاعتراف. في قريتها كان الكاهن يزورهم على نحو غير منتظم، عندما يتسنى له الوقت فحسب. كان كثير الانشغال، حيث يخدم منطقة كبيرة جداً في الجبال. تمر أحياناً شهور بين الزيارة والأخرى، ثم عندما يأتي تحمل زيارته الكثير من المهام، ليس فقط القداس نفسه، بل العمادات، وعقود القران، والجنازات، وحل الخلافات حول الأراضي، والتلقيم المقدس. ويُترَك الاعتراف للمجرمين وللذين يُحتضرون، وليس للفتيات المتبطلات اللواتي لم يقترفن أي سوء يفوق قرص أخواتهن، أو عدم إطاعة أمهاتهن. كان أمراً مقتصراً على الراشدين جداً، وعلى الأشرار جداً. وإن أرادت أن تَصْدق القول، فإنها تعتبر نفسها لا تنتمي إلى الاثنين.

مد الأب أرغيداس يده، وتكلم معها بلطف. كان حقاً الشخص الوحيد الذي يتحدث إليها بهذه النبرة. قال لها: «تعالي إلى هنا. سوف أسهّل عليك الأمر كثيراً».

وجدت سهولة بالغة في الاقتراب منه والجلوس على الكرسي. طلب إليها أن تحني رأسها، ثم وضع يديه على جانبي صدغيها، وبدأ يصلي نيابة عنها. لم تكن تصغي إلى الصلاة. لم تسمع سوى بعض الكلمات المتقطعة، كلمات جميلة: «أبتاه،

الغفران، المبارك». لقد بث فيها ثقل يديه على رأسها إحساساً جميلاً. وعند رفع يديه أخيراً بعد مدة بدتا لها طويلتين كثيراً. شعرت بأنها خفيفة جداً وتتمتع بالحرية. فرفعت رأسها وابتسمت له.

قال لها: «الآن، استذكري خطاياكِ. يجب عليك عادة القيام بذلك قبل المجيء. تدعين الله كي يمدّك بالشجاعة لتذكر خطاياك وللتخلص منها. وعندما تتوجهين إلى الاعتراف تقولين: سامحني يا أبتاه فلقد أثمت. هذا أول اعتراف أقوم به».

«سامحني يا أبتاه فلقد أثمت. هذا أول اعتراف أقوم به».

انتظر الأب أرغيداس بعض الوقت، لكن بياتريس لم تنفك تبتسم في وجهه. «الآن، أخبريني عن خطاياك».

«ما هي هذه الخطايا؟».

قال: «حسناً، بادئ ذي بدء، أخذت تستمعين إلى اعتراف السيد مندوزا في حين أنك تدركين عدم صواب هذا الأمر».

هزت برأسها نافية: «لم يكن هذا إثماً. قد قلتُ لك، كنتُ أقوم بعملي».

وضع الأب أرغيداس يديه على كتفيها هذه المرة، وقد كان لذلك التأثير المهدئ نفسه فيها: «عندما تقومين بالاعتراف يجدر بك التفوه بالحقيقة كاملة. إنك تتفوهين بالحقيقة لله عبري، وأنا لن أقدم أبداً على إخبار أي شخص آخر. هذا الأمر ينحصر بيننا

وبين الله. الاعتراف شعيرة مقدسة، ولا يجدر بك الكذب أبداً أبداً، عند تقديم الاعتراف. هل فهمت ذلك؟».

همست بياتريس قائلة: «نعم». كان الكاهن يتسم بألطف وجه بين الموجودين، حتى أنه ألطف من وجه جين، الذي كانت معجبة به بعض الشيء من قبل. كان جميع الرهائن الآخرين طاعنين في السن، والفتيان أندادها صغاراً جداً، والجنرالات هم الجنرالات.

قال الكاهن: «صلي. حاولي جاهدة أن تفهمي هذا».

كنت تحبه، حاولت أن تجبر نفسها على التفكير في الأمر. لدى إحساسها بيديه على كتفيها، أغمضت عينيها وأخذت تصلي، وفجأة بدا الأمر واضحاً جداً بالنسبة إليها. بلى، أدركتْ أنه ما كان عليها استراق السمع. اتضح لها ذلك كأنه أمر أمكنها رؤيته من وراء عينيها المغمضتين، وأدخل ذلك السعادة إلى قلبها. «أعترف بأنني استرقت السمع». جل ما كان عليها فعله هو البوح بالأمر فيزول عنها، ولا يعود إثمها.

«وهل ثمة شيء آخر؟».

شيء آخر. عاودت التفكير من جديد. حدقت ملياً في عتمة عينيها المغمضتين، المكان الذي تدرك أن الخطايا مكدسة فيه كالحطب، جافة وجاهزة لتُضرم النار فيها. كان ثمة شيء آخر... العديد من الأشياء الأخرى. لقد بدأت تراها كلها. لكنها كانت كثيرة، ولم تعرف بماذا تنعتها، وكيف عساها تشكل هذه الخطايا كلها في كلمات.

قالت أخيراً، لأنه ليس هناك من سبيل لفهمها كلها: «ما وجب علي إشهار السلاح». شعرت كأنها لو أطالت الجلوس إلى الأبد، ما كانت لتقدر على الاعتراف بكل شيء. لكنها لا تنوي الكف عن فعل أي من هذه الأمور. لا يسعها الكف عنها. لن يُسمح لها بذلك، وهي لا ترغب في ذلك حتى. باتت باستطاعتها رؤية خطاياها الآن، لكنها أدركت أنها ستقترف المزيد والمزيد منها.

قال الكاهن: «فليسامحك الرب».

فتحت بياتريس عينيها ورمشت في وجه الكاهن. «إذاً، زال الإثم؟».

«ستجب عليك الصلاة. سيتحتم عليك الأسف».

«بوسعي القيام بذلك». ربما كان هذا الجواب، نوعاً من دوامة ارتكاب آثام والندم عليها. في وسعها القدوم كل سبت، ربما تأتي أكثر من يوم، وهو يجعل الله يغفر لها على الدوام، ثم يتسنى لها دخول الجنة.

«أود منكِ تلاوة بعض الصلوات الآن».

«لا أعرف كلماتها».

هز الأب أرغيداس برأسه. «تمكننا تلاوتها معاً. سأعلّمكِ إياها. لكن أريدك يا بياتريس أن تكوني لطيفة وتمدي يد العون إلى غيرك. هذا جزء من توبتك. أريدك أن تجربي ذلك هذا اليوم».

كانت كارمن في غرفة الجلوس. لم تكن وحدها. كان هناك الجنرال هكتور وستة من الفتيان الأكبر سناً. كان أربعة منهم يلعبون الورق والبقية يتفرجون. كانوا قد غرزوا خناجرهم في الطاولة التي يلعبون عليها. تكاد تصرفاتهم، يوماً بعد يوم، تدفع بنائب الرئيس إلى حافة الجنون. فالطاولة تعود إلى بدايات القرن السابع عشر، وحفرها يدوياً فنانون إسبان، لم يتخيلوا أبداً أنه في يوم من الأيام ستخرق الخناجر سطحها الخشبي الناعم كشوكة من أشواك القنفذ الحادة. مر جين بمحاذاتهم ببطء. ليس في وسعه محاولة النظر في عيني كارمن حتى. ليس بيده سوى التأمل أن تكون هي قد لمحته ويخطر في بالها اللحاق به. توقف جين وتحدث إلى سيمون تيبولت الذي كان ممدداً على أريكة مجاورة يقرأ كتاب «مئة سنة وسط الوحدة» بالإسبانية.

قال تيبولت لجين بالفرنسية: «سيأخذني الأمر طويلاً حتى أنتهي من قراءة الكتاب. ربما مئة سنة. على الأقل أعلم بأن لدي متسعاً من الوقت».

قال جين: «من كان ليدري أن الاختطاف سيكون تجربة أشبه بحضور الجامعة؟».

ضحك تيبولت وقلب صفحة. هل سمعَتْهما يتكلمان؟ هل رأته يذهب؟ توجه إلى المطبخ الذي كان لحسن الحظ فارغاً. دخل مخزن الخزف، وانتظر. كان كلما يأتي إلى مخزن الخزف يجد كارمن في انتظاره. لم يسبق له أن تواجد هناك وحده، وقد

ملأ منظر كل تلك الصحون المكدسة فوق رأسه قلبه حباً لكارمن. يمكن المرء استخدام هذه الكمية الكبيرة من الصحون مدة سنة كافية من دون أن يغسل صحناً واحداً منها. لم يحظ جين أبداً بدقيقة على انفراد، دقيقة لا يطلب منه أحد فيها أن يتفوه بشيء نيابة عنه. رأسه دوماً مليء بعواطف الناس المبالغ في التعبير عنها، والآن هدأ رأسه وبات يمكنه تخيل كارمن تجلس بالقرب منه، وساقاها الطويلتان والنحيلتان مطويتان أمامها لدى قيامها بتصريف الأفعال. كانت قد طلبت منه سابقاً بعض الخدمات، والآن سيطلب هو منها المساعدة. سيساعدان أحداً: السيد هوسوكاوا والآنسة كوس. في الظروف العادية، يعتبر جين أن حياة رب العمل الشخصية ليست من شؤونه أبداً، لكن لا يمكن أحداً الادعاء أن هذه حياة عادية. لم يقوَ على التفكير في السيدة هوسوكاوا أو اليابان أو نانساي. لقد باتت هذه الأشياء وراءهم، إلى درجة أنه استحال التصديق أنه كان لها وجود حتى. ما كان يؤمن به هو مخزن الخزف هذا: المملحات وزبديات الحساء، وأبراج من صحون الخبز والزبدة مكدسة فوق بعضها البعض. لقد آمن بهذه الليلة. وقد تفاجأ بأنه هو الذي بحث عن كارمن أولاً، ولم يتوجه للتكلم مع السيد هوسوكاوا، الذي لا يزال على الأرجح يلعب الشطرنج مع إسماعيل. لا يسعه أن يكون في مكانين في آن معاً. ثم أخيراً، شعر بأنه يهدأ. شعر بأن أرض المطبخ باردة وصلبة تحته، وأحس بألم طفيف في ظهره. إنه هنا، هنا فحسب، في هذا البلد الذي يجهله، ينتظر فتاة قام بتعليمها ووقع في حبها، ينتظر لمساعدة

السيد هوسوكاوا، الذي يحبه أيضاً. ها هوذا جين، قد انتقل من لاشيء إلى حب شخصين.

لم يكن يعرف كم يمر من وقت في غياب ساعة يده. حتى أنه لم يعد يجيد التخمين. شعر بأن الدقائق الخمس أشبه بساعة. أخذ يردد كلمات أغنية بالفرنسية بينه وبين نفسه بتؤدة. تمنى لو كان بوسعه غناء الكلمات، لكنه يعجز عن ذلك.

أتت كارمن أخيراً، ووجهها أحمر، كأنها كانت تركض في حين أنها سارت إلى المطبخ بأبطأ ما يكون. أقفلت الباب وراءها، وجلست على الأرض. همست له وهي تقترب للجلوس بقربه كأنها تشعر بالبرد: «ظننت أن هذا قصدك. ظننتك ستكون في انتظاري».

أمسك جين بيديها الصغيرتين جداً. كيف أمكنه أن يحسبها فتًى جميلاً؟ «أحتاج إلى طرح سؤال عليك». عاد ليفكر في كلمات الأغنية التي كان يرددها «الحب عصفور ثائر لا يمكن أحداً أن يحجزه»، ثم قبّلها.

قبلته بدورها، ولمست شعره. وجدت أن لمعانه وغزارته مصدر كبير للمتعة: «لم أشأ النهوض مباشرة. اعتقدتُ أنه علي الانتظار بعض الوقت قبل اللحاق بك».

قام بتقبيلها ثانية. كان ثمة منطق فظيع لتبادل القبل بين شخصين، أشبه بانجذاب المعدن إلى المغناطيس، إلى درجة أنه من العجيب أن يجدا القوة ليمنعا نفسيهما من الاستسلام كل ثانية من الوقت. حقاً، يجدر بالعالم أن يكون دوامة من التقبيل،

حيث نغرق فيها، ولا نجد القوة للنهوض منها من جديد. «لقد تبادلت الحديث مع روكسان كوس اليوم. قالت إنها تود منك النوم في مكان آخر الليلة، وألا تجلبي لها الفطور في الصباح».

ابتعدت كارمن عنه، تاركة يداً على صدره. روكسان لا تريد منها جلب الفطور؟ «هل اقترفتُ خطأً ما؟».

قال جين: «آه، لا؟ إنها تكنّ لك تقديراً كبيراً. لقد أخبرتني بذلك». لف ذراعه حول عنقها، وأخذت تتنفس على كتفه. هكذا كان شعور أن يكون رجل برفقة امرأة. هذا ما فوّته جين عليه وسط ترجمة اللغات كلها. «لقد كنتِ محقة في ما فكرت فيه، حول المشاعر التي تكنّها للسيد هوسوكاوا. تود أن تجتمع به الليلة».

رفعت كارمن رأسها: «كيف عساه يصعد إلى الطابق العلوي؟».

«تريد روكسان منك مساعدته».

لقد عاش جين حياة واحدة، وفي تلك الحياة كان سجيناً، وكان أصدقاؤه السجناء الآخرين. وبالرغم من أنه وقع في حب كارمن، وتوافق بأدب مع بعض الإرهابيين، إلا أن الارتباك لم يصبه أبداً ولم يدفعه إلى التفكير في الانضمام إلى عصابة «لا فاميليا دو مارتن سواريز». لكن بالنسبة إلى كارمن، فالأمر مختلف. إنها تحيا حياتين بكل وضوح. تقوم في الصباح بحركات رياضية وتخضع للتفتيش. وتحمل بندقيتها أثناء الحراسة. وتدس في حذائها خنجراً صغيراً، وتجيد استخدامه. وتطيع

الأوامر. وهي، كما قيل لها، جزء من القوة التي ستحقق التغيير. لكنها في الوقت نفسه الفتاة التي تدخل مخزن الخزف ليلاً، والتي تتعلم كيفية القراءة بالإسبانية، وبات في وسعها قول عدة كلمات بالإنكليزية. «صباح الخير. أنا على خير ما يرام. شكراً. أين المطعم؟». في صباحات بعض الأيام، تسمح لها روكسان كوس بالاستلقاء على الشراشف الشديدة النعومة التي تغطي سريرها الضخم، وتدعها تغمض عينيها لبضع دقائق، والادعاء أنها تنتمي إلى هذا المكان، وأنها واحدة من السجناء، ويعيش في عالم تحظى فيه بالكثير من الامتيازات، وبالتالي ليس لديها ما تحارب لأجله. لكن، مهما يكن الجانبان يتوافقان، إلا أنهما يظلان جانبين. وعندما تنتقل من واحد إلى آخر، فالأمر مسألة عبور فوق شيء ما. إما تخبر جين أنها تعجز عن توصيل السيد هوسوكاوا إلى الطابق العلوي، وفي هذه الحالة تخيب ظن كل من جين والسيد هوسوكاوا والآنسة كوس، التي لم تر منها سوى اللطف؛ وإما تقول له إنها تستطيع توصيله، وفي هذه الحالة تنكث بالقسم الذي تعهَّدت به لفريقها، وتضع نفسها تحت خطر التعرض لعقاب لا يسعها تخيله. لو أن جين كان يعرف أياً من هذا، لما طلب منها القيام بهذا الأمر في الأصل. بالنسبة إليه، الأمر ليس سوى مساعدة فحسب بداعي الصداقة. كأن الأمر يشبه استعارة كتاب ليس أكثر. أغمضت كارمن عينيها وادعت أنها متعبة، وأخذت تصلي لقديسة ليما «روز». «أيتها القديسة «روز» أرشديني. أيتها القديسة «روز» وضّحي لي الأمور». ضغطت على عينيها، وتوسلت المساعدة من القديسة

الوحيدة التي تعرفها شخصياً، لكن لا تقدم القديسة مساعدة كبيرة عندما يتعلق الأمر بتهريب رجل متزوج إلى غرفة مغنية أوبرا. في هذه المسألة تُعتبر كارمن وحدها.

همست كارمن قائلة: «حسناً»، وعيناها لا تزالان مغمضتين، وأذناها تضغطان على قلب جين النابض. رفع جين يده ومسَّد شعرها مراراً وتكراراً، كما كانت والدتها تفعل عندما كانت طفلة ومصابة بالحمى.

لا يعرف أيٌّ من الضيوف، في قصر نائب الرئيس، ولا حتى روبن إيغليسياس نفسه، المنزلَ بقدر ما يعرفه أعضاء عصابة «لا فاميليا دو مارتن سواريز». كان جزء من عملهم اليومي هو حفظ مواقع النوافذ، وأيها تتسع بما فيه الكفاية ليتسنى لهم القفز عبرها. أجروا حسابات السقوط، وقدروا الأضرار التي قد تلحق بعظامهم. وكل منهم يعرف طول الأروقة، والغرفة التي يتسنى لهم التصويب منها إلى الخارج، وأسرع المخارج إلى السطح، وإلى الحديقة. لذا، من الطبيعي أن تعرف كارمن بوجود سلالم خلفية في الرواق المحاذي للمطبخ، الذي يؤدي إلى غرف الخدم. وتعرف أنه في الغرفة التي كانت إيزميرالدا تنام فيها يوجد باب يؤدي إلى غرفة لعب خاصة بالأطفال، وفي غرفة الأطفال باب يؤدي إلى الرواق الأساسي في الطابق العلوي، وهذا الرواق يؤدي إلى غرفة النوم التي تضطجع فيها روكسان. بالطبع ينام آخرون في الطابق العلوي أيضاً. للجنرالين بنجامين وهكتور غرفتان في الطابق العلوي (الجنرال ألفرديو، الذي يعاني

الأرق دوماً، وجد بعض الراحة في جناح الضيوف في الطابق السفلي). والعديد من الفتيان ينامون في الطابق العلوي، لكنهم لا ينامون دوماً في المكان نفسه، ولهذا السبب اختارت كارمن أن تنام في الرواق خارج باب الغرفة التي تنام فيها روكسان، تحسباً لاستيقاظ أحد الفتيان وسط الليل، عاقداً النية على أمر ما. كانت كارمن نفسها تسلك هذا الطريق للوصول إلى مخزن الخزف ليلياً، وتحتاط كثيراً، وتخطو حافية بكل هدوء على الأرض الخشبية الملمّعة. كانت تعرف موقع كل لوحة تصدر صريراً، وكل نائم يُحتمَل أن يكون نومه خفيفاً. تجيد التواري مقابل الحائط عندما يمر أحد ما عبر الزاوية متوجهاً إلى الحمام. في وسعها السير على هذه الأرض بهدوء شفرة تنزلق على الثلج. كانت كارمن مدربة، وخبيرة في الالتزام بالصمت. وبرغم ذلك، كان واثقة كثيراً من قدرة السيد هوسوكاوا على الالتزام بالصمت. حمداً لله أن روكسان كوس لم تقع في غرام أحد الروس. تشك في استطاعتهم صعود السلالم من دون التوقف لتدخين سيجارة، وإخبار قصة واحدة على الأقل بصوت مرتفع لا يستطيع أي أحد فهمها. يجدر بجين إحضار السيد هوسوكاوا إلى الرواق الخلفي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وعندها تصطحبه إلى غرفة روكسان كوس. وبعد ساعتين تتوجه إلى الباب لتُرجعه. لن يتفوها بكلمة واحدة لبعضهما البعض، ولا حتى همساً. لكن هذا الجزء كان في منتهى السهولة. وبرغم كونهما حليفين في هذه الحالة، إلا أنهما لا يعرفان ما يقولانه لبعضهما البعض.

بمجرد أن رُسمت الخطط، تركت كارمن جين لتشاهد التلفاز مع الفتيان الآخرين. شاهدت حينها حلقة معادة من مسلس «قصة ماريا». كانت ماريا قد ذهبت إلى المدينة لتبحث عن حبيبها، بعدما أرسلتْ به بعيداً. أخذت تجوب الشوارع المحتشدة وهي تحمل بيدها حقيبتها الصغيرة، وعلى كل منعطف يحدق فيها الغرباء، ويتآمرون على إيذائها. أخذ كل من في غرفة نائب الرئيس ينحبون. لعبت كارمن الداما عند انتهاء حلقة المسلسل، وساعدت في إعداد لوائح المؤن، وتطوعت للقيام بحراسة فترة العصر إن كان أحد ما يشعر بالتعب. كانت مثلاً أعلى للآخرين في ما يخص تعاونها واستعدادها للمشاركة. لم ترد رؤية جين أو السيد هوسوكاو أو روكسان كوس، خشية أن يحمر وجهها ويُفتضح أمرها، وخوفاً من أن تغضب منهم لمبالغتهم في الطلب منها ما لن يقبل به أحد من الخاطفين غيرها.

كم يمكن سكان هذا المنزل أن يعرفوا ماذا يدور في رأسها؟ لم تحصل أي ثرثرات، وبرغم ذلك كان يوجد بعض التوتر في الأجواء. كهرباء خفية جعلت الرجال يشرئبون بأعناقهم وينظرون، لكن لا يجدون شيئاً. لم يستسغ أحد طعام العشاء المؤلف من السمك المملح والأرز. وأخذوا جميعهم، الواحد تلو الآخر، يضعون صحونهم على الطاولة من دون أن يأكلوا منها سوى نصف الكمية، ويبتعدوا. اختار كايتو معزوفة لكول بورتر وأخذ يعزفها على البيانو، وتحول المساء إلى ضوء أزرق شحيح. ربما يعود السبب إلى الطقس الجيد، وانزعاجهم من عدم القدرة على الخروج. وقف ستة رجال بالقرب من نافذة

مفتوحة، وحاولوا تنشق هواء الليل لدى حلول الظلمة، وهم ينظرون إلى الحديقة المفرطة النمو، وردةً معترشة تلو أخرى، ويسمعون من الجانب الآخر، الأصوات الخافتة لمحركات السيارات التي تبعد على الأرجح عدة مبان عن شارعهم. لوهلة، تذكر الرجال الموجودون عند النافذة، أن ثمة عالماً في الخارج، ثم تناسوا بالسرعة نفسها الفكرة.

توجهت روكسان كوس إلى غرفتها باكراً. إنها كحال كارمن، لم تشأ التواجد هناك بمجرد أن أخذت قرارها. وجلس السيد هوسوكاوا قرب جين على «كرسي الحب» بالقرب من البيانو. قال: «أعد علي ما قلت».

«إنها تود رؤيتك الليلة».

«هل هذا ما قالته؟».

«ستأخذك كارمن إلى غرفتها».

نظر السيد هوسوكاوا إلى يديه. إنهما يدان مسنتان، أشبه بيديّ والده، وأظافره طويلة. «أجد من الغرابة بمكان أن تعرف كارمن بهذا الأمر، وأن تعرف أنت أيضاً».

«ليس ثمة طريقة أخرى».

«ماذا لو مثل ذلك خطورة على الفتاة؟».

قال جين: «كارمن تعرف ما الذي تقوم به». خطورة؟ كانت تنزل على السلالم كل ليلة متوجهة إلى مخزن الخزف. ما كان ليطلب منها فعل أي شيء، ما لم يكن آمناً.

هز السيد هوسوكاوا برأسه بهدوء. ساوره إحساس بأن غرفة الجلوس تفتل كدوّامة. بدا كأن غرفة الجلوس تحولت إلى قارب وسط بحر هائج. كان قد كف منذ عدة سنين عن التفكير في شأن ما ينشده بشدة، ربما مذ كان فتى صغيراً. وقد ضبط نفسه ليريد الأشياء الممكن الحصول عليها فحسب: مؤسسة هائلة، عائلة منتجة، فهم الموسيقى. والآن، بعد بضعة شهور على عيد مولده الثالث والخمسين، وفي بلد لم يسبق له أن رآه في حياته، ها هو يشعر بالرغبة تتملّك جسده: ذاك النوع من الرغبة الذي لا يشعر به المرء إلا حينما يكون ما يحتاج إليه قريب المنال. كان يحلم أثناء طفولته بالحب، ليس أن يتفرج عليه فحسب، مثلما كان يشاهده في الأوبرا، بل أن يختبره بنفسه. لكنه عاد وقرر أن هذا ضرب من الجنون. إنه مغالاة في الطلب. والليلة تمنى أموراً بسيطة: فرصة التمكن من أخذ حمام دافئ، بدلة معقولة، هدية يجلبها معه، على الأقل بعض الورود. لكنه شعر حينها بأن الغرفة تفتل بعض الشيء في الاتجاه المعاكس، ففتح يديه وسقط ذلك كله منه، ولم يعد يريد شيئاً. لقد طُلب منه الحضور إلى غرفتها عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وليس ثمة ما يريده في العالم سوى ذلك: لا شيء.

عندما حان موعد النوم، استلقى السيد هوسوكاوا على ظهره ونظر إلى ساعته تحت ضوء القمر الساطع. خشي أن يغرق في النوم، لكنه أدرك أنه سيعجز عن ذلك. اقترب من جين الذي كان ينام بالقرب منه، ويتنفس بهدوء ورتابة. ما كان يجهله أن جين يصحو كل يوم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل،

كاعتياد الطفل على الصحو رغبة في وجبة غذاء، وينسحب من غرفة الجلوس من دون أن يشعر به أحد. أخذ السيد هوسوكاوا يراقب الشخصين اللذين كانا يقومان بالحراسة الليلية، بياتريس وسيرجيو، وهما يجولان في المكان، وكلما اقتربا منه يُغمض جفنيه. توقفا عند بعض أعضاء مجموعته ليحرصا على أنهم غرقوا في النوم. فهمسا لبعضهما البعض وهزا برأسيهما. وعند الساعة الواحدة، اختفيا كما قال جين إنهما سيفعلان. كان هذا عالم الليل الذي كان السيد هوسوكاوا في غفلة منه. شعر بأن نبضه يتسارع في صدغيه ومعصميه ورقبته، فشد أصابع قدميه إلى الأمام. لقد حانت الساعة. ها قد مضى دهر على نومه. لقد كان ميتاً، والآن بات فجأة حياً جداً.

عند الساعة الثانية إلا خمس دقائق، جلس جين كأن منبهاً قد أيقظه، ثم وقف ونظر إلى رب عمله وقطعا معاً غرفة الجلوس، وهما يدوسان بخفة بين أصدقائهما ومعارفهما النائمين. كان هناك الأرجنتينيون، والبرتغاليون، والألمان، ينامون بالقرب من الإيطاليين. أما الروس فكانوا في مأمن في غرفة الطعام. وكان هناك كايتو، يطوي كفيه العزيزتين على صدره، وأنامله تتحرك بعض الشيء في خلال نومه، ككلب يحلم بشوبير. وكان هناك الكاهن نائماً على جنبه، ويداه تحت خده. وينتشر في ما بينهم بعض الجنود الذين كانوا نائمين على ظهورهم، كأن النوم سيارة صدمتهم وقتلتهم تاركة أعناقهم ملتوية إلى جانب رؤوسهم، وأفواههم مفتوحة، وبنادقهم ملقية على أكفهم المفتوحة كأنها فاكهة ناضجة.

وفي الرواق المحاذي للمطبخ، كانت كارمن تنتظرهما، كما قال جين تماماً، وشعرها الأسود مربوط على شكل ضفيرة، ورجلاها عاريتان. نظرت إلى جين أولاً، وعوضاً عن الكلام لمس كتفها لمسة بسيطة فيها الكثير من الإيحاء، ففُهم كل شيء بين الثلاثة. لم يكن ثمة جدوى من الانتظار. الانتظار لا يزيد الأمور إلا سوءاً. كانت كارمن تفضل لو أنها موجودة في مخزن الخزف في تلك اللحظات ورجلاها في حجر جين، تقرأ بصوت مرتفع نسبياً الفقرة التي كتبها لها لتتمرن عليها، لكنها أخذت قرارها. لقد وافقت. تلت صلاة سريعة للقديسة التي تجاهلتها الآن، ورسمت إشارة الصليب أربع مرات على صدرها بسرعة وخفة كالعصفور الدوري، ثم استدارت وتوجهت إلى الرواق، والسيد هوسوكاوا يتبعها بكل هدوء. نظر إليهما جين وهما يبتعدان، غير مدرك أن أسوأ ما قد يحصل أن يظل وحده.

وصلا إلى بئر السلالم الضيقة واللولبية الشكل، والمصنوعة من ألواح رخيصة الثمن، ولا تنفع سوى لحمل الخدم من طابق إلى آخر. التفتت كارمن ونظرت إلى السيد هوسوكاوا. انحنت ولمست كاحله ثم لمست كاحلها، حركت أرجلهما معاً، وعندما وقفت هز برأسه لها. كان الظلام دامساً، وكلما صعدوا أكثر على السلالم ازدادت العتمة. لم يسبق لها أبداً أن خذلتها صلواتها كلياً. حاولت الاعتقاد أن هذا ليس إلا درساً، تأخيراً ضرورياً، وأنه في حال تم الإمساك بهما فلن تكون وحيدة إلى الأبد.

جل ما يستطيع السيد هوسوكاوا رؤيته الآن، هو ظل ظهرها النحيف. حاول أن يفعل ما طلبته منه، أن يطأ بقدمه مكان قدمها بالضبط، لكن لم يسعه إلا التفكير في مدى صغر حجمها. لقد جعله الاحتجاز يفقد الوزن، وكلما صعد درجة شعر بالامتنان لكل باوند فقده من وزنه. حبس أنفاسه وأخذ يصغي. لقد كانا صامتين بحق. لم يسبق له أبداً أن شهد مثل هذا الغياب الكامل للصوت. في الشهور التي أمضاها في هذا المنزل، لم يصعد على سلالم، وهذا الفعل بحد ذاته بدا يتسم بالشجاعة والجرأة. كم كان الصعود على السلالم فعلاً صحيحاً! لكنه كم كان سعيداً لكونه حظي أخيراً بفرصة المخاطرة بنفسه. عندما وصلا إلى أعلى السلالم، دفعت كارمن الباب إلى الأمام بأطراف أصابعها، فسطع ضوء خافت على وجهها. اطمئنا إلى أن جزءاً صغيراً من الرحلة على الأقل بات خلفهما. فالتفتت إليه وابتسمت له. كانت فتاة جميلة. كانت بمثابة ابنته.

عبرا الرواق الضيق ناحية غرفة المربية، وعندما فتحت ذاك الباب كان ثمة صوت خافت. لا يزالان يلتزمان بالصمت الشديد، لكن الباب أصدر صريراً خفيفاً. كما كان هناك أيضاً شخص في السرير. وهذا أمر لا يحدث غالباً. كانت الفتاة التي ترعى الأطفال تحظى بالسرير الأقل راحة في المنزل برمته، ونادراً ما كان ينام أحد في هذا السرير، لكن هذا الأمر كان وارد الحصول، وها هو الليلة قد حصل. وضعت كارمن يدها على صدر السيد هوسوكاوا كي ينتظرا دقيقة حتى يتلاشى الصوت الذي أصدره الباب. فشعرت بقلبه يخفق بقوة كأنها

تحمل هذا القلب بين يديها. أخذت نَفَساً وانتظرت، ثم هزت برأسها من دون أن تنظر إلى الوراء، وحركت قدماً واحدة إلى الأمام. لعل هذا الأمر صعب، لكنه ليس مستحيلاً. لم يكن بأمر يُذكر مقارنة مع اقتحام قصر عبر فتحات تهوئة. لقد سبق ومرت ليال عليها قد وجدت فيها أحداً ينام في هذا السرير.

كانت بياتريس. لقد استلقت ونامت في منتصف ليلة حراستها. كان الجميع يُقْدمون على ذلك. وبالتأكيد أقدمت كارمن على ذلك أيضاً. كان الوقت أطول من أن يقدروا على البقاء صاحين. ولعل سيرجيو في غرفة أخرى، يغط في نوم مذنب وعميق. لم يكن على بياتريس أي غطاء، وكانت تنتعل حذاءها في قدميها. كانت في خلال نومها تحمل سلاحها بين يديها كطفلة. حاول السيد هوسوكاوا أن يحرك قدميه إلى الأمام، لكنه امتلأ خوفاً، فأغمض عينيه وفكر في روكسان كوس. فكر في الحب، وحاول تلاوة صلاة حول هذا العشق الذي يجعله يخاطر بحياته، غير آبه. وعندما فتح عينيه، وجد بياتريس قد جلست على السرير وشهرت سلاحها بسرعة كبيرة. وبالسرعة نفسها وقفت كارمن بينهما. ثمة شيئان كان السيد هوسوكاوا واثقاً منهما: أن بياتريس وجهت بندقيتها ناحيته، وكارمن وقفت أمام فوهة البندقية. اقتربت من بياتريس، التي يفترض أنها صديقتها، الفتاة الوحيدة الأخرى في المجموعة التي تضم العديد من الرجال، وشدتها بإحكام، تاركة البندقية تتوجه ناحية السقف.

همست بياتريس: «ماذا تفعلين؟». حتى هي كانت تدرك أهمية الالتزام بالصمت. «ابتعدي عني».

لكن كارمن ظلت تمسك بها. لقد وقعت عليها عملياً. كانت تشعر بالخوف الشديد، وعلى نحو مثير للاستغراب شعرت أيضاً براحة كبيرة بعد أن تم الإمساك بها. همست في أذن الفتاة الأخرى قائلة: «لا تشي بنا».

«هل ستأخذينه إلى الطابق العلوي؟ لقد أوقعت نفسك في متاعب كبيرة». قاومت بياتريس بين يدي كارمن، لكنها وجدتها أقوى مما تصورت. ربما يعود السبب إلى أنها كانت تغط في نوم عميق: نائمة في وقت حراسة، وربما نوت كارمن أن تشي بها.

قالت كارمن: «شش». دفنت وجهها في الشعر المنسدل من ضفيرة بياتريس التي فُكت أثناء نومها، وأبقت قبضتها محكمة. نسيت لثانية من الوقت أمر السيد هوسوكاوا، وبات الأمر محصوراً فيهما فقط، هي وبياتريس، بسبب هذه المشكلة الطارئة فحسب. شعرت بدفء ظهر بياتريس وبماسورة البندقية الباردة التي تضغط على خدها، وبالرغم من أنها لم تفكر في طلب المساعدة، سمعت الصوت المحبَّب للقديسة «روز» يردد: «قولي الحقيقة».

قالت كارمن: «إنه مغرم بمغنية الأوبرا». لم تعد تأبه لأمر الأسرار الآن. أملها الوحيد أن تفعل ما طُلب منها. «يريدان الانفراد بنفسيهما».

فقالت بياتريس: «قد يقتلونك لفعلتك هذه»، برغم أنها وجدت أن ما تقوله ليس صحيحاً على الأرجح.

قالت كارمن: «ساعديني». قصدت طلب هذه المساعدة من قديستها فحسب، لكن أفلتت الكلمة من بين شفتيها مدفوعة بحالة اليأس التي ألمّت بها. خُيّل لبياتريس لوهلة أنها سمعت صوت الكاهن، ونسيتْ أمرها. كان قد طلب منها أن تبدي معاملة لطيفة مع الغير. فكرتْ في خطاياها وفرصة مسامحة الآخرين على خطاياهم، فرفعت ذراعها المثبَتة قدر ما أمكنها، ووضعتها بخفة على ظهر كارمن. قالت بياتريس: «وهل هي تحبه؟».

«سوف أعود لأجلبه بعد ساعتين».

حركت بياتريس نفسها بين ذراعي كارمن، هذه المرة أفلتتها كارمن. بالكاد أمكنها رؤية وجه كارمن. لم تكن واثقة تماماً من أن السيد هوسوكاوا هو الواقف هناك في العتمة. كان قد سبق وعلّمها كيفية قراءة الوقت، ولطالما ابتسم في وجهها. في إحدى المرات عندما وصل الاثنان إلى باب المطبخ في الوقت عينه، انحنى لها. أغمضت بياتريس عينيها، وبحثت وسط حلكة الظلام عن مجموعة خطاياها، وهمست قائلة: «سوف لن أشي». شعرت، مجدداً، للمرة الثانية، في ذاك اليوم، بالراحة بعد أن رُفع عنها بعض من العبء الذي كان على كاهلها.

قبلتها كارمن على خدها، بعد أن شعرت بامتنان بالغ لها. أحست للمرة الأولى بأنها محظوظة، ثم عادت ومشت وسط الظلام. أرادت بياتريس لو تأخذ منها وعداً في المقابل، ألا تأتي على ذكر أنها رأتها نائمة، لكنها بالطبع ما كانت لتتكلم.

لا تستطيع ذلك. استلقت بياتريس على ظهرها على السرير برغم أنها لم تشأ ذلك، وبعد دقيقة غفت وانتهى الأمر برمته بالسرعة التي بدأ بها.

عبرت غرفة اللعب الخاصة بالأطفال، حيث يسطع فيها ضوء ليلي على شكل أقمار من مصباح في الحائط يعكس نوره على مجموعة من الدمى القابعة وحدها، ثم عبرت حماماً آخر فيه حوض استحمام أبيض يفوق في حجمه بعض القوارب التي ركبت كارمن على متنها في حياتها، ثم خرجت إلى الرواق الأساسي، حيث عاد المنزل ليكون على الهيئة التي يعرفانه بها، واسعاً ومرتباً ورحباً. أوصلت كارمن السيد هوسوكاوا إلى الغرفة الثالثة ثم توقفت. هنا كانت تنام معظم الليالي، فترات النوم المقتضبة التي كانت تتسنى لها. لم تفلت يده مذ تركا بياتريس، وما زالت حتى تلك اللحظة تمسك بها. بدا كأنهما قطعا مسافة طويلة جداً، لكن أطفال نائب الرئيس كانوا يقطعون المسافة من غرفة والدتهم إلى غرفة اللعب، مروراً بغرفة إيزميرالدا، نزولاً إلى المطبخ عبر السلالم الخلفية، في أقل من دقيقة، برغم أنه طُلب منهم عدم الركض في أرجاء المنزل. كانت كارمن تكنّ محبة كبيرة للسيد هوسوكاوا. تمنت لو يسعها إخباره بذلك، لكن لو أنها كانت تعرف لغته لما تمتعت بالشجاعة لفعل ما قامت به. وعوضاً عن ذلك، ضغطت على يده مرة ثم تركتها.

انحنى لها السيد هوسوكاوا، وقد نزل وجهه إلى حدود ركبتيه، وظل في هذه الوضعية لمدة طويلة جداً كما خُيّل لكارمن. ثم وقف من جديد وفتح الباب.

كانت ثمة نافذة عالية في رواق الطابق العلوي، فتدفق ضوء القمر الساطع على السلالم الأساسية، لكن لم تنزل كارمن على السلالم الأساسية. عادت من حيث أتت، مروراً بغرفة اللعب ثم بالسرير الذي تغط بياتريس بالنوم فيه. توقفت كارمن لتفك أصابع بياتريس عن زناد البندقية، ثم أسندتها مقابل الحائط ودثرت بياتريس بغطاء وصل إلى حدود كتفيها. أملت ألا تقرر بياتريس أن تشي بها في الصباح، أو الأفضل من ذلك أن تصحو، وهي تظن أن ما حصل ليس إلا حلماً راودها. لدى نزول كارمن على سلالم المطبخ، شعرت بنوع آخر من دقات القلب القوية. تخيلت روكسان كوس في الجانب الآخر من الباب، قلقة بسبب طول انتظارها. تخيلت السيد هوسوكاوا، هادئاً ومحترماً، يأخذها بين ذراعيه. لدى التفكير في دفء هذه اللمسة، والطمأنينة التي تولدها هذه المعانقة، رفعت كارمن يدها ووضعتها على خط العرق الرفيع الذي سال على مؤخر رقبتها. كانت تتحرك بكل هدوء، لكن برغم ذلك كانت تسرع في النزول على السلالم أكثر فأكثر، وإذ بالسلالم تصبح أربع درجات، ثم ثلاثاً، ثم اثنتين، ثم واحدة، ثم وصلت إلى الرواق، ثم إلى الطبخ. وتوقفت في عالم مخزن الخزف الرائع، حيث كان جين يجلس على الأرض، وكتاب مغلق على ركبتيه. عندما رفع رأسه ونظر إليها، وضعت أصابعها على شفتيها. كان وجهها يشع نوراً، ووجنتاها حمراوان، وعيناها واسعتان جداً. وعندما استدارت لتغادر، وقف بالطبع وتبعها.

كم يمكن الحظ أن يحالف المرء في ليلة واحدة؟ هل الحظ

يبتسم للمرء بقدر محدد، كالحليب في القوارير. وعندما تُسكب كمية كبيرة منه، هل يبقى الكثير منه؟ أم هل الحظ مسألة يومية، ويوم يحالفك هذا الحظ يكون غير محدود؟ إن صحت الحالة الأولى، إذاً، فبالتأكيد استنزفت كارمن حظها كله بإيصالها السيد هوسوكاوا سالماً إلى غرفة نوم روكسان كوس. وإن صحت الحالة الثانية، إذاً فهذه ليلتها. إن كانت جميع قديسات السماء يساندنها الآن، فالحظ سيظل يساندها لبضع ساعات أخرى. أمسكت كارمن بيد جين وأخذته إلى المطبخ، ثم خرجا إلى الشرفة الخلفية حيث لم يسبق له أن تواجد. فتحت الباب، بعد أن وضعت يدها بكل بساطة على المقبض وفتلته، ثم خرجا معاً ليقفا وسط حلكة الظلام.

يا له من ليل: شلال النور يتدفق على ما كانت سابقاً حديقة مرتبة، وينساب على الجدار المزخرف بالجص مثل الماء. والهواء يعبق برائحة الياسمين القوية وزنابق المساء التي فرغت من عملها منذ وقت طويل، وأقفلت ناهية نهارها. كان العشب طويلاً يتخطى الكاحل ويلامس ربلة الساق، محدثاً صوت هسهسة وهما يسيران، لذا توقفا ونظرا إلى النجوم في غفلة منهما أنهما واقفان وسط مبنى في المدينة. لم يكن يوجد أكثر من ست نجوم ليرياها.

كانت كارمن تخرج من المنزل طوال الوقت. حتى عند هطول المطر، كانت تخرج لتقوم بالحراسة، أو لتمدد رجليها ببساطة. لكن بالنسبة إلى جين، فقد كانت الليلة عجائبية، الهواء

والسماء، والانسحاق الناعم للعشب تحت كعبي رجليه. لقد عاد إلى العالم. وبدا العالم، في هذه الليلة، مكاناً جميلاً يفوق التصور. لم يتسنَّ له النظر سوى إلى إطلالة محدودة، وبرغم ذلك في وسعه القَسَم إن العالم جميل.

سوف يظل جين يتذكر مدى حياته هذه الليلة بطريقتين مختلفتين.

أولاً، سيتخيل ما لم يُقْدِم عليه:

في هذه النسخة من الخيال: يأخذ بيد كارمن ويصطحبها إلى خارج البوابة الواقعة في آخر الممشى الأمامي. يوجد عساكر يقفون للحراسة في الجهة المقابلة من الجدار، لكنهم أيضاً صغار في السن ويغطون في النوم، ثم يقومان معاً بتخطيهم، ويسيران بكل بساطة إلى عاصمة البلد المضيف. لا أحد يعرف عنهما شيئاً ليوقفهما. إنهما ليسا شهيرين، ولا أحد يأبه لأمرهما. يذهبان إلى المطار ويجدا لهما رحلة إلى اليابان ويعيشان هناك معاً بسعادة غامرة مدى الدهر.

ثم يتخيل ما حصل بالضبط:

لم تخطر له المغادرة، تماماً كحال الكلب الذي لا يخطر له الذهاب، بمجرد أن يتم تدريبه على البقاء في الحديقة. ويشعر بأنه ميمون بسبب هذا القدر القليل من الحرية الذي أُعطي له. فتأخذ كارمن بيده ويسيران معاً إلى المكان الذي كانت إيزميرالدا تنزه أطفال نائب الرئيس فيه، وهو مكان ينحرف فيه الحائط ويكوّن جيباً من العشب والأشجار الرفيعة، ولا تمكن رؤية

المنزل منه. تقبله كارمن وهو يقبلها، ومنذئذ فصاعداً لا يعود قادراً على فصل رائحتها عن رائحة الليل. إنهما يقفان وسط العشب الغزير، في جزء من الحديقة مغطى بظلال الجدار، ولا تمكن جين رؤية أي شيء. ثم يتذكر لاحقاً أن صديقه السيد هوسوكاوا موجود داخل ذاك المنزل في الطابق العلوي يشارك المغنية سريرها، لكن في تلك الليلة، لا يفكر فيهما على الإطلاق. تخلع كارمن سترتها برغم وجود نسمة هواء باردة، وتفك أزرار قميصه، في حين يقوم بتغطية نهديها بيديه. وسط الظلام تختلف حالهما كلياً. تملأهما الثقة. يجذبها جين إلى الأسفل وهي تجذبه أيضاً. يتحديان الجاذبية بسقوطهما البطيء على الأرض. لا ينتعل أي منهما حذاءً في رجليه، فينزلق سروال كل منهما، إنهما واسعان عليهما على أي حال، وينتابهما ذاك الشعور، متعة ملامسة الجلد للجلد للمرة الأولى.

أحياناً، يوقف جين ذاكرته عند ذاك الحد.

جسدها، الليل، العشب، أن يكون خارج كارمن ثم داخلها. إنه لا يعرف كيف يرغب في المزيد لأن شيئاً في حياته لم يكن بهذا القدر من الروعة. في هذه اللحظة بالتحديد، يمكنه أن يأخذها بعيداً، فإذ به يجذبها إليه أكثر. وشعرها يلتف حول عنقه. يظن في تلك الليلة أن أحداً لم يحظ بكل هذا القدر من السرور، ولاحقاً فقط يدرك أنه وجب أن يطلب المزيد. يدس أنامله في الفراغات الصغيرة بين أضلعها، تلك الحُفر الصغيرة التي نحتتها الجوع. ويتلمس أسنانها، ولسانها. كارمن، كارمن،

كارمن، كارمن. في المستقبل، سيحاول تكرار اسمها بالقدر الكافي، لكنه لن يستطيع ذلك أبداً.

كان الجميع نياماً داخل المنزل، الضيوف والحراس، وأحد لم يلحظ شيئاً. الياباني وحبيبته مغنية الأوبرا في السرير في الطابق العلوي، وكارمن وجين تحت النجوم الست في الخارج، ولا أحد منتبهاً إلى غيابهما. وحده سيمون تيبولت كان صاحياً، وقد استفاق بعد أن كان يحلم بزوجته إديث. عندما استفاق تماماً وأدرك أين هو وتذكر أنها ليس موجودة، راح يبكي. حاول أن يوقف نفسه عن البكاء، لكنه كان يراها أمام ناظريه كأنها هناك. كان يحلم بأنهما في السرير ويمارسان الحب، وفي غمرة مطارحتهما الغرام يتلفظ كل منهما باسم الآخر بشغف. عندما فرغا، جلست إديث على كومة الشراشف ولفت وشاحها الأزرق حول كتفيه كي لا يبرد. فعمد الآن سيمون تيبولت إلى دفن وجهه في ذاك الوشاح. لكن، ما ازدادت حدة بكائه إلا سوءاً. لم يستطع التفكير في أي شيء لإيقاف البكاء... وبعد فترة كفّ عن المحاولة حتى!

الفصل التاسع

عاد في الصباح كل شيء إلى طبيعته. أرسلت الشمس أشعتها عبر النوافذ مبرِزَةً مجموعة من البقع على السجادة، وأخذت العصافير في الخارج تزقزق وتنادي. جال اثنان من الفتيان، سيرجيو ويسوع، حول المنزل، وحذاءاهما مثقلان بالندى، وبندقيتاهما مصوبتان إلى السماء. في ديارهما كانا ليصطادا عصفوراً أو عصفورين، لكن هنا يُمنع إطلاق النار إلا في حالة الضرورة القصوى. كانت العصافير تمر أمام ناظريهما وأجنحتها تخلّف وراءها نفحة هواء في شعرهما. نظرا عبر النافذة فرأيا كارمن وبياتريس في المطبخ، تُخرجان اللفافات من علب بلاستيكية كبيرة، في الوقت الذي يغلي فيه البيض على النار. تبادلتا النظرات، فابتسمت كارمن، وادعت بياتريس أنها لم تر الابتسامة، الأمر الذي وجدته كارمن إشارة جيدة على الأرجح، أو جيدة بما فيه الكفاية. كان تنبعث رائحة القهوة من المطبخ. توجهت كارمن إلى مخزن الخزف وعادت حاملة كومة من الصحون الملونة بالأزرق والذهبي وكلمة «ودجوود» مطبوعة

على أسفلها. ما نفع امتلاك هذه الصحون إن لم يُصَر إلى استخدامها؟

سارت الأحوال تماماً كما كانت تسير عليه كل صباح، ما عدا أن روكسان كوس لم تنزل إلى البيانو، وظل كايتو ينتظرها. وبعد فترة، نهض من على مقعد البيانو وأخذ يمدد رجليه. انحنى إلى الأمام وانتقى معزوفة لشوبان، تلك البسيطة التي يعرفها الجميع: موسيقى لتمضية الوقت. لم ينظر إلى المفاتيح حتى. بدا الأمر كأنه يتحدث إلى نفسه، وكأنه لا يدرك أن الجميع يسمعونه. كانت روكسان غارقة في النوم، ولم تأخذ كارمن لها طعام الفطور. لم يكن بالأمر الفظيع. ففي النهاية كانت كل يوم تغني، لذا ألا تستحق بعض الراحة؟

لكن، أليس من الغريب أن السيد هوسوكاوا نائم أيضاً؟ هناك على الكنبة، والجميع يمرون بمحاذاته، وهو لا يزال مستلقياً على ظهره ونظارته مطوية على صدره، وثغره شاغر. لم يسبق لأحد أن رآه نائماً. لطالما كان أول الصاحين في الصباح. لعله مريض. قام اثنان من الفتيان، غوادالوبي وأمبرتو، كانا يتوليان حراسة المنزل من الداخل، بالانحناء فوق ظهر الكنبة ومراقبته للتأكد إن كان لا يزال يتنفس، فوجداه يتنفس، فما كان منهما إلا أن ابتعدا وتركاه وشأنه.

صارت الساعة الثامنة والثلث. عرفت بياتريس التوقيت لأنها تحمل ساعة. خطر في ذهنها أنه حصل الكثير من ممارسة الجنس الليلة الفائتة، لكنها لم تَبُح بذلك لكارمن. كانت تدع

كارمن تظن أنها نسيت الأمر، لكنها لم تفعل ولن تنسى، كانت تجهل كيف عساها تستخدم هذه المعلومة، لكنها تضعها جانباً كالمال المدّخر. إذ ثمة العديد من الاحتمالات لاستخدامها.

إن الناس يعتادون على الروتين البسيط، فتراهم يشربون قهوتهم، وينظفون أسنانهم، ثم يتوجهون إلى غرفة الجلوس وروكسان تغني. كان ذلك يحصل في فترة الصباح. لكنهم الآن يصبون أنظارهم على السلالم. أين هي؟ إن لم تكن مريضة إذاً، ألا يفترض بها النزول؟ هل المواظبة على العادات طلب مبالغ فيه؟ كانوا يولونها الكثير من الاحترام والتبجيل. لذا، أليس من الصحيح الاعتقاد أنها ستوليهم احتراماً في المقابل؟ أخذوا يراقبون كايتو. كان واقفاً هناك كرجل في محطة قطار لا ينفك ينظر إلى باب القطار المفتوح بعد نزول الجميع من على متنه. إن الرجل الذي تعرفونه قد تم نبذه قبل أن يدرك ذلك بوقت طويل. أخذ ينقر على المفاتيح من دون أي انتباه، وهو لا يزال واقفاً. ويتساءل متى عساه يجلس ويقوم فعلياً بالعزف من دونها؟ ماذا سيحصل عندما تنتهي هذه الأزمة برمتها، ولا يعود يمضي أيامه بطولها عند البيانو، ولا لياليه في قراءة النوتات الموسيقية؟

لقد بات عازف بيانو الآن، وقد صارت لديه شرايين ناتئة في يديه لتثبت هذا الأمر. هل بوسعه العودة إلى تلك الحياة السابقة، حيث كان يصحو عند الساعة الرابعة فجراً ليعزف سريعاً لمدة ساعة قبل التوجه إلى العمل؟ ماذا عساه يحصل عندما تتم إعادة تنصيبه كنائب رئيس أول في شركة نانساي،

ويعود ليصبح من جديد رجلاً من أرقام، رجلاً من دون مغنية الأوبرا؟ هذا جل ما سيكون عليه. تذكر ما الذي حصل للعازف السابق، وكيف اختار أن يموت بدلاً من أن يعود إلى العالم وحده. إن الفراغ المخيف لمستقبل كايتو، دفع بيديه إلى التصلب والانزلاق عن المفاتيح من دون أن تعزفا نوتة واحدة.

ثم حصل أمر ملحوظ:

بدأ شخص آخر بالغناء. صوت يغني من دون مرافقة الموسيقى، ويصدر من أقصى طرف الغرفة. صوت جميل ومألوف. ارتبك الناس في البداية، ثم بدأ الفتيان، واحداً تلو الآخر، بالضحك. أمبرتو ويسوع، وسيرجيو وفرانسيسكو، وجيبلبير، وآخرون يأتون من الرواق ويصدرون ضحكات عالية، ضحكات أجبرتهم على لف أيديهم حول أعناق بعضهم البعض ليتمكنوا من البقاء واقفين. لكن برغم ذلك، واصل سيزار غناء جملة من توسكا. كان الأمر مضحكاً، لأنه يقلد روكسان بدقة متناهية. بدا كأنه قد تحول إليها خلال نومهم، بالطريقة التي ترفع فيها ذراعها وهي تغني: «أيها المؤمن المتقد، لقد وضعت الزهور على المذبح». كان أداؤه غريباً، فهو بالتأكيد لا يشبه مغنية الأوبرا على الإطلاق. إنه فتى طويل ونحيف، ذو بشرة متعبة، وتنمو على لحيته بعض الشعيرات السوداء، لكن رؤيته بدت أشبه برؤيتها، بالطريقة التي يرفع رأسه فيها، ثم يغمض عينيه في اللحظة التي قد تغمضهما فيها. بدا أنه لم يكن يسمع ضحكاتهم. لم يركز نظراته عليهم أصلاً. لم يكن يتوجه بغنائه

إلى شخص محدد. ولم يكن يقدِم على السخرية منها بقدر ما كان يملأ الفراغ الذي خلفته وراءها. كان ليبدو أنه يسخر منها لو أنه كان يقلد حركاتها فحسب، لكن لم يكن هذا واقع الحال. لقد كان صوتها. صوت روكسان كوس الأسطوري، حيث يؤدي النوتات بكل وضوح وأناة. وصل إلى عمق رئتيه سعياً إلى أن يصدح بأقوى ما يستطيع، في حين أنه لم يسمح لنفسه بالغناء بهذه القوة عندما كان في المطبخ حيث كان يغني وحده بصوت خفيض. وها هو يغني الآن. يغني جزءاً ذا طبقة عالية تكاد تكون صعبة عليه. وبرغم ذلك، قفز وأمسك بطرف النوتة. رفع نفسه إلى الأعلى، وأمسك بها. لم يكن لديه أدنى فكرة عما يقوله، لكنه أدرك أنه يقول الكلام بطريقة صحيحة. كان ينتبه جيداً إلى الكلام، لذا ما كان ليخطئه أبداً. كان يلفظ كل كلمة بإمعان. لم يكن مغني أوبرا، ولا يجيد الإيطالية. وبرغم ذلك أعطى انطباعاً أنه يجيد الغناء والإيطالية على حد سواء. ولوهلة آمن كل من في الغرفة بقدراته. أخذت ضحكات الفتيان تقلّ تدريجياً ثم اختفت. وبات الجميع، الجنرالات، والضيوف، والفتيان، ينظرون إلى سيزار. ثم خرجت كل من كارمن وبياتريس من المطبخ، وهما تنصبان أذنيهما للإصغاء، غير واثقتين إن كان ما يحصل جيداً أم سيئاً. أما السيد هوسوكاوا الذي كان يعرف بالموسيقى أكثر من الجميع، فاستفاق وهو يحسب أنه صحا على غناء مألوف بالنسبة إليه. استفاق وهو يظن أن صوتها يبدو غريباً هذا الصباح، فتساءل إن كانت متعبة ربما، فإنه هو نفسه لا يزال نائماً. لكنه استفاق وهو يحسب أن الصوت صوتها.

لم تكن قطعة طويلة. عندما فرغ سيزار من الغناء، بالكاد أمكنه التقاط أنفاسه، ثم واصل غناءه. ماذا لو كانت هذه فرصته الوحيدة للغناء؟ لم يكن يرغب في الاستمرار، لكن عندما وجد أنها لن تنزل، وأن الجميع منتظرون، ارتفعت النوتات في قصبته الهوائية كالموجة، وما أمكنه فعل أي شيء لإنزالها. كم الغناء رائع! كم استمتع بسماع صوته! انتقل إلى تأدية مقطع من معزوفة «لا والي». ما كان بوسعه إلا غناء القطع المفضلة عند روكسان، تلك التي ظلتْ تغنيها مراراً وتكراراً. فهذه القطع الوحيدة التي كان واثقاً من كلماتها، وفي حال لفّق الكلمات وأصدر بعض الأصوات التي تتقارب في اللفظ وتختلف في المعنى، عندها سيعتبره الجميع زائفاً. لم يكن سيزار يعرف أن أربعة أشخاص في الغرفة فقط يجيدون الإيطالية. لكان من الأسهل عليه لو أنه غنى شيئاً لا يربطه الجميع بها، إذ كيف عساه لا يفشل لدى مقارنته بها؟ لكن، لم يكن أمامه خيار. ليس لديه مواد أخرى ليختار منها. لم يكن يعرف أن ثمة أغاني مخصصة للرجال وأخرى للنساء، وأن ثمة قطعاً موسيقية توضع لتناسب قدرات الأصوات المختلفة. جل ما كان يسمعه، هو القطع المخصصة لمغنية الأوبرا، لذا لَمَ عساها لا تكون قطعه؟ لم يعمد إلى مقارنة نفسه بها. لم يكن ثمة مجال للمقارنة. فإنها هي المغنية، وهو ليس سوى فتى أحبها بسبب غنائها. أم هل أحب الغناء تحديداً؟ لم يعد يسعه التذكر. فقد غار عميقاً في الداخل. أغمض عينيه وتبع صوته. وسمع من مكان بعيد البيانو يتبعه، ثم وصل إليه وقاده إلى الأمام. كانت خاتمة المقطوعة

عالية جداً. لم يكن يعرف إن كان سيفلح في أدائها. بدا الأمر أشبه بالوقوع، لا، بل الهبوط من السماء، حيث يفتل جسد المرء في الهواء من دون أن يدري كيف عساه يهبط.

ها هو السيد هوسوكاوا يقف بالقرب من البيانو ولا يزال مرتبكاً إثر النوم، شعره منكوش، وأطراف قميصه مجعدة من الخلف. لم يعرف بكل بساطة ما عساه يفعل حيال هذا الأمر. جزء منه فكر في وجوب إيقاف الفتى عند حده في حال كان يقلل من احترامها، لكن غناءه كان جميلاً جداً، بحق. إنه يحب «لا والي». لم تدفعه مشاهدة ذاك الصبي إلى الانزعاج، وقد وضع يديه فوق قلبه كما تفعل روكسان. إن الصوت الذي يصدر من ذاك الفم، لم يكن صوتها، بل يذكّر كثيراً به على نحو مثير للغرابة، كأن السيد هوسوكاوا يسمع مجرد تسجيل رديء لصوتها. أغمض عينيه. بلى، ثمة فرق كبير. لا، لم يعد بالإمكان الخلط بينهما الآن، لكن بطريقة ما أمكن هذا الفتى استحضار أحاسيس الحب القوية. إن السيد هوسوكاوا يحب روكسان كوس. لعل الفتى لم يكن يغني حتى. لعل حبه كان قادراً على تحويل الأشياء العادية جداً إليها.

كانت روكسان كوس واقفة بينهم تصغي. كيف حدث أن غفل عنها الجميع وهي تنزل على السلالم؟ لم تتوقف لترتدي ملابسها. نزلت وهي ترتدي بيجاما من الحرير الأبيض، وروب زوجة نائب الرئيس الصوفي برغم أن الطقس كان حاراً. كان حافية القدمين وشعرها منسدل على ظهرها. إثر مرور العديد من

الشهور، نمت جذور شعرها وبان لون شعرها الحقيقي البني الفاتح وفيه بعض شعر الشيب. كان الفتى يغني. أيقظها الغناء من النوم العميق. كانت لتنام بضع ساعات أخرى، لكن الغناء جعلها تصحو، فما كان منها إلا أن تبعته إلى الطابق السفلي في حالة من الارتباك. أهو تسجيل؟ غناء منفرد؟ ثم رأته: سيزار، فتى لم يفعل شيئاً ليميز نفسه عن الباقين حتى هذه اللحظة بالذات. متى تعلم الغناء؟ كان ذهنها يتسارع في كل اتجاه. لقد كان جيداً. كان ممتازاً. لو صادف لأحد أن وجد مثل هذه الموهبة في نيويورك أو ميلانو، فعندها يأخذ الفتى إلى معهد للموسيقى في الحال، ويصبح نجماً، لأنه الآن لا يمثل شيئاً. لم يحظ بدقيقة من التدريب، ويا لعمق صوته! يا للقوة التي تهز كتفيه النحيلتين. كان يرفع نبرة صوته ليختم بها بطبقة عالية لم يكن متحضّراً لها. إنها تعرف الموسيقى بقدر ما تعرف نفسها، فهرعت إليه، كأنه طفل عالق في وسط الطريق، وكأن النوتة عبارة عن سيارة مسرعة متجهة ناحيته. أمسكت بمعصمه. وقالت بالإسبانية: «توقف! كفى!». لم تكن تجيد الإسبانية، لكنها كانت تسمع هاتين الكلمتين يومياً.

كف سيزار عن الغناء، لكن لسوء الحظ أبقى ثغره شاغراً، على شكل الكلمة الأخيرة التي قام بغنائها. وعندما لم تقل: «عاود الغناء»، أخذت شفتاه ترتجفان.

كانت روكسان كوس تلمس ذراعه. كانت تتكلم بسرعة كبيرة، ولم يكن يفقه كلمة مما تقوله. أخذ يحدق فيها غير مدرك

ما يحصل. لاحظ عليها الإحباط أو الذعر ربما. وكلما ازدادت ذعراً، ازدادت كلماتها غير المفهومة سرعة وضجيجاً. وعندما وجدته لا يتجاوب معها، نادت: «جين!».

لكن الغرفة كانت برمتها تراقبهما، فبدا الأمر فظيعاً جداً. شعر سيزار بالرجفة تدب في جميع أنحاء جسده. وبرغم أنها كانت تقف على مسافة قريبة جداً منه، وتلمسه بيدها، استدار وغادر الغرفة، ثم جمد الجميع في أماكنهم بصمت محرج، كأن الفتى قد ركض إلى الخارج بعد أن تعرّى من ثيابه على نحو مفاجئ. كايتو هو الذي فكر في التصفيق أولاً، ثم الإيطاليان جياني دافانسات وبيترو جينوفيش اللذان ناديا: «برافو!»، ثم هب الجميع إلى التصفيق ومناداة الفتى، لكنه كان قد انسحب، وخرج من الباب الخلفي وتسلق شجرة اعتاد أن يتسلقها لمشاهدة ما يجري في العالم. أمكنه سماعهم؛ ذاك الضجيج الصادر من الداخل. لكن، من يدري ما إذا كانو يسخرون منه بشدة؟ لعلها تقوم الآن بحركات التقليد الخاص بها في الداخل: تقلد الطريقة التي يقلدها بها.

«جين!». أمسكت روكسان بيد جين، وقالت له: «اذهب وراءه. قل لأحد أن يذهب وراءه».

وعندما استدار جين وجد كارمن. كارمن الموجودة دوماً، فالتفتَتْ بعينيها السوداوين إليه، جاهزة لمساعدته كأنها شخص أنقذت حياته. لم يضطر إلى طلب المساعدة منها حتى. هكذا كانا يفهمان بعضهما البعض. استدارت ثم غادرت.

ساعد مكوث الجميع متقاربين لفترة طويلة، على أنهم باتوا يعرفون ماذا يحب كل منهم. يتبع إسماعيل على سبيل المثال، نائب الرئيس كالكلب. أتبحث عن إسماعيل؟ ما لك إلا أن تجد نائب الرئيس وستجد إسماعيل بين رجليه. أما بياتريس، فتجدها دوماً أمام التلفاز، ما لم يوجَّه إليها أمر بالبقاء في مكان آخر. أما جيلبير فكان مجنوناً ومهووساً بحوض الاستحمام، خصوصاً ذاك الموجود في غرفة النوم الرئيسية حيث تغلي الماء بمجرد نقر زر واحد (كم تفاجأ في المرة الأولى التي حدث فيها ذلك). وسيزار يحب الشجرة، شجرة سنديان طويلة متكئة على الجدار، ولها أغصان منخفضة ومتينة تسهّل التسلق عليها، وأغصان عريضة من أجل الجلوس براحة. كان الجنود الآخرون يخالونه غبياً أو شجاعاً، لأنه أحياناً يتسلق عالياً جداً إلى درجة أنه يصبح فوق الجدار حيث يمكن أي جندي في الجيش أن يطلق النار عليه ويسقطه أرضاً كالسنجاب. أحياناً يطلب منه الجنرالات أن يلقي نظرة على المدينة ويفيدهم بما يرى، فيهب متسلقاً الشجرة. لذا لم تجد كارمن حيرة بشأن المكان الذي عليها البحث فيه. خرجت إلى الحديقة، وهو مكان بدا مختلفاً كثيراً لها بعد الليلة الفائتة. أخذت الطريق الطويل حتى تمر بالبقعة التي ينحرف فيها الجدار على شكل تجويف منعزل، فإذ بها ترى العشب لا يزال مسطحاً ومضغوطاً ومرتسماً على شكل ظهرها. فشعرت بأن كل قطرة دم من دمائها تتسابق إلى رأسها، فوضعت أصابعها على الجدار وقد أصابها الدوار. يا للهول! ماذا لو لاحظ أحدهم الأمر؟ هل يجدر بها التوقف الآن: أن

تأخذ وقتاً وتحاول تصويب حالة العشب؟ هل تمكن إعادة العشب لينتصب من جديد؟ هل سيبقى على هذه الحال؟ من ثم تذكرت كارمن أنها تنوي معاودة الدوس على بقعة العشب نفسها الليلة، وأنها تود أن تضغط على كل نبتة من العشب في الحديقة بردفيها وكتفيها وكعبي قدميها العاريتين. لو أن ثمة طريقة لأخذ جين إلى هناك ولف رجليها حوله وتسلقه كالشجرة. من عساه يظن أن مثل هذا الرجل قد يود التواجد معها؟ شتّت الحب الغامر ذهنها إلى درجة أنها نسيت لماذا خرجت إلى الحديقة في المقام الأول، وعمن تبحث. ثم وقع نظرها على مسافة بعيدة على حذاء متدلٍ من الشجرة كحبة فاكهة ضخمة وبشعة من بين الأوراق العالية، وعاد العالم ليتسارع إلى ذهنها. توجهت كارمن إلى شجرة السنديان وأمسكت بغصن فوق رأسها وأخذت تتسلق.

ها هو سيزار هناك يرتجف ويبكي. لو تسلق سواها هذه الشجرة، لكان وقع على رأسه. لكان ركله بقسوة على ذقنه وجعله يتطاير في الهواء. لكن الرأس الذي كان يتسلق للوصول إليه، كان رأس كارمن، وهو يحب كارمن. يجدها تفهمه بسبب حبها الجلي لروكسان كوس. إنها الأوفر حظاً بينهم جميعاً لأنه يتسنى لها أخذ الفطور لروكسان والنوم خارج باب غرفتها (ولأن كارمن كانت تحيط أمورها بالكتمان لم تتسن له معرفة الباقي: أنها نامت في سرير روكسان، وسرّحت لها شعرها، وأن كارمن هرّبت لها حبيبها في منتصف الليل وحفظت سرها. لو أنه عرف هذا كله لكان انفجر غيرة منها). ولأنه لا يجدر أن يراه أحد

يبكي كالطفل، فلن يكون من الفظيع كثيراً إن كان الشخص الذي سيراه هو كارمن. قبل وقوعه في حب روكسان كوس، قبل مجيئهم إلى المدينة، كان دوماً يفكر في مدى رغبته في تقبيل كارمن: تقبيلها وما هو أكثر من ذلك. لكنه تخلى عن هذه الفكرة بعد أن نهره الجنرال هكتور بشدة. إذ إن مثل هذه الأمور ممنوعة على الإطلاق بين الجنود.

قالت له: «إن غناءك جميل جداً».

أشاح سيزار برأسه بعيداً عنها، فحف غصن صغير على وجهه. وقال ووجهه بين الأوراق: «أنا غبي»!

تأرجحت كارمن على غصن مقابله وشبكت رجليها حوله. «لستَ بغبي! اضطررت إلى القيام بذلك. لم يكن أمامك خيار». ومن مكانها في الأعلى أمكنها رؤية بقعة العشب المسطحة. بدت مختلفة من هذا الارتفاع، بقعة أكبر حجماً وأكثر استدارة، كأنهما فتلا بدوائر كبيرة، الأمر الذي بدا وارداً. بوسعها اشتمام رائحة العشب في شعرها. الحب فعل جميل. وقد أتى في طريقها وليس بخيار.

لكن سيزار رفض النظر إليها. كان بوسعها من المكان الذي تجلس فيه، رؤية ما وراء الجدار لو أنها رفعت رأسها قليلاً، لكنها لم تفعل.

قالت له: «لقد أرسلتني روكسان كوس وراءك». كان هذا قريباً بما فيه الكفاية إلى الحقيقة. «إنها تود التكلم معك في شأن غنائك. فهي تجدك جيداً جداً». كانت تقول ذلك لأنها تعرف أنه

جيد جداً، وبالطبع كانت روكسان لتقول له ذلك. لم تكن تفهم أي كلمة إنكليزية لتتوصل إلى فهم ما قيل في غرفة الجلوس، لكنها كانت قد بدأت تفلح في تصور الأشياء من دون الاضطرار إلى معرفة الكلمات الفعلية.

«أنت لا تعرفين ذلك».

«هذا رأيي أنا أيضاً. لقد كان المترجم هناك».

«لقد قالتْ: توقف. لقد قالت: كفى. أنا أفهم ما قالته». مر عصفور أمام الشجرة، آملاً أن يحط عليها ثم ما لبث أن فرّ بعيداً. «لقد أرادت التكلم معك. لكنها لا تستطيع تكلم لغتك. يجدر بكَ طلب المساعدة من جين. إنه السبيل الوحيد لفهم أي شيء».

أخذ سيزار نفساً ومسح عينيه بطرف كمه. في عالم الواقع، ما كانت كارمن لتكون على الشجرة. بل روكسان كوس نفسها هي التي ستتبعه إلى هذه الشجرة. وستلمس خده وتكلمه بلغة إسبانية متينة. وسيغنيان معاً، أي دويتو. وسيجوبان العالم أجمع.

قالت كارمن: «أنت لست بسنجاب. لن تبقى هنا إلى الأبد. سيتعيّن عليك النزول لأداء واجب الحراسة، وعندما تفعل ستخبرك بنفسها بواسطة المترجم. ستخبرك كم أنت جيد، وعندها ستشعر كم أنت غبي لتسلقك أعلى الشجرة. يود الجميع الاحتفال معك. سيفوتك كل شيء».

حف سيزار يده على اللحاء القاسي. لم يسبق لكارمن أن

تكلمت بهذا الشكل من قبل. عندما كانا معاً في التدريب، كانت تخجل كثيراً من الكلام، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلتها لافتة ومثيرة للنظر. لم يسبق له أن سمعها تنطق بجملتين على بعضهما البعض. «كيف تعرفين هذا كله؟».

«لقد قلتُ لك، إنه المترجم».

«وأنى لك معرفة أنه يقول لك الحقيقة؟».

نظرت كارمن إليه كأنه مجنون، لكنها لم تتلفظ بكلمة. مدت يدها ناحية الغصن تحتها، وتشبثت به، وتأرجحت، ثم فتحت يديها، وهبطت على الأرض. كانت خبيرة في القفز. أبقت ركبتيها مطويتين، ثم انتصبت واقفة عندما وطأت بقدميها العشب. لم تفقد توازنها على الإطلاق. ابتعدت عن سيزار من دون أن توليه أكثر من نظرة من فوق كتفيها. «فليتعفن هناك في الأعلى». لدى عودتها إلى داخل المنزل، مرت بمحاذاة نافذة تطل على غرفة الجلوس الرحبة. كم بدا غريباً النظر إليهم جميعاً من هذه الناحية. توقفت لوهلة، واستندت إلى جانب شجيرة كان شكلها جميلاً في بداية وصولهم إلى هذا المنزل، وباتت الآن بطولها تقريباً. رأت جين إلى جانب البيانو يتكلم مع السيد هوسوكاوا وروكسان كوس. كايتو كان هناك أيضاً. كانت ترى جين بظهره المستقيم وفمه الطري، وتتأمل يديه اللتين ساعدتاها على خلع ملابسها ثم عادتا وساعدتاها على ارتدائها من جديد. تمنت لو يسعها النقر على الزجاج والتلويح له، لكنها وجدت روعة في التمكن من مراقبة الشخص الذي تحبه من دون علمه، كأنها

شخص غريب يراه لأول مرة. استطاعت رؤية جماله كونه شخصاً لا يأخذ شيئاً كمسلّمات. انظروا إلى هذا الرجل الوسيم؛ إلى هذا الرجل الذكي. إنه يحبني. تلت صلاة لقديسة ليما «روز»، كي تمن على جين بالسلامة والسعادة والحياة المديدة والرعاية والإرشاد. نظرت عبر النافذة. وجدته يتكلم مع روكسان كوس، روكسان التي كانت في غاية اللطف معها، لذا ضمّنتها كارمن في صلاتها. ثم حنت رأسها لدقيقة من الوقت ورسمت شارة الصليب على صدرها بسرعة، لتسريع وتيرة صلاتها.

قالت روكسان: «ما كان علي أن أطلب منه التوقف». فترجم جين كلامها إلى اليابانية.

قال السيد هوسوكاوا: «ليس ثمة مكان ليذهب إليه الفتى. ستتحتم عليه العودة. لا يجدر بك القلق في هذا الشأن». في اليابان لطالما كان يشعر بالانزعاج للطريقة التي يتعامل فيها شبان العصر الحديث مع عواطفهم، حيث يمسك الشبان والشابات بأيدي بعضهم البعض أمام الملأ، ويتبادلون القبل لوداع بعضهم البعض في محطات القطارات.

لم يفهم شيئاً من هذه الحركات. كان يعتقد أن ما يخالج قلب المرء يظل مسألة خاصة، لذا يجب أن يبقى معه. لكن لم يسبق له أن حظي بكل هذه المشاعر في قلبه. لم يكن ثمة مجال يتسع لكل هذا الحب، ما خلّف إحساساً بالألم في صدره: وجعاً في القلب! من كان ليظن أن هذا حقيقي؟ والآن، بات جل ما يريده هو أخذ يدها، أو لف ذراعه حول كتفها.

انحنت روكسان كوس نحوه، وألقت برأسها على كتفه لثانية من الوقت فحسب، أي بالكاد لمس خدها قميصه.

قال السيد هوسوكاوا بكل لطف: «آه، أنت كل ما في العالم بالنسبة إلي».

نظر جين إليه. هل أراد لهذا الكلام أن يُترجم، ذاك الحنان الذي همس به رب عمله؟ أخذ السيد هوسوكاوا يد روكسان. رفعها إلى صدره ووضعها على قميصه فوق قلبه، ثم هز برأسه. هل كان يهز برأسه لجين؟ هل كان يطلب من جين أن يقوم بالترجمة؟ أم كان يهز برأسه لها؟ شعر جين بانزعاج كبير. أراد أن يستدير بعيداً. كانت مسألة خاصة، وبات يعرف معنى ذلك الآن.

كرر السيد هوسوكاوا ثانية: «كل ما في العالم»، لكنه هذه المرة، نظر إلى جين.

أخبرها جين بما قاله. حاول أن يُبقي صوته ناعماً، وقال لروكسان: «مع كل احترامي، يود السيد هوسوكاوا أن تعلمي بأنك كل ما في العالم بالنسبة إليه». تذكر أنه سبق وقال لها أمراً شبيهاً جداً لهذا الكلام بالروسية.

كان من حسن حظ روكسان أنها لم تنظر إلى جين. أبقت عينيها مسلطتين على عينيّ السيد هوسوكاوا وأخذت الكلمات منه.

عادت كارمن. كانت منزعجة، وظن الجميع أن لهذا

الانزعاج علاقة بسيزار، في الوقت الذي كادت تنسى أمره كلياً. أرادت أن تتوجه إلى جين لكنها توجهت بداية إلى الجنرال بنجامين. قالت له: «سيزار موجود في أعلى الشجرة». بدأت تقول له المزيد ثم تذكرت نفسها. لطالما كان من الحكمة الانتظار.

سألها الجنرال: «وما الذي يفعله هناك؟». لم يتمالك إلا أن يلاحظ كم أن هذا الفتاة تزداد جمالاً. لو أنها كانت بهذا القدر من الجمال من قبلُ لما وافق أبداً على السماح لها بالالتحاق بهم. حري به أن يطلب منها إبقاء شعرها تحت قبعتها. يجدر به تركها في حال سبيلها بمجرد وصولهم إلى ديارهم.

«مكتئب».

«لستُ أفهم».

«إنه يشعر بالإحراج».

ربما من الخطأ جعل فتاة جميلة تذهب وراءه. وجب أن يذهب أحد الفتيان إليه حتى يقوم بكل بساطة بهز الشجرة فيسقط عنها. تنهد الجنرال بنجامين. كان قد تأثر بغناء سيزار. تساءل إن كانت هذه الموهبة ستجعل الفتى متوتراً، كحال مغنية الأوبرا التي تتسم بالتوتر. إن صح ذلك، فسيُجبَر على استبعاد سيزار أيضاً، وعندها يكون قد خسر جنديين. حتى لدى التفكير في هذه الأمور، لم ينس أين هو، وبدت له فكرة التوجه إلى الديار مستحيلة، إضافة إلى امتلاك خيار بسيط ومتواضع كاستبعاد أحد، أو الإبقاء عليه. لمَ يضيع وقته في هذه الأمور؟ سيزار

على الشجرة؟ وما أهمية ذلك؟ «دعيه هناك». نظر الجنرال بنجامين من فوق كتف كارمن ناحية أقصى طرف الغرفة. كانت هذه طريقته في التعبير عن انتهاء الحديث.

«هل لي بإخبار الآنسة كوس؟».

عاد لينظر إليها نزولاً ثم رمش بعينيه. لقد كانت مطيعة ومهذبة. ومن المؤسف أن الأمور لم تنقلب منقلباً أفضل. بالتأكيد سيكون ثمة دور للفتيات الجميلات في الثورة. ليس هناك أي داع للقسوة عليها. «أعتقد أنها قد تود أن تعلم».

فانحنت له كارمن وهي تشعر بالسعادة والامتنان.

فقال لها بالإسبانية، وبحدة: «ألقي التحية العسكرية».

فألقت أمامه كارمن التحية العسكرية، وارتمست على وجهها ملامح الجدية، مثلها مثل أي جندي آخر، ثم فرّت بعيداً.

قالت: «سيزار في أعلى الشجرة». وقفت بين السيد هوسوكاوا وكايتو. كانت بعيدة عن جين حيث لن تتملكها الرغبة في الإمساك بكمه أمام مرأى الجميع. كانت تحب وقع صوته وهو يترجم.

سألتها روكسان: «ألن يدخل؟». كانت عيناها الزرقاوان تستحيلان إلى اللون البنفسجي. لم يسبق لكارمن أن رأتها بهذا القدر من التعب ما عدا في بدايات الأمر.

«آه، سوف يدخل. إنه يشعر بالإحراج فحسب. يعتقد أنه جعل من نفسه أضحوكة. إنه يعتقد أنك تخالينه غبياً لمحاولته

الغناء». نظرت إلى روكسان، صديقتها. «قلتُ له إنك لا تعتقدين ذلك على الإطلاق».

ترجم جين كلام كارمن إلى الإنكليزية واليابانية. كان كل من الرجلين وروكسان يهزون برؤوسهم. كلام كارمن يُترجم إلى اليابانية، يا لوقعه الجميل.

قالت روكسان لكارمن: «هلّا سألت الجنرال إن كان بوسعي الخروج إلى الحديقة؟ هل تعتقدين أنه من الممكن ذلك؟».

أخذت كارمن تستمع. كان الأمر يتضمنها هي. ساد الاعتقاد أنها ستكون الشخص الأمثل لتقديم هذا الطلب. ثم هناك رغبة في معرفة رأيها. إن هذا يفوق قدرتها على التصديق. من بين جميع من في الغرفة بكل ثقافتهم ومالهم وموهبتهم، وقع خيارهم عليها. أرادت لو تقول لروكسان بصوتها المهذب جداً، «لا، لن يسمحوا لك أبداً بالخروج، لكنني في غاية السرور لكونك سألتني». لكنها لم تكن تعرف كيف عساها تقول هذا الكلام بالإنكليزية. كان الجنرالات يتجاهلون الحديث الدائر، ثم ما لبث الجنرالان هكتور وألفريدو أن غادرا الغرفة، ولم يكن أي من الفتيان يأبه، لكن بياتريس كانت تصغي. استطاعت كارمن أن تراها واقفة وراء زاوية وتنظر بعين واحدة. أرادت الوثوق ببياتريس. سبق ووثقت بها. وعلى أي حال، لم تكن تقترف أي سوء الآن. قالت لجين: «أخبرها أنه سيسعدني طلب ذلك لها». كانت تنتبه إلى وقفتها، وتحاول أن تبقي ظهرها مستقيماً مثل روكسان كوس. حاولت تمرين كتفيها كي يظلا إلى

الخلف برغم أن نتيجة هذا الجهد ذهبت سُدى داخل هذه السترة الزيتية التي تتدلى كقطعة قماش مشمّع.

شكروها بالإنكليزية واليابانية ثم بالإسبانية. كان جين فخوراً بها، أمكنها الإحساس بذلك. لو أن الظروف سمحت لجين، لكان وضع يده على كتفها وأخبرها بذلك أمام أصدقائه.

لم يكن ثمة مجال للسماح لروكسان كوس بالخروج والتحدث إلى سيزار القابع في أعلى الشجرة. كان إبقاء الرهائن في الداخل في سلّم الأولويات. وبالتأكيد لم يكن أحد يعرف هذا الأمر أفضل من كارمن التي قامت بخرق هذه القاعدة المهمة ليلة أمس. لكن، لم يكن بمقدروها رفض هذا الطلب. لم يطلب أحد من كارمن جواباً. جل ما طلبوه منها هو الاقتراب من الجنرال وطرح السؤال. في الحقيقة، كانت لتفضل عدم الإقدام على هذا الأمر. ما جدوى طلب شيء تدرك أنه لن يُقبل؟ تساءلت كارمن إن كان يسعها سؤال الجنرال شيئاً آخر. على سبيل المثال، إن كان يود كوباً من القهوة، وعندها يستطيع الجميع رؤيتها تسأله من دون أن يتمكنوا من سماعها. ثم تعود حاملة خبر أنه تم خذلان الطلب. لكنها لم تشأ الكذب على روكسان كوس والسيد هوسوكاوا، وهما الشخصان اللذان قدّرا رأيها ويعاملانها كصديقة. وبالتأكيد لا يسعها الكذب على جين. يجب عليها سؤال الجنرال لأنها وعدت بذلك. لكان من الأفضل لو أنها انتظرت ساعة أو ساعتين قبلاً، إذ لا يحبذ الجنرالات أن يقترب أحد منهم بعد تعرضهم للانزعاج منذ آونة

ليست ببعيدة. لكن، لم يكن ثمة ساعة أو ساعتان للانتظار. عندها، سيكون قد فات وقت طويل على نزول سيزار عن الشجرة. كان قد سبق لكارمن الجلوس في أعلى الشجرة، وأدركت أن هذا الجلوس جميل وغير مريح، في آن معاً. كما أن المدة التي يمكن أحداً فيها الجلوس مكتئباً على شجرة ليست سوى مدة محدودة، والهدف ينحصر في منح روكسان كوس فرصة إقناعه بالنزول. لم تكن ثمة جدوى من محاولة التفسير للجنرال طريقة تفكير أعز رهينة على قلبها، كما ليس هناك جدوى أيضاً من محاولتها التفسير للجنرال بنجامين دوافع روكسان كوس، فهو لن يأبه للأمر بكل تأكيد. جل ما أمكنها فعله هو طرح السؤال. ابتسمت كارمن وتركت مجموعتها، وعادت وقطعت الطريق إلى حيث يجلس الجنرال بنجامين على كرسي مجنّح بالقرب من المدفأة الفارغة. كان يقرأ الصحيفة. لم تستطع معرفة أي صحيفة كانت، على الرغم من أنها رأت أنها مكتوبة بالإسبانية. بات بوسعها القراءة بعض الشيء، لكن ليس كثيراً. كان حاجباه متوجهين نزولاً ناحية قصبة أنفه وعيناه تتحركان. كانت القوباء المنطقية تنتشر في وجهه وصولاً إلى عينه كبقعة حمم بركانية ذائبة، لكن لم تعد تبدو ملتهبة. رفع إصبعاً ولمسها بلطف مرة واحدة، ثم تأوه وعاد إلى قراءته. كانت كارمن تدرك بكل تأكيد أنه حري بها عدم إزعاجه.

همست قائلة: «سيدي؟».

لم يمض على تبادلهما الكلام أكثر من خمس دقائق، لكنه

نظر إليها الآن كأنه مرتبك. كانت عيناه حمراوين ودامعتين، خصوصاً عينه اليسرى، التي نمت بثور لا تتخطى حجم رأس الإبرة على طرفها.

انتظرته كارمن كي يتكلم معها، لكنه لم ينطق بكلمة. لذا عاد الأمر إليها كي تعود وتبدأ بالكلام. «اعذرني على إزعاجك من جديد أيها الجنرال، لكن طلبت مني روكسان كوس أن أسألك...». توقفت وهي جازمة بأنه سيقاطعها عن الكلام، ويطلب منها الذهاب بعيداً، لكنه لم يفعل. لم يفعل شيئاً. لو أنه أشاح بنظره عنها وعاد إلى قراءة صحيفته، لكانت فهمت ذلك. ولو أنه صرخ في وجهها لكانت عرفت كيف تتصرف، لكن الجنرال بنجامين واصل التحديق فحسب. أخذت نَفَساً، وقوّمت كتفيها، وعاودت الكلام من جديد. «تود روكسان كوس الخروج والتحدث إلى سيزار. سيزار الموجود في أعلى الشجرة. تريد إخباره أنه أبلى حسناً بغنائه»، ثم انتظرت من جديد، لكن شيئاً لم يحدث. «أظن أن على المترجم أن يخرج أيضاً كي يُفهم سيزار ما تقوله له. بوسعنا إرسال بعض الحراس معهما. بوسعي جلب مسدسي». توقفت وانتظرته بكل صبر ليخذل طلبها. لم يخطر في بالها قط أي احتمال آخر، لكنه لم يتفوه بكلمة، وأغمض عينيه لوهلة حتى يكف عن النظر إليها. حدقت نزولاً في الصحيفة التي كان يمسكها، وشعرت بقشعريرة تعتمل في صدرها النحيف. خشيت فجأة أن يكون الجنرال قد تلقى أنباء سيئة، أو أن ثمة شيئاً قرأه في هذه الصحيفة من شأنه أن يفسد عليها سعادتها.

قالت وهي تنحني إلى الأمام حتى يتسنى له سماعها، فحسب: «جنرال بنجامين؟ سيدي هل كل شيء على ما يرام؟». انسدل شعرها من وراء أذنها ولامس كتفه، وفاحت منه رائحة الليمون. كانت روكسان قد غسلت شعر كارمن بشامبو على نكهة الليمون، جلبه مسنر لها بالطائرة من إيطاليا.

رائحة الليمون الحامض. ها هو ذا فتى في المدينة، وربع ليمونة معلقة بين أسنانه، وهو يركض إلى المدرسة، وقشرة الليمون الحامض الصفراء الفاتحة بادية بين شفتيه المفتوحتين. هذا الطعم الحاد جداً، وضوح الطعم الشديد الذي كان مدمناً عليه. وأخوه لويس معه يركض إلى جانبه وهو فتى صغير. إنه أصغر من بنجامين، لذا فبنجامين يتحمل مسؤوليته. وهو أيضاً يضع ليمونة في فمه، وينظران إلى بعضهما البعض، ويبدآن بالضحك بقوة إلى درجة أنهما يضطران إلى رفع يديهما إلى فمهما للإمساك بالقشرة التي باتت فارغة، ثم تعيده رائحة الليمون إلى واقع الحال. تريد كارمن شيئاً آخر. كان لا يزال في غرفة الجلوس. لمَ عساه الآن بالذات يفهم أن الأمور ستنقلب منقلباً سيئاً؟ لم يجد غرابة في كونه أدرك ذلك، لكن الغريب أنه لم يدركه منذ البداية، ولم يُخبر جنوده ويركض بهم عائدين إلى فتحات التهوئة في اللحظة التي تأكد فيها من أن الرئيس ماسودا ليس حاضراً في الحفلة. بات من المستحيل تقريباً استيعاب الخطأ الآن. الذنب كله يقع على الأمل. إن الأمل مجرم.

قال: «تود الخروج؟».

«نعم، سيدي».

«هل سيزار لا يزال في الخارج؟».

«أعتقد ذلك يا سيدي».

هز الجنرال بنجامين برأسه. «بات الطقس جيداً الآن». نظر عبر النافذة لمدة طويلة ليحرص على أن ما يقوله لها صحيح. «خذيهم جميعاً إلى الخارج. أخبري هكتور وألفريدو. وزعي بعض الجنود على الجدار». نظر إلى كارمن. لو أنه لاحظها من قبل لكان انتبه إليها أكثر. «نحتاج إلى بعض الهواء هنا، أليس كذلك؟ فليحظوا ببعض أشعة الشمس».

«الجميع يا سيدي؟ هل تعني الآنسة كوس والمترجم؟».

«أعني جميعهم». ومرر يده على امتداد الغرفة. «أخرجيهم من هنا».

هذا ما حصل. في اليوم الأول الذي تلى إخراج كارمن لجين إلى الحديقة، سُمح لبقية الضيوف بالخروج إليها أيضاً. لم تشأ أن تكون الشخص الذي سيزفّ الخبر إلى الجنرالين هكتور وألفريدو، لكنها أقدمت على ذلك تنفيذاً لأمر مباشر. وقفت عند باب المكتب ولا تزال تحت تأثير الصدمة. الخارج. كان الجنرالان يشاهدان كرة القدم. يجلسان على حافة الكنبة، ويمسكان ركبتيهما بيديهما ويصرخان بانفعال مقابل شاشة التلفاز. كانت ثمة أوراق لعب هجرها لاعبوها في منتصف اللعبة على

الطاولة أمامهما، ورشاشان ظاهران من بين الوسائد. أفلحت في لفت انتباههما، لكنها لم تخبرهما أنها طلبت الإذن بخروج أي أحد إلى الحديقة، أو أن روكسان كوس كانت تود التكلم مع سيزار الموجود في أعلى الشجرة. اكتفت بالقول إن الجنرال بنجامين أصدر قراراً وطلب منها إعلامهما بهذا القرار. استخدمت ما قل ودل من الكلام.

قال الجنرال ألفريدو: «إلى الخارج! هذا جنون! كيف عسانا نتحكم فيهم وهم في الخارج؟». أخذ يومئ باليد التي تنقص إصبعين، وهو مشهد لطالما ملأ قلب كارمن شفقة عليه. قال الجنرال هكتور، وهو يمدد ذراعه فوق رأسه: «وماذا هنالك كي نتحكم فيه؟ كأن بوسعهم الذهاب إلى أي مكان الآن».

كانت مفاجأة. لطالما كان هكتور يبدي معارضة على كل شيء. لو أنه أبدى معارضة شديدة لكانا على الأرجح أجبرا الجنرال بنجامين على تغيير رأيه، لكن الشمس كانت تسكب أشعتها من كل نافذة، وكان ثمة وهن يتنامى من حولهم. لمَ عسانا لا نفتح الأبواب؟ لمَ ليس اليوم، إن كان كل يوم مشابهاً للآخر؟ توجها إلى غرفة الجلوس ونادى الجنرالات الثلاثة على الجنود جميعاً، وطلبوا منهم جلب أسلحتهم وتلقيمها. حتى بعد مرور شهور عديدة على استلقاء الفتيان على الكنبات، إضافة إلى بياتريس وكارمن، لا يزال بوسعهم التحرك بسرعة قصوى. لم يعرفوا لمَ يقومون بتلقيم أسلحتهم، ولم يسألوا. أطاعوا الأوامر الموجهة إليهم فحسب. ولدى قيامهم بذلك، امتلأت أعينهم

ببرودة محيّرة. لم يقوَ الجنرال بنجامين إلا على التفكير في أنه لو طُلب منهم الآن قتل الجميع لما أحجموا عن ذلك. سوف يقومون بما أمرهم به. كانت فكرة اصطحاب الجميع إلى الخارج فكرة سديدة. فمن شأن ذلك أن يحرك الجنود. وسيذكّر الرهائن بسلطته ولطف شمائله أيضاً. آن الأوان للخروج من المنزل.

كان لدى روكسان كوس، ذراع السيد هوسوكاوا لتتكئ عليها، لكن جين قد تُرك وحده ليراقب حبيبته تركض في أرجاء الغرفة مع الجنود، وبندقيتها مرفوعة عالياً على صدرها.

همس السيد هوسوكاوا: «لستُ أفهم ما يجري». كان يشعر بروكسان كوس ترتجف إلى جانبه، فضغط بيده على يدها. بدا الأمر كأنه بنقرة زر تحول الأشخاص الذين يعرفونهم فجأة إلى أشخاص لم يروهم من قبل.

همست روكسان لجين قائلة: «جين، هل يسعك فهم ما يقولون؟ ماذا حصل؟».

بالطبع أمكنه فهم ما يقولونه. فقد كانوا يصرخون في النهاية. لقّموا أسلحتكم. قفوا ضمن تشكيلة، لكن ليس هناك أي داع لإخبار روكسان بذلك. بات الرهائن الآخرون يقفون إلى جانبهم الآن. كانوا يتدافعون كتدافع النعاج في حقل مفتوح تحت أمطار غزيرة. **٣٩** رجلاً وامرأة واحدة، والتوتر المفاجئ ينبعث منهم كالبخار.

ثم تقدم الجنرال بنجامين إلى الأمام، وقال: «أيها المترجم!».

لمس السيد هوسوكاوا ذراع المترجم عندما تقدم إلى الأمام. تمنى جين لو أنه رجل شجاع. وبرغم أن كارمن ليست معهم الآن، إلا أنه تمنى لو يسعها رؤيته يتحلى بالشجاعة. قال الجنرال بنجامين: «لقد قررتُ إخراج الجميع إلى الحديقة. أخبر الناس أنهم سيخرجون الآن».

لكن، لم يقم جين بالترجمة. لم تعد هذه مهنته. وعوضاً عن ذلك مسأله: «لأي غرض؟». إن كان سيتم إعدامهم، فإنه لا يود أن يكون الشخص الذي سيقود هذه «النعاج» ليصطفوا مقابل الجدار. لم يكن كافياً ترجمة ما يُقال، إذ تجدر به معرفة الحقيقة.

قال الجنرال بنجامين: «لأي غرض؟». تقدم ناحية جين، واقترب منه كثيراً إلى درجة أنه أمكن جين رؤية خطوط حمراء بنصف سماكة خيوط التقطيب المتشابكة في وجهه. «قيل لي إن روكسان كوس طلبت الخروج».

«وستسمح للجميع بالخروج؟».

«وهل لديك اعتراض؟». كان الجنرال بنجامين على وشك تغيير رأيه. لم يبد لهؤلاء الناس سوى كل احترام، وها هم الآن يحدقون فيه كأنه مجرم؟ «هل تظن أنني سآخذكم إلى الخارج، وأطلق النار عليكم جميعاً؟».

قال جين: «لكن الأسلحة»، لقد اقترف جين خطأً. وقد بان له هذا الأمر بشكل جلي.

قال الجنرال، وهو يصك على أسنانه: «من أجل الحماية».

استدار جين وتوجه إلى الناس الذين كان يعتبرهم أناسه. رأى وجوههم تبدي ارتياحاً وهم يصغون إلى صوته. قال جين بالإنكليزية واليابانية والروسية والإيطالية والفرنسية: «سوف نخرج إلى الحديقة». ثم قال بالإسبانية وبالدنماركية: «سوف نخرج إلى الحديقة». قال أربع كلمات بكل لغة أمكنه الإيحاء بواسطتها أنهم لن يُردوا قتلى، وأن هذه ليست بمكيدة. ضحكت المجموعة، وتنفَّست الصعداء وابتعد الرهائن عن بعضهم البعض. رسم الكاهن شارة الصليب على صدره بسرعة امتناناً لاستجابة الله لصلواته. توجه إسماعيل إلى الباب وفتحه، فتدفق الرهائن إلى الخارج ناحية الضوء.

الضوء المجيد.

إن نائب الرئيس روبن إيغليسياس، الذي اعتقد أنه لن يعيش ليرى اليوم الذي تطأ فيه قدماه من جديد على العشب، سار على الممشى الصخري، ثم انتقل إلى أرض حديقته فغرقت قدماه في العشب. كان قد عمد إلى التحديق في الحديقة يومياً عبر نافذة غرفة الجلوس. والآن بعد أن بات هناك فعلياً، بدا الأمر أشبه بدخول عالم جديد. هل سبق له أن مشى على عشب حديقته في المساء؟ هل دوّن في ذهنه ملاحظةً عن الأشجار والشجيرات المزهرة الطويلة التي نمت على امتداد الحائط؟ ما هو اسمها؟ أنزل رأسه ناحية البراعم البنفسجية الداكنة، وأخذ يتنشق عبيرها.

يا للهول، إن كُتبت له النجاة من هذه التجربة، فسوف يولي نباتاته اهتماماً أكبر. ربما يعمل كبستاني. كانت الأوراق الجديدة خضراء فاتحة، وملمسها كان مخملياً. حملها بين إبهامه وسبابته محاذراً ألا يتلفها. كان في كثير من الأمسيات يعود إلى المنزل بعد حلول الظلام. يرى الحياة في حديقته عبارة عن ظلال وأشكال مبهمة. إن كانت ثمة فرصة ثانية، فإنه سيعمد إلى احتساء قهوته في الحديقة صباحاً. سوف يعود إلى المنزل ليتناول الغداء مع زوجته في فترات العصر على بطانية تحت الأشجار. وستكون ابنتاه حينها في المدرسة، لكنه سيحمل ابنه على ركبتيه ويعلمه أسماء العصافير. كيف حصل أنه يعيش في مثل هذا المنزل الجميل؟ مشى على العشب ناحية جهة المنزل الغربية، وكان العشب كثيفاً جداً، بحيث أدرك أنه سيكون من الصعب جزّه. لقد أحبه على هذه الحال. ربما لن يتسنى للعشب أن يُجَز من جديد. إن كان المرء يمتلك جداراً يصل ارتفاعه إلى ١٠ أقدام، فبوسعه فعل ما يحلو له بحديقته. في وسعه أن يطارح زوجته الحب في وقت متأخر من الليل في المكان الذي يشكل فيه الجدار جيباً من العشب، وتوجد فيه ٣ شجرات ضئيلة الحجم على شكل نصف دائرة. في وسعهما الخروج إلى الحديقة بعد أن ينام الأولاد والخدم، وحينها من عساه يراهما؟ إن الأرض التي سيستلقيان عليها طرية بقدر سريرهما. أخذ يتخيل شعرها الأسود الطويل منسدلاً على العشب الغزير. سوف يكون زوجاً أفضل في المستقبل، وأباً أكثر حناناً. جثم على ركبتيه،

ومد يده بين نباتات الزنبق الطويلة، وسحب عشبة ضارة تماثل في طولها طول الزنابق، وجذعها سميك بقدر سماكة الإصبع، ثم سحب نبتة ضارة أخرى. . . ثم أخرى. امتلأت يده بالجذوع الخضراء والجذور والوحول. ثمة الكثير من العمل الذي يجدر القيام به.

لم يقم الجنود بدفع الناس أو توجيههم إلى أي مكان. اكتفوا بالوقوف مقابل الجدار، يتوزعون الأماكن في فترات متفاوتة. استندوا مقابل الجدار، واستمتعوا بأشعة الشمس. بدا لهم من الجيد القيام بشيء جديد. كما بدا أيضاً من المفيد العودة إلى حمل السلاح مرة ثانية: أن يكونوا صفاً من الجنود المسلحين. رفع الرهائن أذرعتهم فوق رؤوسهم ومددوا أجسادهم. استلقى البعض منهم على العشب، وعمد آخرون إلى تفحص الأزهار. لم يكن جين ينظر إلى النباتات، بل كان لا يرفع نظره عن الجنود. وعندما وقعت عيناه على كارمن هزت له برأسها بشكل جميل، بالكاد لاحظه، وأشارت بطرف بندقيتها بعض الشيء في اتجاه شجرة سيزار. بدا الجميع في غاية السرور لتواجدهم خارجاً في ضوء النهار. تمنت كارمن لو تقول: لقد فعلتُ هذا من أجلكم. أنا التي طلبتُ هذا. لكنها ظلت صامتة. اضطرت إلى أن تُبقي نظرها بعيداً عن جين، حتى لا تبتسم.

وجد جين روكسان مع السيد هوسوكاوا يمشيان يداً بيد، كأن هذه حديقة أخرى، وهما فيها وحدهما. لقد بَدَوَا مختلفين هذا الصباح، ووجودهما معاً ليس أمراً مستغرباً كثيراً. وتساءل جين إن كان هو نفسه يبدو مختلفاً أيضاً. ظن أنه ربما لا يجدر

به إزعاجهما، لكنه لم يكن يعرف حتى متى سيُسمح لهم بالبقاء خارجاً.

قال جين: «لقد وجدتُ مكان الفتى».

«الفتى؟».

«المغني»!

«آه، نعم الفتى، بالطبع».

كرر جين كلامه بالإنكليزية، ومشى الثلاثة معاً ناحية شجرة تقع في آخر الجدار.

قالت روكسان: «هل هو في الأعلى؟». لكن، بالكاد أمكنها التركيز، إذ إن نسيم الهواء شتت تفكيرها، إضافة إلى النباتات الكثيفة المتشابكة. شعرت بالشمس تنسكب على وجنتيها. أرادت أن تلمس الجدار، وأن تشبك أصابعها بالعشب، ولم يسبق لها أن فكرت في العشب من قبلُ في حياتها.

«هذه هي شجرته».

أرجعت روكسان رأسها إلى الوراء، ورأت بوضوح أسفل نعلي حذاءين عاليي الساق يتدليان عن الأغصان. استطاعت رؤية قميصه أسفل ذقنه: «سيزار؟».

نظر وجه من بين الأوراق إلى الأسفل.

قالت لجين: «قل له إنه يغني بشكل جميل. قل له إنني أود أن أصبح معلمته».

فصرخ سيزار قائلاً: «إنها تخدعني».

قال جين: «ولِمَ تظننا خرجنا جميعاً إلى الحديقة؟ هل يبدو لك هذا كله خداعاً؟ أرادت الخروج والتكلم معك، فقرر الجنرالات السماح للجميع بالخروج أيضاً. ألا يبدو هذا مهماً بالقدر الكافي لك؟».

كان هذا صحيحاً. في وسع سيزار رؤية كل شيء من حيث يجلس. إن الجميع في الحديقة: الجنرالات الثلاثة والجنود جميعهم، باستثناء جيلبير ويسوع. لا بد من أنهما تُركا داخل المنزل لحراسته. كان كل واحد من الرهائن يسير في الحديقة كأنه سكّير أو أعمى، يلمس ويشتمّ، ويتمايل ثم يجلس فجأة. بدوا مغرمين بالمكان. ما كانوا ليغادروا حتى لو دُمر الجدار أرضاً. وإن لكزهم أحدهم بالبندقية في ظهورهم وطلب منهم المغادرة لهرعوا إليه. قال سيزار: «إذاً، خرجتم»؟

سألت روكسان: «إنه لا ينوي البقاء في هذه الشجرة، أليس كذلك؟».

كان أمراً ملحوظاً، حتى بالنسبة إلى سيزار، أنه لم يُستدعَ عن الشجرة لأداء الواجب. لكان نزل من بين غصونها. فخُيّل إليه أنه نُسي أمره في خضم الحماسة لإخراج الجميع. نسيه الجميع ما عدا روكسان كوس.

«ألا تحسبني غبياً؟».

قال جين: «يود أن يعرف إن كنتِ تحسبينه غبياً».

تنهدت جراء هذا الانغماس الزائد للأطفال في ذواتهم. «إن المكوث في أعلى الشجرة هو ضرب من الغباء، لكن ليس الغناء على الإطلاق».

فقال له جين: «إنك غبي بسبب وجودك في أعلى الشجرة، وليس بسبب غنائك. انزل، وتكلم معها».

قال سيزار: «لستُ واثقاً من هذا الأمر». لكنه كان واثقاً. فقد سبق له أن تخيل نفسه معها يغنيان معاً، وصوتاهما يرتفعان، ويمسكان بيديّ بعضهما البعض.

نادى جين قائلاً: «ماذا تنوي أن تفعل، هل ستعيش على الشجرة؟». كانت عنقه تؤلمه جراء إرجاع رأسه إلى الوراء.

قال سيزار: «لمَ تبدو شبيهاً إلى هذا الحد بكارمن؟»، ومد يده إلى الأسفل وأمسك بغصن تحته.

لقد مضى وقت طويل على وجوده في الأعلى، فتصلبت إحدى رجليه، والأخرى كانت مخدَّرة تماماً. عندما وطأ بقدميه على الأرض، لم تحملاه فوقع عند أقدامهم، وارتطم رأسه بجذع الشجرة التي كان عليها.

جثمت روكسان كوس على ركبتيها ووضعت يديها على جانبي رأس الفتى. استطاعت أن تشعر بالدم يتسارع إلى صدغيه. «يا إلهي، لم أرد له أن يرمي بنفسه من أعلى الشجرة».

لمح السيد هوسوكاوا ابتسامة سريعة ترتسم على وجه سيزار. ارتسمت هذه الابتسامة سريعاً، ثم ما لبث أن كُبتت بالسرعة

نفسها، على الرغم من أن الفتى لم يفتح عينيه أبداً. قال السيد هوسوكاوا لجين: «أخبرها أنه بخير. وقل للفتى إن بوسعه النهوض الآن».

ساعد جين سيزار على الجلوس، وأسنده كالدمية مقابل الشجرة. وعلى الرغم من أن رأس سيزار كان يفتل، إلا أنه لم يمانع في فتح عينيه. كانت روكسان كوس تجلس القرفصاء على مسافة قريبة جداً منه، كأن في وسعه رؤية ما في داخلها. يا لعينيها الزرقاوين! كانتا أكثر عمقاً بكثير، وأكثر تعقيداً مما كان يتخيلهما عن بُعد. كانت لا تزال ترتدي روب الحمام والبيجاما البيضاء، وعن بُعد ما يقارب ١٢ سنتيمتراً من أنفه كانت البيجاما ترسم شكل ٧، وبالتالي أمكنه رؤية شق صدرها. من هو هذا الياباني الذي لا يفارقها؟ بدا شبيهاً جداً بالرئيس. في الواقع، شك سيزار في أنه ربما يكون الرئيس نفسه، بغض النظر عن أي كذب قد قصّه عليهم. ها هو ذا موجود أمام أعينهم طوال الوقت.

قالت: «انتبه»، ثم كرر المترجم الكلمة بالإسبانية. غنت خمس نوتات. أرادت منه أن يصغي ويكرر من بعدها، وأن يتبع النوتات. كان بوسعه النظر إلى داخل فمها، تجويف زهري رطب. إنه أكثر الأشياء حميمية على الإطلاق.

فتح فمه وأدى النوتات بصوت خفيض أجش، ثم لمس رأسه بأطراف أصابعه.

قالت: «لا بأس، بوسعك الغناء لاحقاً. هل كنت تغني في ديارك قبل مجيئك إلى هنا؟».

بالطبع كان يغني بالطريقة التي يغني فيها الناس لدى قيامهم بعمل مغاير من دون أن يولوا الغناء أي تفكير. كان يقلد الناس الذين يسمعهم في بعض الأحيان على المذياع، قبل أن يتعطل، لكن لم يكن الهدف من ذلك الغناء بقدر ما كان إضحاك الناس.

«هل يريد التعلم؟ هل هو مستعد للتمرن بجهد كبير ليرى إن كان يمتلك صوتاً حقيقياً؟».

سأل سيزار جين: «أتمرن معها؟ فقط؟».

«أتصور أنه سيكون هناك أشخاص آخرون معكم».

لمس سيزار كمّ جين. «قل لها إنني خجول. قل لها إنني سأؤدي بطريقة أفضل بكثير في حال كنا وحدنا».

قال جين: «عندما تتعلم الإنكليزية، بوسعك إخبارها بذلك بنفسك».

قال السيد هوسوكاوا: «ما الذي يريده؟». كان يقف إلى جانبهم محاولاً أن يصد أشعة الشمس عن عيني روكسان.

قال جين: «أمور مستحيلة». ثم قال للفتى بالإسبانية، «هل تريدها أن تعلمك الغناء: نعم أم لا؟».

قال سيزار: «بالطبع أريدها أن تعلمني».

قالت روكسان: «سوف نبدأ عصر هذا اليوم. سنبدأ بنوتات التخت الموسيقي»، ثم حملت يد سيزار وربّتت عليها، فاصفر وجهه من جديد وأغمض عينيه.

قال السيد هوسوكاوا: «فلندع الفتى يرتاح. إنه بحاجة إلى النوم».

بسط لوثر فالكين يديه على الجدار، ومدّد أوتار رجليه، ضاغطاً على كعب الرجل الأولى ثم الثانية. لمس أصابع رجليه وهز وركيه من جنب إلى آخر، وعندما شعر بأنه حمّى رجليه وأصبحتا لدنتين، أخذ يركض حافي القدمين على العشب. أبدى الجنود انزعاجاً في البداية، فتقدموا إلى الأمام وصوبوا أسلحتهم في اتجاهه، لكنه واصل الركض. كانت حديقة رحبة مقارنة بالحدائق المغطاة بالعشب في المدن، لكنها كانت تظل صغيرة مقارنة بمجازات السباق، وبعد بضع دقائق من غياب لوثر عن عيون الحاضرين، عاد ليظهر من جديد بعد أن دار دورة كاملة، رافعاً رأسه، وذراعاه تصطدمان بصدره. كان رجلاً نحيفاً ويتمتع بساقين طويلتين ورشيقتين. عندما كان يستلقي على الكنبة، لم يكن يلحظ أن مصنّع الأدوية الألماني كان في ما مضى رجلاً رياضياً، لكن بعد أن بات هنا تحت أشعة الشمس يركض في دوائر حول منزل نائب الرئيس، باتت من السهل ملاحظة ذلك. مع كل دورة يشعر بجسمه من جديد: ارتباط العضل بالعظم، وامتزاج الأوكسجين بدمه. كان يركل قدميه عالياً وراءه، ومع كل خطوة تنغرس قدماه عميقاً في العشب السميك. بدأ بعد فترة مانويل فلوريس الإسباني الجري إلى جانبه. في البداية، كان يجاريه، لكنه عاد وتخلّف عنه. بدأ سيمون تيبولت بالركض، وأثبت أنه يضاهي فولكن سرعة تقريباً. أعطى فيكتور فيودورف سيجارته لصديقه ييغور وانضم ليشارك في دورتين، حيث بدا له

أن النهار رائع، وليس ثمة أفضل من الركض. فانهار في المكان الذي بدا منه بالضبط، وقلبه يخفق داخل أضلعه بغضب جنوني.

في الوقت الذي كان الآخرون يركضون فيه، كان روبن إيغليسياس ينظف إحدى مسكبات الأزهار الكثيرة من العشب الضار. لم يكن سوى عمل محدود في وجه كل ذاك الكم من الأعمال الواجب القيام بها، لكن ما كان بيده سوى البدء بالعمل. وقد جثم أوسكار مندوزا والكاهن الشاب لتقديم العون إليه.

نادى نائب الرئيس صديقه: «إسماعيل، لِمَ تقف هناك تسند الحائط؟ تعال إلى هنا وابدأ بالعمل. بوسعنا استخدام تلك البندقية التي تفخر بها لتهوئة التربة».

قال أوسكار مندوزا: «لا تسخر من الفتى. إنه الفتى الوحيد الذي أحب».

قال إسماعيل وهو ينقل بندقيته إلى الكتف الأخرى: «أنت تدرك أنه لا يسعني المجيء إليكم».

قال روبن: «بل بوسعك المجيء، لكنك لا تريد توسيخ يديك فحسب. إنك تُبقيهما نظيفتين من أجل لعبة الشطرنج. أنت لا تود أن تعمل». ابتسم روبن في وجه الفتى. صدقاً، ودّ الفتى لو يستطيع المجيء إليهم. بوسعه تعليمه أي الأعشاب هي الضارة. وجد نفسه يفكر في أنه من الممكن أن يكون إسماعيل ابنه، ابنه الآخر. فكلاهما يتسم بصغر الحجم. وعلى كل حال، يصدق الناس كل ما يُقال لهم. يوجد الكثير من التبريرات لوجود فتى صغير آخر.

نادى إسماعيل: «أنا أعمل».

وقال أوسكار مندوزا، وهو يزيل الوحل عن يديه: .«لقد رأيته. إنه يعمل أكثر من غيره. لعله ليس كبير الحجم، لكنه قوي كالثور، وذكي. يجدر بالمرء أن يكون ذكياً كي يكسب في مباريات الشطرنج». اتكأ الرجل الضخم على الجدار ناحية الفتى إسماعيل. «إسماعيل، إن أردتَ وظيفة أستطع أن أمنحك إياها. عندما ينتهي هذا الأمر، بوسعك المجيء والعمل لحسابي».

كان إسماعيل معتاداً على التعرض للسخرية. كان إخوانه يعمدون إلى السخرية منه بقساوة. والجنود الآخرون كثيراً ما كانوا يعمدون إلى الاستهزاء به. نعتوه في إحدى المرات بـ «الدلو»، وربطوا رجليه وأنزلوه رأساً على عقب في البئر إلى أن غرق أعلى رأسه في الماء البارد. كان يحب طريقة نائب الرئيس في السخرية. كانت تبث فيه الشعور بأنه مميز عن الآخرين. لكنه لم يكن واثقاً من أوسكار مندوزا. لم تكن تعابير وجهه تشير إلى الاطمئنان إليه.

سأله أوسكار: «هل تود عملاً؟».

قال روبن وهو يضع كومة من الحشائش في حِجره: «إنه لا يحتاج إلى عمل». لقد رأى الفرصة، إذ إن أوسكار فتح له الطريق. «سوف يعيش معي وسيحصل على كل ما يحتاج إليه».

نظر أوسكار إلى صديقه ورأى كل منهما أن الآخر على قدر من الجدية. قال: «الجميع في حاجة إلى عمل. سوف يعيش معك ويعمل معي. أيناسبك هذا الأمر يا إسماعيل؟».

وضع إسماعيل بندقيته بين رجليه، ونظر إليهما. سوف يعيش في هذا المنزل؟ سوف يبقى هنا؟ ويحظى بوظيفة ويكسب مالاً؟ أدرك أن عليه الضحك والطلب منه تركه وشأنه. يجدر به أن يحوّل الأمر إلى مزحة بنفسه: لا، سوف لن يضيره شيء في حال عاش في مثل هذا المنزل. إن هذه الطريقة الوحيدة لتدبر الأمور، في حال كنت الشخص الذي يُسخر منه. أن ترد عليهم بالمزاح. لكنه لم يستطع. تمنى كثيراً لو أنهما يتكلمان بصدق. «نعم»؛ كانت الكلمة الوحيدة التي أمكنه التلفظ بها.

مد أوسكار مندوزا يده الوسخة إلى روبن إيغليسياس وتصافحا. قال روبن وصوته يجافي سعادته: «إننا نتصافح من أجلك. هذا يكلل الاتفاق». سوف يحظى بابن آخر. سيتم تبني الفتى بشكل قانوني، وسيُعرف الفتى بعدئذ بإسماعيل إيغليسياس.

أما الكاهن الذي كان يكتفي بالمشاهدة، فقد جلس القرفصاء ووضع يديه الموحلتين على فخذيه. شعر ببعض البرودة وانقباضة في قلبه. لا يجدر بالرجلين التحدث إلى إسماعيل بهذه الطريقة. إنهما ينسيان الظروف. إن الطريقة الوحيدة التي قد تصلح فيها الأمور، أن يظل كل شيء على ما هو عليه، وألّا يتحدث أحد عن المستقبل كأن الحديث عنه سيقرّب مسافته.

«سوف يعلمك الأب أرغيداس مبادئ المسيحية. أليس كذلك أيها الأب؟ بوسعك العودة إلى المنزل من أجل إعطائه الدروس، وعندها نتناول جميعنا طعام الغداء». لقد تشتت تركيز

روبن الآن. تمنى لو كان في وسعه مناداة زوجته وبث الخبر إليها. يمكنه إخبار مسنر الذي سينقل بدوره الخبر إليها. بمجرد أن تلتقي الفتى، ستحبه كثيراً.

«بالطبع سأفعل». بدا صوت الكاهن ضعيفاً، لكن أحداً لم يلاحظه على الإطلاق.

الفصل العاشر

بات السيد هوسوكاوا يستطيع أن يستدل على طريقه في العتمة. كان في بعض الأحيان يُغمض عينيه عوضاً عن إجهادهما لمحاولة رؤية الطريق. بات يعرف برنامج كل جندي وعاداته: أين يمشون وأين ينامون. ويعرف من يفترش الأرض، وكيف يخطو فوقهم بحذر، فتراه يتلمّس زوايا الجدران بأطراف أصابعه، ويتجنّب الألواح التي تُصدر صريراً، ويفتل بهدوء مسكة الباب وبرقة تسقط عن شجرة. بات ماهراً في التجول في أرجاء المنزل إلى درجة أنه لو لم يكن لديه مكان ليذهب إليه، فسيظل يشعر برغبة في النهوض لتمديد رجليه، والتنقل من غرفة إلى أخرى، لمجرد أنه يستطيع فعل ذلك. حتى أنه خطر له أن في مقدوره الهرب الآن إن شاء ذلك، حيث يمكنه السير بكل بساطة على الممر الأساسي ناحية البوابة، وتحرير نفسه. لكنه لم يُرد ذلك.

إن كل ما يعرفه قد تعلمه من كارمن التي قامت بتلقينه من دون مساعدة المترجم. فتعليم المرء كيف يلتزم بالصمت المطبق،

لا يحتاج إلى التكلم معه. وكل ما احتاج السيد هوسوكاوا بشدة إلى معرفته، علمته إياه في غضون يومين. كان لا يزال يحمل معه دفتر ملاحظاته، حيث يضيف كل صباح عشر كلمات جديدة إلى لائحته، لكنه يواجه صعوبة في حفظها. أما بالنسبة إلى الالتزام بالصمت، فإنه موهوب فيه، وليس في الأمر أي كلام. هذا ما تأكد منه من خلال الموافقة التي تبدو في عيني كارمن، ومن اللمسة الخفيفة لأصابعها على مؤخر كفه. علمته كيف يتنقل من مكان إلى آخر داخل المنزل تحت نظر الجميع، ومن دون أن يراهما أحد، لأنها كانت تعلمه كيف يصبح غير مرئي. إنه تعليم التواضع: ألّا يعود المرء يفترض أن أحداً سيلاحظ ما هو عليه أو أين يذهب. لم يدرك السيد هوسوكاوا مدى نبوغ كارمن حتى اللحظة التي بدأت فيها تعلمه، لأن نبوغها لا يُرى. كم يصعب هذا على فتاة يافعة جميلة في منزل مليء برجال متزعزعين. وبرغم ذلك وجد أنها تقريباً لا تلفت الانتباه إليها بتاتاً. لقد أفلحت في إقناع الجميع بأنها فتى. وما يثير الدهشة أكثر أنها أفلحت في جعل نفسها منسية بعد أن اكتُشف أنها فتاة جميلة. عندما كانت تمر في الغرفة، غير راغبة في أن يراها أحد، بالكاد كان يتحرك الهواء من حولها. لم تكن تتسلل. لم تكن تجري لتختبئ وراء البيانو، ثم وراء كرسي، بل كانت تسير في منتصف الغرفة، لا تطرح أي سؤال، وتُبقي رأسها مرفوعاً، ولا تُحدث أي صوت. في الواقع، كانت لا تزال تلقنه هذا الدرس منذ اليوم الأول لهما معاً في هذا المنزل، لكنه لم يتمكن من فهمه إلا الآن.

كانت مستعدة لمرافقته إلى الطابق العلوي في كل ليلة. هذا ما قالته لجين. لكن من الأفضل أن يتعلم كيف يصعد بمفرده. ليس ثمة شيء يربك الناس بقدر الخوف، وأمكنها أن تريه كيف يسعه ألا يشعر به.

قال السيد هوسوكاوا لجين: «إنها فتاة استثنائية».

وردّ جين: «صحيح».

ابتسم السيد هوسوكاوا في وجهه ابتسامة صغيرة وديّة، مدعياً أنه ليس ثمة شيء آخر ليُقال. كان هذا جزءاً من الأمر أيضاً. الحياة الخاصة. بات للسيد هوسوكاوا حياة خاصة الآن. لطالما اعتقد نفسه إنساناً يتمتع بكيان خاص، لكنه وجد الآن أنه لم يكن ثمة شيء في حياته السابقة يتمتع بالخصوصية. هذا لا يعني أنه لم يكن يحمل أي أسرار حينها، والآن فقط بات مثقلاً بها. بل إنه بات الآن ثمة شيء خاص بينه وبين إنسانة واحدة، وهذا الشيء ملكهما بالكامل، إلى درجة أنه لن يكون هناك أي جدوى من محاولة الإتيان على ذكره أمام أي أحد. فبات يتساءل الآن إن كان للجميع حياة خاصة. تساءل إن كان لزوجته حياة خاصة. من الوارد أنه عاش طوال هذه الأعوام وحيداً، غير مدرك وجود عالم بأكمله، ولم يأتِ أحد على ذكره.

كان طوال مدة الأسر ينام الليل بطوله، لكنه بات الآن يدرك كيف ينام وكيف يصحو وسط حلكة الظلام من دون عون الساعة. وفي أغلب الأحيان، حينما كان يصحو، يجد جين غير موجود. ثم يقف ويسير، بسلام تام، وفوق كل الشبهات، إلى درجة أنه في حال استيقظ أحد ما ووقع نظره عليه، سيظن أن

ذاهب لتناول شربة ماء، وليس أكثر. كان يخطو فوق جيرانه، ومواطنيه، ويتوجه مباشرة إلى السلالم الخلفية في المطبخ. رأى في إحدى المرات، نوراً مضاءً تحت باب المخزن، وظن أنه سمع همساً، لكنه لم يتوقف ليتحقق من هذا الأمر. لم يكن الأمر يعنيه، وهذا يُعتبر جزءاً من كون المرء غير مرئي. ثم يصعد على السلالم الخلفية. لم يسبق له أن شعر بهذه الراحة النفسية. خطر له على الفور، أنه لم يسبق له في حياته أن كان حياً أو شبحاً بهذا القدر. إنه لا يمانع البتة، مواصلة صعود هذه السلالم طوال حياته، حيث يتوجه الحبيب دوماً ليلتقي حبيبته. كان يشعر بالسعادة حينها، ومع كل خطوة تزداد سعادته أكثر. تمنى لو يسعه إيقاف عجلة الزمان. بقدر ما كان السيد هوسوكاوا مغموراً بمشاعر الحب، إلا أنه لم يكن يستطيع نقض ما كان يدرك أنه حقيقة: كل ليلة تجمع بينهما يمكن اعتبارها معجزة لمئة سبب وسبب، أقلّه أنه في مرحلة معينة ستصل هذه الأيام إلى نهايتها، سينتهي الأمر بالنسبة إليهما. حاول ألا يستسلم للأفكار الخيالية: سيحصل على الطلاق، وسيلحق بها من مدينة إلى أخرى، ويجلس في الصف الأمامي في كل دار أوبرا في العالم. كان ليُسعده القيام بذلك، أن يتخلى عن كل شيء من أجلها. لكنه أدرك أن هذه أوقات غير عادية، وإن حصل وأُعيدت حياتاهما السابقتان إليهما، فلن يعود شيء إلى ما كان عليه في الماضي.

في أغلب الأحيان، عندما كان يفتح باب غرفتها، تكون عيناه دامعتين، فيشعر حينها بالامتنان لوجود الظلام. لم يُرد لها

الاعتقاد أن ثمة سوءاً، فتعمد هي إلى الاقتراب منه فيدسّ وجهه الرطب في شلال شعرها الذي تفوح منه رائحة الليمون. كان واقعاً في الحب، ولم يسبق له أبداً أن انتابه هذا القدر من العاطفة تجاه شخص آخر. ولم يسبق له أيضاً أن تلقى مثل هذا اللطف. لعل الحياة الخاصة ليس مقدراً لها أن تدوم إلى الأبد. لعل الجميع يحظون بها لفترة قصيرة، ثم يمضون بقية حياتهم في تذكرها.

في مخزن الخزف، أخذ جين وكارمن قراراً: ساعتين مليئتين من الدراسة قبل ممارسة الحب. كانت كارمن لا تزال في غاية الجدية لتعلم القراءة والكتابة بالإسبانية، وقد أحرزت تقدماً كبيراً. بات في وسعها قراءة مقطع كامل من دون التوقف لطلب المساعدة. كانت ملتزمة كثيراً بتعلم الإنكليزية. بات يمكنها تصريف ١٠ أفعال بالكامل، وتعرف على الأقل ١٠٠ اسم، وصيغاً أخرى. كانت تأمل تعلم اليابانية حتى تتمكن من مخاطبة جين بلغته بعد أن ينتهي هذا الوضع، ويجمع بينهما سرير واحد ليلاً. وكان هو مصمماً بقدرها على مواصلة تلقينها الدروس. إذ لن يكون هناك أي جدوى من الوصول إلى هذا الحد ثم التخلي عن كل شيء بسبب وقوعهما في الحب. أليس هذا بالضبط ما هو الحب عليه؟ أن تريد الأفضل للشخص، أن يمد الحبيبان يد العون إلى بعضهما البعض، كما كان جين وكارمن يتساعدان؟ لا، سوف يدرسان ويتمرنان لساعتين كاملتين، ليس أقل مما كانا يفعلانه من قبل. بعدئذ، نعم، لهما الوقت الذي يشاءانه، ويمكنهما فعل ما يريدان. كانت كارمن قد سرقت آلة توقيت سلق البيض من المطبخ، ثم انطلقا للجد والعمل.

الإسبانية أولاً. كانت كارمن قد وجدت مجموعة من الكتب المدرسية مكدّسة في خزانة ابنة نائب الرئيس، كتب رفيعة رُسمت عليها صُوَر جِراء، ودفتر أكثر سماكة عليه أسطر أفقية وأخرى منقّطة للتمرن على الخط. كانت الفتاة قد استخدمت منه ٥ أوراق فحسب. كتبت عليها الأحرف الأبجدية والأرقام. كما كتبت اسمها: إيميلدا إيغليسياس، وأعادته مراراً وتكراراً بأحرف منمّقة جميلة. دونّت كارمن اسمها تحت هذه الكتابة. كتبت الكلمات التي قالها لها جين: «سمك، جراب، حساء». إن جل ما كان يريده هو طبع قبلة فوق عنقها. لكنه لم يشأ توقيف الدرس. كانت منحنية فوق دفترها، تعمل جاهدة على تحسين خطها بقدر خط ابنة نائب الرئيس البالغة من العمر ثماني سنين.

انسدلت خصلتان كثيفتان من شعرها على الدفتر. تجاهلتهما كارمن وعضت على شفتها السفلى رغبة في التركيز. تساءل جين إن كان يمكن المرء أن يموت جراء رغبته البالغة في شخص ما. في مخزن الصحون هذا، لم يكن يشم غير رائحتها، رائحة الليمون الحامض ورائحة بزتها المليئة بالغبار، والتي لفحتها حرارة الشمس، ورائحة بشرتها الأكثر نعومة وجمالاً. إنه لا يطلب أكثر من نصف دقيقة لتقبيل عنقها. ولن يمانع حتى لو ظلت تواصل الكتابة. سوف يقبّلها بلطف بالغ إلى درجة أن قلمها الرصاص لن يبارح الورقة.

عندما رفعت رأسها، كان وجهها قريباً جداً من وجهه، فما

عادت تذكر الكلمة التي قالها. ولو أنه كررها من جديد لما كانت تجيد لفظها، أو كتابة أي حرف منها على السطر. جل ما كانت بحاجة إليه هو قبلة، قبلة واحدة فقط لتصفّي ذهنها، ثم تعاود العمل من جديد. لم تقدر على ابتلاع ريقها أو الرمش بعينيها. كانت واثقة من أن قبلة واحدة ستمكّنها من مواصلة الدرس طوال الليل، ولن تُحجِمها عن التعلم. لم يعد تفكيرها منصباً على الحروف، بل انصب كله على العشب، العشب والأشجار وسماء الليل الحالكة السواد، وعبق الياسمين في المرة الأولى التي نزع عنها سترتها من فوق رأسها، وجثم على ركبتيه ليقبل بطنها وثدييها .

قال جين وصوته يرتعش: «كعك».

لعله كان مدرَّباً بطرائق لم تكن تفهمها، ككلب بوليسي. ولفظة «كعك» كانت اللفظة الوحيدة التي حررتها، لأنه بمجرد أن تلفظ بها ألقتْ بنفسها عليه، وتبعثر الدفتر والقلم على الأرض. أخذت تقبله بشراهة وتضغط بلسانها على لسانه، ثم انقلبت إلى جانب الرفوف السفلى حيث صحون الحساء مكدسة بترتيب فوق بعضها البعض. لم يعودا إلى الدرس تلك الليلة.

وضعا في اليوم التالي اتفاقاً: ساعة من الدراسة قبل الاستسلام للحب. وأحاطا نفسيهما بجدية بالغة. لكن هذه اللحظة باءت بالفشل كسابقتها في الليلة الفائتة. كانا يائسين، نهمين، متهورين، وكل ما كانا يفعلانه، يعاودان فعله من جديد.

أخذا يُجربان تقصير المدة الزمنية في كل مرة، لكن كل

محاولة تبوء بالفشل، إلى أن جاء جين بالخطة التالية: يمارسان الحب على الفور بمجرد أن يغلقا باب المخزن عليهما، وبعدها يتجهان إلى الدراسة، وقد نالت هذه الخطة نجاحاً باهراً. كانا أحياناً يغطّان في النوم لبعض الوقت، حيث تنام كارمن على صدر جين وهي تحتضنه بذراعيها. ويصبحان كجنديين وسط المعركة مستلقيين حيث وقعا. وأحياناً أخرى، يعاودان مطارحة الغرام مرة ثانية، بعد أن نسيا المرة الأولى بمجرد أن انتهت، لكن في الأعم الأغلب كانا يفلحان في إنجاز بعض الدراسة. وقبل طلوع الفجر يودعان بعضهما البعض بقبلة، فتعود كارمن إلى النوم في الرواق أمام باب غرفة روكسان كوس، ويعود جين لينام على الأرض إلى جانب كنبة السيد هوسوكاوا. يتناهى أحياناً إلى سمعهما وقع خطواته الخفيفة وهو ينزل على السلالم. وتسبقه أحياناً كارمن إلى الرواق.

هل كان الآخرون يعرفون بأمرهما؟ ربما، لكنهم ما كانوا ليتفوهوا بكلمة. كانوا يشكّون في السيد هوسوكاوا وروكسان كوس فحسب، اللذين لا يترددان في الإمساك بأيدي بعضهما البعض، أو تبادل قبلة صغيرة في خلال النهار. إن خطر لأي أحد الشك في أن كارمن وجين يقومان بأمر ما، فإن الشك سيتموضع في تقديمهما المساعدة إلى الثنائي الأول ليتقابلا. روكسان كوس والسيد هوسوكاوا، كانا عضوين من القبيلة نفسها، قبيلة الرهائن، مهما بدا الأمر غير مرجح في عيون الآخرين. بالطبع كان العديد من الأشخاص واقعين في غرامها، ومن الطبيعي أن تقع في حب واحد فقط منهم. لكن جين

وكارمن كانا مسألة أخرى. حتى لو كان الجنرالات يعتمدون على ترجمة جين وعلى مهاراته في أمور السكريتاريا، وحتى لو وجدوه ذكياً جداً وطيباً بما فيه الكفاية، إلا أنهم ما كانوا أبداً لينسوا حقيقته. وحتى لو كان الرهائن يكنّون محبة لكارمن، بسبب السحر الذي تبثه في إبقاء عينيها متوجهتين نزولاً، وعدم استعدادها لتصويب سلاحها في وجه أحد. فعندما يصدر أي نداء من الجنرالات، فسرعان ما تهرع وتقف بينهم.

تحسنت في الآونة الأخيرة الحياة بالنسبة إلى جميع الرهائن، وليس من وقعوا في الحب فحسب. بمجرد أن فُتح باب المنزل، ظل يُفتح بشكل منتظم. أخذوا يخرجون كل يوم إلى الحديقة ويقفون تحت أشعة الشمس الحارقة. وقد شجع لوثار فالكين الرجال الآخرين على الجري معه. كان يدربهم على مجموعة من التمارين يومياً، ثم يركضون بشكل جماعي حول المنزل دورة تلو أخرى. وكان الجنود يلعبون كرة القدم بطابة وجدوها في القبو، وفي بعض الأحيان تحصل مباريات لياقة، يلعب فيها الخاطفون مقابل الرهائن. ولأنهم كانوا أصغر سناً بكثير من رهائنهم، ويتمتعون بقدر أكبر من اللياقة البدنية، كانوا دوماً يربحون.

وصل مسنر ووجدهم جميعاً في الحديقة كما اعتاد أن يجدهم في أغلب الأحيان.

فنهض الكاهن عن الأرض تاركاً الحفر، ولوّح بيده له.

سأله الأب أرغيداس: «كيف حال العالم؟».

قال مسنر: «نفد صبره». كانت لغته الإسبانية في حالة تحسّن متواصل، لكنه ظل يطلب من جين المساعدة.

أشار إليه الأب أرغيداس إلى جين النائم تحت شجرة. «نائم. كم مؤسف أنهم يُجهدونه بالعمل إلى هذا الحد. وأنت، أنتَ أيضاً يجهدونك في العمل. اعذرني، لكنك تبدو متعباً».

كان صحيحاً أن مسنر فقد في الآونة الأخيرة سمة رباطة الجأش التي كان يتحلى بها، والتي بعثت الطمأنينة في نفوس الجميع في البداية. لقد كبر ١٠ سنين في خلال فترة الأربعة شهور ونصف الشهر التي أمضوها هنا. وفي الوقت الذي بدا فيه الجميع يتقبلون هذا الوضع أكثر فأكثر، بدا واضحاً أن مسنر يزداد رفضاً له. قال مسنر: «إن أشعة الشمس القوية لا تؤاتيني. إن جميع السويسريين يحبذون العيش في الظل».

قال الكاهن: «الجو حار جداً. لكن النباتات تبلي حسناً، مطر، شمس، جفاف، ليس ثمة ما يردع نموها».

«دعني لا أُلهِك عن العمل الذي تقوم به». ربّت مسنر على كتف الكاهن، متذكراً كيف حاولوا عدة مرات دفعه إلى المغادرة، وكيف أبى ترك المكان. تساءل إن كان الأب أرغيداس سيندم في النهاية على بقائه. إنه على الأرجح لن يفعل. إذ يبدو أن الندم ليس من طبيعته على عكس مسنر.

هرع باكو وراناتو عن العشب الجانبي الذي باتوا يدعونه الملعب، وقاما بتفتيشه بأقل جهد ممكن. لم يعمدا إلا إلى

تلمّس جيوبه بعض الشيء وليس أكثر. ثم ركضا عائدين إلى المباراة التي تم إيقافها لهذا الغرض.

قال مسنر: «جين»، وهو ينقر كتف الجسد النائم بطرف حذائه. «انهض حباً بالله».

كان جين يغط في النوم كمن حُقن بمخدر قوي. كان فمه مفتوحاً، وذراعاه ممدودتين على جانبيه، ويصدر من منخريه شخيراً بسيطاً.

«أيها المترجم». انحنى إلى الأمام ورفع أحد جفني جين بين سبابته وإبهامه، فأبعد له جين يده، وفتح عينيه ببطء.

قال جين بعسر: «إنك تتكلم الإسبانية. لطالما كنت تتكلمها منذ البداية. دعني وشأني الآن». ثم انقلب على جنبه، وشد ركبتيه ناحية صدره.

«أنا لا أتكلم الإسبانية. لا أتكلم أي لغة. انهض». ظن مسنر أنه شعر بارتجاج في الأرض. لا بد من أن جين شعر بهذا الارتجاج كونه مستلقياً وكون خده ملاصقاً للعشب. هل هو يتخيل أن الأرض قد تنخسف من تحتهم؟ ما مدى معرفة هؤلاء المهندسين؟ من يدري إن كانت الأرض ستبتلعهم جميعاً، مغنية الأوبرا والمجرمين، في قضمة فتاكة واحدة. جثم مسنر على ركبتيه، وضغط براحتي يديه على العشب. وبعد أن استنتج أنه يختبر حالة جنون موقتة، هز جين من جديد. قال له بالفرنسية: «اسمع، علينا أن نقنعهم بالاستسلام، اليوم. لا يسعهم المضي قدماً على هذا المنوال. هل تفهمني؟».

انقلب جين على ظهره، وتمدد كالقطة، ثم طوى يديه تحت رأسه. «الأمر أشبه بإقناع الأشجار بإنبات ريش أزرق اللون. ألم تنتبه أبداً يا مسنر؟ سوف لن يسمحوا بإقناعهم بأي شيء، خصوصاً من قِبل أمثالنا».

«أمثالنا». تساءل مسنر إن كان جين يلمح إلى أنه لم يؤد عمله بكفاءة جيدة. أربعة أشهر ونصف الشهر أمضاها في غرفة فندق تبعد مسافات خيالية عن موطنه جنيف، بعد أن كان قد أتى إلى هنا بهدف تمضية عطلة لا غير. إن كِلا الطرفين يتسم بالعناد، وما لم يفهمه الطرف الموجود داخل هذا الجدار، أن الحكومة لطالما اتسمت بالعناد، مهما تكن هوية الدولة ومهما تكن الظروف. لم يستسلم أحد في الحكومة، وكل مرة قالوا فيها إنهم سيستسلمون كانوا يكذبون، بكل تأكيد. من وجهة نظر مسنر، لم تكن مهمته إنشاء تسوية، بل تخليصهم من مأساة. ولم يعد أمامه الكثير من الوقت للقيام بذلك. وبالرغم من أصوات خطوات الراكضين المتناغم وأصوات الفتيان الذين يلعبون كرة القدم، كان واثقاً من أن ثمة شيئاً ما يحصل داخل الأرض.

إن إشارة الصليب الأحمر كحال إشارة عَلَم سويسرا، تمثل الحياد المسالم. كان مسنر قد كف عن ارتداء عصبة يده منذ أمد بعيد، لكن إيمانه بها لم يتضاءل قيد أنملة. إن أعضاء الصليب الأحمر يجلبون الطعام والدواء، وأحياناً ينقلون أوراقاً للتوصل إلى تفاهم، لكنهم ليسوا بجواسيس على الإطلاق. إنهم لا

يتجسسون. وبالتالي فجواكيم مسنر لا يتوانى أبداً عن إخبار الخاطفين بما يخطط له الجيش، وفي الوقت نفسه لا يتوانى عن إخبار الجيش بما يحدث في الجانب الآخر من الجدار.

قال من جديد: «انهض».

جلس جين بتثاقل، ورفع ذراعه لمسنر كي يشده ويساعده على الوقوف. هل هم في نزهة؟ هل كانوا يشربون الخمر في هذا الوقت المبكر؟ إن أحداً منهم لا يُبدي أدنى أَمارات المعاناة. في الواقع، بدا الجميع ممتلئين بالحيوية، وخدودهم وردية. قال جين: «على الأرجح، لا يزال الجنرالات في الملعب. وربما يشاركون في المباراة».

ورجاه مسنر: «عليك أن تساعدني».

أرجع جين شعره إلى الوراء بأصابعه بهدف ترتيبه، ثم بعد أن صحا أخيراً ألقى بذراعه على كتف صديقه: «ومتى أحجمتُ عن مساعدتك؟».

لم يكن الجنرالات يلعبون كرة القدم، لكنهم كانوا يجلسون على حافة الملعب على ثلاثة كراسٍ حديدية تم جلبها من الفناء. كان الجنرال ألفريدو يصرخ موجهاً التعليمات إلى اللاعبين، والجنرال هكتور يشاهد المباراة بصمت. أما الجنرال بنجامين، فكان رافعاً رأسه ليسمح لأشعة الشمس بأن تسطع على وجهه. وأرجل الثلاثة مغروسة في العشب الطويل.

سدّد جيلبير ركلة جميلة، وانتظر جين إلى أن انتهت المباراة

وأعلن عن قدوم الضيف: «سيدي»، قاصداً أياً كان يرفع رأسه وينظر إليه، «وصل مسنر».

قال الجنرال هكتور: «إنه يوم آخر». كانت الذراع الثانية لنظارته قد كُسرت ذاك الصباح، فباتت أشبه بالنظارة الأنفية. قال مسنر «أحتاج إلى التكلم معكم». إن كان صوته يحمل في طياته حالة طارئة جديدة، فإن أياً منهم لم يسمعها جراء ضجيج الفتيان وصراخهم حول المباراة.

قال الجنرال هكتور: «لكَ الإذن بالكلام». لم يُبعد الجنرال ألفريدو عينيه عن المباراة، ولم يفتح الجنرال بنجامين عينيه في الأصل.

«أحتاج إلى التكلم معكم في الداخل. علينا التكلم في شأن المفاوضات».

أدار الجنرال ألفريدو رأسه في اتجاه مسنر: «هل باتوا جاهزين للتفاوض؟».

«مفاوضاتكم».

لوّح الجنرال هكتور بيده في وجه مسنر كأنه لم يشعر بهذا القدر من الضجر في حياته. «إنكَ تستهلك وقتنا»، ثم عاد لينتبه إلى المباراة، ونادى: «فرانسيسكو! الكرة!».

قال مسنر بصوت منخفض بالفرنسية: «اسمعوني بجدية. لقد قمتُ بالكثير من أجلكم. جلبت لكم طعامكم وسجائركم، وحملت رسائلكم. والآن، أطلب منكم الجلوس والتحدث

معي». حتى تحت أشعة الشمس الساطعة، كان وجه مسنر يفتقر إلى اللون. نظر جين إلى مسنر، ثم ترجم كلامه محاولاً نقل نبرته. ظل الاثنان في مكانهما، لكن الجنرالات لم يعاودوا النظر إليهما. في العادة، كانت هذه الإشارة التي تُنبئ مسنر بوجوب مغادرته، لكنه ظل واقفاً في مكانه، مكتفاً يديه على صدره وينتظر.

همس جين بالإنكليزية: «أهذا يكفي؟»، لكن لم ينظر مسنر إليه. ظلا ينتظران لأكثر من نصف ساعة.

ثم فتح أخيراً الجنرال بنجامين عينيه، وقال بصوت متعب بقدر صوت مسنر: «حسناً. سنذهب إلى مكتبي».

إن سيزار الذي لم ينتبه الخوف عندما غنى قطعة من توسكا أمام كل مَن في المنزل، كان يفضل التمرن في فترات العصر عندما يكون الجميع في الخارج، خصوصاً أن التمرن كان يعني في الأغلب التدرب على نوتات التخت الموسيقي، وهو أمر طبيعي أن يكون مرهقاً على مبتدئ مثله. هو وروكسان كوس لا يكونان أبداً على انفراد، إذ ليس ثمة شيء يُدعى انفراداً في ذاك المكان. فكايتو موجود للعزف على البيانو، والسيد هوسوكاوا يكون حاضراً لأنه دوماً يكون حاضراً. واليوم إسماعيل الذي يتعرض دائماً للسخرية في مباريات كرة القدم، جهّز لوحة الشطرنج على طاولة منخفضة قرب البيانو، وأخذ يلعب مع السيد هوسوكاوا. كان هو وسيزار يحملان السلاح، لأنهما إن اختارا البقاء داخل المنزل، فإنهما سيكونان قسراً حارسي

المنزل. وعندما يتذمر سيزار من مكوث أشخاص آخرين للاستماع إليه، وعندما يكون ثمة أحد ليترجم من الإسبانية إلى الإنكليزية، ثم إلى الإسبانية من جديد (ويمكن العديد من الأشخاص القيام بذلك)، تقول له روكسان إن الغناء يُقدَّم ليسمعه الآخرون، وبوسعه بهذه الطريقة الاعتياد على الأمر. أراد تعلم الأغاني، مقطوعات أوبرا كاملة، لكنها في أغلب الأحيان كانت تدربه على أداء نوتات التخت الموسيقي وجمل لا معنى لها. جعلته يزأر ويكوّر شفتيه ويحبس أنفاسه، ما دفعه إلى الجلوس سريعاً ووضع رأسه بين ركبتيه. كان ليدعو الجميع إلى الدخول لو أنها سمحت له بأداء أغنية بمرافقة عزف البيانو، لكنها قالت إن هذا أمر يتحتم عليها اكتسابه بنفسه.

سأل مسنر: «هل بات هناك فتى يغني؟ هل هذا سيزار؟». توقف في غرفة الجلوس ليستمع، وتوقف الجنرال بنجامين وجين معه. كان كمّا سترة سيزار قصيرين جداً، فبدا معصماه كأنهما متدليان من عصا مكنسة.

بدا الجنرال بنجامين فخوراً جداً بالفتى. «إنه يغني منذ أسابيع. كنتَ تأتي في الوقت غير المناسب. سيزار يغني دوماً. تقول السنيوريتة كوس إن لديه القدرة على تحقيق نجاح باهر كحالها هي».

قالت روكسان: «تذكّر نفَسَك»، وأخذت نَفَساً عميقاً لتوضح لسيزار قصدها.

تعثر سيزار بنوتة بعد أن شعر فجأة بالتوتر عندما وقع نظره على الجنرال.

قال بنجامين لجين: «سَلْها كيف يبلي».

وضعت روكسان يدها على كتف كايتو، فرفع أصابعه عن المفاتيح، كأنها نقرت زر إطفاء. أدّى سيزار ثلاث نوتات أخرى، ثم توقف بعد أن أدرك أن الموسيقى توقفت.

«لم يمضِ على تدرّبه وقت طويل، لكني أعتقد أنه يمتلك قدرة هائلة».

قال الجنرال بنجامين: «دعيه يغنِّ أغنية من أجل مسنر. يحتاج مسنر إلى أغنية اليوم».

وافقت روكسان كوس على طلبه، وقالت: «اسمع هذا، كنا نتدرَّب على هذه القطعة».

غنت بصوت منخفض بضع كلمات حتى يعرف سيزار ما يجدر به غناؤه. لم يكن تسعه الكتابة أو القراءة بالإسبانية، وبكل تأكيد لم يكن يفهم الإيطالية، لكنه كان يتمتع بقدرة هائلة على حفظ الصوت وتكراره بطريقة مفعمة بالأحاسيس، إلى درجة أنه لا يمكن المستمع إلا تصور أنه يفهم ما يقوله بالكامل. بمجرد أن دلّت سيزار، بدأ كايتو بعزف مطلع أغنية بيلليني «مالينكونيا، نينفا جانتيل»؛ الأغنية الأولى القصيرة من «ساي أرييت». عرف جين الموسيقى. كان قد سمعها تتطاير عبر النوافذ في فترات العصر الماضية. أغمض الفتى عينيه، ثم رفعهما ناحية السقف: «آه، أيتها الكآبة، أيتها الحورية الجميلة، إنني أكرس حياتي لك». عندما ينسى جملة تقوم روكسان كوس بغنائها بصوت جهير مفاجئ: «لقد طلبت من الله أن يمنّ علي بالتلال

والينابيع، فاستجاب لطلبي أخيراً». ثم يكرر سيزار الجملة. كان الأمر أشبه بمشاهدة عجل ينهض لأول مرة على أرجل مهزوزة، حيث يتسم المشهد بالغرابة والجمال في آن معاً. مع كل خطوة يتعلم كيفية السير، ومع كل نوتة يغني بثقة أكبر. كانت أغنية قصيرة جداً، ما لبثت أن انتهت سريعاً، فصفق الجنرال بنجامين وأطلق مسنر صافرة.

قالت روكسان: «لا تطروا عْليه كثيراً، وإلا فتفسدونه».

عمد سيزار الذي احمرّ وجهه، إما فخراً وإما لنقص في الهواء، إلى الانحناء أمامهم.

قال الجنرال بنجامين وهو يسير في الرواق متوجهاً إلى مكتبه إلى جانب مسنر وجين: «حسناً، لا يمكنك معرفة قدراته لدى مجرد النظر إليه». كان هذا صحيحاً. كان الشيء الوحيد الأكثر اعوجاجاً من أسنان سيزار هو أنفه. «يدفعك الأمر إلى التساؤل. كم يمكننا تحقيق إنجازات في حياتنا لو أننا توقعنا فحسب أننا نعرف كيفية القيام بها». قال مسنر: «أنا أدرك أنني لن أغني أبداً».

«أنا أيضاً أوقن ذلك عن نفسي»، نقر الجنرال بنجامين على الزر مشعلاً الضوء في الغرفة، ثم جلس الرجال الثلاثة.

قال مسنر: «أود إخبارك أنه قريباً لن يسمحوا لي بالدخول بعد الآن».

دُهش جين. الحياة من دون مسنر؟

قال الجنرال: «أنت تخسر وظيفتك».

تشعر الحكومة بأنها بذلت ما يكفي من الجهد في المفاوضات».

«لم أرَ جهداً على الإطلاق. فهم لم يقدموا إلينا عروضاً معقولة».

قال مسنر: «أنا أخبرك بذلك كوني شخصاً يحبكم».

«سوف لن أدّعي أننا أصدقاء، لكني أريد الأفضل لمن هم هنا. فلتستسلموا. اليوم. امشوا إلى الخارج إلى حيث يمكن الجميع رؤيتكم واستسلموا». أدرك مسنر أن كلامه يعوزه الإقناع، ولا يزال يجهل كيف يجعله يبدو مقنعاً. أخذ في خضم ارتباكه يخلط بين اللغات التي يجيدها: الألمانية التي كان ينطق بها في صغره في دياره، والفرنسية التي كان ينطق بها في المدرسة، والإنكليزية التي نطق بها في السنين الأربع التي عاشها في كندا عندما كان شاباً، والإسبانية التي ما لبثت تتحسن يوماً بعد يوم. حاول جين جاهداً أن يواصل ترجمة هذا المزيج من اللغات، لكنه يضطر في كل جملة إلى التوقف والتفكير. إن عدم قدرة مسنر على البقاء في بلد واحد، هي التي كانت تخيف جين منه أكثر مما كان يقوله. لم يكن ثمة وقت للتركيز على ما كان يقوله.

«ماذا عن مطالبنا؟ هل تكلمتَ معهم بالطريقة نفسها؟ هل تكلمتَ معهم كأصدقاء؟».

قال مسنر: «سوف لن يتخلوا عن شيء. ليس هناك أمل، مهما يطل انتظاركم. عليك أن تثق بي من هذه الناحية».

«إذاً، سوف نقتل الرهائن».

قال مسنر وهو يفرك عينيه بأصابعه: «لا، لن تفعلوا».

«لقد قلتُ لكم في المرة الأولى التي التقينا فيها، إنكم رجال حصيفون. وحتى لو أقدمتم على قتلهم فلن يغير هذا من الأمر شيئاً. سوف تصبح الحكومة أقل ميلاً إلى التباحث معكم».

كانا يسمعان صوت روكسان من غرفة الجلوس عبر الرواق الطويل وهي تغني جملة ثم يكررها سيزار وراءها. أخذا يعيدانها مراراً وتكراراً، ولم يزدد التكرار إلا جمالاً.

أخذ بنجامين يصغي إلى الموسيقى لبعض الوقت، ثم فجأة كأنه سمع نوتة لم تعجبه، ضرب بقبضة يده على الطاولة التي كانوا يستخدمونها للعب الشطرنج. ليس للأمر أي أهمية، لكن كانت عدة الشطرنج في الغرفة الأخرى. «لمَ تقع على عاتقنا مسؤولية القيام بكل التنازلات؟ هل يُتوقع منا الاستسلام لأن تاريخنا يضج بالاستسلامات؟ أنا أحاول تحرير الرجال الذين أعرفهم من السجن، ولا أحاول الانضمام إليهم، ولا أنوي أبداً زج جنودي في تلك المغاور. وإلا فسرعان ما سأراهم موتى، وتحت التراب».

خطر لمسنر أنه قد يشهد موتهم، لكن لن تتسنى له أبداً فرصة رؤيتهم يُدفنون، فتنهد. ليس ثمة مكان مثل سويسرا. حقاً،

لقد توقف الزمن. مضى على وجوده في هذا المكان وقت طويل، وسوف يطول بقاؤه. قال: «أخشى أن هذين هما الخياران المتاحان أمامك».

«لقد انتهى الاجتماع»، ثم وقف الجنرال بنجامين. في وسع المرء تتبع مجريات هذه القصة على تعابير وجهه التي باتت شديدة السواد، كأن بشرة وجهه باتت تحترق الآن. كانت القوباء المنطقية تنفجر غضباً مع كل كلمة يتفوه بها، وكل كلمة يستمع إليها.

«لا يمكن أن ينتهي الاجتماع. تتحتم علينا مواصلة التكلم إلى أن نتوصل إلى نوع من الاتفاق، يكون موجباً بطبيعته. أنا أتوسل إليك أن تفكر في هذا الأمر».

فقال الجنرال: «وماذا عساي أفعل طوال النهار سوى التفكير يا مسنر؟»، ثم غادر الغرفة.

جلس مسنر وجين وحدهما في جناح الضيوف، حيث لا يُسمح للرهائن بالجلوس من دون حراسة، وأخذا يستمعان إلى الساعة الفرنسية الصغيرة وهي تدق معلنة دنوّ ساعة الظهر. بعد مرور عدة دقائق، قال مسنر: «لا أعتقد أنه يسعني تحمل هذا الوضع أكثر».

يتحمّل ماذا؟ كان جين يدرك أن كل شيء يسير نحو الأفضل، وليس بالنسبة إليه فحسب. بات الناس أكثر سعادة. ها هم خارجاً الآن. كان يراهم من النوافذ يركضون. قال جين:

«وصلنا إلى طريق مسدود. ربما تدوم هذه الحالة. في حال أبقونا هنا إلى الأبد، فسوف نتدبر أمرنا».

أجابه مسنر: «هل أنت مجنون؟ قد كنتَ في ما مضى أذكى شخص هنا، أما الآن فبتّ مجنوناً مثل الباقين. هل تظن أنهم سيبقون الجدار مرفوعاً ويدّعون أن هذا المكان ليس سوى حديقة حيوانات، ويجلبون لكم الطعام، ويتقاضون المال مقابل بطاقات الزيارة؟ وينظرون إلى رهائن لا حول لهم ولا قوة يعيشون جنباً إلى جنب، بكل بسلام ووئام، مع إرهابيين خطيرين. لا يمكن مثل هذا الوضع أن يستمر بكل بساطة. لا بد من أن يُقْدِم أحد على وضع حد له، وثمة حاجة إلى أخذ قرار في شأن من سيتولى وضع هذا الحد».

«هل تعتقد أن لدى الجيش خططاً؟».

حدق مسنر فيه. «إن مجرد مكوثك هنا لا يعني أن العالم بأكمله تعامى عن هذا الوضع».

«إذاً، سوف يعتقلونهم؟».

«في أفضل الأحوال».

«والجنرالات؟».

«جميعهم».

لكن، لا يعقل أن يشمل ذلك كارمن. لا يعقل أن يشمل بياتريس أو إسماعيل أو سيزار. عندما راجع جين القائمة وجد أنه غير قادر على التخلي عن واحد منهم، حتى لو كان من

المتنمرين والخرقى منهم. سوف يتزوج بكارمن. سيعمد الأب أرغيداس إلى تزويجهما، وسيكون زواجهما قانونياً وملزماً، حتى إذا داهموهم يمكنه القول إنها زوجته. لكن، هذا سينقذ فرداً واحداً بغض النظر عن أنها الفرد الأهم. أما بالنسبة إلى الآخرين، فلم يكن لديه أدنى فكرة عما يجدر فعله لأجلهم. كيف عساه بات يفكر في إنقاذهم جميعاً؟ وهم الأشخاص الذين لم ينفكوا يلحقون به من مكان إلى آخر، حاملين أسلحة ملقّمة. كيف عساه وقع في حب هذا العدد الكبير من الناس؟ فسأل جين علّه يهتدي إلى حل: «ماذا عسانا نفعل؟».

قال مسنر: «في وسعنا التكلم معهم وإقناعهم بالاستسلام. لكن بصراحة، لست واثقاً حتى إن كان هذا الأمر سينفعهم».

لقد قضى جين حياته بطولها في تعلم حرف الراء العميق في اللغة الإيطالية، ويجمع الحروف الساكنة باللغة الدنماركية. حينما كان طفلاً في ناغانو، كان يجلس على كرسي عال، يكرر لكنة والدته الأميركية وهي تقطّع الخضار من أجل العشاء. كانت قد ارتادت الجامعة في بوسطن وتجيد الفرنسية بقدر ما تجيد الإنكليزية. وكان جده لأبيه يعمل في الصين في شبابه، وكان والده يتكلم الصينية، كما كان قد درس الروسية في الجامعة. في طفولته، بدا له أن اللغات تتغير بحسب الساعة، ولم يكن هناك أفضل من جين في مجاراة هذا التغير. كان هو وأختاه يلعبون باللغات عوضاً عن الألعاب. كان يدرس ويقرأ ويطبع الأسماء على بطاقات، ويصغي إلى شرائط لغوية وهو يستقل قطار

الأنفاق. ولم يتوقف. وبالرغم من أنه كان متعدد اللغات بالفطرة، إلا أنه لم يعتمد قط على موهبته فحسب. بل أخذ يتعلم. لقد وُلد جين ليتعلم.

لكن هذه الشهور الأخيرة قد غيرت حاله، وبات يرى أن ثمة روعة في نقل معلوماته، بقدر ما هناك متعة أيضاً في جمع المعلومات الجديدة. عمل جاهداً على النسيان بقدر ما كان يعمل في حياته على التعلم. أفلح في نسيان أن كارمن جندية في منظمة إرهابية قامت باختطافه. ولم تكن هذه بمهمة سهلة. أجبر نفسه كل يوم على التدرب، إلى أن بات يتمكن من النظر إلى كارمن، ويرى فيها المرأة التي يحب فحسب. لقد نسي أمر المستقبل والماضي. نسي أمر بلاده، وعمله، وما يمكن أن يحل به عندما تنتهي هذه المسألة برمتها. نسي أن الطريقة التي يعيش فيها، سوف تصل إلى نهايتها يوماً ما. لم يكن جين الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة. إن كارمن نسيت أيضاً. لم تتذكر الأوامر المباشرة الي وُجهت إليها بوجوب عدم إنشاء أي روابط عاطفية مع الرهائن. وعندما وجدت صعوبة في سحب مثل هذه المعلومات المهمة من ذاكرتها، ساعدها الجنود الآخرون على النسيان. فقد عمد إسماعيل إلى النسيان، لأنه أراد أن يكون الابن الثاني لروبن إيغليسياس، وموظفاً لدى أوسكار مندوزا. كان يتخيل نفسه يتشاطر الغرفة مع ابن روبن، ماركو، ويتصرف مع الفتى كأخ أكبر مساعِد له. وعمد سيزار إلى النسيان لأن روكسان كوس قالت إنه تمكنه مرافقتها إلى ميلانو وتعلم الغناء. كم كان يسهل عليه تخيل نفسه على المسرح إلى جانبها، وينهمر

على أقدامهما شلال من الورود الجميلة. ساعدهم الجنرالات على النسيان عبر التعامي عن الكم الكبير من العاطفة والتكاسل الذي كان يحيط بهم، وأمكنهم فعل ذلك لأنه كان هناك الكثير، فباتوا ينسون أنفسهم. اضطروا إلى نسيان أنهم الأشخاص الذين أخذوا هؤلاء الشبان من عائلاتهم، وقاموا بتجنيدهم عبر تقديم الوعود إليهم بالعمل والفرص، وتقديم قضية لهم ليحاربوا من أجلها. اضطروا إلى نسيان أن رئيس البلاد تجاهل حضور الحفلة التي رسموا خططاً مسبقة لاختطافه منها، فاضطروا إلى تغيير خططهم وأخذوا الجميع كرهائن. والأهم أنهم دُفعوا إلى نسيان أنهم لم يتوصلوا إلى طريقة للمغادرة. وتحتم عليهم التفكير في أن هذه المشكلة ستطرح نفسها أمامهم لا محالة إن مكثوا في هذا المكان فترة أطول. لمَ عساهم يفكرون في المستقبل؟ لا يبدو أن أحداً يتذكره. رفض الأب أرغيداس التفكير فيه. كان الجميع يحضرون قداس الأحد. وكان يؤدي الشعائر: التلقيم، الاعتراف، حتى شعائر الاحتضار. لقد نظم الأرواح الموجودة في هذا المنزل، وهذا كان أهم ما في الأمر. إذاً، لم عساه يفكر في المستقبل؟ أما روكسان كوس فلم يخطر المستقبل في بالها حتى. لقد باتت قادرة كثيراً على التناسي، بحيث لم تعد تفكر في زوجة حبيبها بتاتاً. لم يكن يهمها واقع أنه كان يدير مؤسسة في اليابان، أو أنهما لا يتكلمان اللغة نفسها. حتى الأشخاص الذين لم يكن لديهم دافع حقيقي للنسيان باتوا ينسون. كانوا يعيشون الحياة ساعة بساعة، فلم يشغل بال لوثار فالكين الجري حول المنزل. ولم يكن فكتور فيودورف يفكر إلا

في لعب الورق مع صديقيه، والثرثرة حول حبهم روكسان كوس. وكان تيتسويا كايتو يفكر في مسؤولياته كعازف بيانو، ونسي أمر المسؤوليات الأخرى. وجدوا أنه من المضني تذكر أمور قد لا يحظى المرء بها من جديد، لذا قام واحد تلو الآخر، ببسط كفيه وإفلات الأمور منها، ما عدا مسنر الذي كانت وظيفته تدور حول التذكر.

وسيمون تيبولت الذي لم يكن يفكر في أي شيء، ما عدا زوجته، حتى خلال نومه.

لذلك، بالرغم من أن جين فهم أن ثمة أمراً جدياً وخطيراً ينتظرهم، إلا أنه بدأ ينساه بمجرد أن غادر مسنر المنزل عصر ذاك اليوم. فشغل نفسه بطباعة لائحة المطالب الجديدة للجنرالات. وعندما تأخر الوقت ساعد في تقديم العشاء. توجه إلى النوم تلك الليلة، ونهض عند الثانية بعد منتصف الليل للقاء كارمن في مخزن الخزف، وأخبرها، لكن ليس بالتوتر الذي شعر به عصر ذاك اليوم. لقد أفلح في نسيان الإحساس بالتوتر.

قال: «لقد أقلقني كلام مسنر». كانت كارمن تجلس في حضنه وساقاها إلى يساره، وذراعاه ملتفتان حول عنقه. أقلقني. ألم يكن يُفترض به قول كلمة أقوى من هذه؟

وكارمن التي وجب عليها الإصغاء، وطرح أسئلة تتعلق بسلامتها الشخصية وسلامة الجنود الآخرين، أصدقائها، ما كان منها إلا أن قبلته، لأن الأهم كان النسيان. إنه وظيفتهم، عملهم. كانت تلك القبلة أشبه بالبحيرة، عميقة وصافية، فسبحا فيها

وهما ينسيان. قالت كارمن: «سيتحتم علينا الانتظار لنرى ما سيحدث».

هل يجدر بهما القيام بشيء ما، محاولة الهرب؟ لا بد من أنه باتت هناك طريقة للهرب الآن، بعد أن بات الجميع متساهلين. بالكاد، كان ثمة من يراقب. سألها جين ويداه تحت قميصها، يتحسس كتفيها بأنامله.

قالت: «بوسعنا التفكير في الهرب». لكن الجيش سيمسك بها ويقوم بتعذيبها. هذا ما أخبرهم به الجنرالات خلال التدريب، وتحت آلام التعذيب ستبوح لهم بشيء ما. لم تقوَ على تذكر ما يتحتم عليها عدم التفوه به، لكنه سيكون الأمر الذي سيودي بالجميع إلى التهلكة. ليس هناك سوى مكانين في العالم في وسعهما التوجه إليهما: الداخل والخارج، والسؤال هو أيهما أكثر أمناً؟ داخل المنزل، داخل مخزن الخزف هذا، لم تشعر بهذا القدر من الأمان في حياتها. بالتأكيد تعيش قديسة ليما «روز» في هذا المنزل. إنها محمية هنا. لقد نالت كارمن مكافأة جزيلة على الصلوات التي كانت تتلوها. من الأفضل دوماً للمرء البقاء مع قديسته. قبّلت عنق جين. إن جميع الفتيات يحلمن بالوقوع في الحب مثلها.

قال جين: «إذاً، سنتكلم حول الموضوع؟». لكن قميصها باتت مخلوعة ومرمية على الأرض كسجادة لهما ليناما عليها. أقفلا الزاوية التي كانت مشكّلة بين جسديهما والأرض.

قالت وهي تغمض عينيها برفق: «فلنتكلم حول الموضوع».

بمجرد أن وقعت روكسان في الحب، عاودت الوقوع فيه. لكن التجربتين مختلفتان تماماً. وبرغم ذلك، فقد اختلطتا، ولم تتمالك إلا أن تربط بينهما في ذهنها. كان كاتسومي هوسوكاوا يأتي إلى غرفتها في منتصف الليل، ويمضي معظم الوقت واقفاً إلى جانب الباب وهو يحتضنها. بدا الأمر كأنه نجا من حادث ليس مقدَّراً لأحد النجاة منه: تحطُّم طائرة، أو ضياع سفينة في عرض البحر. ولم يكن يمكنه تخيل أي شيء ما عدا هذا: احتضانها بين ذراعيه. لم يكن هناك ما يقولانه لبعضهما البعض، لكن لم تعتقد روكسان أن النطق باللغة نفسها، هو الوسيلة الوحيدة للتواصل مع الناس. كما أنه ماذا هنالك ليقال فعلياً؟ فقد كان يعرفها. فتتكئ عليه وتلف ذراعيها حول عنقه، ويبسط هو يديه على ظهرها. أحياناً تهز رأسها أو يهزها هو إلى الأمام ثم إلى الوراء. ومن طريقة تنفسه، تعرف أنه يبكي، وقد تفهَّمت هذا الأمر أيضاً. كانت هي نفسها تبكي جراء الراحة اتي تشعر بها لدى وجودها معه داخل غرفة مظلمة؛ الراحة التي نجمت عن حبها هذا الشخص وحب هذا الشخص لها. كانا ليقفا في مكانهما الليل بطوله. كان مستعداً للمغادرة من دون طلب أي شيء آخر، لو أنها لم تمد يدها إلى خلف ظهرها وتمسك بإحدى يديه في مرحلة ما، وتقوده إلى السرير. كانت ثمة طرائق عديدة للتكلم. فيقوم بتقبيلها وهي تستلقي على ظهرها، والستائر مغلقة، والغرفة غارقة في ظلام دامس.

تصحو في الصباح لدقيقة من الوقت، تتمدد، تنقلب إلى

الجهة الأخرى، ثم تعود إلى النوم. لا تعرف كم من الوقت نامت، ثم تسمع غناءً. وتصعقها للمرة الثانية فكرة أنها ليست وحدها. ليس أنها واقعة في حب سيزار، لكنها كانت مغرمة بغنائه.

كان الأمر على هذا المنوال: كل ليلة يعود فيها السيد هوسوكاوا إلى غرفتها، وكل صباح ينتظرها سيزار للبدء بالتمارين. إن كان ثمة شيء آخر توده في حياتها، فقد نسيته تماماً.

تقول: «تنفس... على هذا النحو». تملأ رئتيها بالهواء، تتنشق المزيد منه، ثم المزيد، ثم تحبسه. إن عدم فهمه الكلمات التي تستخدمها لم يشكل لهما أي عائق. تقف وراءه، وتبسط كفها على أسفل قفصه الصدري. ما كانت تقوله كان في منتهى الوضوح. دفعت كل النَّفَس من جسمه، ثم ملأت جسمه من جديد. غنت جملة من توستي، وهي تحرك يدها رواحاً وجيئة مثل بندول الإيقاع، ثم يغني الجملة بعدها. لم يكن طالباً في معهد موسيقي، وبالتالي لم يعتقد أنه يتحتم عليه الانتباه كي يُرضي معلمته. لم يكن أمامه تخطي حياة بطولها من التعليم. ولم يكن خائفاً. كان صبياً مفعماً بشجاعة الصبيان، وعندما أدى الجملة، أتت عالية ومفعمة بالعاطفة. كان يغني كل جملة، وكل نوتة، كأن الغناء من شأنه أن ينقذ حياته. بات يتأقلم مع صوته الخاص، وقد أدهشها جماله وقوته ورقته. كان من الممكن أن يعيش هذا الصوت ويموت في الأدغال، لو أنها لم تمر في حياته وتنقذه.

كان الوقت الذي يعيشونه لا بأس به، ما عدا أن مسنر لم يعد يطيل البقاء معهم. بات أكثر نحافة، حيث تتدلى ملابسه من على كتفيه كأنها معلقة على علاّقة معاطف سلكية. كان يمر عليهم ويُوْدِع أغراضاً، ثم يستعجل المغاردة.

سيزار يأخذ دروسه في الصباح. وبرغم أنه كان يتوسل لهم بشدة للخروج من المنزل، إلا أن الجميع كانوا يجلسون ويستمعون إليه. كان أداؤه يتحسن بشكل سريع. حتى الفتيان كانوا يقولون إن ما يرونه مثير للاهتمام أكثر من التلفاز حتى. لكن حتى الآن لا يُعتبر شبيهاً بروكسان كوس على الإطلاق. كان يجد عمقه الخاص به. كان كل صباح يكشف عن صوته أمامهم كمروحة نادرة مرصَّعة بالجواهر، كلما أصغى إليه المرء أكثر ازداد جمالاً. وتؤكد كل الحشود المجتمعة في غرفة الجلوس أن صوته سيكون أفضل من اليوم الذي سبقه. هذا ما كان يثير الدهشة حوله. وبرغم ذلك، كان عليه أن يظهر ولو قليلاً أنه وجد حدود ما يقدر عليه. كان يغني بشغف كبير، ثم بنشوة شغوفة. كم بدا مستحيلاً أن ينسكب هذا الصوت الجميل من مثل هذا الفتى العادي. ويداه لا تزالان تتدليان على جانبيه.

عندما فرغ سيزار من أداء النوتة الأخيرة، اهتاج الجميع وأخذوا يضربون الأرض بأخمص أقدامهم ويطلقون الصفارات. وتوحَّد الرهائن والخاطفون في المناداة معاً: «يحيا سيزار!». لقد كان فتاهم. لم يكن ثمة رجل أو امرأة هناك لا تعترف بروعته.

انحنى تيبولت إلى الأمام، وهمس في أذن نائب الرئيس.

«لا بد للمرء من أن يتساءل كيف تتقبل مغنيتنا هذا الأمر».

فهمس روبن بدوره قائلاً له: «بكل شجاعة من دون أدنى شك»، ثم وضع إصبعين في فمه، وأطلق صافرة طويلة ومدوية.

انحنى سيزار عدة مرات بتوتر. وعندما فرغ، بدأت الحشود تنادي روكسان، محرّضة إياها على أن تغني. هزت برأسها رافضة عدة مرات، لكنهم لم يقبلوا منها ذلك. وعندما وقفت أخيراً، كانت تضحك لأنه من عساه لا تغمره السعادة وسط هذه الموسيقى؟ رفعت يديها محاولة إسكاتهم.

قالت: «أغنية واحدة فحسب! لا تسعني المنافسة». انحنت إلى الأمام وهمست في أذن كايتو، فهز برأسه. بمَ كانت تهمس؟ إنهما لا يتكلمان اللغة نفسها.

كان كايتو قد أخذ الموسيقى من إل باربيير دي سيفيغليا، ليعزفها على البيانو، وأخذت أصابعه ترتفع عن مفاتيح البيانو كأن المفاتيح تصفع الأصابع. مر على روكسان وقت اشتاقت فيه إلى الأوركسترا، تلك الموسيقى الجميلة الصادرة عن آلات الكمان الكثيرة الموجودة أمامها، لكن لم يعد هذا الأمر في بالها الآن. انخرطت في الموسيقى كأنها نبع بارد في يوم حار، وبدأت بالغناء: «أونا فوسي بوكو فا». وجدت الموسيقى مناسبة كثيراً لها الآن، واعتقدت أن روسيني لطالما أراد لها أن تكون هكذا. وبالرغم مما يمكن أي أحد الهمس به، إلا أنه بالطبع تمكنها المنافسة، كما في وسعها الفوز. كان غناؤها ممتعاً،

وعندما وصلت إلى النوتات الأعلى، وضعت يديها على وركيها وهزتهما رواحاً وجيئة، متوجهة إلى الجماهير بابتسامة إغواء مشاكسة. إنها ممثلة أيضاً. يجدر بها تعليم هذا الجزء أيضاً لسيزار. هناك ألف طريقة من الخدع الماكرة، والمكائد الخفية، مستعدة للقيام بها قبل أن يستولوا على إرادتها. فهللوا لها. آه، كم كانوا يحبون هذه النوتات العالية، هذه المقدرات الصوتية المستحيلة التي تؤديها كأنها ليست بأي شيء يُذكر. تسببت لهم في النهاية، في الدوار، فرفعت يديها وقالت: «اخرجوا جميعاً». وعلى الرغم من جهلهم ما كانت تقوله، امتثلوا لأوامرها وخرجوا إلى تحت أشعة الشمس.

ضحك السيد هوسوكاوا وقبّلها على خدها. من عساه يصدق أن لمثل هذه المرأة وجوداً؟ توجّه إلى المطبخ ليحضّر لها كوباً من الشاي، وجلس سيزار على مقعد البيانو إلى جانبها، آملاً أن يواصل درسه الآن بعد مغادرة الجميع.

توجه الباقون إلى الخارج للعب كرة القدم، أو للجلوس على العشب ومشاهدة المباراة. تمكّن روبن من أخذ إذن بالحصول على رفش وشوكة يدوية صغيرة من حِجرة البستاني التي كانت مقفلة، وأخذ يقلّب التراب في مسكبات الورود، التي أفلح في تنظيفها من العشب والنبات الضار. ترك إسماعيل المباراة من أجل مساعدته. لم يمانع في ذلك. لم يحب اللعب أبداً. أعطاه روبن ملعقة طعام فضية ليحفر بواسطتها. قال له روبن: «لقد كان لوالدي طريقة رائعة في الزرع. جل ما كان

يفعله هو التفوه ببضع كلمات لطيفة للأرض، فينبت الزرع مباشرة». أراد لو يصبح مزارعاً مثل والده، لكن الجفاف قضى على كل شيء. هز روبن بكتفيه ودس رفشه في التربة القاسية، وطفق يقلّبها.

قال إسماعيل: «كان ليفخر بنا الآن».

كان الفتيان الذين يقومون بالمراقبة قد تسلقوا ال

نباتات المعترشة الثابتة على حافة الحديقة. وأسندوا أسلحتهم إلى الجدار الجصّي، وانضموا لمشاهدة المباراة، وترك الراكضون الركض للمشاركة في اللعب. كان صدى الأغنية التي أدتها روكسان لا يزال يتردد في رؤوسهم. وعلى الرغم من عجزهم عن دندنتها، أخذوا يطاردون الطابة على وقع لحن الأغنية. كانت بياتريس قد أخذت الطابة بعيداً عن تيبولت، وركلتها إلى يسوع الذي كان بوسعه بكل سهولة التسديد في المرمى. كان المرمى عبارة عن كرسيين، فأخذ الجنرالات ينادون: «الآن الآن!». تواطأت الأشجار فحجبت الضوء بعد أن ازدادت كثافة الأوراق عليها في الشهور القليلة الأخيرة، لكن برغم ذلك، كان الضوء ينتشر في كل مكان. كان الوقت مبكراً: ساعات تفصلهم عن الغداء. ترك كايتو البيانو وتوجه إلى الخارج وجلس على العشب تحت أشعة الشمس إلى جانب جين، لذا لم يكن يُسمع سوى صوت ركل الطابة ومناداة الأسماء: جيلبير، فرانسيسكو، باكو، وهم يركضون.

صرخت روكسان كوس لأنها رأت رجلاً غريباً يدخل الغرفة

بسرعة. لم يُدهشها زيه أو سلاحه، فقد اعتادت على هذه الأمور، لكن الطريقة التي دخل فيها كانت مروعة. كان يسير كأنه ما من جدار يمكنه إيقافه. مهما يكن ينوي فعله، فإنه قد حسم أمره، ومهما قالت أو غنت فلن يحدث أي فارق البتة. قفز سيزار عن مقعد البيانو الذي كان جالساً عليه، وقبل أن يتمكن من الوصول إلى الباب أُردي قتيلاً. وقع إلى الأمام مباشرة، من دون أن يمد يديه لمحاولة إنقاذ نفسه، ومن دون مناداة أحد طلباً للمساعدة. جلست روكسان القرفصاء بالقرب من البيانو، وهي تصرخ. زحفت ناحية الفتى الذي كانت واثقة تماماً من أنه سيشكّل أعظم مغن في زمانه، وغطت جسده بجسدها كي لا يحصل له أي مكروه آخر. فشعرت بدمه الحار يبلل قميصها وجلدها. حملت رأسه بين يديها وقبلته على وجنتيه.

بدا، مع صوت إطلاق الرصاصة، كأن الرجل الحامل السلاح قد انقسم، أولاً إلى اثنين، ثم إلى أربعة، ثم إلى ثمانية، ثم إلى ستة عشر، وبعدها إلى اثنين وثلاثين، ثم إلى أربعة وستين. مع كل صوت عال يدخل المزيد من الرجال، ثم انتشروا في أرجاء المنزل، وقفزوا من النوافذ، وتوجهوا عبر الأبواب إلى الحديقة. لم يقو أحد على معرفة المكان الذي أتوا منه. سرعان ما باتوا في كل مكان. بدت أحذيتهم العالية الساق كأنها تحدث شروخاً في المنزل، وتفتح كل مدخل. غطوا أرض الملعب في الوقت الذي كانت فيه الطابة تتدحرج بعيداً عن اللاعبين. كانت الرصاصات تتطاير في كل مكان من فوهات البنادق، إلى درجة أنه استحالت معرفة إن كان الأشخاص الذين

يخرّون على الأرض، يحاولون حماية أنفسهم، أم يتعرضون للإصابة. كانت مجرد وهلة. وفي هذه الوهلة كل ما كان يُعرف حول العالم نُسي وأُعيد تعلّمه. كان الرجال يصرخون منادين بشيء ما، لكن مع تدفق الدم في أذني جين. والدوار الشديد الذي سببه دفق الأدرينالين في جسمه، والصمم الذي أحدثته الطلقات النارية، لم يقو على فهم ما كانوا يقولونه. رأى الجنرال بنجامين ينظر إلى الوراء ناحية الجدار الجصي، لعله يقدّر ارتفاعه، ثم تعرض لطلق ناري وخرّ على الأرض، بعد أن أصابته رصاصة في جانب رأسه. بطلقة واحدة خسر حياته، وحياة أخيه لويس أيضاً الذي سيُساق قريباً من السجن، ويتم إعدامه بتهمة التآمر. كان الجنرال ألفريدو قد وقع أرضاً. وأمبرتو وإيغناسيو وغوادالوبي قُتلوا. ثم رفع لوثار فالكين يديه عالياً، إضافة إلى الأب أرغيداس، وبرناردو وسيرجيو وبياتريس. قال لوثار بالألمانية: «اجمدوا في أماكنكم؟». لكن أين المترجم؟ باتت الألمانية عديمة الجدوى الآن. بدأ الجنرال هكتور برفع يديه عالياً، لكنه تعرض لإطلاق النار قبل أن تعبر يداه صدره.

كان الغرباء يميزون بين أفراد المجموعة كأنهم يعرفون كل فرد منها جيداً جداً. لم يترددوا قيد أنملة بخصوص من يجدر سوقه وتسليمه إلى الرجال الموجودين خلف المنزل، حيث تصلهم أصوات الرصاص من دون أي انقطاع. لم يكن عدد الأشخاص الموجودين في المنزل كبيراً جداً. حتى لو أرادوا إطلاق النار على كل واحد منهم مئة مرة، ما كانوا ليطلقوا الكثير من الرصاص. كان راناتو قد نهض على رجليه يتلوى

ويصرخ كحيوان مفترس في الوقت الذي يجره فيه رجلان، يحمل كل منهم إحدى ذراعيه. هرع الأب أرغيداس لمساعدة الفتى، وسرعان ما تم ضربه. حسب أنه تعرض لإطلاق نار، رصاصة اخترقت مؤخر عنقه. وفي تلك اللحظة تذكر ربه. لكن عندما بات على العشب أدرك أنه كان مخطئاً. كان لا يزال حياً يُرزَق. ففتح عينيه ووجد نفسه ينظر إلى إسماعيل، صديقه، الذي مات قبل أقل من دقيقتين. كان نائب الرئيس يبكي فوق عنق الفتى، وعيناه مغمضتان، وفمه مفتوح على مداه. كان يحمل بين يديه رأس الفتى الجميل، وبيد إسماعيل الملعقة التي كان يحفر فيها.

كانت بياتريس ترفع يديها فوق رأسها، وضربت أشعة الشمس زجاج ساعة جين فعكست دائرة من الضوء على الجدار. يوجد من حولها الناس الذين تعرفهم. ها هو ذا الجنرال هكتور ملقى على جنبه بعد أن وقعت نظارته وقميصه تعصر دماً. وها هو ذا جيلبير، الذي قامت في إحدى المرات بتقبيله نتيجة للملل. كان ملقى على ظهره ويداه ممدودتان على جنبيه كأنه يود الطيران. ثم كان ثمة شيء آخر، لكنه كان شيئاً مريعاً. لم تستطع أن تميز هويته. باتت تشعر بالخوف منهم، هؤلاء الأشخاص الذين كانت تعرفهم. باتت أكثر ارتباطاً بالغرباء الذين كانوا يطلقون النار، لأنها هي وإياهم على قيد الحياة. وذلك لأن يديها كانتا الأكثر ارتفاعاً في الهواء. هذا كان الفارق. فعلت ما طُلب منها بالضبط، وبالتالي أُعفي عنها. أغمضت عينيها وبحثت عن كومة الخطايا الداكنة، آملة أن تتمكن من التخلص من

بعضها بنفسها من دون مساعدة الكاهن، وهي تظن أن عدداً أقل من الخطايا سيمنحها براءة سيتعرف إليها هؤلاء الرجال الجدد. لكن الخطايا قد اختفت. أمعنت النظر أكثر فأكثر وراء عتمة جفنيها، لكنها لم تثقف أي وجود لأي خطيئة، فاندهشت لهذا الأمر. سمعت أوسكار مندوزا ينادي باسمها: «بياتريس! بياتريس!»، ففتحت عينيها. كان يتوجه ناحيتها، ويداه ممدودتان في الهواء. كان يركض في اتجاهها كعاشق، فابتسمت في وجهه، ثم سمعت صوت إطلاق نار، لكن هذه المرة أوقعها أرضاً. شعرت بألم في أعلى صدرها، ثم أخرجها هذا الألم من هذا العالم الفظيع.

رأى جين بياتريس لدى وقوعها، فنادى كارمن. أين كارمن؟ لم يعرف إن كانت في الخارج. لم تسعه رؤيتها في أي مكان. ليس هناك أذكى من كارمن. من أكثر منها قدرة على الهرب إلا في حال أقدمت على حماقة ما. ماذا لو خطرت في بالها فكرة القيام بإنقاذه؟ نادى وسط الحشود «إنها زوجتي! إنها زوجتي!»، لأنها كانت الخطة الوحيدة التي خطرت في باله برغم أنه لم يطلب منها أبداً الزواج، ولا طلب من الكاهن مباركتهما. كانت زوجته في شتى الطرائق المهمة، ومن شأن هذا إنقاذ حياتها.

لكن، لم يكن هناك ما ينقذ حياتها لأنها كانت قد ماتت. لقد قُتلت على الفور في البداية. كانت موجودة في المطبخ تعيد وضع الصحون في مخزن الخزف عندما دخل السيد هوسوكاوا المطبخ لتحضير الشاي. انحنى لها، الأمر الذي لطالما دفعها

إلى الابتسام خجلاً. لم يكن قد وصل إلى سخّان الشاي عندما سمعا صوت روكسان كوس. لم تكن بأغنية، بل صرخة، ثم تلاها عويل طويل أشبه بعواء الذئاب. توجها معاً، كارمن والسيد هوسوكاوا، ناحية الباب، وركضا في الرواق معاً، فسبقته كارمن كونها أصغر سناً وأسرع منه. كانا قد وصلا إلى غرفة الطعام عندما سمعا صوت الرصاصة التي قتلت سيزار، دخلا غرفة الجلوس، فالتفت إليهما رجل، في الوقت الذي كانت فيه روكسان تضم تلميذها بين يديها. إن الوقت الذي بدا بطيئاً جداً في ما مضى، أخذ يتسارع الآن بشكل مخيف، بحيث حدث كل شيء دفعة واحدة. رأتهما روكسان في الوقت الذي رآهما فيه الرجل الحامل البندقية، رأت كارمن سيزار. ورأى السيد هوسوكاوا كارمن، فأزاحها من أمامه، مسدداً لها ما يشبه الضربة على خصرها بقوة ذراعه. بات واقفاً أمامها في اللحظة التي كانت ترتمي فيها إلى خلفه، وفي اللحظة التي رآها فيها الرجل واقفة في الأمام بشكل منفصل عن السيد هوسوكاوا قام بإطلاق النار. عن بُعد ستة أقدام، ليس ثمة مجال لأن يخطئ الرجل في التصويب عليها، لكنه فعل بسبب الارتباك وطلقات الرصاص المتطايرة والأصوات المتصاعدة، وتقدّم الرجل الذي كان على رأس لائحة من يجدر إنقاذهم للوقوف أمامها. طلقة واحدة ثبتتهما معاً في ثنائي لم يفكر فيه أحد من قبل: كارمن والسيد هوسوكاوا، ورأسها إلى يسار رأسه، كأنه لا يزال يصر على أن ينظر من فوق كتفها.

الخاتمة

عندما انتهى الاحتفال، توجه المحتفلون للسير تحت أشعة شمس العصر. قبّلت إديث تيبولت العروس والعريس، ثم قبّلت زوجها زيادةً في الخير. كانت ثمة بهجة بادية على وجهها افتقر إليها الثلاثة الباقون. لا تزال تعتقد أنها كانت محظوظة. هي التي أصرت على المجيء وسيمون إلى لوكا هذا اليوم ليكونا شاهدين على زواج روكسان وجين. لم يكن في وسعهما سوى تمني الخير لهما. قالت بالفرنسية: «كان الاحتفال جميلاً». كان الأربعة يتحدثون بالفرنسية.

أمسك تيبولت بذراع زوجته كأنه يشعر بالدوار. لكان من اللطيف لو أن أحداً فكر في جلب الأب أرغيداس ليؤدي مراسم الزواج، لكن لم يخطر هذا الأمر في بال أحد، والآن انتهى الأمر. كانت الحكومة الفرنسية قد توقعت من تيبولت العودة إلى وظيفته بعد فترة معينة من الراحة. لكن، عندما غادر الزوجان تيبولت منزلهما متوجهين إلى باريس، اصطحبا معهما جميع أغراضهما الشخصية. سوف لن يطأ كل من سيمون وإديث بقدمه

أرض ذاك البلد النائي من جديد. إنهما يقولان الآن: تباً لهذا البلد.

كانوا في بداية شهر أيار/مايو، وموسم السياحة لم يكن قد بدأ في لوكا بعد. قريباً ستعج الشوارع الصخرية القديمة بطلاب الجامعات الحاملين كتبَ الإرشاد السياحي، لكن المكان الآن فارغ تماماً. بدا أشبه بمدينتهم الخاصة، وهذا بالضبط ما أرادته العروس: زفاف هادئ جداً في مسقط رأس جياكومو بوتشيني. مرت نسمة هواء في الأجواء، فقامت روكسان بتثبيت قبعتها بيدها.

قالت: «أنا سعيدة»، ثم نظرت إلى جين، وكررت كلامها من جديد، فقام بتقبيلها.

قالت إديث: «إن المطاعم لا تفتح في هذا الوقت». جالت بنظرها في المكان ويدها فوق عينها. بدت المدينة أشبه بحاضرة مهجورة عتيقة: آثار تاريخية تم التنقيب عنها وعرضها بنظافة. ليس هناك أي جزء من باريس يماثل هذا المكان. «اذهبا لتريا إن كان ثمة حانة في مكان ما. يجدر بنا احتساء النبيذ وتبادل الأنخاب. أنا وروكسان سنبقى هنا. فهذه الشوارع غير مناسبة للأكعاب».

شعر تيبولت برعشة ذعر طفيفة، لكنه سرعان ما تغلب عليها. كانت الباحة رحبة جداً وفي غاية الهدوء. يشعر بحال أفضل داخل الكنيسة. «مشروب، نعم بكل تأكيد». رسم قبلة على وجه

زوجته بالقرب من عينها، ثم قبلها ثانية على شفتيها. إنه يوم زفاف في النهاية، يوم زفاف في إيطاليا.

سأل جين روكسان: «لا تمانعين في الانتظار؟».

فابتسمت له. «النساء المتزوجات لا يمانعن ، حتى لو أمضين أعمارهن على رصيف الانتظار».

أمسكت إديث تيبولت بيدها، وأبدت إعجابها بالخاتم الجديد اللامع.

«إنهن يمانعن في ذلك كثيراً، لكنهن يرغبن في كأس نبيذ».

جلست المرأتان على حافة نافورة، وروكسان تضع باقة ورود في حجرها، وأخذتا تراقبان الرجلين وهما يسيران في إحدى الطرقات الضيقة المتشابهة. وعندما غابا عن النظر، حسبت إديث أنها ارتكبت خطأً. وجب عليها هي وروكسان خلع حذاءيهما ومرافقتهما.

كان جين وتيبولت قد قطعا شارعين عندما تلفظ أحدهما بكلمة، فجعل صمتهما صوت نقر الأكعاب يصل إلى ما فوق الجدران العالية. قال تيبولت: «إذاً، سوف تعيشان في ميلانو».

«إنها مدينة جميلة».

«ماذا عن عملك؟». فقد كان عمل جين ينحصر في السيد هوسوكاوا.

«أنا أقوم بترجمة الكتب حالياً. هذا يجعل وقتي أكثر مرونة. أحب مرافقة روكسان إلى جلسات التدريب».

قال تيبولت بشرود: «نعم، بالطبع»، ودس يديه عميقاً في جيبيه وهما يسيران. «لقد اشتقتُ إلى سماع غنائها».

«يجدر بك القيام بزيارتنا».

مرت بمحاذاتهما دراجة آلية، ثم خرج رجلان برفقة كلبين من فرن ومشيا في اتجاههما. اتضح أن المدينة ليست مهجورة في النهاية. «هل ستشتاق إلى اليابان؟.

هز جين برأسه نافياً. «إقامتنا هنا أفضل لها ولي أنا أيضاً. أنا واثق من ذلك. يجدر بجميع مغني الأوبرا العيش في إيطاليا». أشار إلى مبنى على الناصية. «توجد حانة مفتوحة».

توقف تيبولت. ما كان لينتبه إليها إذ كان شارداً. «جيد. إذاً، قمنا بعملنا. فلنعد إلى زوجتينا».

لكن لم يستدر جين. وظل يحدق في الحانة لوقت طويل كأنه مكان عاش فيه لأعوام طويلة.

سأله تيبولت إن كان ثمة خطب ما. كان هو نفسه يجمد في مكانه هكذا من وقت إلى آخر.

قال جين: «أود أن أسألك»، لكن الأمر أخذه دقيقة أخرى ليجد الكلمات المناسبة. «لم يؤتَ أبداً على ذكر كارمن وبياتريس في الصحف. إن كل ما قرأته يشير إلى أنه كان هناك ٥٩ رجلاً وامرأة واحدة. هل هكذا نشروا الخبر في فرنسا؟».

فقال تيبولت إنه لم يؤتَ أبداً على ذكر الفتاتين.

فهز جين برأسه. «أعتقد أنه بهذه الطريقة تصبح القصة أفضل، ٥٩ وواحدة». كان يضع وردة بيضاء في جيب بزة الزواج التي يرتديها. كانت إديث قد جلبتها له في صندوق ورقي إلى جانب باقة من الورود البيضاء لتحملها روكسان. كانت قد ثبّتَتْ له الوردة على عروة الزر بنفسها. «لقد اتصلتُ بالصحف، وطلبت من الصحافيين القيام بالتصحيح، لكن لم تُبدِ أي صحيفة اهتماماً. كأنه ما كان لهما أي وجود تقريباً».

قال تيبولت: «إن كل ما تقرأه في الصحف غير صحيح». كان يفكر في المرة الأولى التي اضطروا فيها إلى طهو طعام العشاء. كل تلك الدجاجات، والفتاتان وإسماعيل آتون مع السكاكين.

ظل جين يمتنع عن النظر إليه. كان يتكلم كأنه يخبر القصة للحانة. «لقد اتصلت بروبن، هل أخبرتُك بذلك؟ اتصلتُ لأخبره عن الزفاف. قال إنه يظن أن علينا الانتظار، وأننا سنكون مخطئين إن استعجلنا القيام بأي خطوة. لقد أبدى لطفاً شديداً. أنت تعرف روبن. لكننا لم نُرد الانتظار. أنا أحب روكسان».

قال تيبولت: «لا، لقد فعلتَ الصواب. إن الزواج هو أفضل ما حدث لي على الإطلاق». على الرغم من أنه يتساءل الآن حول كارمن، لمَ لمْ يسبق له أبداً أن فكر في الأمر؟ في وسعه تذكرهما معاً بشكل جلي، مرة تلو الأخرى يقفان في آخر الغرفة ويتهامسان، وكيف يشع النور من وجهها عندما تلتفت إلى جين. لم يشأ تيبولت رؤية وجهها من جديد.

قال جين: «حينما أسمع روكسان تغني أظل قادراً على التفكير في أن العالم بخير. هذا عالم يستطيع المرء فيه تأليف الموسيقى، عالم لا نزال نقوى فيه على الغناء بقدر كبير من التعاطف. هذا دليل على شيء ما، أليس كذلك؟ لا أحسبني أستطيع أن أحيا يوماً واحداً من دون الموسيقى».

حتى عندما أغمض تيبولت عينيه وفركهما بإبهامه وسبابته، ظل يرى كارمن. ضفيرة شعرها منسدلة على مؤخر عنقها النحيفة. وهي تضحك. فقال: «إنها فتاة جميلة». لقد وجدا الحانة، وعليه العودة إلى إديث الآن. ألقى بذراعه على كتف صديقه وقاده ليعودا في اتجاه مستديرة سان مارينو. شعر كأن نفَسَه ينقطع، واضطر إلى التركيز على عضِلات رجليه كي لا يركض. كان واثقاً من أن جين وروكسان تزوجا بدافع الحب، حبهما لبعضهما البعض، وحب جميع الأشخاص الذين يتذكرونهما.

عندما استدارا عند الناصية انفتح الشارع أمامهما ناحية المستديرة الكبيرة، وهناك كانت الزوجتان في الانتظار، لا تزالان تجلسان على حافة النافورة. كانتا تنظران في اتجاه الكاتدرائية، ثم التفتت إديث، وعندما رأته علت الفرحة وجهها. وقفتا ومشتا نحو الرجلين: إديث بشعرها الأسود اللامع، وروكسان لا تزال تعتمر قبعتها. يمكن أياً منهما أن تكون العروس. كان تيبولت واثقاً من أنه ليس ثمة امرأتان تفوقهما جمالاً، ثم دنتْ منهما المرأتان الجميلتان ومدتا إليهما ذراعيهما.

سلسلة الأدب واللغة

صدر منها:

- □ **الاستراحة** - ليلى عسيران
- □ **الحوار الأخرس** - ليلى عسيران
- □ **المدينة الفارغة - ليلى عسيران**
- □ **جسر الحجر** - ليلى عسيران
- □ **خط الأفعى** - ليلى عسيران
- □ **عصافير الفجر** - ليلى عسيران
- □ **قلعة الأسطة** - ليلى عسيران
- □ **لن نموت غداً** - ليلى عسيران
- □ **فروخ ناز (ألف يوم ويوم)** - نعمة الله ابراهيم
- □ **السير الشعبية العربية** - نعمة الله ابراهيم
- □ **الأيام والناس** - برهان الدجاني
- □ **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- □ **آن الأوان** - طلال حيدر
- □ **انظر إليك** - مرام المصري
- □ **بائع الفستق/رواية** - سمير عطا الله
- □ **اللباس والزينة** - أ . بينول
- □ **أُخذَةُ كِشْ** - ألبير نقاش
- □ **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** - د. محمد أبو علي
- □ **المساجلات** - أحمد حاطوم
- □ **في مدار اللغة واللسان** - أحمد حاطوم
- □ **كتاب الإعراب** - أحمد حاطوم
- □ **إميل بجاني، كاتب في الغربال** - بقلم شخصيات عدة
- □ **طه حسين، من الشاطئ الآخر** - عبد الرشيد محمودي
- □ **الله بالخير** - ابراهيم سلامة
- □ **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - منير عبود
- □ **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون** - عصام محفوظ
- □ **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان** - عصام محفوظ
- □ **قصة يوطوبيا . قصة مشربية** - حسن فتحي
- □ **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** - د. بطرس حبيب
- □ **ألف ليلة وليلة . الجزء الأول** - قدري قلعجي
- □ **ألف ليلة وليلة . الجزء الثاني** - قدري قلعجي
- □ **ألف ليلة وليلة . الجزء الثالث** - قدري قلعجي
- □ **ألف ليلة وليلة . الجزء الرابع** - قدري قلعجي
- □ **ألف ليلة وليلة . الجزء الخامس** - قدري قلعجي
- □ **الناس والآخرون** - قدري قلعجي

- **سلسلة «شهرزاد تروي»** ٣٠ جزءاً
- **سلسلة «شهرزاد تقدم»** ٣٠ جزءاً
- **الحب والتصوف عند العرب** ـ د. عادل كامل الآلوسي
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** ـ هادي محيي الخفاجي
- **الطربوش** ـ روبير سوليه
- **مهما قلت لا تقل** ـ د. نبيل سليمان
- **امرأة تبحث عن وطن** ـ ماريا المعلوف
- **لا أحد يفهم ما يدور الآن** ـ روحي طعمة
- **خطوات أنثى** ـ رُدينة الفيلالي
- **أثواب الحزن** ـ هدى السراري
- **كنوز العرب** ـ شكري نصرالله
- **قالوا وفعلوا : وقائع من تاريخ العرب وتراثهم** ـ شكري نصرالله
- **الثالث** ـ شكري نصرالله
- **دريد لحام/مشوار العمر** ـ د. فاروق الجمال
- **بساطٌ من الزهر الأحمر** ـ نيلوفر بازيرا
- **إمرأة... وظلّان** ـ خلود عبد الله الخميس
- **تاريخ اللغات ومستقبلها** ـ هارولد هارمن
- **فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر** ـ د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقين؟** ـ نافتج سارنا
- **اعترافات غايشا** ـ آرثر غولدن
- **خريف من ذهب** ـ جوزيف طوبيّا
- **عودة النبض** ـ نوال نجم
- **مغامرة حب في بلاد ممزقة** ـ جاين ساسون
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** ـ غسّان علم الدين
- **طلاق الحاكم** ـ منى دايخ
- **مصائر الغبار** ـ راوي حاج
- **نقوش** ـ أحمد حاطوم
- **حقيبة حذر** ـ عاطف البلوي
- **ألف عام من الصلاة** ـ يبون لي
- **حبٌّ محرَّم** ـ يوكيو ميشيما
- **بيل كانتو** ـ آن باتشيت

مؤلفات پاولو كويلو

- **إحدى عشرة دقيقة**
- **الشيطان والآنسة بريم**
- **الخيميائي**
- **على نهر پيدرا هُناك جلست فبكيت**
- **حاجّ كومبوستيلا**
- **الجبل الخامس**
- **ڤيرونيكا تقرر أن تموت**
- **الزَّهير**
- **ساحرة پورتوپيللو**

احتلت صدارة لوائح الكتب الأكثر مبيعاً

حازت
Orange Prize for Fiction
PEN/Faulkner Award

ترجمت الى 36 لغة

هذا الكتاب

صاحبُ أكبر مصانع الإلكترونيات في اليابان يُدعى إلى بلاط الحكم في دولة فقيرة من دول أميركا الجنوبية؛ ظاهرياً، للاحتفال بعيد ميلاده الثالث والخمسين؛ وفعلياً، لاستمالته، بهدف المجيء باستثماراته، والإفادة من إمكانياته الهائلة..

يغويه لقبول الدعوة حضور مغنية الأوبرا روكسان كوكس التي يتمنّى نصف سكّان الأرض على الأقل مخاصرتها في رقصة صاخبة، أو رؤيتها من بعيد في أسوأ الأحوال..

يحضرُ اليابانيّ المحتفى به. وفي الحفل تجري مداهمة لاختطاف شخصية بارزة لم تكن حاضرة؛ فيتحوّل الخاطفون إلى صيد أثمن كثيراً وأدسم ممّا كانوا ينتظرون..

تتلاحق الأحداث، وعينُ الكاميرا ترصدُ مشاهد واقع استثنائي تدورُ فيه أمورٌ متوقّعة، وأمورٌ يعجزُ عن توقّعها خيالٌ صحيح أو مَرضيّ!

رواية تحمل من التشويق والإثارة والمغامرات ما يحبس الأنفاس حتى السطر الأخير، لكن بمضمون عميق ورؤية تحليلية شاملة.

فوراء الأحداث المتلاحقة المثيرة على أكثر من صعيد، كشف لمجتمع الطبقات الحاكمة، وإزاحة للبساط من تحت أقدام أولئك المتسلّطين وعلاقاتهم المخملية المشبوهة، على حساب بؤس الشعب وشقائه..

عن الكاتبة

آن باتشيت كاتبة أميركية لامعة. ولدت في لوس انجليس عام ١٩٦٣. قبل تخرجها من الجامعة استطاعت باتشيت نشر روايتها الاولى عن دار نشر باريسية. نالت باتشيت جائزة كوبرنيكس عن روايتها «القديس الشفيع للكاذبين» التي أنتجتها شبكة C.B.S التلفازية عام ١٩٩٧. كما حصدت عن روايتها الثانية «تافت» جائزة كافكا عام ١٩٩٤ التي تمنح لأفضل رواية خيالية. بعد ذلك بعام واحد رشحت روايتها الثالثة «مساعد الساحر» لجائزة أورانج من دون أن تنالها ثم عوّضتها عام ٢٠٠٢ عن روايتها بيل كانتو.

عن

ISBN 978-9953-88-083-9
9 789953 880839

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ـ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+
tradebooks@all- prints.com
www.all-prints.com

photo&Design by Richie Nazzal

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر